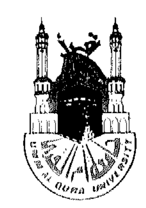
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي
مكة المكرمة



سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطبعها
" ٧ "

الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس

(٣١٦ هـ - ٤٢٢ هـ / ٩٢٨ م - ١٠٣٠ م)

تأليف

د . سعد عبد الله صالح البشري

١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م



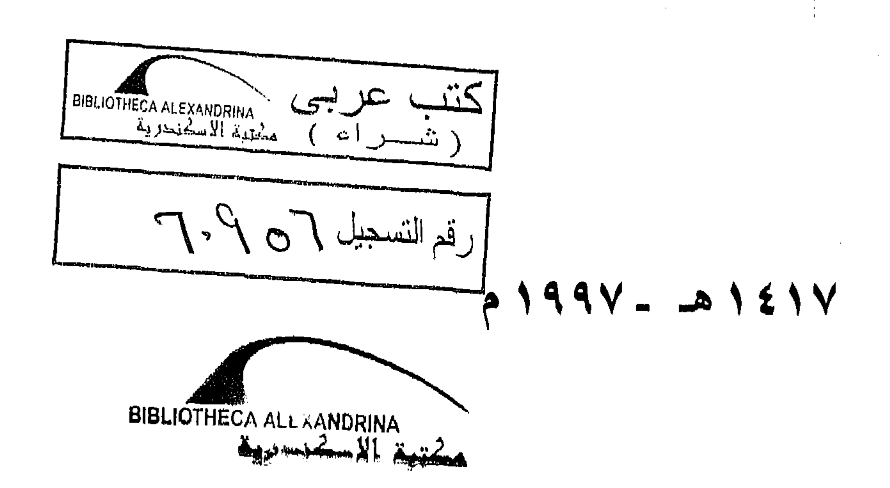
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي
مكة المكرمة

سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطبعها
" ٧ "

الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس

(٣١٦ هـ - ٤٢٢ هـ / ٩٢٨ م - ١٠٣٠ م)

تأليف
د . سعد عبد الله صالح البشري



١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

ح معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ١٤١٥ هـ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

البشري ، سعد عبد الله

الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس .

٤٦٤ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم (أبحاث ودراسات إسلامية)

ردمك ٨ ـ ٠١٤ ـ ٣ ـ ٠ ـ ٩٩٦٠

ردمد ٣٧١٦ ـ ١٣١٩

١ ـ االحضارة الإسلامية ـ الأندلس ٢ ـ الأندلس ـ تاريخ ـ عصر الموحدين

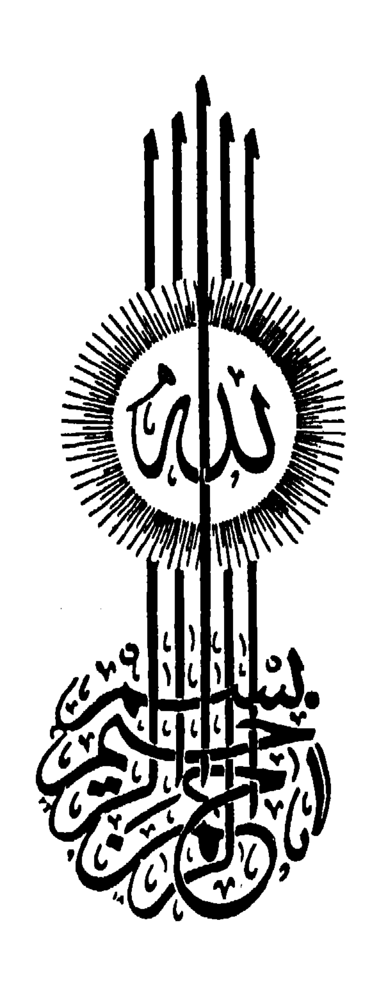
أ ـ العنوان ب ـ السلسلة

ديوي ٩٥٣,٧١٤ ١٧٣٠ / ١٥

رقم الإيداع : ١٧٣٠ / ١٥

ردمك ٨ ـ ٠١٤ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

ردمد : ٣٧١٦ ـ ١٣١٩


بسم الله الرحمن الرحيم

هذا العمل هو رسالة ماجستير في « الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس » من جامعة أم القرى بمكة المكرمة

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية . قسم : التاريخ الإسلامي .

أوصت لجنة المناقشة بطبعها ..

وبالله التوفيق

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، ثم لأستاذي الفاضل سعادة الدكتور أحمد السيد درّاج الذي تفضّل بالإشراف على إعداد هذه الرسالة وبذل الكثير من الجهد في سبيل إخراج هذا العمل العلمي المتواضع ، فكان أمدّ اللهُ في عمره في اشرافه أباً مشفقاً واستاذاً موجهاً فله مني عظيم الشكر وجميل العرفان .

كما وأتقدم بالشكر الجزيل إلى سعادة الدكتور محمد سعد الرشيد الذي كان له أطيبُ الأثر في ترسيخ العزم نحو استكمال دراستي العليا ، ولا يفوتني أنْ أشيدَ بجهود كلٌّ مِنْ : سعادة الدكتور عليان الحازمي وسعادة الدكتور علي الحكمي ، والقائمين على مركز البحث العلمي وفي مقدمتهم سعادة الدكتور ناصر سعد الرشيد ، لمابذلوه ويبذلونه من جهودٍ موفقةٍ للرقي بالدراسات الإسلامية والبحث العلمي .

وأخيراً أشكر كلَّ مَنْ مَدّ لي يَد العون والمساعدة لإنجاز هذا العمل .. فللجميع من الله الثواب العظيم والأجر الجزيل ، والله ولي التوفيق ،،،



المقدمـــة :

« نطاق البحث وتحليل المصادر »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أمـابعــد .

فإنَّ تاريخنا الإسلامي المجيد حافلٌ بالكثير من وجوه الإبداع الحضارى والتي هي أحق مايكون بالدراسة والبحث والتي من شانها أنْ تضيء الكثير من الزوايا المظلمة في تاريخ الحضارة الإسلامية ، فقد كان للمسلمين عبر تاريخهم نشاط مشرف في ميادين الحضارة المختلفة وانبثق عن ذلك النشاط الكبير كيان حضارى عظيم أسهم في تقدم البشرية نحو الأفضل .

وكان للأندلسيين في هذا النشاط سهمٌ وافرٌ وجهدٌ واضحٌ لاينكر ، حيث شهد القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى في الأندلس ازدهارا حضاريا شاملا في كافة وجوه النشاط الإنساني ومنها بطبيعة الحال الميدان العلمي .

والحق أن ميدان الحياة العلمية في الأندلس لم يحظ بالدراسة والبحث الكافيين إذ انصرف الكثير من الباحثين إلى دراسة الأحوال السياسية في فترة ما ، أو البحث في حقبة من تاريخ جهاد المسلمين مع النصارى ، أو الكتابة عن عصر أمير أو خليفة ، وأكثر ماكُتِبَ عن الحياة العلمية والأدبية يتمثل فيما أخرجه الباحثون من دراسات أدبية ، كالأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة لأحمد هيكل ، وتاريخ الأدب الأندلسي لإحسان عبّاس ، ودراسات في الأدب الأندلسي لسامي العاني ، والأدب الاندلسي وموضوعاته وفنونه لمصطفى

الشكعة وفي الأدب الأندلسي لجودت الركابي ، وأدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستاني إلى غير ذلك من الكتب المؤلفة في هذا الحقل .

ورغم هذا فقد قامت هناك بعض الدراسات حول الحضارة الأندلسية والبحث في وجوهها المختلفة بوجه عام ، ككتاب حضارة العرب في الأندلس ليفي بروفنسال وكتاب الحضارة الإسلامية في الأندلس لعبد الرحمن الحجي ، وكتاب الإسلام في اسبانيا للطفي عبد البديع ، وكتاب تاريخ الفكر الأندلسي لآنخل جونثالث بالنثيا ، وهو جهدٌ مشكورٌ للمؤلف حيث أنَّ كتابه المذكور يأتي في طليعة ماصُنِّفَ عن الحركة الفكرية في الأندلس ، وذلك رغم أنَّ المؤلفَ قد أغفل الكثير من جوانبِ النشاطِ العلميِ في الاندلس بالإضافة إلى أنَّ محاولتَهُ مِنْ جعل الكتابِ شاملا لجوانب الحركة الفكرية من أول تاريخ المسلمين في الأندلس إلى زوال سلطانهم هناك أدّتْ إلى عدم استيفاء الموضوع وإعطائه حقه من الدراسة .

كما خصص أحمد أمين الجزءَ الثالثَ من موسوعته : ظهر الإسلام عن الحياة العقلية في الأندلس بصورة عامة .

وبالإضافة إلى ماتقدم فقد قُدِّمتْ رسائل علمية تبحث في تاريخ الأندلس وحضارتها وما يهمنا هنا مايتقدم بالحياة العلمية ، فكان من بينها رسالةٌ لنيلِ درجةِ الماجستير حول الحياة العلمية في بلنسبة منذ الفتح سنة ٩٢هـ إلى سنة ٤٩٠هـ إعداد : كريم عجيل حسين .

ويتضح من عنوانها أنَّ الدراسة منصبة على مدينة بلنسية فقط وما قدمه علماؤها من جهود علمية ، وهذا بلا شك خطوة جيدة ولكنها مقصورة على منطقة محدودة من الأندلس .

كما أعدَّ محمود علي مكي رسالةً علميةً للحصول على درجة الدكتوراه حول التيارات الثقافية بين الأندلس والمشرق وأثرها في الحركة العلمية في الأندلس .

وقدّم الزميل يوسف حواله للحصول على الماجستير في التاريخ الإسلامي رسالة عن بني عباد في أشبيلية ، وقد خصصّ الباب الأخير من أبوابها عن التطور الحضارى في أشبيلية في القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادي وقد تناول فيه الحركة العلمية النشطة آنذاك .

ويبدو مما تقدم أنّ ميدان الحياة العلمية في الأندلس لم يستوفِ حقَّه من البحث والدراسة ، ولذلك اتجه اهتمام الباحثين إلي دراسته على النحو الذى أوضحته .

ولما كان لميول الباحث أثر في تقرير ما سوف يقوم به من دراسات علمية ، فقد كنت في دراستي للتاريخ الإسلامي أميل إلى مايختص منه بالأندلس ذلك القطر العزيز على نفس كل مسلمٌ يكنُّ لتاريخ أُمته كل ولاء وتقدير .

وقد انصبت اهتماماتي على مايختص بالحياة العلمية والنشاط العلمي الذى برع فيه الأندلسيون وأبدعوا في مجالاته المختلفة ، وكثيرا مالفتت نظرى الأعداد الهائلة من علماء الأندلس الذين تضمهم كتب التراجم فحَفِظَتْ سيرَهم وجهودَهم العلمية ، ولو كان ذلك على وجه الاقتضاب والإيجاز .

ونظراً لأنّ ميدان العلم هو الوجه المشرق للحضارة الإسلامية في الأندلس ، وبه تجلّى فضلهم وإبداعهم ، وكانوا به في موقف العطاء والبذل والمشاركة في بناء الحضارة الإنسانية ، لهذا كله فقد تعمقت الرغبةُ ورسخ الميلُ في النفس نحو البحث والدراسة في هذا الحقل الحضارى المهم والذى لم يلقَ من العناية والإهتمام حتى الآن مايساوى أهميتهَ وَعِظَمَ شأنه في النشاط الحضارى للأندلس .

وبعد الاطلاع على سيَر الحركة العلمية في الأندلس منذ دخول المسلمين إليها وحتى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، لوحظ أنْ الازدهار الحقيقي للعلوم والأداب كان في عصر الخلافة يستغرق القرنَ الرابع الهجرى تقريباً ، ففيه بلغ الأندلسيون درجةً رفيعةً من التطور الحضارى والازدهار العلمي ، وأثبتوا فيه قدراتهم العلمية المتفوقة .

وبناء على ما تقدم فقد كان عصر الخلافة هو محور الدراسة في هذا البحث والذى امتد منذ إعلان عبد الرحمن الناصر الخلافة سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م ـ وحتى سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م .

والحق أنَّ مثل هذه الدراسات المتعلقة بالحضارة هي من أشقّ مايتعرض له الباحث ، وذلك عائدٌ إلى ندرة المادة العلمية المتصلة بموضوعه ، فإنَّ موضوعاً كموضوع الحياة العلمية في عصر الخلافة يكاد يستند في معلوماته إلى كتب التراجم والطبقات ، وكما هو معلوم فإنَّ هذه الكتب تضم المئات بل الالاف من التراجم لعلماء الأندلس في مختلف العصور ، وهذا بلا شك يجعل الباحثَ أكثر دقة في تتبع سير العلماء الذين عاصروا الفترة التي ينوى دراستها ، وذلك لايتم إلاَّ بمعرفة تاريخ ميلاد ووفاة كلٌّ منهم وارتباطهما بذلك العصر ، كما أنَّ كتب التراجم الاندلسية إلى جانب ما تتصف به من إيجاز في الكثير من التراجم تكاد تكون مادتها العلمية منصبة على علماء الدين وعدد من علماء اللغة وأهل الأدب مما دعى الباحث إلى التنقيب عن جهود العلماء الآخرين في فروع العلم الأخرى من رياضيات وفلك وطب وكيمياء وتاريخ وجغرافيا في كتب الطبقات المختصة بكل منهم .

وكان للمنهج الذى سار عليه أغلبُ المؤرخين المسلمين ــ من التركيز في كتاباتهم على الجانب السياسي والعسكري ــ أثر في ندوة الكتابة عن وجوه النشاط الحضاري ومن بينها النشاط العلمي الذي لا نكاد نجد من بين مصادر التاريخ الأندلسي مصدرا سخيا في هذا الميدان اللهم إلا مانجده في كتب الطبقات التى ترجمت لأهل العلم في عصور معينة وليست شاملة للتاريخ الأندلسي جميعه .

ونظراً للأعداد الهائلة من العلماء الذين عاشوا في عصر الخلافة ، وكان لهم شأن في حقول المعرفة المختلفة فقد حاولت أن اختار أبرزهم وأكثرهم تأثيراً في الحركة العلمية بما قدموه من جهود موفقة في مختلف أبواب المعرفة .

وكان للإعتماد الأكبر على كتب التراجم أثر في محاولة الخروج على ظاهرة الترجمة المحدودة للعالِم إلى رسم الصورة العامة للحياة العلمية بجوانبها المختلفة وهي بلا شك محاولة تحتاج إلى دراسة عميقة لنصوص التراجم وتستند في تحقيق نتائجها إلى عناصر التحليل والاستنتاج والاستنباط ، وقد حاولت ذلك قدر الاستطاعة .

وفيما يتعلق بالبحث فقد كان لطبيعة المادة العلمية وتوفرها أثر في تشكيل خطة البحث . وقد رأيت أنْ يُصدَّرَ البحث بتمهيد عن الحياة العلمية في عصر الإمارة وذلك لتتضح الرؤية عن حقيقة ماسبق عصرَ الخلافة من نشاط علمي ومدى قيمته كنواة طيبة لما تمَّ بعد . وكان الحديث عن الحياة العلمية واللغة . والتاريخ والجغرافيا ، والعلوم التجريبية .

وبعد هذا التمهيد نأتي إلى موضوع الحياة العلمية في عصر الخلافة وينقسم إلى قسمين :

القسـم الأول : دراسة لأهم مظاهر النشاط العلمي في عصر الخلافة .

القسم الثاني : نشاط العلوم والآداب في عصر الخلافة .

فالقسم الأول يتفرع إلى أربعة فصول وهي مايلي :

الفصل الأول : ويتعلق باهتمام الخلفاء بالحركة العلمية ، ومدى ما أسهموا به في دفع عجلة العلم ، والعمل على ازدهار الحركة العلمية ، وهذا الفصل يتفرع - إلى أربع نقاط . الأولى تتصل بالخليفة عبد الرحمن الناصر وكيف أنَّ عهده يمثل الخطوة الأولى نحو قيام النهضة العلمية بما كان يتسم به من رخاء واستقرار انصرف فيه الناس نحو تحصيل العلوم والآداب .

والنقطة الثانية : تتصل بالخليفة العالم (الحكم المستنصر) والذى . يعدُّ عهده بحق العمود الفقري للازدهار العلمي في عصر الخلافة لما اتصف به الحكم المستنصر - من حب للعلم واكرام للعلماء وما سعى إليه من وسائل مهمة للنهوض العلمي في بلده . أمّا النقطة الثالثة : فتتعلق بعصر (هشام المؤيد) ويكون الحديث فيها عن شخصية المنصور بن أبي عامر باعتباره صاحب الأمر حقيقة ومدى ما أسهم به في نشاط الحركة العلمية ، ثم عن ابنه المظفر عبدالملك وحفاظه على جهود أبيه في رفع شأن العلم والعلماء .

وأما النقطة الرابعة : فعن قيام الفتنة وسقوط الخلافة وأثر ذلك على الحركة العلمية .

أمّا الفصل الثاني : فعن الرحلات العلمية وأثرها في النهضة العلمية في الأندلس ويتشعب هذا الفصل إلى نقاط ثلاث ، أولها ارتحال علماء الأندلس إلى المشرق في طلب العلم ، وكيف أنّ الأندلسيين كانوا يحملون في أذهانهم أجلّ صورة عن المشرق ، وحرصهم التام على الرحيل إلى هنالك للقاء العلماء والشيوخ ، وثاني النقاط عن نتائج الرحلات العلمية للأندلسيين إلي المشرق ـ وماذا جناه الاندلسيون من ذلك ، وثالث النقاط : عن بروز الشخصية العلمية الأندلسية في عصر الخلافة وكيف أنّ الاندلسيين قبل ذلك كانوا يدورون في دائرة التقليد لإخوانهم من المشارقة ثم مالبثوا بعد فترة من الزمن وكان ذلك في عصر الخلافة أن انطلقوا يبنون لهم كياناً علمياً عن شخصيتهم العلمية المستقلة وابداعهم الحضاري .

أما الفصل الثالث : فعن الكتب والمكتبات في الأندلس ، ويتفرع إلى ثلاث نقاط :

الأولى : عناية الأندلسيين بالكتب ، وكيف أنهم تميزوا بحبهم الشديد للكتب وتصانيف العلم حتى أنّ الأميين منهم كانوا يجارون العلماء في اتخاذهم المكتبات داخل دورهم .

الثانية : اهتمام الأندلسيين بجمع الكتب وإنشاء المكتبات ، وفيه يتعرض البحث إلى أبرز من عُرِفَ عنه جمع الكتب وإنشاء المكتبات ، وقد بدأت ـ بالخليفة الحكم المستنصر باعتباره أشهر من عرف عنه ذلك .

الثالثة : حرفة الوراقة في الأندلس وأثرها في النشاط العلمي . وقد صدرت الحديث عن ذلك بظهور صناعة الورق في الأندلس وبراعة الاندلسيين من أهل شاطبه في ذلك ، ثم تحدثت ، عن دور الوراقين في ازدهار الحركة

العلمية ، وكيف أن هذه الفئة من المسلمين قد اسهمت في نشاط العلوم والأداب ونهضة العلم بشكل كبير وملموس .

وأما الفصل الرابع : فعن ازدهار التعليم في الأندلس ، ويتفرع إلى نقاط ثلاث :

الأولى : مراكز التعليم في الأندلس ، وكيف أن الاندلسيين كانوا يتلقون علومهم في المساجد والجوامع ، وعلى وجه التخصيص جامع قرطبة وجامع الزهراء .

الثانية : طريقة التعليم عند الأندلسيين ، ومنها يتضح ما أولاه الأندلسيون لهذه الناحية من الإهتمام .

الثالثة : عناية الخلفاء بالتعليم ، وفيها يبرز دور الحكم المستنصر في تشجيع الناس على طلب العلم وتوفير وسائله بالمجان لمن لا يستطيع تحمل نفقات الدراسة ومدى تأثير ذلك على الرعية التي سارعت إلى العلم والمعرفة .

أما القسم الثاني من الرسالة فينقسم إلى أربعة فصول :

الفصل الأول ، وكان الحديث فيه عن العلوم الدينية والذى يتشعب بحسب ما تضمه إلى أربع نقاط ، الأولى : [الفقه] ومدى اسهام الأندلسيين في ازدهار الدراسات الفقهية ، ونبوغ الكثير منهم في ذلك وما قدموه من انتاج علمي نفيس .

الثانية : [الحديث] ونشاط الكثير من الأندلسيين في ذلك وبروز ـ أعداد كبيرة منهم في دراسة الحديث وما صنفوه في ذلك .

الثالثة : [علوم القرآن] : وازدهارها فيما يتعلق بالقراءآت ـ والتفسير .

وقد حقق الأندلسيون في القراءات نتائج علمية كبيرة حتى عرف عن الأندلسيين

أنهم أصحاب القدح المعلى في القراءات فخرج من بينهم علماء لايزال يحتل بعضهم منزلة رفيعة بين المسلمين .

وكذلك في التفسير أظهر الأندلسيون نبوغا كبيرا فكان لهم في ذلك العلم انتاج علمي نفيس .

الرابعة : وكان الحديث فيها عن علم الكلام وموقف الاندلسيين منه ، وقد بينت كيف أنهم بما اتصفوا به من التزام بمذهبهم المالكي كانوا أشد بغضا لأصحاب الكلام ومن يخرج على السنة المطهرة .

والفصل الثاني عن الأدب والنحو وعلوم اللغة ، ويتشعب إلى نقطتين :

الأولى : عن الأدب وهو بدوره ينقسم إلى نثر وشعر . والنثر يشمل النثر الفنى وهو أسلوب الرسائل الديوانية والاخوانيات والوصايا .

والنثر الأدبي يقصد به الأدب التأليفي أي تأليف كتب أدب بمفهوم القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادي .

وقد أشرت في ذلك إلى جهود الاندلسيين ومقدار ما اسهموا به من انتاج علمي رائع لا يزال بعضه يشهد لهم بالقدر العلمي الكبير .

وفي الشعر نبغ الكثير من الأندلسيين ، وقد أشرت إلى أبرزهم في ذلك .

الثانية : وتتعلق بالنحو وعلوم اللغه ، وكيف أن الأندلسيين حققوا في ذلك نتائج علمية كبيرة ، فكانت لهم تصانيف قيمة لايزال بعضها يحتل مكانه رفيعه بين كتب النحو واللغة .

وأما الفصل الثالث فعن العلوم الإنسانية . ويتفرع هذا الفصل إلى ثلاث نقاط :

الأولى : عن التاريخ وأهميته لدى الأندلسيين وحرصهم على تخليد مآثر بلدهم ، وأبرز من ظهر في ميدان التاريخ مع الإشارة إلى نتائجه العلمي .

الثانية : عن الجغرافيا وكيف أنها قد ارتبطت لدى مؤرخي الأندلس بالتاريخ ، وأنهم كانوا يصدّرون كتاباتهم التاريخية بمقدمة جغرافية ، وقد أشرت إلى أبرزهم مع الحديث عن تصانيفهم في ذلك ، هذا بالاضافة إلى الرحلات الجغرافية وما قام به الأندلسيون في ذلك .

الثالثة : عن الفلسفة ، وفيها تحدثت عن بداية الاشتغال بها وسبب ضعف الدراسات المتعلقة بها ، ثم ماكان للرحلات العلمية إلى المشرق من تأثير في ظهور بعض المشتغلين بها ، وكيف أنه كان للخلفاء أثر في ازدهارها ثم ما أعقب ذلك من اضعاف الاشتغال بها على يد المنصور بن ابي عامر ، ومكانه ابن حزم الاندلسي في ميدان الفلسفة ومناقشة « نظرية المعرفة » .

والفصل الرابع : يتضمن الحديث عن العلوم التجريبية ، ويتشعب هذا الفصل إلى ثلاث نقاط .

الأولى : تتصل بالرياضيات والفلك ، وفيه تطرقت إلى الحديث عن بداية اشتغال الأندلسيين بهذه العلوم وأسباب ضعف الاشتغال بها في بداية الامر . ثم ماترتب على الرحلات العلمية للأندلسيين إلى المشرق من آثار مهمة في نشاط تلك العلوم إلى جانب دور الخليفة الحكم المستنصر في ازدهارها . ثم تطرقت إلى نشاط الرياضيات والفلك في عصر الخلافة وبروز الكثير من العلماء في تلك العلوم وما قدموه من انتاج علمي نفسي . ويأتي في مقدمتهم مسلمة بن أحمد المجريطي الذي كان بنشاطه الجم مدرسة كبيرة أخرجت الكثير من

العلماء وفي مقدمتهم ابن السمح وابن الصفار وقد حفظ لنا من تصانيف الأخير مخطوط في الفلك أشار إليه الباحث وعلّق على محتوياته .

النقطة الثانية : عن الطب وبداية الدراسات الطبية ودور أهل الذمة في ذلك ، وأثر التيارات الثقافية في ازدهار العلوم الطبيعية ، وقد تحدثت عن أبرز من نبغ في الطب في عصر الخلافة ويأتي في مقدمتهم الطبيب الجراح خلف بن عباس الزهراوي الذى نال بجهوده العلمية منزلة رفيعة ليس في الأندلس فقط وإنما في اوروبا أيضا ويأتي في مقدمة جهود تلك دراساته الطبية القيمة في ميدان الجراحة كذلك الطبيب عريب بن سعد ومصنفة في الطب المسمى (خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود) ، كما يأتي في مقدمة أطباء ذلك العصر حسان بن جلجل وانتاجه العلمي في الطب والصيدلة وغير هؤلاء من الأطباء النابغين آنذاك .

النقطة الثالثة : عن الكيمياء ، وقد أشرت في البداية إلى جهود المسلمين في ازدهار هذا العلم ودور الأندلسيين في ذلك ، ثم ينتقل الحديث إلى جهود العلامة مسلمة المجريطي ودراساته المهمة في ذلك وقد ضمّن دراساته تلك كتابيه المخطوطين رتبة الحكيم وغاية الحكيم وخاصة الاول فقد حوى الكثير من المعلومات القيمة في الكيمياء . كما تحدثت عن بعض العلماء ممن نسب اليهم الاشتغال بهذا العلم كعبد الله بن محمد المعروف « بالسرى » وعبد الله ابن محمد الذهبي ، وأخيرا ذكرت أهمية العلاقة بين الكيمياء والصيدله ومدى ماكان يوليه الأطباء للكيمياء من عناية واهتمام كالزهراوي وابن جلجل .

وأمّا الخاتمة . فتتضمن نتائج البحث ومدى تأثير هذه النشاط العلمي الأندلسي في عصر الخلافة في اوربا آنذاك .

وأخيراً فإني أتقدم بوافر الشكر إلى أستاذي الكبير سعادة د.أحمد السيد دراج لما أسداه لي من إرشاد وتوجيه وإلى كل من مَدّ لي يد العون في سبيل إخراج هذه الدراسة ، والتي آمل ان تسهم في بعث الاهتمام بالدراسات التاريخية والحضارية للأندلس ، وكشف وجوه الإبداع فيها ، والله من وراء القصد .

سعد عبد الله البشري

شوال ١٤٠٢هـ

عرض لأهم المصادر والمراجع

لما كان موضوع البحث يقوم على وصف الحياة العلمية في عصر الخلافه في الأندلس وذلك من خلال ما قام به علماء ذلك العصر من جهود علمية فقد كان الإعتماد الأكبر في كتابة هذا البحث على كتب التراجم والطبقات ، وقبل الإشارة إلى أهم المصادر المطبوعة يجدر التنويه ببعض المخطوطات التي أفدت منها في بعض جوانب البحث .

ا ـ المخطوطات :

١ ـ « التصريف لمن عجز التأليف » للطبيب خلف بن عباس الزهراوي القرطبي من علماء عصر الخلافة . والمخطوط يقع في أجزاء كثيرة ولكن الجزء المتعلق بالجراحة هو ما أفدت منه حيث ينسب لهذا الطبيب اللامع الكثير من الاكتشافات العلمية في ميدان الجراحة الطبية وهو أمر يشهد للأندلسيين بالنبوغ العلمي ، فكان المخطوط الطبي يتضمن الأسس العلمية الصحيحة للجراحة الطبية التي نقلها الغرب وأفاد منها .

٢ ـ « تاديخ علماء الأندلس » لمحمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني (ت ٣٦١هـ / ٩٧١م) . والمخطوط عبارة عن معجم تراجم لعلماء الأندلس حتى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ومما يؤسف له أنه لم يصلنا كاملا ، حيث بقي منه جزء يقع في ١٨٢ ورقة مكتوبة بخط أندلسي . وقد أفدت منه في بعض جوانب البحث وخاصة فيما يتعلق بتراجم بعض العلماء كابن مسرة وموقف الناس منه ورأى الخشني في سيرته ، وكان لأهمية ذلك المخطوط أن اعتمد عليه ابن الفرضي في تاليفه لكتابه « تاريخ علماء الأندلس » .

والجدير بالذكر أن هذا المخطوط مؤشر من مؤشرات الازدهار العلمي في حقل التاريخ والتراجم في عصر الخلافه .

٣ ـ « غاية الحكيم » مخطوط يتضمن الكثير من المعلومات الفلكية والرياضية والجغرافية والكيميائية للعلامة القرطبي مسلمة بن أحمد المجريطي ـ (ت ٣٩٨هـ) . وقد أشار بعض الباحثين إلى مخطوط غاية الحكيم وأنه لمؤلف مجهول ولكن الحق أنه من تآليف العلامة المذكور . وقد أفدت منه عند الحديث عن الكيمياء والجغرافيا .

٤ ـ « رتبة الحكيم » لمسلمة بن أحمد المجريطي الآنف الذكر . وهذا المخطوط يعتبر من أعظم ما ألفه الأندلسيون في علم الكيمياء ، فقد تضمن الكثير من المعلومات القيمة التي توضح مدى ازدهار ذلك العلم وتطوره في الأندلس . ولهذا فقد استفدت منه عند الحديث عن الكيمياء وازدهارها آنذاك .

ولكن مايؤخذ على مسلمة تعمده الغموض في كلامه عن الكيمياء وعملياتها المختلفة ، وهو منهج سار عليه الكيماويون حتى قال ابن خلدون في المقدمة ص ٥٠٤ (وكلامه في ذلك الكتاب وكلامهم أجمع في تآليفهم هي ألغاز يتعذر فهمها على من يعاني اصطلاحاتهم في ذلك) .

٥ ـ « الفصوص » وهو من تآليف الأديب صاعد بن الحسن الربعي (ت ٤١٠هـ / ١٠٩١م) وموضوع المخطوط الأدب ، فقد وفد صاعد من المشرق إلى الأندلس في عصر المنصور بن أبي عامر الذى اراد أن يجعل منه نداً وخلفاً للأديب المشرقي القالي الذي حظي بمنزلة عالية لدى الخليفة الحكم المستنصر . ولهذا نرى المنصور يشجع صاعد علي البحث والتآليف فيؤلف

له كتاباً في الأدب أسماه (الفصوص) ، ونظراً للمنافسة بين أدباء ذلك العصر فقد وقف الأدباء لصاعد بالمرصاد فتتبعوا كتابه بالنقد اللاذع حتى قذف به المنصور في النهر . ورغم ذلك فقد أثابه المنصور عليه بخمسة الاف دينار ، ولا شك أن ذلك المخطوط حافل بالكثير من ألوان الأدب من شعر ونثر إلى جانب ماضمّ من الدراسات اللغوية جرياً على سنة التأليف الادبي

وقد استفدت من مقدمة المخطوط في التعرف على سيرة الأديب صاعد وحياته العلمية باعتباره أحد أدباء عصر الخلافة ، بالإضافة إلى كَوْنِ المخطوط صورة من صور النشاط العلمي في ميدان الأدب آنذاك .

٦ ـ « العمل بالإسطرلاب » من تأليف أحمد بن عبدالعزيز الصفار (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م) ، ويشير القاضي صاعد في طبقات الأمم إلى أنّ اسم أبيه « عبدالله » وموضوع المخطوط كما يوضح عنوانه في ميدان الفلك وكيفية العمل بتلك الآلة الفلكية المسماة بالإسطرلاب وتوضيح أجزائها ، ومهمة كل منها ، ويتضح للمطلع على تلك المخطوطة المهارة الفائقة والممارسة العملية الجيدة التى تمتع بها ابن الصفار .

ويستدل من أسلوب المخطوط انه موجه لطلاب العلم المشتغلين بالفلك ، حيث يوضح لهم المؤلف المنهج العلمي السليم في استخدام الاسطرلاب ، والمخطوط إلى جانب ذلك يضم الكثير من المعلومات الفلكية التي اخضعها ابن الصفار لحاجة المسلم الزمنيه والمكانيه ، حيث سعى إلى تعيين القبلة وأوقات الصلاة ، وكيف يتم ذلك ، وقد نشر هذا المخطوط بمجلة معهد

الدراسات الإسلامية بمدريد ، وبعد الإطلاع على المخطوط وما نشر تبين ان هناك اختلافا كبيرا بينهما ، فضلا عن أن مانشر يعد ناقصا عما ورد في المخطوط . وقد افدت من ذلك المخطوط عند الحديث عن الفلك وتطوره في عصر الخلافة .

٧ ـ « ريحان الالباب وريعان الشباب « للمؤرخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المعافرى الأشبيلي الذى اكمل تاليف كتابه المذكورفي شعبان ٥٥٧هـ / وموضوع المخطوط في التاريخ والأدب . ويضم معلومات قيمة عن تواريخ بعض الدول الإسلامية وسير الخلفاء ، وقد افادني فيما يختص بخلفاء بني أمية في الأندلس ، بالاضافة إلى أهمية ما حواه من نصوص مهمة عن سير بعض العلماء كالقالي وصاعد بن الحسن الربعي .

٨ ـ « خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود » للطبيب عريب بن سعد القرطبي الذى عاش في عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الخليفة الحكم المستنصر ، وكان يتمتع بعلم واسع في الطب إلى جانب رسوخه في التاريخ . والمخطوط المشار إليه في الطب ، وقد ضمنه خبراته ومعارفه الطبية في هذا الجانب المهم من الطب وهو طب الأطفال ، وقد ألفه عريب نزولا على رغبة الخليفة الحكم المستنصر وما من شك ان ماتضمنه ذلك المخطوط من المعلومات الطبيه القيمة يُعَدّ دليلاً وشاهدا على تطور الطب في ذلك العصر والمستوى الرفيع الذى بلغه الأطباء آنذاك وقد افادني عند الحديث عن ميدان الطب وازدهاره في عصر الخلافة .

ب ـ المصادر المطبوعة :

يأتي في مقدمة هذه المصادر المطبوعة مايلي :

١ ـ « تاريخ علماء الأندلس » لابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م) ، وهذا الكتاب بما يضمه من تراجم كثيرة لعلماء الأندلس يعدُّ من أهم ما رجعت إليه في استعراض جهود العلماء في حقول المعرفة المختلفة ، ولكن الغالب فيما ضمّه الكتاب من تراجم كان منصبا على علماء الدين من فقه وحديث وتفسير الخ .. وتبرز أهمية الكتاب في معاصرة المؤلف للكثير من العلماء الذين ترجم لهم ، ولهذا فما أورده عنهم من معلومات تعد أصدق وأصح ما توصل اليه الباحث لأنها قد أتت عن طريق المشاهدة والمعاينة ، وقد اعتمد ابن الفرضي أيضا في تأليفه لذلك الكتاب على كثير من الكتب التي فقدت ولم تصلنا وهو بذلك قد حفظ لنا نصيبا مما ضيعه الزمن ولا شك أن هذا فيه دلالة على قيمة الكتاب وأهميته .

٢ ـ « جذوة المقتبس » للحميدى (٤٨٨هـ / ١٠٩٥م) وقد صنفه الحميدى وهو بالعراق ، ويتميز الكتاب بأنه أكثر تنوعا في تراجمه حيث لم يقصره على أهل الحديث والفقه بل تعداه إلى تراجم أهل الأدب والشعر موردا في ثناياه الكثير من طرائف الأخبار ونوادر الأشعار . ولهذا فإنه يلاحظ على ذلك الكتاب مسحة من الأدب فلا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من بيت أو أبيات شعر . وتبرز شخصية الحميدى العلمية من خلال ماضمه ذلك الكتاب من المعلومات القيمة عن علماء الأندلس وخاصة إذا علمنا أنه ألّفَهُ

من حفْظِه . وقد استفدت من ذلك الكتاب في الكثير من تراجم العلماء في مختلف تخصصاتهم العلمية .

٣ ـ « بغية الملتمس » للضبي (٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) وقد اعتمد في تأليفه لكتابه المذكور على كتاب جذوة المقتبس للحميدي فنقل عنه كثيرا واضاف الكثير ولم يعدم الباحث الفائدة من ذلك الكتاب فان نقل الضبي عن الحميدى فيه تأكيد للمعلومات بالإضافة إلى ما نجده من تراجم أخرى لم ترد في جذوة المقتبس .

٤ ـ « الصلة » لابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ / ١١٨٢م) ، وقد ألفه ابن بشكوال ليكون ذيلا على كتاب ابن الفرضي الآنف الذكر ، ويعد كتاب الصلة من أهم كتب التراجم وأعظمها فائدة وتبرز أهمية الكتاب في أن مؤلفه كان كثيرا ما يتقصى سير البعض من العلماء فيأتي في ذلك بمعلومات قيمة توضح لنا ما كان عليه المجتمع الاندلسي من علم ومعرفة فهو يتحدث باسهاب عن محنة أحمد بن فرح الجياني وسبب سجنه وحرص الطلبه على حضور دروسه في السجن ، كما يتحدث عن نشاط العلامة أحمد بن سعيد وتخصيصه قسماً من داره ليقوم فيه بتدريس طلبة العلم .

٥ ــ « الحلة السيراء » لابن الابار (٥٩٥هـ ٦٥٩هـ / ١١٩٨م ــ ١٢٦٠م) وتبرز أهمية ذلك الكتاب فيما يتعلق بميدان الأدب والشعر وذوى النباهة منها من الخاصة والعامة ، والكتاب يفيدنا بالكثير مما اتصف به بعض الخلفاء والأمراء من بنى أمية من التحلي بالأدب ومهارتهم في الشعر ، ولهذا افادني عند الحديث عن الأدب والشعر .

٦ ـ « التكملة » لابن الابار ، ولعل أهمية ذلك الكتاب تتضح لنا إذا علمنا أن مؤلفه قد قضي في تأليفه نحوا من عشرين سنة . وفي الكتاب نصوص علمية مهمة تتعلق بعلماء الرياضيات والفلك والطب ، وهي معلومات لا نجدها في كتب التراجم السابقة . ولهذا فقد كان اعتماد الباحث عليه كبيرا في ذلك .

٧ ـ « المقتبس » لابن حيان (٣٧٧هـ ـ ٤٦٩هـ / ٩٨٧م ـ ١٠٧٦م) وكان اعتماد الباحث على ماعثر عليه من أجزاء ، فالجزء المتعلق بتاريخ الأندلس من سنة ٢٣٣هـ إلى ٢٦٧هـ والذى حققه محمود علي مكي أمدنا بمعلومات قيمة عن الحياة العلمية في عصر الإمارة .

كما أنَّ الباحث أفاد من الجزء الذي حققه عبدالرحمن الحجي والذي تضمن تاريخ خمس سنوات من عصر الخليفة الحكم ، أى من سنة (٣٦٠هـ ـ ٣٦٤هـ /٩٧٠م ـ ٩٧٤م) ، وتبرز أهمية هذا الجزء في أن ابن حيان نقل الكثير عمن سبقه من المؤرخين كآل الرازى ومحمد بن يوسف الوراق وهو بهذا قد حفظ لنا نصوصا مهمة مما فُقِدَ من كتب أولئك المؤرخين .

وقد أفاد منه الباحث في الكثير من جوانب البحث كالحديث عن الأدباء والشعراء في عصر الحكم ، وكذلك فيما ورد عن تربية هاشم المؤيد وتلقيه العلم على الكثير من العلماء إلى غير ذلك .

وأفاد الباحث أيضاً من الجزء الخاص بعصر الخليفة عبد الرحمن الناصر والذى يبدأ من سنة ٣٠٠ هـ إلى ٣٣٠هـ ويضم (٣٧٠ صفحة) .

وقد نشر هذا الجزء ب. تالميتا و ف. كورنيطي و م. صبح بالمعهد

الأسباني العربي للثقافة بمدريد سنة ١٩٧٩م . وقد حوى هذا الجزء معلومات مهمة عن فتنة ابن مسرة وموقف السلطة في عهد الخليفة ـ عبد الرحمن الناصر منها ، وما لقيه أتباع ابن مسره من تنكيل وكذلك ضمّ معلومات عن شعراء بلاط الخليفة الناصر ، وهذا كله قد أفاد الباحث في استكمال الكتابة عن بعض جوانب البحث .

ورغم ماتقدم فان الباحث يلحظ في المقتبس وغيره من كتب التاريخ الإهتمام العميق بالأحوال السياسية والعسكرية والفتن والثورات التي قامت آنذاك في حين أن الجانب الحضاري وما يتضمنه من علوم وآداب وشئون الفكر لا تحظى باهتمام كبير اللهم إلاّ إشارات متفرقة .

٨ ـ « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » للمراكشي (ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) وقد أفاد منه الباحث فيما يتعلق بسيرة الحاجب المنصور بن ابي عامر وشخصيته العلمية إلى جانب ماذكره عن الفقيه القرطبي ابن حزم وسعة علمه ومنزلته الكبيرة بين علماء عصره وقدرته الواسعة على التأليف في أبواب المعرفة المختلفة .

٩ ـ « المغرب في حلي المغرب » لابن سعيد (ت ٦٨٥هـ) وقد افاد الباحث منه فيما يختص ببعض التراجم كحديثه عن الحافظ ابن عبد البر النمرى والفيلسوف المشرقي أبو وهب عبدالرحمن العباسي وغيرهما من العلماء ممن لهم أهمية في كتابة البحث واستيفاء جوانبه المختلفة .

١٠ ـ « البيان المغرب » لابن عذارى (ت القرن السابع الهجرى) . وعلى الرغم مما غلب على الكتاب من السرد التاريخي للأحداث السياسة والعسكرية إلاّ أنه حوى معلومات في غاية الأهمية عن الناحية العلمية كحديثه عن اهتمام

الحكم المستنصر بشئون التعليم وعنايته بإنشاء المدارس لأبناء الفقراء والمحتاجين وتيسيره العلم لهم مجانا .

١١ ـ « نفح الطيب » للمقرى التلمساني (ت ١٠٤١هـ) ، وهذا الكتاب يعدُّ في مقدمة المصادر التي أمدت الباحث بالتكثير من المعلومات المهمة المتعلقة بالحياة العلمية ، فمؤلف الكتاب اعتمد في تأليفه على كتب من سبقه من المؤرخين ، وقد ضاع الكثير من تلك الكتب ، فكتابة بمثابة سجل حفظ الكثير مما ضاع ، بالإضافة إلى أن الكتاب بحجمه الكبير يعدُّ موسوعة تاريخية في تاريخ الأندلس وحضارتها .

ونظرا لتنوع النشاط العلمي وتعدد حقول المعرفة من شريعة وأدب وتاريخ وطب وفلسفة لجأ الباحث إلى كتب الطبقات والتي يختص كل منها بفئة من العلماء كالأطباء أو الأدباء . ومن تلك الكتب :

١٢ ـ « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلجل الطبيب الأندلسي وقد ألفه سنة ٣٧٧هـ .

ويعتبر كتابه من أهم الكتب المتعلقة بتراجم الأطباء ، وتزداد أهميته فيما يتعلق بالنهضة الطبية في الأندلس وتراجم أطبائه ، والكتاب نفسه يعدُّ شاهداً على رقي الحركة العلمية في ميدان الطب فمؤلفه من علماء عصر الخلافة بل أبرزهم في الطب .

١٣ ـ « طبقات الأمم » لصاعد بن أحمد الطليطي (ت ٤٦٣ هـ) . وهذا الكتاب أهم مصدر اعتمدت عليه في دراسة النشاط العلمي في ميدان العلوم التطبيقية كالطب والفلك والرياضيات والكيمياء . وقد ألف صاعد كتابه

للتعريف بجهود الأمم المختلفة في دراسة تلك العلوم حتى إذا تعرض لأهل بلده من الأندلسيين كشف لنا عن الكثير من الجهود الموفقة لهم في ذلك وما قدموه من نتائج علمية قيمة . ولهذا كان اعتماد الباحث عليه كبيرا . هذا بالإضافة إلى أن القرب الزمني لتأليف الكتاب من عصر الخلافة يعمق صدق ما أورده المؤلف عن علماء الخلافة للرؤيه القريب من أحداث ذلك العصر وسير علمائه .

١٤ ـ « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي اصيبعة (٦٠٠ هـ ـ ٦٦٨ هـ) . وقد أفاد منه الباحث كثيرا فيما يختص بأطباء الأندلس وخاصة فيما أورده عن سيرة الطبيب الأندلسي ابن جلجل وترجمة كتاب ديسقوريدس . فالكتاب رغم ماضمّه من تراجم علماء الطب في العالم الإسلامي بصفة عامة إلا أن الباحث اعتمد عليه في حديثه عن الطب والأطباء في الأندلس . والجدير بالذكر أن ابن أبي اصيبعة قد اعتمد في كتاباته عن الأندلس على كتابي ابن جلجل وصاعد بن احمد الآنفي الذكر .

١٥ ـ « طبقات النحويين واللغويين » لأبي بكر الزبيدى (ت ٣٧٩ هـ / ٩٨٩م) وقد أفاد منه الباحث فيما يتعلق بالحديث عن النحو واللغة ودور الأندلسيين في ازدهار تلك العلوم .

وتبدو أهمية ذلك الكتاب فيما أورده الزبيدي عن نحويي الاندلس ممن عاشوا في عصره . وتعد معلوماته عنهم في غاية الأهمية لكتابته سيرهم العلمية بمنهج علمى سليم وبنظره فاحصه انبثقت عن علمه الواسع بالنحو واللغة ومدى ما اسهم به معاصروه في تطورها .

١٦ ـ « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ)
ويأتي ذلك الكتاب في طليعة الكتب التي افاد منها الباحث في ميدان ـ
الأدب والشعر ، فقد قصد المؤلف من تأليفه لكتابه المذكور الإشادة
بمحاسن أهل بلده في ذلك فترجم لمشاهير الأدباء والشعراء وأورد الكثير
من نماذج إنتاجهم الأدبي . وقد اعتمد الباحث عليه في ترجمة بعض أدباء
وشعراء عصر الخلافة .

١٧ ـ « غاية النهاية في طبقات القراء » لابن الجزرى (ت ٨٣٣ هـ) ، وقد ألفه
في تراجم النابهين من علماء القراءات في العالم الإسلامي ، ويتضمن
الكثير من تراجم علماء الأندلس ولذلك أفاد منه الباحث فيما يتعلق
بالقراءات .

هذه هي أهم المصادر التي رجع إليها الباحث . ولكن هناك الكثير من
المصادر التي اعتمد عليها في كتابه البحث والتي اسهمت بقدر كبير في
إنجازه وإخراجه بالصورة التي هو عليها الآن ويجدها القارىء مثبتة في
قائمة المصادر والمراجع الملحقة في آخر البحث .

ج ـ وبالإضافة إلى المصادر فقد اعتمد الباحث على الكثير من المراجع العربية
والأجنبية ومن أهمها :

كتاب « الإسلام في إسبانيا » للطفي عبد البديع ، والكتاب رغم صغر
حجمه إلا أنه ضمَّ الكثير من المعلومات القيمة عن العلوم والآداب في الآندلس .

ومن كتب الحضارة الإسلامية كتاب « تراث العرب العلمي في الرياضيات
والفلك » لقدرى طوقان ، وكتاب « الإسلام والحضارة العربية » لكرد علي ،

وكتاب « تاريخ الفكر العربي إلى ابن خلدون » لعمر فروخ ، وكتاب « ظهر الإسلام » لأحمد أمين وخاصة الجزء المتعلق بالحياة العقلية عند أهل الأندلس ، فقد سرد المؤلف جهود الأندلسيين في وجوه المعرفة المختلفة وإن كان ذلك على وجه الأقتضاب .

وكانت الفائدة جليلة من كتاب « تاريخ الفكر الأندلسي » لآنخل بالنثيا ، ترجمة حسين مؤنس الذى تتبع حركة النشاط العلمى بصفة عامة ، وكذلك من كتاب « حضارة العرب » لغوستاف لابون الذى ضمّ الكثير من المعلومات المهمة عن حضارة العرب في الأندلس .

كما أفاد الباحث من كتاب « حضارة العرب في الاندلس » لليفي بروفنسال ومن كتاب » شمس العرب تسطع على الغرب « للكاتبة الألمانية زيغريد هونكه ، الذى تجد به إشارات مهمة إلى ما بذله الأندلسيون في رقي الحضارة الإنسانية وخاصة فيما يتعلق بالطب .

وفي ميدان العلوم التطبيقية أفاد الباحث من كتاب « تراث الإسلام » لارنولد وآخرين وهذا الكتاب يتضمن الكثير من المعلومات التى تؤكد عمق التاثير العلمى للمسلمين في أوروبا .

ومن المراجع الأوروبية التي اعتمد عليها الباحث في كتابة هذا البحث يأتى في مقدمتها كتابان ، وهما :

1- Titus Burckhardt: Moorish Gulture in spain.

Brinted in West Germany 1972.

2- Anwar. G. Chejne: Muslim Spain. Its History and Cul ture. The University of minnesota Press, Minneapolis, 1973.

هذا بالإضافة إلى بعض المقالات المنشورة في عدد من المجالات العلمية ويأتي في مقدمتها :

ـ مقال . حسين مؤنس « الجغرافية والجغرافيون في الأندلس » ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، العدد الثالث ج ٧ و ٨ ١٩٥٥م .

ـ ومقال . عبد الجليل الراشد « التقدم الفكرى عند أهل الأندلس حتى عصر المرابطين ، مجلة المؤرخين العربى ، العدد الثالث عشر .

ـ ومقال . خوليان ريبيرا « المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا » ترجمة جمال محرز ، مجلة معهد المخطوطات ، م ٥ ، ج ١ . ذي القعدة ١٣٧٨ هـ .

ـ ومقال . ي . أ . شاهين « أثر العرب في الطب » ، وهي محاضرة ألقيت بجامعة اسكس ١٩٧١م .

هذا وسيجد القارىء في قائمة المصادر والمراجع الملحقة بالبحث حصرا تاما بكل مارجعت إليه من مصادر ومراجع وبحوث .



تمهيد
الحياة العلمية في عصر الإمارة

ـ العلوم الدينية :

بدايتها ـ انتشار المذهب المالكي في الأندلس وأبرز علمائه آنذاك وإنتاجهم العلمي .

ـ الأدب والنحو وعلوم اللغة :

بداية الاشتغال بها وبروز العديد من العلماء فيها كعباس بن ناصح ويحيى الغزال في الشعر ، والقلقاط وفرج بن سلام في اللغة والنحو .

ـ العلوم الإنسانية :

بدايتها ، أبرز المؤرخين عبد الملك بن حبيب ، ومن الجغرافيين محمد الرازى . وفي الفلسفة عناية الأمير عبد الرحمن الأوسط بها . وظهور ابن مسرة .

ـ العلوم الطبيعية :

تأخر الأشتغال بتلك الدراسات ، أبرز من ظهر من الفلكين : مسلم بن أحمد ـ يحيى بن السمينة ابن فرناس ـ في الطب : ـ يونس الحوانى ـ حمدين بن إبان ـ يحيى بن إسحاق .

لم يشهدعصر الولاة في الأندلس نشاط علميا كبيرا كما حدث فيما تلاه من عصور .

وقد جانب الأستاذ آنخل بالنثيا الصواب عند ما علل قضية انصراف الناس عن الأدب وشئون الفكر في عصر الولاة بأن المسلمين الفاتحين كانوا محاربين فقط ، وأن هذا الامر وحده كان كافيا لانصرافهم عن الميدان العلمى في نظره . (١)

ويكفينا للرد علي هذا الرأى أنْ نوضح أنّ المسلمين الذين فتحوا الأندلس، ومن هاجر إليها بعد الفتح ، كان بين صفوفهم الكثير من العلماء والفقهاء أمثال : حنش بن عبد الله الصنعاني ، ومحمد بن أوس بن ثابت الأنصاري ، وعبد الرحمن ابن عبد الله الغافقي ، وموسى بن نصير(٢) .

بل إن التاريخ حفظ لنا خبر دخول أحد صحابة رسول الله ﷺ الأندلس ، وهو المنيذر الافريقي . (٣)

وما من شك أنه كان لهؤلاء التابعين وغيرهم من الفقهاء المجاهدين دور كبير في تفقيه الناس ، والعمل على ارشادهم إلى تعاليم الإسلام وبالتالي في قيام حلقات العلم والدرس ، وبناء على هذا فإن الرعيل الأول من الفقهاء

(١) تاريخ الفكر الاندلس ، ترجمة حسين مؤنس ، ص ١ .

(٢)الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٦ .

(٣) ذكر المقرى في كتابه (نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ٥ ، ٦) كلام العلماء عن هذا الصحابى وان الابار والحجاري وابن بشكوال وابن عبد البر قد عدوه في تراجمهم من صحابة رسول الله ﷺ ، ثم يشير إلى ان البخاري في تاريخه الكبير يورى له الحديث التالي : (ابو المنيذر صاحب رسول الله ﷺ ، وكان قد حدث بافريقية عن رسول الله ﷺ قال : « من قال رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا . فانا الزعيم لآخذن بيده فادخله الجنة) كذا ذكره البخاري بالكنية .

المجاهدين في الجيش الفاتح كانوا نواة طيبة للنشاط العلمي في الأندلس ، وبخاصة في حقل العلوم الدينية ، ومن هذا يتضح أن الجيش الفاتح لم يكن محاربا فقط بل كان هاديا ومرشدا للناس بمن كان يضمه من طوائف العلماء وأهل المعرفــة .

وقد استمر عصر الولاة الذى بُدِىءَ بولاية عبد العزيز بن موسى ٩٥ هـ / ٧١٣م حتى ولاية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى الذى هُزِمَ أمام الأمير عبدالرحمن بن معاوية بن هشام الملقب بالداخل ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م .

وكان الأمير عبدالرحمن قد هرب من بطش العباسيين الذين قضوا على ابائه في المشرق . وتمكن من أن ينصب نفسه أمير على الأندلس بعد أن استعان باليمنيين الذين لم يرضوا بسلوك واليهم يوسف المتعصب لجماعته من المضرية ، بالإضافة إلى مساندة موالي الأمويين لعبدالرحمن الذي استطاع أن ينزل بخصمه يوسف هزيمة منكرة شتت شمله وفرقت أتباعه ، وتم لعبدالرحمن دخول قرطبة في عيد الأضحى من نفس السنة (١) ليبدأ بتوليه حكم الأندلس عصرا جديدا وهو (عصر الإمارة) .

ومن الطبيعي بعد أن استقرت الأوضاع في الأندلس أن ينصرف الناس إلى البناء الحضاري وتحصيل العلوم والآداب . وكانت العلوم الدينية آنذاك هي قطب الرحى في النشاط العلمي . ومدار البحث والدرس ؛ لارتباطها الشديد بالعقيدة التى يعتنقها الفاتحون ، والتى من أجلها تحملوا مشاق الفتح ونَصَبَ الجهاد في سبيل الله .

---

(١) الحميدى : المصدر السابق ، ص ٨ ــ الضبي : بغية الملتمس ، ص ١٢ ــ المراكشي : المعجب ، ص ٢٩ .

العلوم الدينية :

في بداية الحديث عن العلوم الدينية يجدر بنا أن نتطرق إلى موضوع دخول المذهب المالكي للأندلس فقد كان المذهب الأوزاعي هو المذهب السائد في الأندلس قبل دخول المذهب المالكي ، وينسب إدخاله إلى الأندلس إلى الفقيه الشامي صعصعه بن سلام (ت ١٩٢ هـ / ٨٠٧م) وهو أحد أصحاب الإمام الأوزاعي (١) وقد دخل صعصعةُ الأندلسَ في عهد عبدالرحمن الداخل حيث تولى منصب الفتيا في عهده . وشطرا من عهد ابنه هشام ، كما درس على يده الكثير من طلاب العلم ، وأخذ عنه العلماء أمثال : عبدالملك بن حبيب وعثمان بن ايوب . (٢)

وكان لمذهب الأوزاعي أتباعه في الأندلس والذين كان لهم الفضل في انتشاره هنالك ، فكان هو السائد في الأندلس والمعول عليه في الفتاوى الشرعية والقضاء ، إلا أنه نتيجة للرحلات العلمية التي قام بها علماء الأندلس إلى المشرق فقد وجدت بعض المذاهب طريقها إلى الأندلس ، وخاصة المذهب المالكي الذي لقي قبولا وتأييدا هنالك ، ثم أصبح المذهب السائد في الأندلس ، وينسب ادخال هذا المذهب إلى العلامة الأندلسي زياد بن عبدالرحمن اللخمي (ت ١٩٩ هـ / ٨٠٤ م) وقد ولد هذا الفقيه بقرطبه وأخذ علومه الأولى فيها . ثم شدَّ رحاله إلى المشرق بقصد الحج وبعد أدائه شعائر الحج اتجه إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتبارها المنبع الأصيل للثقافة الإسلامية ،

---

(١) هو الإمام أبو عمر عبدالرحمن بن عمرو بن يحمد ، والأوزاعي نسبة إلى الأوزاع بطن من حمير ، ولد ببعلبك (٨٨ هـ / ٧٠٦ م) وبرع في الحديث والفقه ، وأصبح إماماً جليلاً له مذهب مستقل إلاّ أنه انكمش أمام المذاهب الأخرى وقد توفى سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م بلبنان (ابن زيد الموصلي : محاسن المساعي ، ص ٥٧ - ٥٩ - ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢١٧ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢٠٣ - الحميدى : الجذوة ، ص ٢٤٤

فلقي هناك مالكا إمام دار الهجرة (١). وروى عنه الموطأ ، وأخذ عنه الكثير من العلم في ميدان الفقه ، ثم عاد إلى وطنه لينشر مذهب أستاذه مالك ويعلّمه لطلابه . (٢)

على أنه يروى أنَّ غازي بن قيِّس (ت ١٩٩هـ / ٨٠٤م) هو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس ، فقد كان مؤدباً ومعلماً بقرطبة وتسنى له الإرتحال إلى المشرق حيث أخذ الموطأ عن مالك بن أنس والقراءات عن نافع بن أبي نعيم وقد وصف غازٍ بقوة الحفظ ونباهة الذاكرة . (٣)

وقد يبدو هنا بعض التناقض ولكن من خلال التدقيق في دراسة سيرة كل من الفقيهين يتضح أن زيادا كان أكثر نشاطاً وأسرع سبقاً في نشر مذهب مالك ، وأن غازياً كان أكثر حفظاً واستيعابا للموطأ إلى جانب اهتمامه وعنايته بالقراءات ، ويؤكد هذا ما ذكره الحميدى في ترجمته لهما من أن غازياً كان أكثر حفظا ، وزياداً أسبق بتعريف الناس بمذهب مالك ، وكانوا قبلة على مذهب الاوزاعي . (٤)

ويأتي الفقيه يحيى بن يحيى الليثي (١٥٢ ـ ٢٣٤ هـ / ٦٧٩ ـ ٨٤٨م) في مقدمة علماء المالكية الذين بثوا المذهب المالكي في الأندلس وعملوا على نشره في ميداني الفتيا والقضاء وقد رحل يحيى إلي المشرق وسمع من مالك

---

(١) هو الإمام مالك بن أنس بن أبي عامر من حمير صاحب المذهب الذى اختص به وكان لنزاهته ودينه لايتملق الحكام بل كان يقول الحق ولا يرضى الباطل ، فخالف العباسيين في بيعتهم فنكلوا به ، ووصف بالفقه والعلم الواسع وأنه فقيه الحجاز وسيدها في العلم وقد توفي (١٧٩هـ / ٧٩٥م) (ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٨٠ ـ ابن قتيبة المعارف ، ص ٢١٨ ـ ابن نباته : سرح العيون ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨) .

(٢) الخشني : تاريخ علماء الأندلس (مخطوط) ورقة ١٥٨ .

(٣) ابن الجزرى : غاية النهاية في طبقات القراء ، ج ٢ ، ص ٢ .

(٤) جذوة المقتبس ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

وغيره من العلماء ، وكان مالك يسميه عاقل الأندلس ، وبعد أن تزود بالعلم والمعرفة عاد إلى وطنه ليتبوأ مكانه رفيعة لدى الأمير هشام ومن بعده ابنه الحكم وحفيده عبدالرحمن الأوسط ، وكان ليحيى بذلك قول مسموع في تعيين فقهاء المالكية في مناصب الدولة ووظائف القضاء ، فحمل الناس على الاهتمام بالمذهب المالكي ونشره في البلاد . (١)

وقد أشار إلى ذلك ابن حزم بقوله : (... مذهبان انتشر في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان . مذهب أبي حنيفة فإنه لمّا ولي قضاء أبو يوسف كانت القضاه من قِبَلِه ، فكان لا يولي قضاء البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى أعمال افريقية إلا أصحابه المنتمين إلى مذهبه . ومذهب مالك بن أنس عندنا ، فإن يحيى بن يحيى كان مكينا عند السلطان مقبول القول في القضاء فكان لايلي قاض في أقطارنا إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع إلى الدنيا والرياسة . فاقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به)(٢)

وكان لسعة علم يحيى وفضله يستشار لدى الأمراء إلا أنه لم يتولَ منصبا من المناصب لزهده ، وتقشفه ، وَعَدَّهُ الكثير من المؤرخين فقيه الأندلس والمقدم بين علمائها ، وروايته الموطأ عن مالك تعدُّ أشهر الروايات . (٣)

(١) الحميدى : نفس المصدر ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٢) الحميدى : الجذوة ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ - الضبي : البغية ص ٥١١ - ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ١٤٤ .

(٣) محمد مخلوف : شجرة النور الزكية ، ص ٦٣ .

- نتيجة لشهرة روايته تلك فقد حفظت وبقيت متداولة بين العلماء حتى عصرنا الحاضر ولا تزال هناك الكثير من نسخ الموطأ برواية يحيي المذكور .

والجديد بالذكر أنه كان إلى جانب دور هؤلاء العلماء في نشر المذهب المالكي كان هناك دور بارز للأمير هشام بن عبد الرحمن (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ / ٧٨٨ ـ ٧٩٦م) الذى وصف بحسن السيرة ونقاء السيرة ونقاء السريرة . وأنه كان مكرماً للعلماء باراً بهم ، ولما وصلت أنباء عدله وكرم خلقه إلى سمع الإمام مالك بن أنس سُرَّ بذلك وأثنى عليه قائلا « وددت ان الله زَيَّنَ موسمنا به » (١)

وكان هذا سببا في ميل هشام إلي المذهب المالكي والعمل على نشره في وطنه وبثه بين رعيته . (٢)

ويشير ابن خلدون إلى سبب اتباع الأندلسيين لمذهب مالك بأن رحلاتهم كانت في الغالب للحجاز وأنه منتهى سفرهم ، والمدينة يومئذ هى مركز العلم هنالك ومنها خرج إلى العراق ، فاقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة وعلى رأسهم مالك ، وأنهم مالوا إلى الحجاز لتطابق الحالة في البداوه وأنهم لم يعانوا حضارة أهل العراق فاقتصروا لمناسبة البداوة على أهل الحجاز . (٣)

وما ذكره ابن خلدون له نصيب من الصحه إلا أن جانبا مما ذكره يحتاج إلى ايضاح ومناقشة وهو قوله : « وأنهم مالوا إلى الحجاز لتطابق الحالة في البداوة ولم يعانوا حضارة أهل العراق فاقتصروا لمناسبة البداوة على أهل الحجاز » وهو بهذا الوصف قد بالغ في إلحاقه سمة البداوة بأهل الحجاز ، وتصويرهم بالتخلف عن غيرهم ، وأنهم قاصرون عن رتبة الحضارة التي بلغها

(١) أخبار مجموعة (مجهول المؤلف) ، ص ١٢٠ .
ـ أشار ابن نباته في سرح العيون ص ١٤٨ . إلي أن الأمير الذى أثنى عليه مالك هو عبدالرحمن بن معاوية لاهشام ، والصواب ما أشرنا اليه في المتن وذلك لتظافر الروايات التاريخية القائلة بذلك كالكتاب السابق وكتاب المقرى ـ نفخ الطيب ، ج٣ ، ص ٢٣٠ .
(٢) المقرى : نفخ الطيب ، ج ٣ ، ص ٢٣٠ .
(٣) المقدمة : ص ٤٤٩ .

أهل العراق ، وكيف أن الاندلسيين الموصوفين في نظره بما وصف أهل الحجاز قد مالوا لهم لتشابه - المعاناة والرؤية المشتركة الناجمة عن القصور الحضارى ، وتخلفهم عن غيرهم من الناس .

وهذا ولا شك مجانبة للصواب ، فالحجاز آنذاك بما ضمه من مواطن الهداية كمكة المكرمة التى شعّ منها نور الإيمان ، والمدينة المنورة قاعدة الإسلام ، ومنبع العلم والمعرفة ، لهما الفضل الجلي ، واليد الطولى على حضارة الإسلام . ومنها خرج رواد الحضارة الإسلامية الذين رسموا لأهل العراق حضارتهم ، وهو أمر اعترف به ابن خلدون حيث قال : « والمدينة يومئذ هي مركز العلم هنالك ومنها خرج إلى العراق » فلماذا يوسم أهل المدينة بالبداوة ؟

وهي في الفترة التي تم فيها تأثير المذهب المالكي في الأندلس ـ أي حوالي النصف الثاني من القرن الثاني الهجرى / الثامن الميلادي ـ كانت المدينة تزهو بنشاطها العلمي وما أسدته للعالم الإسلامي من علم ومعرفة على أيدى علماء أجلاء يأتي في مقدمتهم العلامة مالك بن أنس الذى وصف بما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة » قال الحميدي قال سفيان أظنه مالك بن أنس وكذلك رواه إبراهيم بن المنذر الحزامي عن سفيان بن عيينة ، قال وكان سفيان يقول : أراه مالكا . (١)

وكتب التراجم تشهد برحيل الكثير من علماء خراسان وفارس والعراق والشام إلى المدينة . وأخذهم عن علمائها وفقهائها (٢) ، فمن أين أتت تلك

---

(١) ابن عبدالبر : الانتقال ، ص ١٩ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ج ٦ ، ص ٢٥١ .

(٢) لمعرفة ما كانت عليه المدينة من مكانة علمية ، وما اسدته للحضارة الإسلامية من جهود مثمرة انظر الخطيب البغدادى / : الرحلة في طلب الحديث ، ص ٨٨ ـ ٩٣ ١٤٤ . وكذلك عمر كحالة : مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ـ ١٣٨ .

الصورة البدائية التي رسمها ابن خلدون لأهل الحجاز ؟ وأين كانت تلك الحضارة التي بهرت أنظار الاندلسيين ففرضت عليهم التراجع أمامها . والنكوص عن الاحتكاك بها ، وأى مدينة رفيعة في ذلك الزمن يتهيبها أولئك العلماء ويحجمون عن الاقتراب منها ؟ فيمموا وهم متعثرون في بداوتهم نحو إخوانهم الحجازيين الذين يعانون مثلهم وجه التخلف والبداوه . وهو ما صوره ابن خلدون وبالغ فيه .

وعليه فإن صفة البداوة ، والفرق الحضارى المزعوم بين أهلّ الحجاز وأهل العراق غير حاصل ، وليس سببا في تأثر الأندلسيين بالمذهب المالكي ، فالرحلات العلمية التي قام بها الأندلسيون إلي المشرق واتجاههم إلي المدينة ، كان من واقع ما تمتعت به المدينة دار الهجرة من مكانه علمية ، وما ضمته من التابعين الذين كانوا ألصق ببيئة رسول الله ﷺ وأخذهم عن صحابته الكرام وقد يكون للعداء السياسي بين العباسيين والأمويين أثر في انصراف الناس عن أخذ العلم عن أهل العراق ولا سيما في الفترة الأولى من عصر الأمارة الأموية التى تميزت بحدة العداء بين الطرفين ، وإن كان من المعروف أن الخلاف السياسي بين الدول الإسلامية لا ينسحب علي أفراد الرعية في كل شعب من شعوب تلك الدول . إلا أنه قد يكون له تأثير على نفسيات الناس ، ومن ثم على ضروب سلوكهم المختلفة في تعاملهم مع بعضهم البعض .

وكان من نتائج انتشار ذلك المذهب وكونه المذهب الوحيد الذى سار عليه الأندلسيون بوجه عام أن زالت أسباب الخلاف التى تنشأ عادة بين المذاهب المختلفة[1] بالإضافة إلى أنه كفل لهم الوحدة المذهبية والاستقلال المذهبي ـ الذى قصده الحكام الأمويين بعد أن استقلوا سياسيا عن خصومهم العباسيين[2]

---

(١) انظر في ذلك آدم ميتز : الحضارة الاسلامية ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .

(٢) زكريا هاشم : فضل الحضارة الإسلامية ، ص ٥٦١ ـ ٥٦٢ .

واستمسك الأندلسيون بمذهب مالك واخلصوا له ، وقاوموا ماعداه ، حتى وصف أهل قرطبة بأنهم أشد الناس محافظة عليه ، وأنهم لا يولون عاملا أو حاكما لايقضي به(1) .

بل إنهم كانوا كثيرا مايشيدون به في محافلهم العلمية . وينشدون في الحفاظ عليه الكثير من الأشعار(2) . ويبدوا من هنا عظم استنكارهم على الخارجين على مذهب مالك (فإن ظهروا على حنفى أو شافعي نفوه وإن عثروا على معتزلي أو شيعي أو نحوهما ربما قتلوه)(3) .

ورغم هذا فقد كان هنالك علماء يتبعون في فقههم مذاهب اخرى . كمذهب الشافعى أو المذهب الظاهري ، فقد ذكر الحميدى أن الفقيه قاسم بن محمد (ت ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م) كان شافعيا(4) .

كما أن الفقيه عبدالله بن محمد بن قاسم (ت ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م) كان يتبع في فقهه المذاهب الظاهرى فقد درس على يد منشيء المذهب الظاهرى أبي داوود سليمان الأصفهاني في المشرق ، ثم عاد لينشره في الأندلس إلا أنه لم يحالفه التوفيق في ذلك(5) .

وهناك العديد من العلماء الذين اتبعوا مذاهب اخرى ولكنهم لم يلقوا قبولا لدى أهل الاندلس .

وكان لتشدد الأندلسيين في اتباع مذهبهم أثر في معاملتهم لمن خالفهم فقد ناصبوا العداء لبقي بن مخلد (٢٠١ هـ ـ ٢٧٦ هـ / ٨١٦ ـ ٨٨٩ م) الذي ـ ارتحل إلى المشرق ليأخذ عن علمائه وفقهائه ، ثم يعود حاملا معه ألوانا

---

(1) المقري : النفح ، ج ٣ ، ص ٢١٦ .
(2) انظر : السلفي أخبار وتراجم أندلسية ص ٣٧ ـ ٣٨ ، ص ٧٠ ـ ٧١ .
(3) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٦ .
(4) الجذوة : ص ٣٢٩ .
(5) أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٣٩ .

مختلفة من كتب العلم ، ككتاب الفقه للشافعي وكان لخروج بقي على مذهب مالك وما عرف عنه أثر في تصدى الكثير من الفقهاء له فوصموه بالتهم لدى الأمير محمد (٢٣٨ ـ ٢٧٣ / ٨٥٢ م ـ ٨٨٦ م) وكان هذا الأمير موصوفا بالعلم واكرام أهله فحقق في أمر هذه الدعوى وما قام به خصوم بقي فتبين له مجانبتهم للحق وما اقترفوه من إثم وبراءة بقي مما يزعمون فأعلى مكانته ورفع منزلته وأمره بنشر علمه بين الناس(١) .

وكان بقي المذكور يعدُّ من أعلام الفقهاء والمحدثين في عصر الإمارة . وكان لرحلاته العلمية إلى المشرق أثر كبير في توسيع دائرة علمه وثقافته وعلو مقامه العلمي بين علماء عصره(٢) .

ومن أهم ثمار رحلته تلك ما عاد به إلى الأندلس من كتب العلم والمعرفة ، والتي كان لها بلا شك أثر كبير في دفع الأندلسيين نحو دراسة وبحث مسائل العلم المختلفة ، فمما جلبه بقي من الكتب المشرقية مصنف ابن أبي شيبه(٣) وكتاب الفقه للشافعي ، وتاريخ خليفة بن خياط(٤)، وكتابه في الطبقات ، وسيرة عمر بن عبد العزيز للدورقي(٥) .

---

(١) ابن حيان : المقتبس ، ج ٢ ، تحقيق محمود علي مكى ، ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، ج ، ص ٢٦٤ .

(٣) هو أبو بكر عبدالله بن محمد من المحدثين المصنفين (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م) له كتب كثيرة منها كتاب السنن في الفقه وكتاب التفسير وكتاب المسند في الحديث (ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٢٠) .

(٤) هو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفرى محدث نسابه اخبارى صنف (التاريخ) في عشرة اجزاء طبع منه جزء واحد وله كتاب الطبقات طبع جزء واحد . ووصف خليفة بالنزاهة في خلقه وسعة العلم ، (الزركلي : الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣١٢) .

(٥) هو أحمد بن ابراهيم بن كثير العبدلي له مؤلفات كثيرة في الحديث (ت ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م) ـ ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود مكي ، ح رقم ٢٤٢ .

وبرز في عصر الإمارة فقهاء كثيرون غير ما تقدم ، كالفقيه عبدالملك بن حبيب (ت ٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م) وكانت له رحلة إلى المشرق حيث لقى مالكا عالم المدينة وأخذ عنه وعن أصحابه ، وتزود بالكثير من العلم على أيديهم ثم عاد إلي الأندلس وأسهم في نشاط الحركة الفقهية فألف كتابا في الفقه سماه (الواضحة في الحديث والمسائل على أبواب الفقه)(١) .

ويظهر أن لهذا المنصف منزلة قيمة بين فقهاء الأندلس ، حتى قال فيه ابن حزم (والمالكيون لا تمانع بينهم في فضلها واستحسانهم إياها)(٢) .

ولم يكن عبد الملك مقتصرا في علمه على الفقه وعلوم الدين ، بل كان أديبا ومؤرخا وفلكيا . ولكن الفقه غلب عليه ، وفي هذا يقول ابن حيان « قرأت بخط عباده الشاعر قال :

كان يحيى بن يحيى وأصحابه الفقهاء يحمدون عبدالملك بن حبيب ، لتقدمه عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها ، ولا يشرعون فيها إذ كان مع تقدمه في الفقه والحديث واللغة مفتنا في العلوم القديمة(٣) .

ونظرا للإقبال المتزايد من الأندلسين علي دراسة المذهب المالكي . فقد نجم عن ذلك أن توفر البعض من العلماء على شرح ودراسة ذلك المذهب وتناولوا كتب مالك بالبحث والشروح المستفيضة .

فمن نسب اليه ذلك من الفقهاء عيسى بن دينار (ت ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) ـ الذى سار على نهج إخوانه الأندلسيين في الرحيل إلي المشرق ليأخذ عن علمائه ، ثم مالبث أن عاد ليتولى منصب الفتيا وكان لسعة علمه وغزارة معارفه أن وصف بأنه أفقه من يحيى بن يحيى عالم الأندلس الآنف الذكر ، وقد أثنى

---

(١) الحميدي : الجذوة ، ص ٢٨٢ .

(٢) المقرى : النفح ، ج ٣ ، ص ١٧١ .

(٣) المقتبس : تحقيق محمود مكي ، ص ٤٨ .

عليه غير واحد من العلماء فقال أحدهم (كان عيسى بن دينار عالما متقننا مفتقا وهو الذى علم المسائل أهل مصرنا وفتقها) وقال فيه آخر : فقيه الاندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبدالملك بن حبيب ، وعاقلها يحيى بن يحيى)(١) .

وكان لهذا الفقيه جهد بارز في ميدان البحث والتأليف العلمي فألف كتابا قيما أسماه « الهداية » وصف بالدقة وشموله للمعاني الفقهية على المذهب المالكي(٢) .

وتتابع العلماء في تناول الموطأ بالشرح والايضاح ، وكان للفقيه يحيى بن إبراهيم بن مزين(٣) (ت ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م) جهد مشكور في شرح موطأ مالك وتوضيح مسائله(٤) .

وإلى جانب ماذكرنا فقد شارك الفقيه مالك بن على القطني في هذا الميدان حيث صنف كتابا في الفقه عالج فيه الكثير من مسائل الفقه على المذهب المالكي ، ووصف كتابه بالدقة والقيمة العلمية الكبيرة(٥) .

الحديث والتفسير

من دلائل التفوق العلمي لعلماء المسلمين الأوائل تنوع معارفهم ، وتشعب مهاراتهم العلمية في أكثر من علم ، فبقي بن مخلد السابق الذكر يمثل هذه الصفة بما كان يتمتع به من براعة في العديد من العلوم ، فهو ماهر في الحديث والفقه والتفسير ، وألّف في كل هذه العلوم تقريبا .

---

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣١ ــ احمد امين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٥٠ .

(٢) المقرى : النفح ، ج ٣ ، ص ١٦٧ ــ احمد امين : المرجع السابق ج ٣ ، ص ٥٠ ــ محمد مخلوف : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٣) جانب الأستاذ لطفي عبد البديع الصواب عندما اشار إلى شارح الموطأ هو ابراهيم بن مزين ولكن الصحيح ما هو مشار اليه بالمتن كما اورده المؤرخون ونصت عليه كتب التراجم .

(٤) الضبي : بغية الملتمس ، ص ٤٩٧ ــ المقرى : النفح ، ج ٤ ، ص ١٦٧ ــ ١٦٨ .

(٥) المقري : النفح ، ج ٣ ، ص ١٦٨ .

وفيما يتعلق بالحديث يعتبر من أبرز العلماء الذين اهتموا بدراسة الحديث وعلومه المختلفة فقد كان يمثل مدرسة عظيمة ذات أثر واضح في الرقي العلمي في الأندلس ، وبجهود بقي العلمية (صارت الاندلس دار حديث ، ومعدن سنة ، وإنما كان الغالب على أهلها من قبل ذلك رأي مالك واصحابه ، والتفقه في المسائل المدونية ، فكانوا ينصبون لأهل الحديث ولا يرضونهم)(١) .

ولا شك ان بُقياً قد أثرى بذلك ميدان الحديث ، ولفت أنظار الاندلسيين إلي حقل الحديث وعلومه بعد أن غلب عليهم فقه مالك ، وكان تأثير بقي واضحا ، وعمله جليا حتى قال فيه ابن الفرضي « وبقي بن مخلد ملأ الاندلس حديثا ورواية »(٢)

وبناء على ذلك فإن بقياً هو رائد الحركة العلمية في ميدان الحديث ودراساته المختلفة التى أثمرت وأينعت ، وكانت قاعدة صلبة لدراسات علمية قيمة تمت فيما تلى ذلك من عصور ، ومما ألفه في الحديث مصنف رتبه على أسماء الصحابة وروى فيه ألف وثلاثمائة منهم ورتب أحاديث كل منهم على أسماء الفقه وأبواب الأحكام ، فهو مصنف ومسند حتى قال فيه ابن حزم ((ولا أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلاً ليس فيهم عشرة ضعفاء وسائرهم أعلام مشاهير))(٣) .

ووصفه ابن الفرضي بأنه ليس له نظير وأنه لم يصنف مثله قطعا(٤) .
وكان المحدّث محمد بن وضاح (١٩٠ ـ ٢٨٧ هـ / ٨٠٥ م ـ ٩٠٠ م) نداً قويا

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .
(٢) تاريخ علماء الاندلس : ج ١ ، ص ٩٢ .
(٣) الحميدى : الجذوة ،ص ١٧٧ .
(٤) تاريخ علماء الاندلس : ج ١ ، ص ٩٢ .

لبقي من مخلد في ميدان الحديث ودراساته المختلفة ، واستطاع أن ينشر علومه في هذا الميدان . وبمحمد بن وضاح وببقي صارت الأندلس ميدانا نشاط في مجال الحديث واسناده(١) .

ولم يقتصر النشاط العلمي على هذين العالمين بل كان هناك الكثير من المحدثين الذين قدموا جهودا موفقه في حقل الدراسات العلمية المتعلقة بالحديث وعلومه . ومن هؤلاء قاسم بن ثابت بن حزم (٢٥٥ ـ ٣٠٢ هـ / ٨٦٨ م ـ ٩١٤ م) الذى صنف كتابا في شرح الحديث أسماه « الدلائل » بلغ فيه درجة رفيعه من الاتقان إلا أن المنية حالت دون أن يتمه فاكمله أبوه من بعده(٢) .

أما فيما يتعلق بالتفسير . فينسب الفضل الكبير في ازدهاره ورقي دراسته إلى العلامة بقي السالف الذكر ، حيث ألف مصنفا قيما في تفسير القرآن الكريم والذى لقي قبولا منقطع النظير في الأوساط العلمية ، وطبّقت شهرته الافاق حتى ذكر الحميدي أن صديقه ابن حزم أشاد به فقال : « هو الكتاب الذى أقطع قطعا لا استثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره(٣) .

وعليه فإن ميدان الدراسات الدينية في عصر الإمارة لقي نشاطاً حسنا بفضل مابلغه علماء الأندلس آنذاك من علم ومعرفة ، وكان علماء الأندلس في بداية الأمر يستندون في اكتساب معارفهم على أهل المشرق الذين سبقوهم إلى طريق تلك العلوم . إلا أنهم لم يقفوا عند هذا الحد ، بل أضافوا الكثير من عندهم وجهود بقي بن مخلد شاهد على ذلك .

---

(١) ابن الفرضي : نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ .

ـــ من دلائل النشاط العلمي في ميدان الحديث في عصر الامارة ما الفه معارك بن مروان بن عبد الملك من أهل القرن الثالث الهجرى فقد الف معجماً لائمة المحدثين واسماه « الأئمة من المصنفين ـ (انظر انخل بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٠١) .

(٣) الجذوة ، ص ١٧٧ ـ الضبي : البغية ، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

الأدب والنحو وعلوم اللغـــة :

يحتل الأدب واللغة والنحو المرتبة الثانية بعد العلوم الدينية من حيث اشتغال الأندلسيين بالعلوم في بداية الحركة العلمية التي بلغت ذروتها في عصر الخلافة .

ومما يدهش الدارس للحركة الأدبية في الأندلس أن الكثير من علماء الأندلس في كافة حقول العلم يتصفون في سيرهم العلمية بلون من ألوان الأدب ، كالبلاغة أو قول الشعر .

ويأتي الفقيه عبد الملك بن حبيب في مقدمة هؤلاء العلماء ، فإنه إلى جانب كونه فقيها محدثا ، كان أديبا بارعا كما أن بقي بن مخلد اتصف بهذه الصفة . وكذلك الفقيه أيوب بن سليمان (ت٣٠٢هـ / ٩١٤م) كان إلى براعته في الفقه ومهارته في الفتيا ، ضليعا في النحو والشعر والعروض منسوبا إلى البلاغة(١).

ولنبدأ في الكلام عن هذا المجال بالشعر الذي ظهرت بوادر تألقه باعتباره وجها من وجوه الأدب منذ عصر الإمارة . ففي بداية عصر الإمارة نجد الأمير عبد الرحمن الداخل من ذوي البراعة في قول الشعر . وله أشعار جيدة تدل على ملكة راسخة في الشعر والأدب(٢) .

وقد أتصف الأندلسيون بقول الشعر وغلب على الكثير منهم حتى كادوا أن يكونوا جميعهم شعراء ، وأصبح الشعر ظاهرة عامة للشعب الأندلسي ساعدتها ظروف البيئة السياسية ، والإجتماعية ، والطبيعية حتي أصبح على فم كل إنسان . فهو في نظر العامل والفلاح الاندلسي أنشودة تنسية همومه(٣)

---

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٦ .

(٢) للوقوف على نماذج من شعره انظر : اخبار مجموعة ، ص١١٧ ـ ١١٨ ، ونفح الطيب ، ج٣ ، ص٣٨ ـ ٤٢ ـ ٥٤ .

(٣) سامي العاني : دراسات في الأدب الاندلسي ، ص ١١٠ .

وهم بهذا (أشعر الناس فيما كثره الله تعالى في بلادهم ، وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار والأطيار ..... لا ينازعهم أحد في هذا الشأن)(١)

ومن شعراء عصر الإمارة . يحيى بن حكم الغزال (١٥٦ ـ ٢٥٠هـ / ٧٧٢ ـ ٨٦٤ م) وقد وصف بالبلاغة في قول الشعر، والنباهة في انتقاء صوره ، وتفننه في ضروبه المختلفة . ولما اتصف به من بلاغة وخلق نبيل وشخصية قوية أرسل في عدة سفارات إلى القسطنطينية وإلى ملك النورمان(٢) وذلك من قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وفى احدى سفاراته تلك وقد اصطحبه صديقه يحيى بن حبيب . وكانا قد ركبا البحر وشاهدا أمواجه المتلاطمه وعاينا الخطر منه ـ يقول :

قال لي يحيى وصرنا ... بين موج كالجبال

وتولتنا عصوف ... من جنوب وشمال

شقت القلعين وانبتّت ... عرى تلك الجبال ..... الخ(٣)

---

(١) المقرى : النفح ، ج٣ ، ص١٥٥ .

(٢) انتدب يحي الغزالي أول الأمر في سفارة إلي الامبراطور تيوفيلوس امبراطور القسطنطينية ردا على سفارته التي بعثها إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٢٥هـ / سنة ٢٢٥هـ / ٨٤٠م . وقد اصطحب يحيى في سفارته تلك صديقه يحيى بن حبيب ، وحقق الغزال نجاحا كبيراً في رحلته السياسية التي استهدف منها توثيق عرى الصداقة بين الدولتين .

وعندما غزا النورمان ولايات الاندلس الجنوبية الغربية بعث ملكهم واسمه هوريك إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم في طلب الصلح فاجابه الامير إلى ذلك وبعث اليه بوفد يرأسه الغزال واصطحبه في رحلته طريقه يحيى بن حبيب وقد عانيا من رحلتهما البحرية الكثير من المشقة والاخطار . ووصف الغزال تلك الاهوال في البحر في شعره وهو ما اشرنا إلى بعضه في المتن . ونظرا لما تمتع به الغزال من لباقة وذكاء وادب رفيع فقد حاز على اعجاب الملك والملكة وكانت رحلته موفقه وناجحة (انظر : محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية ، ص ١٦١ ـ ١٦٢ ـ ١٦٣) .

(٣) الحميدي : الجذوة ، ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ .

وليحيى أشعار كثيرة في مواضيع مختلفة ، وقد طال به العمر حتى بلغ أربعا وتسعين سنة . وقد جمع شعره أحد العلماء وهو حبيب بن أحمد ، وكان الغزال بعمره المديد قد عاصر عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية ثم ابنه هشام فالحكم فعبد الرحمن الأوسط وتوفي في إمارة الأمير محمد(١) .

ويقف الشاعر عباس بن ناصح الثقفي في مقدمة شعراء تلك الفترة ، وقد اهتم به والده فعلمه منذ صغره ورباه على المعرفة والأدب ، ولما بلغ مبلغ الرجال رحل إلى المشرق فتردد في طلب لغة العرب ، والتقى بكبار الأدباء والشعراء هنالك أمثال الاصمعي ثم مالبث أن عاد إلى وطنه ليتألق ذكره بين الأدباء وأهل الشعر ثم رحل إلى المشرق ليلقى الشاعر المشرقي الحسن بن هاني الحكمي فأفاد منه الكثير وغنم من مجالسته والتقرب اليه . وكان عباس بن ناصح يتعاطى معه قول الشعر حتى قيل إن ابن هاني شهد له بالفضل عليه(٢) .

واتصف شعر عباس بالجزالة ، وأنه كان يسلك في أشعاره مسالك العرب القديمة وقد أنجب ابن يدعى عبد الوهاب كان كأبيه شاعرا بارعا بل إن هذا كان له ابناً برع في الشعر ومهر في فنونه . ومن العجيب أنهم تولوا القضاء جميعا وبرعوا في الشعر جميعا أيضا(٣) .

وهذا بلاشك يعطينا دلالة على ماتمنع به الكثير من علماء الأندلس من قول الشعر والمهارة فيه ويؤكد ماذهب إليه الباحث من أن الكثير من الأندلسيين بمختلف اتجاهاتهم العلمية يكونوا يخلون من أدب أو شعر وأنها سمة غلبت على علماء الأندلس .

---

(١) الحميدي : نفس المصدر والصفحة ـ أحمد أمين : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج١ ، ص٢٩٦ .

(٣) ابن الفرضي : نفس المصدر والجزء ، ص٢٩٧ .

ويبرز في عصر الإمارة من الشعراء أيضاً عباس بن فرناس الذي وصف بالأدب وقول الشعر ، وكان في عصر الأمير عبد الرحمن وابنه الأمير محمد ، ولعباس أشعار رائعة وقصائد بديعة دبجها في مدح الأمراء . ويشير ابن حيان إليه بقوله : (كان عباس بن فرناس يصنع للأمير محمد قطعا من رقيق الأشعار تنظم بمدحه ، وتصوغ قيانه فيها الألحان فتغنيه بها ، فيجزل عليها صلته)(١)

وظهر الشاعر مؤمن بن سعيد (ت٢٦٧هـ / ٨٨٠م) منافسا قويا لعباس بن فرناس حتى عُدَّ من فحول الشعراء آنذاك . وكان مواليا للأمير مسلمة بن محمد بن عبد الرحمن ضد خصمه الشاعر محمد بن عبد العزيز العتيبي الذى كان مختصا بأخوه الأمير السابق(٢) .

هذا بالنسبة للشعر ويلاحظ أن الأندلسيين لم يكونوا أقل شأنا من غيرهم في التفنن في أبواب الأدب . بل إنه يتضح من سير هؤلاء الشعراء تفوق بعضهم على بعض شعراء المشرق فعباس بن ناصح قد فضله الحسن بن هاني على نفسه كما أنه سيأتي معنا عند الحديث عن الأدب في عصر الخلافة كلام الشاعر المشرقي المتنبي عن الأندلس وأديبها أحمد بن عبد ربه وكيف أن الأول اثنى عليه . وهذا فيه دلالة على ما أشار إليه الباحث من تفوق الاندلسيين وأنهم لايقلون كفاءة عن أندادهم من المشارق .

أما ما يتعلق بميدان النحو وعلوم اللغة . فإن عباس بن ناصح قد نال من رحلاته إلى المشرق علما كثيرا ، ومعارف جمه في اللغة وعلومها ، فقد كان من أهل التقدم في ذلك(٣) وسبقت الإشارة إلى تردده في رحلاته هنالك على أحياء العرب في طلب لغتهم مما أورثه عمقا في معرفة اللغة العربية وعلومها ، وأنه

---

(١) المقتبس : تحقيق محمود مكي ، ص٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

ـ للوقوف على نماذج من شعره انظر : نفس المصدر ، ص٣٠٦ ، ص٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، ج٢ ص٢١١ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٧ .

لقي الكثير من علماء البصرة والكوفة فتزود منهم بالكثير من المعارف[1] .

وممن برع في اللغة والنحو محمد بن يحيى المعروف بالقلفاط (ت٣٠٢هـ / ٩١٤م) وكان إلى مهارته في ذلك بارعا في الشعر[2] .

ولم يكن أحد يماثل صديقه ـ الحكيم محمد بن أسماعيل في سعة علمه باللغة غيره . ولهذا عُدَّ القلفاط من أبرز النحويين . وكان لسعة علمه أثر في انصراف الناس إليه يقتبسون من علمه ويكتسبون من معارفه في ذلك[3] .

وإلى جانب من ذكرنا فقد كان للفقيه عبد الملك بن جبيب دورٌ بارزٌ في رقي الدراسات اللغوية . فقد وصف بالعلم في اللغة والإعراب ، وأنه صنّف كتاباً في ذلك أسماه : (إعراب القرآن)[4]

أما في ميدان الأدب بمفهومه الشامل . فقد برز أدباء اسهموا في نشاط الدراسات الأدبية . ويأتي في مقدمة هؤلاء الأدباء فرج بن سلام القرطبي . الذي كان مهتما بالأخبار والأشعار وألوان الأدب المختلفة ، وكان له أثر في تعريف الأندلسيين على كتب الأدب المشرقية ، حيث أدخل كتب الجاحظ عمرو بن بحر مثل البيان والتبيين وغيرها إلى الأندلس وكان فرج قد درس على يد العلامة المشرقي المذكور وأخذ عنه العلم[5] وهو بذلك قد فتح لإخوانه من الأندلسيين باب البحث والدراسة في الأدب وفنونه المختلفة ولا شك أن مثل هذه الكتب كان لها تأثير في النشاط الأدبي لدى الأندلسيين .

---

(١) ابن الفوضى : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٦ .

(٢) الحميدى : الجذوة ، ص٩٨ .

(٣) احسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ، ص١٧٩ .

(٤) ابن حيان : المصدر السابق ، تحقيق مكي ، ص٤٨ .

(٥) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٥٠ .

كما أسهم الأديب عثمان بن سعيد الكنانى (ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) في حركة الدراسات الأدبية بما قدمه من جهود علمية كتصنيفه كتابا في شعراء الأندلس ، إلى جانب تفننه في الأدب والبراعة فيه وحرصه علي جمع الكتب في هذا الميدان(١) .

وممن عاش طرفا من عمره في عصر الإمارة الأديب الذائع الصيت أحمد بن محمد المعروف بابن عبد ربه (٢٤٦ ـ ٣٢٨هـ / ٨٦٠م ـ ٩٣٦م) والذي اشتهر بكتابة القيم « العقد » والذى سوف نتحدث عنه بالتفصيل عند كلامنا عن الأدب في عصر الخلافة .

وبناء على ماتقدم فان ميدان الأدب والنحو واللغة قد شهد آنذاك نشاطا حسنا ، أثبت فيه الأندلسيون قدرتهم الفائقة على طرق ميادين العلم المختلفة في مدة وجيزة ، فظهر فيهم علماء بارعون أسهموا في صنع الكيان العلمي الأندلسي . ولم يبقوا عالة على المشرق وثقافته ، فإن تلقيهم علومهم على أيدي المشارقة لم يمنعهم من الانطلاق نحو ميادين البحث والتأليف فبرزت لديهم مؤلفات وتصانيف قيمة تشهد بما وصلوا إليه من علم ومعرفة في ميدان الأدب .

العلوم الإنسانية :

وفيما يتعلق بهذه العلوم ، فقد تأخر الاشتغال بها عما سواها من العلوم الأخرى ولكن مع ذلك فقد برز البعض في الاشتغال بها فأسهموا في دفع الحركة العلمية بما جادت به مواهبهم ومعارفهم .

وفي هذا الميدان يتصدر التاريخ والجغرافيا تلك العلوم ، وقد اتجه الأندلسيون إلى هذه الناحية ، رغبة فى تخليد مآثر وطنهم والحفاظ على تراثه .

والجدير بالذكر أن التاريخ عند المسلمين قد نشأ في أحضان الحديث ، فنتيجة لحرص العلماء على صحة الأحاديث ومعرفة صحيحها من سقيمها ،

---

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج١ ، ص٣٠٢ .

فقد دفعهم هذا إلى الاهتمام بتراجم الرواة ومعرفة سيرهم وهذا بلا شك قادهم إلى ميدان التاريخ والتراجم ، ومن هنا نلمس ارتباط التاريخ بالحديث عند المسلمين .

وفي عصر الإمارة نرى الفقيه عبد الملك بن حبيب على علم ومعرفة بالتاريخ ، حيث عمد إلي تصنيف كتاب في التاريخ . وهذا الكتاب يتناول تاريخ العالم من ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق الله فيها ثم تاريخ آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء والرسل حتى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء حتى يصل إلي فتح الأندلس فيفيض في ذكر شأنها وما فيها من الكنوز ذاكراً لأساطير مختلفة عن الجان وأحوالهم . وقد أكمل هذا الكتاب بعد عبد الملك تلميذه ابن أبي الرقاع . ومما يذكر أن عبد الملك استعان في تأليف كتابه هذا ببعض شيوخه المصريين(١) .

وممن ألَّفَ في التاريخ والجغرافيا المؤرخ محمد بن موسى الرازي الذى قدم قرطبة سنة ٢٤٩هـ / ٨٦٣م وكان تاجراً في أول أمره ثم حصلت له حظوة لدي الأمير محمد ، وكان يندبه في مهمات صعبة كالاصلاح بين الثائرين والفصل في الخصومات الجارية بينهم ، ولمحمد بن موسى جهود موفقه في التاريخ والجغرافيا .

وقد أشار سفير مولاى إسماعيل إلى كارلوس الثاني ملك إسبانيا وذلك في كتابه « رحلة الوزير » إلى كتاب اسمه الرايات لمحمد بن موسى الرازي ، وأورد كلاما على لسان أحد علماء القرن الخامس الهجرى من أنه وجد نسخة

---

(١) أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص١٩٥ ـ أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج٣ ، ص٢٧٤ ـ ٢٧٥ ، وأشار أحمد أمين في كتابه المذكور ص٢٧٥ إلى هذا الكتاب بقوله (وقد عثر على هذا الكتاب ولا يزال موجودا في مكتبة أكسفورد في انجلترا ويقول من أطلع عليه أنه ليس له قيمة تاريخية كبيرة) .

من هذا الكتاب في خزانة الراضي بن المعتمد ويذكر فيها رايات المسلمين الداخلين الأندلس(١) .

ومحمد بن موسى الرازي المذكور أب لأسرة أنجبت علماء نوابغ في التاريخ والجغرافيا وسوف نتحدث عنهم عند تعرضنا لميدان التاريخ في عصر الخلافة .

وفيما يتصل بالفلسفة فلم يكن لها انذاك سوق نافقة لدى الأندلسيين الذين كانوا أبعد الناس عن الأشتغال بها . وإذا عدنا إلى الوراء قليلا وتذكرنا موقفهم من الخارجين على المذهب المالكي لاتضح لنا مدى نقمتهم الشديدة على الخارجين على السنة من ذوي الآراء الكلاميه والفلسفة .

ورغم ما تقدم فإنه ينسب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ادخال الفلسفة إلى الأندلس وذلك لما اتصف به من حب لها وشغف بكتبها . فقد كان يبث رجاله في الأقطار وخاصة المشرق للبحث عن كتب الفلسفة وتصانيف الفكر اليوناني والهندي والفارسي(٢) .

وقد أشار السيوطي والمقرى إلى أهتمام الأمير عبد الرحمن الأوسط بكتب الفلسفة وشبهه في ولعه بهذا العلم بالمأمون العباسي(٣) .

ومما يذكر عن الأمير عبد الرحمن الأوسط أنه أغدق الصلات على أهل العلم وقربهم إليه ، وأدنى مجالسهم ، وأنه كان يعقد مجالس العلم بين

---

(١) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد . العدد الثالث ، ج٧ ، ٨ ، ص ٢٢٤ ـ خير الدين الزركلي : الأعلام ، ج٧ ، ص١٧٧ .

(٢) ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس ، ص٦٣ .

(٣) تاريخ الخلفاء ، ص٥٦٦ ـ النفح ، ج١ ، ص٣٤٧ .

يديه ، ونظرا لاعجابه بالفلسفة فقد ترجم ما وصلت اليه يده من كتب الفلسفة اليونانية(1) .

ولما كان هناك ارتباط بين الفلسفة وعلم الكلام من حيث اعتماد العقل في الجدل والمناظرة . فقد وجد آنذاك علماء اقتحموا ميدان الكلام ، ومنهم يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة المتوفي سنة ٣١٥هـ / ٩٢٧م والذي رحل إلى المشرق وتعرّف على مدارس المتكلمين ومال إلى مذاهبهم واطلع على تصانيفهم ونتيجة لهذا فقد كانت له آراء في هذا الميدان تخالف كلام أهل السنة(2)

وقد عاش في عصر الإمارة الفليسوف محمد بن عبد الله بن مسرة كما أدرك عصر الخلافة فقد توفي سنة ٣١٩هـ / ٩٣١م . وسوف نتحدث عن حركته الفلسفية في ميدان الفلسفة في عصر الخلافة .

وبناء على ماتقدم يتضح أن هذه العلوم لم تكن خلوا من النشاط العلمي وإن كان هذا النشاط لم يبلغ ذروته إلاّ في عصر الخلافة ، ويمكن القول أن جهود الأندلسيين في هذه الدراسات كانت نواة لصرح علمي شامخ شهده عصر الخلافة فجهود الرازى في التاريخ والجغرافيا دفعت أبناءه من بعد ه إلى مواصلة السير في هذه الدراسات ، فكانوا من أبرز علماء التاريخ والجغرافيا في عصر الخلافة ، كما أن ابن مسره الذى عاش جزءاً من حياته في عصر الخلافة قد استمد ثقافته من حياته الأولى في العصر السابق .

وهكذا يتبين أن عصر الإمارة كان فترة خصبة نبتت فيها القدارت العلمية وترعرعت لتعطي ثمارها فيما بعد يانعة طيبة .

---

(1) إبراهيم الشريقي : التاريخ الإسلامي ، ص١٦٧ ـ السيد عبد العزيز سالم : قرطبة في العصر الإسلامي : مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثالث عشر ص٢٢ وما بعدها .

(2) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج٢ ، ص١٨٨ .

العلوم الطبيعية :

الحق يقال أن هذه العلوم لم تشهد اقبالا كبيرا في عصر الإمارة ، فقد ظهرت بوادر الاشتغال بها في منتصف القرن الثالث الهجرى في أواخر عصر الإمارة وذلك في عهد الأمير الخامس من أمراء بني أمية وهو محمد بن عبدالرحمن فقد (تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم . ولم يزالوا يظهرون ظهورا غير شائع إلى قريب وسط المائه الرابعة)(١) .

وكان علم الفلك وما يلحق به من التنجيم يجد له مكانة في نفوس بعض الحكام فيحدثنا المقري أن الأمير هشام بن عبد الرحمن أرسل في طلب أحد المنجمين ويدعى الضبي من أهل الجزيرة الخضراء وكان في بداية توليه هشام الإمارة ، وقد عرف الضبي بالبراعة في الفلك وأنه (كان في علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية بطليموس زمانه حذقا وإصابة)(٢) ولما حضر لدى الأمير طلب منه النظر في أمره من خلال مهارته فى التنجيم ودراسة ظواهره فأخبره بأنه سوف يحكم لفترة يستقر بها حكمه ، ويستقيم أمره إلا أنه سوف يدوم ثمانية أعوام فقط ، فتأثر الأمير بهذا الخبر وقال : لو أن هذه المدة كانت في سجدة لكانت قليلة ثم مال إلى الزهد والصلاح(٣) .

ورغم موقفنا من التنجيم وأن الشريعة الإسلامية دعت إلى نبذه ، ووصفت أهله بالكذب والإدعاء ، إلا أن هذه الحادثة تعطينا دلالة على ماكان للمشتغلين به من مكانة لدى الأمراء وفى قصور الحكام .

---

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص٨٦ .
(٢) نفح الطيب ، ج١ ، ص٣٣٥ .
(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

ومـن المشتغلين بالفلك أبو عبيدة مسلم بن أحمد بن أبي عبيده المعروف « بصاحب القبله . وقد عرف بهذا لأنه كان يسرب[1] في صلاته كثيرا ، وكان مهتما بعلم الفلك راصدا لحركات الكواكب وتأثيرها على الأرض وما ينتج عن ذلك . وقد وقف منه الأديب أحمد بن عبد ربه موقفا معاديا لخروجه على الشرع بما ادعاه من آراء فلكية حول الأرض واختلاف الفصول بين الشمال والجنوب ، فيقول من قصيدة له :

أبا عبيدة ما السؤال عن خبر ... تحكيه إلاّ سواء والذي سألا

أبيت إلاّ شذوذاً عن جماعتنا ... ولم تصب رأى من أرجى ولا اعتزلا

كذلك القبلة الأولى مبدلة ... وقد ابيت فما تبغي بها بدلا

زعمت بهرام أوبيذخت يرزقنا ... لا، بل عطارد أو برجيس أو زحلا

وقلت : إن جميع الخلق في فلك ... بهم محيط ، وفيهم يقسم الأجلا

والأرض كُريّة حَفَّ السماء بها ... فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلا

صيف الجنوب شتاء للشمال بها ... قد صار بينهما هذا وذا دولا[2]

ويتبين من خلال هذه الأبيات بعض الآراء العلمية التي كان يؤمن بها أبو عبيدة ، ومنها حقائق علمية معروفة ككروية الأرض ، وأختلاف الفصول باختلاف الموقع الجغرافي للأرض . وهذا آراء صحيحة ليس فيها ما يبرر هجوم ابن عبد ربه على ذلك الفلكي وخاصة إذا علمنا أن العلماء أثنوا عليه ووصفوه بالصدق والأمانة[3] .

---

(١) يقول عنه ابن الفرضي في كتابه تاريخ علماء الأندلس ، ج٢ ، ص١٢٦ ، (سمي بصاحب القبلة ، لانه كان مولعا بالتشريق في قبلته ، مفتونا بذلك فلذلك كان يقال له صاحب القبلة) .

(٢) صاعد : المصدر السابق ، ص ٨٦ ـ ٨٧ ـ احسان عباس : المرجع السابق ، ص١٢١، قدري طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ٢٦٣ .

(٣) انظر ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج٢ ، ص١٢٦ ـ ١٢٧ .

وكان ليحيى بن يحيى المعروف بالسمينة معرفة واسعة بالفلك والرياضيات إلى ما تميز به من ميول نحو الاعتزال وأهل الكلام(١) .

كما عُرفَ عن الأمير محمد بن عبد الرحمن نباهته في الرياضيات وخاصة في ميدان الحساب . وكان لذكائه في ذلك أن قام على محاسبة أهل خدمته ، وتعقب أمورهم المالية بنفسه ، ودلهم على مواضع الخطأ والزلل في أعمالهم من خلال معرفته وتفوقه في الحساب(٢) .

وأخيرا لا يفوتنا أن نشير إلي العلامة الفلكي الرياضي عباس بن فرناس الذي مَرَّ معنا في ميدان الشعر سابقا ـ فقد كان بارعا في الفلك ذكيا نبيها ـ في معالجة فنونه المختلفة إلى جانب مهارته في الهندسة وعمق معرفته بمسائلها ، وقد دفعه ذلك إلى صنع آلة لمعرفة الوقت وأسماها [المنقانة] وقد أحكم صنعها ونقش عليها أبياتاً منها :

ألاَ إنني للدين خير أداة　　　إذا غاب عنكم وقت كل صلاة (٣)

وله أعمال غير ذلك تشهد بنبوغه في الهندسة والفلك وقد نسب إليه من ذلك اختراع صناعة الكريستال (البلور) ، كما صنع في منزله هيئة السماء . يخيل للناظر فيها النجوم والرعود ، وتصور احتمال الطيران ، واحتال في ذلك فطار مسافة بعيدة إلا أنه لم يحسن الاحتيال في هبوطه فتأذى في مؤخره ولم يدر أن ـ الطائر إنما يقع على زمكه ولم يعمل له ذنبا(٤) .

وفيما يتصل بعلم الطب ، فقد كانت الحاجة اليه شديدة بطبيعة الحال فقد كان الحكام يحرصون أشد الحرص على أن يتوفر في قصورهم أعداد من

---

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص٨٧ ـ قدري طوقان : المرجع السابق ، ص٢٦٠ .

(٢) أخبار مجموعة (مؤلف مجهول) ، ص١٤١ ـ ١٤٢ .

(٣) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود مكي ، ص٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

(٤) لطفي عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ، ص٥٦ ـ ٥٧ ـ MuslimSpain - its History and: cul ture, P. ١٦٣

الأطباء يقومون على علاجهم ووصف مايحتاجون إليه من الأدوية والأغذية المناسبة لصحة أبدانهم ، لهذا نرى أن المشتغلين بالطب آنذاك كان موطن نشاطهم مقصورا على قصور الحكام والأعيان تقريبا .

ووصف صاعد الطليطي بداية اشتغال الأندلسيين بالطب بأنه لم يكن بالأندلس من استوعبها ولا لحق بالمتقدمين فيها . وإنما كان غاية أكثرهم دراسة بعض فروع وشيئا من وجوه الطب والتداوي ليتسنى لهم بذلك اللحاق بخدمة الحكام رغبة في الجاه والمنزلة وأنهم كانوا يعولون في دراستهم للطب على كتاب للنصارى يدعي الابريشم(١) .

والحق أن هؤلاء الأطباء بمنهجهم هذا قد تخلوا عن دراسة الطب دراسة العلم والمعرفة إلى دراسته من أجل المصلحة والمنفعة المادية ، وهذا بلا شك كفيل بان يحد من تعمقهم في دراسة الطب دراسة صحيحة ليكون علمهم قاصرا على بعض أساليب التداوي التي يرونها ضرورية في علاج من يقومون علي خدمتهم من الأمراء والحكام ووصف الأغذية المفيدة لهم . ولهذا نلمس أنه لم يظهر آنذاك طبيب بارع حاذق في الطب عارف به معرفة واسعة بخلاف عصر الخلافة الذى أنجب أطباء كان لهم شهرة عالمية بفضل مابلغوه من علم واسع بالطب ومناحيه المختلفة .

ومن أطباء تلك الفترة يونس بن أحمد الحراني الذي تبوأ مكانة عالية لدى الأمير عبد الرحمن الأوسط ، ومما جرى لذلك الطبيب في قصر الإمارة أن نصر الخصي أقدم على محاولة قتل الأمير عبد الرحمن ، عندما رفض ان يستجيب لحظيته طروب في توليه ابنها عبد الله ولاية العهد بدلا من محمد ، وكان لرفض الأمير أثره في اغضاب طروب وخادمها نصر ، ففكر الأخير فيما لو تولى الأمير محمد بعد أبيه كيف يغفل عن موقفه هذا؟ وانتهى إلى الذهاب

(١) طبقات الأمم ، ص١٠٣ ـ ١٠٤ .

إلى الطبيب الحرانى الذى اغراه بمنصب كبير على رغبته في عمل شراب يحوى سمًا ليتمكن من ادراك هدفه بقتل الأمير عبد الرحمن . وكان من عادة الاميران يصيبه فتور فيشرب دواءً يَسْكُنُ أله على أثره وفي مثل تلك الحالة شكى الأمير علته فسارع نصر إلى الحيراني ، وطلب منه السم ، لكن الطبيب أخبر جارية الأمير قبل أن ينفذ نصر خطته . وعندما أحضر الدواء تظاهر الأمير بعدم رغبته في ذلك . وطلب من نصر أن يشربه بدلا منه فاظهر التردد ولكن الأمير اكرهه على شربه فشربه ثم ـ انطلق إلى داره يسأل عن الطبيب ويستخبره عن دواء يمنع مفعول السم فأشار عليه بلبن الماعز ولكن السم كان أسرع مفعولا فمات نصر قبل حصول ذلك(١) .

ومن خلال هذه القصة نلمس ما كان عليه الأطباء آنذاك ، وما كانوا يتمتعون به من مكانة داخل قصور الأمراء ، وأن مهمتهم كانت خطيرة ، تتعلق بحياة الأمراء وسلامتهم ولهذا فقد كانت الأمانة أولى الصفات التي يراها الحكام في اطبائهم .

ويتصل بالطب حقل الصيدلة وتركيب الأدوية ، وبرز في هذا الميدان حمدين ابن إبان وكان في عصر الأمير محمد بن عبد الرحمن وقد وصف هذا الطبيب بالمهارة في تركيب الأدوية وحسن العلاج . وعلى منواله الطبيب النصراني جواد (٢٠٧ هـ ـ ٢٧٢ هـ/ ٨٢٢م ـ ٨٨٥م) الذى برع في تركيب الأدوية وضع العقاقير والوصفات الطبية النباتية . وكان الطبيب النصراني خالد بن يزيد بن رومان ماهرا في تركيب الأدوية ، جيد العلاج يستند في علاجه إلى التجارب الطبية وكانت تربطه بالطبيب المصرى النصراني نسطاس

(١) ابن حيان : المصدر السابق ، ص ١٤ ـ ١٥ .

بن جريج علاقة صداقة وود وكانت بينهما مراسلات علمية حيث أرسل الأخير إلى خالد رسالة طبية في البول وحالته تبعا لحالة المريض(١) .

ويلحق بهؤلاء الأطباء الطبيب النصراني يحيى بن اسحاق وكان طبيبا لدى الأمير عبد الرحمن الناصر قبل اعلانه الخلافة ، كما أن أباه اسحاق كان طبيبا لدي الأمير عبد الله ، وكان لتضلع يحيى في الطب أن ألف كتابا في خمسة أسفار سلك في تأليفه مسلك الأوائل وسماه الابريشم (٢).

والجدير بالذكر أن القفطي أشار إلي أن يونس الحراني السالف الذكر كان في بداية دخوله الأندلس قد أدخل معه دواء من الشراب كانت السقية منه بخمسين دينارا وذلك لعلاج الأوجاع الباطنية وما يتعلق بذلك مما كان سببا في تهافت الناس عليه فعلت حاله واثرى ثراء كبيرا . وقد اجتمع عشرة من الأطباء فاشتروا شيئا من هذا الدواء وفحص كل منهم جزءاً منه فوقفوا على اهميته ونفاسته وسألوا الحراني عن تركيبه واعداده فاعلمهم بسر ذلك مما كان له أثر في انتشار ذلك الدواء وتفشي طريقة تركيبه واعداده بين أطباء ذلك العصر(٣).

وهذا بلاشك يعطينا دلالة على التأثير المشرقي في الأندلس . وكيف أن الأندلسيين كانوا كثيري الاهتمام بكل ما يصلهم من تأثيرات علمية فيد رسوها ويضيفوا اليها ولم يلبثوا حتى ابتكروا أساليب جديدة للعلاج اسهموا بها في نمو الدراسات الطبية وبذلك كانوا أهل عطاء وبذل في ميدان الحضارة الإنسانية .

---

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٦ ـ بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢ .

(٢) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١٠٠ ـ ١٠١ ـ صاعد : المصدر السابق ، ص ١٠٤ ـ ابن ابي اصيبعه : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٨٨ .

(٣) اخبار العلماء باخبار الحكماء : حرف الياء ، ص ٢٥٨ . وانظر عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ١٢٥ .

ويبدوا لنا بعد هذا العرض الموجز للنشاط العلمي في عصر الإمارة أن الآثار العلمية التي وصلت إلينا* عن الأندلس في هذه الفترة قليلة ، وهذا يعود إلى عاملين :

أولهما :

ضياع تلك الآثار بالفتن وبالزمن .

وثانيهما :

أن الأندلسيين كانوا كثيرى الاعجاب بالمشارقة يأخذون عنهم علومهم ومعارفهم وأن الإنتاج العلمى للأندلسيين لم تتضح آثاره إلا بعد القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادي . (١)

هذا بالإضافة إلى الأندلسيين كانوا في عصر الإمارة أكثر اهتماما واشتغالا بعلوم الدين التي ترتبط بعقيدتهم . فكان الفقه والحديث واللغة والنحو والشعر يغلب على نشاطهم العلمي ثم مالبثوا أن انطلقوا في ميادين العلم الأخرى في العصر التالي .

(١) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، ص ٥٧٦ .



القسم الأول

دراسة لأهم مظاهر النشاط العلمى في عصر الخلافة



القسم الأول

الفصل الأول

اهتمام الخلفاء بالحركة العلمية

ـ عبد الرحمن الناصر
ـ الحكم المستنصر
ـ هشام المؤيد (والمنصور بن أبي عامر وولده عبدالملك)
ـ أثر قيام الفتنة وسقوط الخلافة على الحركة العلمية .

الخليفة عبدالرحمن الناصر (٣١٦ ـ ٣٥٠هـ / ٩٢٨ ـ ٩٦١ م)

كان للخلفاء أثر في ازدهار الحركة العلمية في الأندلس . كما أن عصر الخلافة الأموية في الأندلس يمثل الانطلاقة الواسعة في ميادين الحضارة والبناء الفكرى .

ولاشك أنه كان للاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي أثر واضح في انصراف الرعية نحو ميادين النشاط الحضارى بمختلف وجوهه ، وقد تسنى للخليفة عبد الرحمن الناصر الذى اعتلى سدة الأمر سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م أن يقر الأحوال ، ويقضي على الفتن ، فقد تولى السلطة في البلاد في وقت كانت فيه في غاية من الفوضى والخروج على نظام الأمن والأستقرار حتى وصفها أحد المؤرخين بقوله :

(جمرة تحتدم ، ونار تضطرم شقاقا ونفاقاً ، فأخمد نيرانها ، وسكن زلزالها)(١)

وبعد أن قويت قبضته على البلاد وتم له الأمر ، ودانت له الأندلس تلقب بأمير المؤمنين سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م . وذلك بعد أن رأى ضعف العباسيين بالمشرق . وتغلب الأتراك عليهم . وبعد أن رأى خصومه الفاطميين قد تلقبوا بألقاب الخلافة وتسموا بالخلفاء (وظهر من اتساع ملكه ، وقوة سلطانه واقبال دولته ، وخمود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاعته ماتعجز عن تصوره الأوهام . وتكل في تحبيره الأقلام)(٢)

وكان لنشأة عبد الرحمن الناصر أثر كبير في سيرته وفي موقفه من النشاط العلمي في الأندلس فما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من صغره نباهة وتفوقا في العلوم والمعارف فقد درس القرآن والحديث

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج٢ ، ص ١٥٨ .

(٢) ابن الآبار : الحلة السيراء ، ج١ ، ص١٩٧ ـ ١٩٨ ـ ١٩٩ .

وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع في اللغة والشعر إلى جانب فنون الحرب والفروسية(١) .

ومن العلماء الذين تلقى على أيديهم العلم الفقيه المحدث قاسم بن اصبغ البياني (٢٤٤ ـ ٣٤٠هـ / ٨٥٨م ـ ٩٥١م) فقد سمع منه العلم ، وأخذ عنه الفقه والحديث وعلوم الدين بوجه عام ، وذلك قبل توليه الخلافة(٢) .

وإذا كنا محقين في أن ألمع فترة علمية شهدتها الأندلس كانت في عصر ابنه الحكم المستنصر الذي لا تخلو ترجمته في أي كتاب من الثناء والإشادة بفضله العظيم على الحركة العلمية ، فإنه من الحق أيضا أن ننسب جانبا كبيرا من ذلك الفضل إلى أبيه الذى أرسى قواعد الحضارة ، ومهد للنبوغ الفكري ، والتقدم العلمى في بلده ، فلم يتسلم الحكم المستنصر الحكم في الأندلس إلا بعد أن بذر أبوه بدور العلم والمعرفة ، وغرس شجرة الفكر التي اينعت ثمارها في عصر ابنه الحكم المستنصر .

وفضلا عما اتصف به عبد الرحمن الناصر من حزم وقوة وحنكة سياسة . فقد كان (يرتاح للشعر . وينبسط إلى أهله . ويراجع من خاطبة به من خاصته)(٣) وفي هذا إشارة إلى ماكان يتمتع به من ملكه أدبية حملته على الأهتمام بالشعر والتقرب إلى ذويه من الشعراء وأهل الأدب . ومما دفعه إلى الاهتمام بالأدب والشعر ما كان يتصف به هو من إجادة للشعر ، هذا وتحفل بعض كتب التاريخ والأدب بنماذج من شعره(٤) .

---

(١) محمد عنان : تراجم اسلامية ، ص١٦٧ .

(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

(٣) ابن الآبار : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٩٩ ـ ٢٠٠ .

(٤) انظر في هذا الصدد ابن الآبار : المصدر السابق ج١ ، ص١٩٩ ـ الازدي : بدائع البدائه ص١٩٥ ـ ١٩٦ ـ المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص٣٧٩ ـ ٣٨٠ ، كما وينسب اليه اجادته للنثر وبراعته فيه انظر ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج١ ، ص١٨٤ ـ ١٨٥ ـ ١٨٦ .

ولعلّ من دلائل اهتمامه بالأدب وعنايته بالشعر أن امر بانتساخ شعر أبي تمام الطائي ـ حبيب بن أوس الطائي ـ وجمع لذلك طائفة من أدباء الأندلس لتحقيق رغبته تلك[1].

وكان بلاط عبد الرحمن الناصر يحفل بالكثير من العلماء والأدباء ، فقد ضم قصره العلامة الأديب أحمد بن عبد ربه . وكذلك أديب المشرق أبا علي القالي الذى وفد في عهده وتبوأ مكانة سامية بين علماء بلاط الخلافة في قرطبه ، كما أنه كان بين فقهاء عصره منذر بن سعيد البلوطي ، وقاسم بن اصبغ البياني ، ومن الأطباء خلف بن عباس الزهراوى أعظم جرّاح في الإسلام إلى غير ذلك من أهل العلم والمعرفة الذين تيسر لهم الإنصراف إلي العلم في مناخ مناسب كفل لهم سبل العطاء والإنتاج العلمي ، وقد كان عبد الرحمن الناصر مكرما لهم حريصا على وضعهم فيما يناسبهم من المنازل ، كما آجتهد في تخير قضاته من أولي العلم والمعرفة[2] .

وكان لاهتمام عبد الرحمن الناصر بالعلم ، وشغفه بالكتب . أن اشتهر ذلك عنه حتى بلغ ملوك عصره ـ فأحب أحدهم وهو الامبراطور البيزنطي ارمانوس أن يرسل له هدية علمية تحوز على رضاه ومودته ، فبعث إليه (٣٣٧هـ / ٩٤٨م) بكتابين من تصنيف الأوائل . أحدهما في الطب وهو كتاب ديسقوريدس في النبات مصورا وباللغة الاغريقية والثاني في التاريخ وهو كتاب هروشيش باللاتينية[3] .

وكان لعنايته بالعلم والمعرفة ان اندفع إلى جمع الكتب والعمل علي حيازتها ، وينسب إليه تأسيسه نواة المكتبة الكبرى التي ازدهرت في عهد ابنه

(١) الزبيدي : طبقات النحويين ، ص٣٠٦ ـ ٣٠٧ .

(٢) الاشبيلي : ريحان الالبان وريعان الشباب (مخطوط) ورقة ١١٣٩ .

(٣) ابن أبي اصبعه : عيون الأنباء ، ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤ ـ أحسان عباس : المرجع السابق ، ص٦

الحكم المستنصر، فقد أسس مكتبة قيمة في قصره وخزن بها الكتب النفسية والتآليف النادرة في وجوه العلم المختلفة ومنها هدية ارمانوس(1) .

وبناء عليه فإن عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر كان بداية مجيدة لعصر عظيم ازدهرت فيه العلوم والآداب ، وانصرف العلماء فيه إلى تحصيل العلم وتصنيف الكتب في شتى حقول المعرفة . ولا ريب في ذلك فان الكثير من كتب العلم التي ألفت في عهده لتدل على ما اتسم به من مناخ خصب نمت فيه القدرات العلمية فأعطت ثمارا يانعة في ميدان الفكر وأصبحت حاضرة الخلافة قرطبة داراً للعلم ومركزاً ثقافياً زاهراً استقطب العلماء من أقاصي البلاد ، وجذب الطلاب من نواحي الأندلس المختلفة بل ومن خارجها في صورة تؤكد عظمة ذلك العصر ومدى ماحققه الأندلسيون من نشاط علمي كبير .

وكانت وفاة الخليفة عبد الرحمن الناصر (عام ٣٥٠هـ / ٩٦١م)(2) بعد أن قضى في الحكم ما يقارب نصف قرن ، وفي الخلافة أربعة وثلاثين عاما تقريبا . حفلت بجلائل الأعمال وروائع الأنشطة في الميادين السياحية والاقتصادية والعسكرية والعلمية .

---

(1) ماهر حمادة : المكتبات في الإسلام ، ص١٢٢ ـ آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ١٠ .

ـ الامبراطور ارمانوس ١ هو قسطنطين السابع ، تولى الحكم من سنتى ٩١٢ إلى ٩٥٩م وكان في بداية توليه الحكم صغيرا . فقام بالوصاية عليه عمه ، ثم انفرد بالحكم سنة ٩٤٥م .

ـ وعرف عنه ميله إلى العلم والأدب وعنايته بالكتب . (سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص٤٠٨ ـ ٤٠٩ .

(2) جانب أبو عبد الله الأشبيلي الصواب في كتابة المخطوط ريحان الألباب ورقة ١٣٩ . عندما ذكر أن الخليفة عبد الرحمن الناصر توفي عام ٣٤٥هـ . ولكن الحقيقة أن وفاته كما أكدت المصادر التاريخية كان عام ٣٥٠هـ/ ٩٦١م . انظر في ذلك ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج١ ،ص٧ .

والحميدى : جذوة المقتبس ، ص١٣ . والضبي : بغية الملتمس ، ص١٧ .

الحكم المستنصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ / ٩٦١ ـ ٩٧٦م) :

يعد هذا الخليفة بدون مبالغة أعظم خلفاء الأندلس علماً وأدباً ، فقد كان له عناية واهتمام بالغين بكل ماله صلة بالعلم والمعرفة وأكسبه ذلك علما واسعا ، وادراكا سليما لقضايا العلم حتى أصبحت آراؤه في ميدان العلم حجة لدى العلماء(١) .

وكان لحبه للعلم وشغفه بألوان المعرفة أن كان سباقا إلى ميدانها فأسهم في ازدهار الحركة العلمية في عصره اسهاما بارزا ، ولا نبالغ اذ اعتبرناه بجهوده العلمية رائدا للنهضة العلمية في عصر الخلافة .

وكان لنشأة هذا الخليفة أثر كبير في تشكيل سلوكه تجاه الحركة الفكرية فقد درس على الكثير من العلماء ، منهم الأديب محمد بن إسماعيل القرطبي (ت ٣٣١هـ/٩٤٢م) الذى تلقى على يديه بعض العلوم كالأدب والنحو والحساب وأفاد منه دراسة العلوم بطريقة تحليلية عميقة . إذ وصف هذا الأديب بعمق التفكير ودقة التعبير في اشتغاله بالعلم(٢) .

ودرس علوم الدين من حديث وتفسير وفقه على يد العلامة قاسم بن أصبغ الذي رحل إلى المشرق حيث جلب معه مصنفات وعلوماً كثيرة فأفاد منها الحكم ودرس على يديه هو وإخوته أيضا(٣) .

وممن استفاد منه الحكم واقتبس من علمه ، اللغوي علي بن معاذ بن سمعان الرعيني وكان من أهل الأدب واللغة إلى جانب مهارته في التاريخ والانساب وقد استقدمه الحكم إلى قصره حيث أخذ عنه الكثير من المعارف(٤) .

---

(١) ابن الآبار : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٢ ، ص٢١٠ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(٤) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص ٤١٠ .

بالاضافة إلى ذلك فقد سمع من علماء آخرين كأحمد بن دحيم ، ومحمد بن عبد السلام الخشني ، وزكريا بن خطاب واجاز له ثابت بن قاسم بعد ان بلغ الحكم درجة من الحفظ والمعرفة(١) .

كل هؤلاء العلماء وغيرهم كان لهم تأثير في تكوين شخصية الحكم الثقافية فقد افاد منهم إفادة عميقة في ميادين العلوم الدينية والادبية والتاريخ والأنساب .

شخصية الحكم العلمية :

لقد نتج عن اقبال الحكم على دراسة العلوم رالاداب ، ومجالسته للعلماء أن أثّر ذلك في شخصيته تأثيرا واضحا . فظهرت عليه علائم النبوغ الفكري ، ودلائل التفوق العلمي في دراساته العلمية المختلفة . مما كون لديه نظرا صائبا وعميقا لمسائل العلم . وكان في حياته شديد المطالعة لكتبه . دائم النظر فيها يتبع في قرأتها النظرة التحليلية والفكر الثاقب (فيأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد الاعنده لكثرة مطالعته ، وعنايته بهذا الفن ، وكان موثوقا به مأمونا عليه صار كل ماكتبه حجة عند شيوخ الاندلسيين وأئمتهم ، فينقلونه من خَطِّه ويحاضرون به)(٢)

وقد أشاد به المؤرخون ووصفوه بالإطلاع الغزير والنظرة العميقة الفاحصة لما يقرأه من كتب العلم(٣) .

---

(١) المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص٣٩٥ .

(٢) ابن الآبار : الحلة السيراء ، ج١ ص٢٠٢ .

(٣) انظر في ذلك كل من : ابن الخطيب : أعمال الأعلام . ص٤١ ـ المقرى : النفح ، ج١ ص٣٩٥ ـ ستانلي لين بول : قصة العرب في اسبانيا ترجمة علي الجارم ، ص١٤٢ ـ أنيس الفصولي : الدولة الأموية في قرطبة ، ص١٢٢ ـ روم لاندو : الإسلام والعرب . ترجمة منير بعلبكي ، ص١٧٧ ـ زكريا هاشم : فضل الحضارة الإسلامية ، ص٢٧٠ ـ آنخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص١٠ ـ زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب . ص٥٠١ ـ مصطفى الشكعه : الأدب الأندلسي ، ص١٠٣ ـ أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص٤٢٣ .

ومن الأمثلة على أن أقوال الحكم كانت حجة لدي العلماء ما أشار إليه الحميدي عند ترجمته للأديب ابن عبد ربه حيث بعد ايراده تلك الترجمة (هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر وخطه حجة عند أهل العلم عندنا لانه كان عالما ثبتا) . (١)

وعليه فإنه لسعة اطلاعه وغزارة علمه وثقافته فقد تولد لديه نظرات صائبة واراء قيمة في فروع العلم وفنونه المختلفة ، وكان يعلق على كتبه بل ويصحح ما اخطأ فيه غيره من العلماء فلم يكن همه جمع الكتب وحشدها في خزائن قصره ، بل كان يطّلع عليها ويناقش ما يرد فيها ببصيرة نافذة ورأي حكيم ، يعنيه في ذلك ثقافته وتكوينه العلمي وفى هذا يقول ابن الابار (وقلما تجد له كتابا كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أيّ فن كان من فنون العلم : يقرؤه ويكتب فيه بخطه إما في اوله أو آخره أو في تضاعيفه نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ويذكر انساب الرواه له)(٢) .

وهكذا يبدو واضحا القدر العلمي العظيم في شخصية الحكم . وكيف كان لحياته الحافلة بالعلم وحبه للكتاب أثر كبير في علو مكانته العلمية ورسوخه في فنون العلم .

ومما روى له من كتابات وتعاليق علي الكتب التى طالعها ما ذكره القاضى صاعد في ترجمته للمؤرخ اليمنى الحسين بن أحمد الهمداني مانصه : (ووجدت بخط أمير الأندلس الحكم المستنصر بالله عبد الرحمن الناصر لدين اللـه ـ أن أبا محمد الهمداني توفي بسجن صنعاء في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة)(٣)

---

(١) جذوة المقتبس ، ص١٠١ .

(٢) الحلة السيراء ، ج١ ـ ص٢٠٢ .

(٣) طبقات الامم . ص٧٩ ـ ٨٠ .

ولا ريب بعد ماذكرنا أن الحكم المستنصر قد قدم إلى الحركة العلمية دفعة من النشاط فكان من نتائج علمه الواسع ومعرفته العميقة بالتاريخ أن صنف كتابا في أنساب الطالبين والعلويين القادمين إلى المغرب(١) ، وقد استعان في تأليف ذلك الكتاب بما كان يتلقفه من أفواه العلويين الذين يفدون عليه سواء في ولايته للعهد أو بعد توليه الحكم . فقد عرف عنه حبه للعلماء وشغفه بعلم الأنساب ، ورغبته في معرفة أنساب الناس وتبيينها لمن خفي عليه ذلك، يدل عليه ما ذكره ابن الابار من اهتمامه بأنساب المؤلفين ومن يروي لهم .

وإلى جانب ذلك فقد كان للحكم اهتمام بالادب وكان يقرض الشعر ونسبت إليه أشعار كثيرة(٢) .

وكان لغلبة النشاط العلمى في عهد الحكم المستنصر اثر في ذهاب بعض الكتاب كستانلي لين بول إلى القول بان انصراف الحكم إلى العلم واهتمامه بالكتب وعنايته بها قد ادى عدم تطلعه إلي الغزو والجهاد من جهة وإلى اغفاله تربية ابنه هشام الذى لو اهتم به لما حدث من تغلب الغير على السلطة من جهة اخرى(٣) .

وسوف نتناول هناك التهمة الأولى ونؤجل الأخرى إلى حديثنا عن هشام المؤيد ، فالحق يقال أننا لو أمعنا النظر في سيرة الحكم المستنصر لادركنا مجانبة الأستاذ المذكور للصواب في نقده الموجه للحكم الذى لم يكن ليغفل عن تبعاته الجسام ، ويتوانى عن قتال أعدائه وجهادهم وحسم وجوه الفتنة والاضطراب فقد أمدنا التاريخ بما يثبت أن الحكم كان إلى جانب كونه عالما

---

(١) المقدري : النفح ، ج٣ ، ص٦٠ ـ البغدادي : هدية العارفين ، ج١ ، ص٣٣٣ .

(٢) انظر في هذا الصدد : ابن الابار : الحلة ، ج١ ، ص٢٠٣ ـ المقري : النفح ، ج١ ، ص ٣٩٥ .

(٣) قصة العرب في اسبانيا ، ترجمة على الجارم ، ص١٤١ ـ ١٤٣ .

كان مجاهدا أيضا ورجل سياسة فيقول الحميدى : (وكان الحكم المستنصر مواصلا لغزو الروم ، ومن خالفه من المحاربين)(١) .

كما أن ابن الخطيب وصفه بالهمة العالية في الجهاد وان ملوك عصره هادنوه وسالموه لقوته وبأسه(٢) .

ولا ننسى أن عصر الحكم كان يعتبر عصر سلام نسبي من ممالك النصارى . وذلك بعد جهود أبيه عبد الرحمن الناصر وعقده معاهدات الصلح مع ممالك النصارى ، وإذا قيس عهد الحكم بعهد ابيه عبد الرحمن من حيث جهاده لملوك النصارى وبعهد المنصور بن أبي عامر فإن عهد الحكم يعتبر عهد سلام نسبي . ورغم هذا فان الحكم كان يعد نفسه للجهاد مثلما يعدها لقراءة كتب العلم والاشتغال بالمعرفة .

اهتمام الحكم المستنصر بالنشاط العلمي ووسائله في ذلك :

اتبع الحكم في دفع عجلة العلم في بلاده وسائل عديدة ، وقد نجح في غايته هذه فمن أهم تلك الوسائل الناجحة مايلي :

أولاً : العناية بالعلوم وتشجيع العلماء على البحث والتأليف :

فقد سعى إلى تقريب أولي العلم والمعرفة واكرامهم وتهيئة المناخ الملائم الذى يستطيع فيه اولئك العلماء الانصراف إلى العلم والبحث العلمي في حقول المعرفة المختلفة . وبالتالي تيسير السبل أمام الانتاج الفكرى حسب تخصص كل منهم ، وفي هذا يقول الاشبيلي (وفي أيامه كثر العلماء وأدلوا بما عندهم وأُلفت التواليف وصنفت التصانيف)(٣)

---

(١) جذوة المقتبس ، ص١٦ ، وانظر المراكشي : المعجب ، ص٤٥ ـ والمقري : النفح ، ج١ ، ص٣٨٨ ـ ٣٩٣ .

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج١ ، ص٤٧٨ .

(٣) ريحان الالباب (مخطوط) ورقة ١٣٩ أ .

ومن العلماء البارزين في عهده في ميدان العلوم الدينية يحيى بن عبدالله ابن يحيى الليثي ومحمد بن قاسم الثغري ، وابن الفخار ، وأبو محمد عبدالله ابن شريعة اللخمي ، ويعيش بن سعيد الوراق ، وأحمد بن محمد بن مفرح ـ وغيرهم .

وفي ميدان الأدب واللغة برز أبو علي القالي ، والحسن بن الوليد ، واحمد بن فرج الجياني ، وعبدالله بن مغيث (ابن الصفار) ، ومحمد بن الحسن الزبيدي ، وابن القوطية .

وفي الطب ، ظهر عريب بن سعد ، وسليمان بن حسان المعروف (بابن جلجل) ، وأحمد بن يونس الحراني ، وخلف بن عباس الزهراوي الذى يعد انبغ أطباء الجراحة في الإسلام .

وفي الرياضيات والفلك ، ظهر مسلمة بن أحمد المجريطى ، وابن السمح ، وابن الصفار ، وابن زيد الاسقف القرطبي وغيرهم كثير .

كل هؤلاء العلماء اسهموا في ازدهار العلوم والآداب بما أضافوه من ضروب الإنتاج العلمي القيم . وهو ما سوف نأتي على ذكره فيما بعد .

ثانيـــاً :

من الوسائل التي اتبعها الحكم في النهوض بالمستوى العلمي العناية بالكتب والاهتمام بجمعها وحيازتها من كل مكان ، ذلك أن الحكم رأى أنه لن يتم نشاط علمي في بلاده ولن يستطيع ربط المشتغلين بالعلم في وطنه إلاّ بتوفير وسائل الثقافة والعلم لهم . فكان حرصه علي الكتب ناتجا عن اهتمامه العلمى ورغبته في تيسير الامكانيات العلمية لشعبه ، وقد بلغ من حبه للكتب وشغفه

بها أنه لم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغه في اقتناء الكتب والدواوين وايثارها والتهمم بها(١) .

ونتيجة لهذا الإهتمام البالغ بالكتب باعتبارها أوعية العلم ومصادره فقد كان للحكم المستنصر وسائل اتبعها في جمع الكتب وحيازتها ، وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل عند حديثنا عن اهتمام الأندلسيين بالكتب .

ثـالثـــاً :

عناية الحكم المستنصر بالعلم ، فقد كان لحرصه علي توفير المناخ العلمي المناسب لرعيته ، عظيم العناية بشئون التعليم وتوفيره لأفراد الرعية وسنفصل القول عن ذلك في موضعه .

---

(١) ابن الآبار ـ الحلة السيراء ، جـ ١ ، ص٢٠١ .

هشام المؤيد بن الحكم والمنصور بن أبي عامر وابناه عبدالملك وعبد الرحمن :

من الحق أن نقول أن هشام المؤيد بن الحكم لم يكن له من الامر شيء ، ذلك ان المنصور محمد بن أبي عامر المعافري استطاع أن يتدرج في مناصب الدولة اثناء عهد الحكم المستنصر ، وقد تظافرت عدة عوامل علي بروزه وتألق نجمه ، منها ما اتصف به من عقل راجح وأدب وعلم إلى جانب حنكته السياسة في انتهاز الفرص واغتنامها بالإضافة إلى ما تمتع به من جراءة واقدام حتي استطاع أن يتسنم مناصب رفيعة في الدولة إلى أن بلغ به الأمر تولي وكالة املاك زوجة الخليفة الحكم (السيده صبح) التي رأت في محمد بن أبي عامر معالم الذكاء وقوة الشخصية فركنت إلى رأيه وتصرفاته ، فلما توفي الخليفة الحكم المستنصر ضمن لها بتصرفه السليم استقرار الأمر لابنها هشام ، وكان يستمد نفوذه من مكانه السيدة صبح باعتبارها أم هشام المؤيد . فاستمال إليه الجيش ، وقرب إليه أعيان الدولة ، وما زال يضرب منافسيه بعضهم ببعض حتى استقر له الأمر فحجب هشام المؤيد وتولى السلطة الفعلية في البلاد(١) .

وبناء على ماتقدم فان حديثنا سيكون عن شخصية المنصور بن ابي عامر ومدى ما اسهم به في تطور الحركة العلمية انطلاقا من كونه صاحب الأمر والشأن في الدولة بعد أن أسدل على الخليفة هشام ستاراً من العزلة ، وحجر عليه ، مما أبعده عن النظر في مهمات الأمور التي تناط بأصحاب الأمر عادة(٢) .

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .

(٢) عزى ستانلي لين بول ضعف شخصية هشام المؤيد وعدم قدرته على الاضطلاع بمهمات الدولة إلى انهماك أبيه الحكم المستنصر في العلم وانشغاله بالكتب . والحق أن الحكم المستنصر لم يكن غافلا عن تربية ابنه هشام فقد حرص على تنشئته نشأة سليمة بأن عَيَّنَ لتربيته وتعليمه كبار العلماء ومنهم العلامة أحمد بن محمد القسطلي الذى ذكر عنه ابن حيان في المقتبس ، ج٣ ص٧٦ ـ ٧٧ أن الخليفة الحكم خصص له قسما في دار الملك =

أما عن المنصور بن أبي عامر فقد نشأ نشأة علمية ، حيث كان تلميذا نبيها تجلت فيه ملامح الذكاء ، والفطنه منذ أن كان صغيراً ، وأصله من الجزيرة الخضراء (١) شريف المنبت ، كريم الاصل ، ولما كانت قرطبة تمثل النهضة الحضارية والعلمية بوجه خاص فقد شدّ رحاله إليها ، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث ، ومهر في ذلك(٢) . وأظهر المنصور نبوغا في دروسه ، وما تلقاه من علوم ، وكان من أساتذته الذين تلقي العلم عليهم الأديب أبو علي القالي ، حيث أخذ عنه الأدب واللغة ، ودرس على ابن القوطية النحو كما درس الحديث على العلاّمة أبي بكر بن معاوية القرشي(٣) .

وكان لتكوينه العلمي ونشأته الثقافية أثر كبير في سلوكه وموقفه من الحركة العلميـة، والجدير بالذكر أن الحركة الأدبية بلغت في عهده منزلة رفيعة، حيث كان يوليها رعايته واهتمامه ، ولم يكن تشجيعه للشعراء والأدباء مجرد استيفاء لمظهر من مظاهر السيادة ، واستكمال لوجوه الابهة مما يفعله ذوو السلطان والحكم عادة بل كان ذلك لتذوقه الأدب والشعر(٤) .

= لتعليم ابنه هشام وان الحكم حضر إحدى جلساته العلمية فأعجب باقبال ابنه هشام على العلم ويشير ابن حيان أيضا في نفس الجزء إلى تلقي هشام التعليم على يد العلامة يحيى بن عبدالله الليثي . كما يذكر آنخل بالنثيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٦٤ أن هشاما تلقي تعليمه في الحساب والعربية على محمد بن الحسم الزبيدي . ولهذا فلم يكن الحكم غافلا عن تربية ابنه هشام . واما عن انتقال السلطة إلى غيره فقد اتت كنتيجة حتمية لصغر سنة والذى قدره ـ الحميدي في كتابه جذوة المقتبس ـ بعشرة أعوام وأشهر .

(١) الجزيرة الخضراء وسطى مدن الساحل الجنوبي واقرب مدن الاندلس مجازا إلى العدوه وهي أول ما فتح من الاندلس (الحميري : الروض المطار ، ص٧٤) .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص٧٨ ـ ابن الاثير : الكامل ج ٨ ، ص٦٧٨ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص٢٥٧ .

(٤) علي أدهم : المنصور بن ابي عامر ، ص١٥٦ ـ ١٥٧ .

اهتمام المنصور بن أبي عامر بالحركة العلمية :

لئن وَسَمَ التاريخُ المنصور بسمة المستبد بالحكم ، فان التاريخ ايضا لا ينسى له حسناته ومآثره السامية . ولئن قلنا إن الأدب والشعر لم يبلغ ذروة نشاطه الا في عهده لما بالغنا في ذلك ، فقد احتشد في بلاطه نوابغ العلماء وجهابذة الأدب ، وكان يوليهم رعايته ويغدق عليهم ضروب الكرم والعطاء . فمن ادباء بلاطه المذكورين صاعد بن الحسن الربيعي ، وكان متضلعا في الأدب واللغة والشعر وقد احتل مكانة سامية بين أدباء قرطبة ، كما أن الأديب حسان بن ابي عبده كان له باع طويل في الأدب والشعر . ويماثله الأديب زيادة الله بن علي ، وفي الشعر ضم بلاط المنصور شاعرين يعتبران من أنبغ ما أخرجته الأندلس من الشعراء ، وهما يوسف بن هارون الرمادي وأحمد بن دراج القسطلي ، وإلى جانب هؤلاء برز أدباء وعلماء كثيرون سنتعرض للحديث عنهم فيما يخص كل منهم .

وفي حقل العلوم الدينية لمع اسم الفقيه أبو مروان المعيطي ، وأبو عمر أحمد بن عبدالملك ، وابن الفرضي وابن حزم الفقيه المشهور . كل هؤلاء العلماء أثروا ميدان العلم بما أضافوه من إنتاج علمي يساعدهم في ذلك ما هيأه لهم المنصور من عون وكرم .

ولم يكن سخاء المنصور ورعايته للعلماء تقف عند حد فقد ذكر أن المنصور اغتم لموت الفقيه القاضي محمد بن زرب (٣١٩ ـ ٣٨١هـ/٩٣١ ـ ٩٩١م) فكتب لورثته كتاب رعاية وتكريم ، واستدعى ابنه محمد وهو طفل ومنحه مالا جزيلا . وفي هذا يقول النباهي : (وليس ذلك من أفعال المنصور ببدع فقد كان في حسن معاملته للناس والوفاء بمنزلة لايقول بوصفها كتاب ، حتى يقال انه لا يأتي الزمان بمثله في فضله ، ولا ظفرت الايدى بشكله)(١) .

---

(١) تاريخ قضاة الأندلس ، ص٨٠ .

ومن دلائل الاهتمام العلمي لدى المنصور شغفه العميق بمجالس العلم، حتى بلغ من عنايته بهذا الشأن أن كان له في كل أسبوع مجلس يجتمع فيه اقطاب الفكر من العلماء والأدباء ويأخذون في التناظر فيما بينهم، والكلام في شتى مسائل العلم والأدب بين يديه، ولم يكن يشغله عن حضور تلك المجالس والندوات العلمية إلاّ الجهاد(١) .

ونظر لتقريبه للشعراء فقد أدخل نظاما جديدا في تصنيف شعراء بلاطه وسوف نفصل الحديث عن هذا النظام عند حديثنا عن الشعر .

ومن المؤسف بعد ما ذكرنا أن يتحامل البعض من الكتاب على المنصور وأن يتهموا عصره بأنه يتسم بالاضمحلال الفكري والتخلف الحضاري عما سبقه من العهود .

فقد جانب الاستاذ بالنثيا الصواب عندما وصفه بقوله (وكان من نتائج استبداده أن تعثرت الحضارة الأندلسية في سيرها علي أيامه)، وقوله (وإذا استثنينا بضعة فقهاء مالكيين من طبقة ابن الحذاء (محمد بن يحيى بن احمد) وبضعة مؤرخين من طراز ابن الفرضي الذى كان أول من وضع معاجم الرجال بالأندلس فإن عصر المنصور لا يمتاز بأي شخصية من الطراز الأول في ميدان العلوم والفنون)(٢) وقد وافقه احمد هيكل في هذا الرأي(٣) .

والحق ان بالنثيا بما صوره من صورة قاتمة لعهد المنصور يتضح انه ابعد مايكون عن الصواب، ذلك أن المنصور بما ذكرنا عنه من اهتمام بالحركة

---

(١) الحميدي : الجذوه، ص٧٨ ـ المراكشي : المعجب، ص٦٠ ـ احسان عباس : المرجع السابق، ص ٧٥ وانظر في هذا الصدد الحميدي نفس المصدر ص٢٤٢ ـ ٢٤٣ ـ المقري : النفح، ج٣، ص٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٨٠ ـ ٨١ .

(٢) تاريخ الفكر الاندلسي ص١٢ ـ ١٣ .

(٣) الادب الاندلسي، ص٢٧٤ .

العلمية ، وحرصه على انطلاقتها انما يمثل استمراراً للروح النشطة للنهضة العلمية في عهد الخليفة الحكم المستنصر ، ولعل موقف المنصور من كتب الفلسفة والتنجيم واحراقها أدى إلى تعكير سيرته ، وموقفه من العلوم المشار إليها في نظر البعض من العلماء الذين لم يمعنوا النظر في أعماله ، بل اكتفوا بموقفه السابق كشاهد على عدائه للعلم وتثبيطه لسير الحركة العلمية ، صحيح انه أحرق وغير الكثير من كتب الفلسفة والفلك ، ولكنه من جانب آخر بذل الكثير من الجهد في سبيل العلم والمعرفة .

والجدير بالذكر ان إحراق المنصور لتلك الكتب لم يكن بدافع الكراهية لتلك العلوم . ولكنه رأى من مصلحته السياسية وهو السياسي المحنك أن يعمل على استرضاء الفقهاء الذين كانوا ينظرون للفلسفة والتنجيم نظرة تتسم بالكراهية والمقت الشديد فأراد بحركته تلك كسب ود الفقهاء والقضاء على كل ما من شأنه الخروج عليه وتعكير صفو الجو السياسي ضده . وليس هذا معناه ان المنصور بن أبي عامر كان يؤيد الخوض في مسائل الفلسفة والتنجيم التى تقدح في تعاليم الدين وقضايا الشريعة بل كان المنصور صحيح العقيدة سليم النية فيما يتعلق بالدين يدل علي ذلك ما أورده ابن عذارى عنه فيقول: (كان المنصور متسما بصحة باطنه واعترافه بذنبه وخوفه من ربه وكثرة جهاده ، واذا ذكر بالله ذكر واذا خوف من عقابه ازدجر)(١) .

وعليه فإن إقدام المنصور على إحراق الكتب لم يكن بدافع الرغبة في محو تلك العلوم بل كان ذلك وسيلة لقطع الطريق علي من يريد أن يتهمه بفساد عقيدته وضعف إيمانه ، وعلى الرغم من حدوث ذلك فان تلك الحركة لم تؤد إلى ذلك الجفاف الفكري الذي صوره بعض الكتاب . بل كان تيار الثقافة في قوته وتدفقه مثلما كان في عهد الخليفة الحكم المستنصر ، ولا ادل على ذلك من بروز

(١) البيان المغرب ، ج٢ ، ص٢٨٩ .

علماء نابغين في وجوه الفكر المختلفة في عهده ، وقد أشرنا إلى بعضهم سابقاً وبالإضافة إلى ذلك تألق اسم الفقيه المؤرخ ابن عبد البر النمري الذي لا يكاد أن يغفله أي دارس للحركة العلمية في القرنين الرابع والخامس الهجريين في الأندلس .

كما برز في ميدان العلوم الطبيعية علماء كبار ففي الطب يتألق اسم الطبيب حسان بن جلجل الذى صنف كتابه في طبقات الأطباء والحكماء في عهد المنصور عام ٣٧٢هـ . وفي الرياضيات والفلك برز العلامة مسلمة بن أحمد المجريطي وتلاميذه النوابغ أمثال ابن السمح وغيرهم ، وفي ميدان التاريخ ظهر ألمع مؤرخ أنجبته الأندلس وهو أبو مروان حيان بن خلف (المولود سنة ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ م) ولسنا بصدد احصاء لمن ظهر من نوابغ الفكر في عصر المنصور . ولكن يهمنا الان ان نوضح ان عصره كان خصبا معطاء في ميدان العلم .

وقد أشار احمد هيكل إلى أن قوة الدفع الثقافي في عصر الحجابة كان في مستوي قوة الدفع في الخلافة . الا أنه لا يلبث أن يشير إلى أن سيرالحركة الثقافية كان بطيئا ثم يعود فيعترف بفضل المنصور علي الحياة العلمية فيقول : (وربما كان من عوامل استمرار الثقافة الأندلسية في تلك الفترة علي شيء من السير أن المنصور بن أبي عامر كان على صلة قديمة بالثقافة قد ارتبط بها منذ نشأته وانه كان على صحبة قوية للعلماء قد أخذ نفسه بها منذ ولايته)(١) .

وعليه فان المنصور وان نجح في الاستبداد بالسلطة دون الخليفة هشام المؤيد بالإضافة إلى موقفه من كتب الفلسفة فاننا رغم ذلك لا نملك إلا أن نعجب

---

(١) الأدب الأندلسي ، ص ٢٧٤ .

به سواء في ميدان السلم بما يشمله من حضارة ومدنية أو في ميدان الحرب كمجاهد في سبيل الله(١) .

عهد المظفر عبد الملك بن المنصور :

وبعد وفاة المنصور تولى ابنه المظفر عبد الملك الحجابة ، وكانت السلطة المطلقة بيده كأبيه . وكان ذلك عام (٣٩٢هـ / ١٠٠١م) ، وسار المظفر على خطا أبيه في الجهاد ، وكان عصره خيرا وسلاما على الرعية حتى وصفت أيامه بأنها كانت أعياداً وأن الأندلس بلغت فيها نهاية الجمال والكمال(٢) .

غير أن المظفر لم يكن كأبيه في الإهتمام بالعلم والأدب ، ورغم ذلك فانه كان بارا بالعلماء والأدباء فقد (تمسك بمن كان استخلصه زبوه من طبقات أهل المعرفة من خطيب وشاعر ونديم وشطرنجي ومعدل وتاريخي وغيرهم . حفظا لصنائع والده ، وقياما برسومه فقررهم على مراتبهم ، ولم ينقصهم سوى الفوز

(١) من المؤسف ان يخلع بعض الكتاب على المنصور صفات لا تليق به كزعيم اسلامي مجاهد فقد جانب احمد هيكل الصواب عندما وصف سيرته في الجهاد بأنها أدت إلى وفرة الغنائم مما ساعد على انتشار اللهو والإقبال على الملذات ، وان المنصور نفسه قد انهمك في هذه الملذات وما تمسكه بالدين وخروجه للجهاد الا مجاملة للفقهاء ، ويكفينا للرد علي هذا الاتهام ان نستشهد برأي المؤرخ ابن عذارى في كتابه البيان المغرب ج٢ ، ص٢٨٩ حيث يقول (كان المنصور متسما بصحة باطنه ، واعترافه بذنبه وخوف من ربه وكثرة جهاده واذا ذكر بالله واذا خوف من عقابه ازدجر .....) *كما يذكر الحميدي في جذوة المقتبس* ص٧٩ (*انه غزاما* يزيد علي خمسين غزوة وكان في انصرافه عن الجهاد يجمع غبار ثيابه حتي اذا دنت وفاته اشار بان ينثر علي كفنه) ويصفه ابن الاثير في كتابه الكامل . ط الثالثه ، ج ٧ ، ص ٢١٨ بقوله (كان حسن الاعتقاد والسيره عادلا كانت ايامه أعيادا لنضارتها وامن الناس فيها رحمة الله) وبعد هذا كله فهل في سلوكه مجاملة للفقهاء . وفي ضوء هذه الأقوال لمؤرخين قدامى يتلاشى ماوجهه أحمد هيكل للمنصور من اتهامات خلقية .

(٢) ابن الابار : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٧٠ .

بخصوصيتة ، وكانت ترفع إليه بطائق أهل الشعر ويصلهم على تساهلهم في مديحه لا مانهم من نظره فيها)(١) .

وفي هذا دليل على ماخلفه المنصور بعد موته من اهتمام بالعلماء والادباء . وقد تمثل ذلك في التواجد الكبير لأهل المعرفه بمختلف خبراتهم في بلاط عبدالملك بن المنصور الذي برهن على كونه خير حافظ لقيادة المسيرة العلمية بعد والده .

وبعد حكم دام سبع سنوات توفي عبدالملك المظفر ليتولي أخوه عبدالرحمن منصب الحجابة غير أن عبد الرحمن أساء التصرف بتقربة للخليفة هشام وبأجباره على أن يعهد له بولاية العهد وقد أدى ذلك إلى زوال نفوذه والقضاء على سلطته ، وكان أسرعهم سخطا وكراهية له الامويون والقرشيون . وقد استغل هؤلاء غيبة عبدالرحمن بن المنصور في غزوة فقتلوا صاحب الشرطه وخلعوا الخليفة هشام المؤيد الذى رضخ لأمر عبدالرحمن في توليته العهد ، وما لبث أن قتل الأخير بعد أن انفض عنه أعوانه عند عودته إلى قرطبة ليتولى الأمر محمد بن هشام الملقب بالمهدي(٢) .

قيام الفتنة وسقوط الخلافة واثر ذلك علي الحركة العلمية :

نظرا لموقف البرير من مساندة العامريين فانهم لم يجدوا لهم مكانا لدى الخليفة الجديد مما دفعهم إلى اختيار من تطمئن إليه قلوبهم ، فأرادوا تقديم هشام بن سليمان بن الناصر إلا أن خصومهم عاجلوهم وقبضوا على هشام وأمر المهدي بقتله مما دفع البربر إلى مبايعة سليمان بن الحكم بالخلافة ولقبوه بالمستعين وقد دخل في معارك مع المهدي وتم له دخول قرطبة مما أضطر المهدي إلى الاستعانة بالاذفونش ولكن المستعين هزمهم وحاصر قرطبة مما دفع المهدي إلى احضار هشام المؤيد وبايع له بقصد أن يسكن الأوضاع ، ولكن

---

(١) ابن بسام: الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة : القسم الرابع ، ج١ ، ص٦٠ ــ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، تحقيق ليقي بروفنسال ، ص٨٤ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص٢٢٤ ـ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

المستعين والبربر استمروا محاصرين لقرطبة وقتل المهدي خلال ذلك ونصب الناس هشاما ، واستطاع المستعين أن يدخل قرطبة عام ٤٠٣/١٠٢١م) وما لبثت الأندلس أن دخلت في مرحلة قاتمة من الفوضى والصراع السياسي(١) .

ورغم آن المستعين أظهر بسلوكه هذا لونا من المغامره والمخاطرة بنفسه في سبيل الخلافة . إلا أنه وصف بالأدب وقول الشعر حتى قال فيه ابن بسام : (كان سليمان ممن مدّت له في الأدب غاية كفى دونها أهل الأدب . ورفعت له في الشعر راية مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب(٢) .

ومن المؤلم ونحن نتحدث عن الحياة العلمية أن نذكر ما اصاب ذخائر الكتب التي خلفها الخليفة الحكم المستنصر ، حيث اضطر الحجاب واضح إلي اخراجها وبيعها اثناء حصار المستعين والبربر لقرطبه . (٤٠٣هـ / ١١١٢م)(٣)

وقد وصف صاعد طريقة بيع تلك الكتب بانها بيعت بأوكس ثمن وأتفه قيمة ، وأنها انتشرت في أنحاء الأندلس(٤) .

ولا شك أنه كان لتلك الطريقة في تفرق كتب العلم وجها ايجابيا ، فقد بثت تلك التصانيف والكتب في الأندلس ، مما ادى إلى اتساع نطاق الحركة العلمية والاقبال الشامل على كتب العلم والاستفادة منها فكانت المشاركة الفعلية على نطاق واسع ، وكان تفرق تلك الكتب بمثابة اشعاع أضاء أنحاء الأندلس بعد أن كان مركزا في قرطبة ، مما حمل الناس في مدنهم المختلفة على الأهتمام بالعلوم والأدب .

---

(١) الحميدي : الجذوه ، ص١٨ ـ ١٩ ـ المراكشي : المعجب ، ص٦٥ ـ ٦٦ ـ ٦٧ .

(٢) الذخيرة ، القسم الأول ، ج١ ، ص٣٢ ـ ٣٣ . وانظر ايضا المقري : النفح ، ج١ ، ص٤٣١ ـ ٤٣١ . والكتبي : فوات الوفيات : ج١ ، ص٣٥٦ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج٤ ، ص١٤٦ .

ـ جانب القلقشندي الصواب عندما ذكران انقراض محتويات مكتبة الحكم المستنصر يعزي إلى استيلاء ملوك الطوائف على الأندلس ، والصحيح ما هو مشار إليه في المتن (صبح الاعشى ج١ ، ص٤٦٧) .

(٤) طبقات الامم ، ص٨٩ .

ولا يفوتنا ان نشير إلى البربر حين دخولهم قرطبة قد نهبوا ما تبقى من تلك الكتب التى بقيت بعد حركة البيع ، وهكذا فقد كانت نهاية مكتبة الحكم المستنصر التي ضمت مايقارب أربعمائة ألف مجلد ـ كما يقال ـ نهاية مؤله لورثته ومحبي العلم أما بالنسبة لأهل الاندلس فقد كانت نعمة لهم ، حيث تسنى لهم تملك الكثير من نفائس الكتب ، ودرر التصانيف وخاصة اذا ما علمنا أن الأندلسيين اشتهروا بحب الكتب وجمعها فكان ذلك سبيلا إلى تحقيق آمالهم وأمانيهم .

وكان من آثار الفتنة ونتائجها ، مقتل بعض العلماء ممن كان لهم سهم وافر في النشاط العلمي ، وفي مقدمة هؤلاء العلماء المؤرخ والمحدث ابن الفرضي صاحب كتاب تاريخ علماء الاندلس ، والفقيه محمد بن سعيد السري صاحب كتاب روضات الاخبار في الفقه وغيره من الكتب ، وصديقه محمد بن قاسم الاموي وقد اورد خبرهما ابن بشكوال في كتابه الصلة(١) .

ورغم هذه الأحداث المؤله فان للفتنة أيضا وجها ايجابيا بالنظر إلى موقف العلماء وحالهم مع الفتنة فقد خرج الكثير من علماء قرطبة وأدبائها إلى المدن الأخرى . فكانوا بمثابة مصابيح أضاءت المدن التي رحلوا اليها واستقروا فيها ، مما كان سببا في نشر المعرفة والنهوض العلمي ، فقد كان تشتت العلماء وتفرقهم في مدن الاندلس عاملا من العوامل التي أدت إلى الازدهار العلمي في عصر ملوك الطوائف في مدن أندلسية كأشبيلية وغرناطه ، وطليطلة ، ودانية ، وغيرها .

وينتهي عصر الخلافة بزوال نفوذ آخر خليفة وهو هشام المؤيد(٢) الذي خلع لتكون نهايته خاتمة لذلك العصر وبداية لعصر آخر له سماته السياسية التي تختلف عما سبقه . ورغم تلك الاحداث المؤله التي عصفت بالكيان السياسي للدوله الامويه منذ نهاية عهد عبدالملك المظفر إلا أن الحركة العلمية لم تتوقف بل ظلت تشق طريقها وتؤتي اكلها .

---

(١) جـ ٢ ، ص٤٨٩ ـ ٤٩٠ .

(٢) انظر في تفصيل تلك الاحداث بعد مقتل المستعين إلى نهاية عصر الخلافة .
الحميدي : الجذوة ، ص٢٢ ـ ٢٣ ، والمقري جـ ١ ، ص٤٢٩ ـ ٤٣٨ .

الفصل الثاني

الرحلات العلمية وأثرها في النهضة العلمية في الأندلس

١ ـ ارتحال علماء الأندلس إلى المشرق في طلب العلم

٢ ـ نتائج الرحلات العلمية للأندلسيين إلى المشرق .

٣ ـ بروز الشخصية العلمية الأندلسية في عصر الخلافة

مما يفتخر به المسلمون من سلمات التطور الحضاري والتفوق العلمي ما اعتاد عليه علماؤهم من اتخاذ الرحلات والأسفار بين مراكز العلم في العالم الإسلامي عادة حميدة وسنة كريمة للتزود بالعلوم واكتساب المعرفة ، وقد تولد عن ذلك نشاط علمي باهر في الدولة الإسلامية .

والجدير بالذكر انه كان لموقف الإسلام من العلم والحث على طلبه اثر في اهتمام المسلمين بالرحلات العلمية . فقد حث الإسلام على العلم والسعي في طلبه وتحصيله . حتى روى عن رسول الله ﷺ انه قال :

(من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقا إلى الجنة) وقال عليه الصلاة والسلام : (لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من ان تصلي مائة ركعه) وفي حديث آخر (اطلبوا العلم ولو بالصين)(١) .

وانطلاقا من هذا الحرص على اكتساب المعارف والتزود بالعلم وتحمل ضروب المشقات وألوان التعب في سبيل ذلك . لم يدخر المسلمون في تاريخهم الطويل أية وسيلة من الوسائل التي تعنيهم على بلوغ ذلك الهدف السامي مما كان له أثر كبير في نجاح المسلمين في بناء حضارتهم التي عاشت في كنفها الامة الإسلامية والبشرية جمعاء .

من هذه الوسائل كانت الرحلات العلمية والتي اعتبرها علماء المسلمين ضرورة يجب أن يسلكها طالب العلم في حياته العلمية ، وهكذا يتبين (أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم)(٢) .

وكان علماء الإسلام يرتحلون في طلب العلم بين مراكز العلم في الدولة الإسلامية من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غربا ، وكانت بغداد ، ومكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، والقاهرة ، والقيروان ، وقرطبة وغيرها أكثر مدن الإسلام اشتغالا بالعلم . وكانت مقصد العلماء ، وقبلة طلاب العلم .

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ، ج١ ، ص٨ - ٩ والحديث الأول اخرجه مسلم من حديث ابي هريرة . والثاني اخرجه ابن عبد البر من حديث ابي ذر ، والثالث اخرجه ابن عدى والبيهقي في المدخل والشعب من حديث انس وقال البيهقي : متنه مشهوروأسانيده ضعيفه .

(نفس المصدر والجزء ص ٨ ، ج رقم ١ ، ٣ ، و ص٩ ج رقم ١) .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص٥٤١ .

١ ـ ارتحال علماء الاندلس إلى المشرق في طلب العلم :

كان بين الاندلس والمشرق تيار علمي زاخر يتمثل في أفواج العلماء الذاهبة والآيبة بين القطرين حتى شبهت بحركة سير النمل في الذهاب والإياب(١) .

وكان علماء الاندلس اكثر الناس رحلة إلى المشرق يتلقون على علمائه العلم ويأخذون عن شيوخه الوان المعرفة ثم يعودون إلى بلادهم ينشرون ما اكتسبوه ، واصبح هذا ديدنهم حتى لو اننا تصفحنا كتب التراجم لوقفنا علي مدى عنايتهم بذلك . فلا تخلو سيرة أي منهم من الارتحال في طلب العلم حتى عرف ذلك عنهم ووصفهم المقدسي بقوله : (يحبون العلم وأهله ، ويكثرون التجارات والتغرب)(٢) .

وكان العالم الإسلامي آنذاك وحدة ثقافية له كيان فكري واحد لايختلف ، فالعقيدة الإسلامية صبغت كل نشاط بصبغة واحدة ، فلا اختلاف بينهم مهما بعدت المسافات ، ومهما قامت من حواجز سياسية نتيجة ظهور كيانات متعددة فيه في مختلف العصور كالعباسيين في المشرق ، والفاطميين في مصر ، والأمويين في الاندلس ، وما دام الأمر كذلك فلا غرابة أن يتجه الأندلسيون إلى المشرق الذي سبقهم في مجال الحضارة بميادينها المختلفة ومنها ميدان العلم ، فقد كان الكثيرون من علماء الاندلس يرون في الرحلة إلى المشرق وأخذهم عن شيوخه تشريفا وفخرا بين علماء بلدهم(٣) . وعلى العكس من ذلك كان عكوف العالم على الإقامة في وطنه والاكتفاء بتلقي العلم على سيوخ بلده فقط فيه إشارة إلى قصوره عن ادراك ما ناله الآخرون ، وفاز به المرتحلون في طلب

---

(١) أحمد امين : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢٥ ـ سامي العاني : دراسات في الأدب الاندلسي ، ص٩٨ ـ جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده ، ص٤٣ .

(٢) أحسن التقاسيم ، ص٢٣٦ .

(٣) إحسان عباس : المرجع السابق ، ص٣٨ ـ ٣٩ .

العلم ، الذين اتيحت لهم الفرصة في لقاء العلماء في كل قطر اسلامي ، والاخذ عنهم مشافهه .

ومما يدل على عناية الاندلسيين بهذه الظاهرة أن الكثير من أصحاب التراجم يعنون بذكر البلدان التي ارتحل إليها من يترجمون لهم من العلماء فاذا لم تكن لاحدهم رحلة وصفوه بالانقباض والاعتزال عن لقاء الناس ، فيذكر الخشني في ترجمته لأحد العلماء وهو عبد الرحمن بن ابراهيم الزيادي الوشقي (١) بقوله عنه : (وكان ملتزما للانقباض عن أهل زمانه لم تكن له رحله)(٢) .

بل إن العالم منهم إذا لم تكن له رحلة كان يعاب لديهم ، كأنه بذلك قد لحقه نقص كبير في شخصيته العملية(٣) .

ولا يعني هذا القول أن من لم تكن له رحلة لم يكن عالما ، أو صاحب معرفة بالعلم الذي اختص به ، بل نقصد انه لم يتوفر له ما توفر لغيره من العلماء الذين كابدوا الصعاب وتحملوا المشاق في سبيل التزود بالعلم ، وتوسيع دائرة معارفهم بتنوع مصادر ثقافتهم ودراستهم (فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها)(٤) .

وكان الحج إلى مكة يمثل هدفا دينيا باداء هذا الركن الإسلامي من جهة ويطلب العلم بعد ذلك من جهة أخرى ، فكان علماء الأندلس يؤدون الحج ثم يتجهون إلى المدينة ، للقاء شيوخها وعلمائها ممن أخذ عن الصحابة وتابعيهم فيأخذون عنهم العلم وغالبا ما يكون الحديث والفقه والتفسير والقراءات .

---

(١) الوشقي نسبة إلى مدينة وشقة بينها وبين سرقسطة خمسون ميلا . وتقع شرقي مدينة تطليه (الحميري : الروض المعطار ، ص١٩٤ ـ ١٩٥) .

(٢) تاريخ علماء الاندلس (مخطط) ورقة ٥٦ ب .

(٣) أحمد أمين : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢٤ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، ص٥٤١ .

وكان من نتائج استقرار الأحوال السياسية في الأندلس أنانطلق الناس نحو البناء الحضاري ، وأخذوا يتلمسون الوسائل في ذلك . وعلى رأس هذه الوسائل العلم الذى أصبح القاعدة الأساسية في نشاطهم الحضارى . ويمثل عصر الامارة بداية الانطلاق نحو المعرفة ، وكان انطلاقهم هذا يتمثل في أجمل صورة في رحلاتهم العلمية إلى مراكز العلم في المشرق . فبعد أن استتبت الأحوال على يد الأمير عبد الرحمن الداخل . وبعد أن زالت مخاوف العباسيين من الامويين في الاندلس ، ولم يعد هناك ما يبرر عزلة الأندلسيين عن المشرق . فكان الانفتاح على المشرق في عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل .

ورحل الأندلسيون في بداية نشاطهم العلمي في طلب العلوم الدينية إلى المدينة بصفة عامة باعتبارها مركز العلم ، والمنبع الأصيل لهذه العلوم ، ولما اتسعت دائرة الاشتغال بالعلوم الاخرى كالرياضيات والفلك والفلسفة والطب وغيرها اتجه المعتنون إلى بغداد مركز هذه العلوم ومحور نشاطها آنذاك .

ولم يدع الكثير من أولئك العلماء الفرصة في الاستفادة من مراكز العلم التي تقع في طريقهم إلى المشرق ، فكان انطلاقهم من الأندلس إلى المغرب ليتجهوا نحو القيروان التي كانت من مراكز العلم المهمة آنذاك . ثم منها إلى مصر حيث مدينة الاسكندرية التي كانت بدروها ذات نشاط علمي كبير وإلى جانبها مدينة الفسطاط ثم القاهرة بعد بنائها والتي لم تكن اقل شأناً من غيرها من مراكز العلم في الدولة الإسلامية . ومن مصر تتشعب افواج العلماء الأندلسيين لتكون في اتجاهين : إلى الحجاز لمن يطلب العلوم الدينية ، وإلى العرلق لمن يرغب في دراسة العلوم الأخرى والتي سبق اهل العراق إلى الاشتغال بها .

وكانت بغداد آنذاك تمثل بوتقة انصهرت فيها تيارات علمية مختلفة من نتاج حضارات آخرى لليونان والهنود والفرس بالإضافة إلى ما اضافه علماء

المسلمين من انتاج فكري قيم خاص بهم ، ولهذا ففضل المشرق على الأندلس لاينكر ، وقد ترتب علي ذلك نتائج علمية مهمة اسهمت في بناء الكيان العلمي الأندلسي ، ولكن البعض رأي في هذا الإسهام صورة تخالف حقيقة الحال .

ب ـ نتائج الرحلات العلمية للأندلسيين إلى المشرق :

لما كان الأندلسيون قد نهجوا طريق الرحلات العلمية فإنه من الطبيعي أن يكون لتلك الرحلات نتائج مهمة وآثار كبيرة ، فبعد تلقيهم العلم على شيوخ وعلماء المشرق كانوا يشدون رحالهم إلى وطنهم ليبثوا ماتوصلوا إليه من علم ومعرفة .

ويختلف كل فرد منهم عن الآخر في الفترة الزمنية التي يقضيها في اغترابه العلمي عن وطنه ، فهي تتباين بحسب قدرة وطاقة كل منهم علي مواصلة الارتحال بين مراكز العلم المنتشرة في العالم الإسلامي بمختلف اقطاره كالعراق ومصر والحجاز واليمن وغيرها .

وكان الكثيرون يعودون بعد رحلة طويلة وغيبة مديدة وهم أكثر علما وأوسع معرفة فيفيدون وطنهم ويسهمون في بناء كيانه العلمي ، وممن يشار إليه بالبنان في هذا الميدان الفقيه إبراهيم بن هارون المصمودي الذى ذكر عنه أنه أقام أربعين سنة في قرطبة لطلب العلم ، وكان هذا الفقيه من أهل أشبونه(١) .

كما أن العلامة الوليد بن بكر بن مخلد المتوفي (٣٩٢هـ) ضرب المثل في تحمل أعباء السفر في سبيل العلم ، فقد رحل إلى مصر والشام والعراق والحجاز وخراسان وما وراء النهر فسمع عن الكثير من العلماء والشيوخ(٢) .

---

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٧ ـ ١٨ ـ (وأشبونه عاصمة البرتغال الآن)

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهره ، ج٤ ، ص٢٠٦ ـ الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٣ ، ص ١٠٨٠ ـ ١٠٨١ . وللوقوف على ماكان يتحمله العلماء المسلمون من مشاق ونصب في = سبيل العلم . انظر : ابن الخطيب : الرحلة في طلب الحديث وكذلك عبد الفتاح أبو غده : صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل .

وأثمرت الرحلات العلمية للأندلسيين ، فعاد الكثير منهم بعلم واسع ، ومعارف غزيرة ، هذا ابالإضافة إلى حملهم ألوان التصانيف ، وضروب التآليف النفسية لأهل المشرق في مختلف حقول المعرفة . وفي مقدمة هؤلاء العلماء الفقيه بقي بن مخلد المتوفي سنة ٢٧٦هـ الذى عاد إلى الأندلس بكتبٍ عديده في الوان مختلفة من العلم كالفقه ، والتاريخ والتراجم والتي كان لها بلا شك تاثير عظيم في مد الحركة العلمية الاندلسية بفيض مما فتحته تلك المصنفات من آفاق واسعة للبحث العلمي للأندلسيين فاقبلوا على دراسة تلك الكتب والنظر فيها ، والإفادة من المناهج العلمية في البحث والتآليف والتي سبقهم اليها المشارقة .

ولعل من أبرز ما نتج عن الرحلات العلمية في عصر الامارة ما تحقق على ايدي العلماء الاندلسيين الراحلين إلى المشرق من تأثير قوي في ميدان العلوم الدينية وخاصة في الفقه فقداستطاع العلامة زياد بن عبد الرحمن اللخمي (ت١٩٢هـ/٨٠٧م) ومن بعده الفقيه يحيى بن يحيى الليثي نشر المذهب المالكي في الاندلس . فالأول بذر البذرة الاولى للمذهب والآخر عني بها وأسهم في نموها حتى ساد المذهب المالكي في الأندلس .

وتتابع علماء الاندلس على هذا المنوال في نقل العلوم والمعارف إلي وطنهم فبالإضافة إلى ماسبق فقد رحل الاديب قاسم بن ثابت (٢٥٥ ــ ٣٠٢هـ/٨٦٨ ــ ٩١٤م) إلى المشرق في طلب العلم . فكان من نتائج رحلته ان جلب معه كتاب العين للخليل بن أحمد[١] وهو كتاب في اللغة وعلومها كان له تاثير كبير فأقبلوا على تصفحه والإفاده منه .

---

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ج١ ، ص٣٦٠ .

وكان الشاعر الأديب عباس بن ناصح الثقفي ـ المعدود من شعراء عصر الإمارة يمثل برحلاته العلمية أوضح التأثير الثقافي للمشرق في الاندلس ، فلقاؤه للأصمعي والحسن بن هانيء وتردده على أحياء العرب هنالك انعكس على ثقافته التي أسهمت بدورها في نشاط الحركة العلمية الاندلسية .

ولا يفوتني أن أشير إلى أن عباساً المذكور لعب دورا مهما في نقل التراث الفكري المشرقي إلى الأندلس . فقد كان الأمير عبد الرحمن الأوسط مهتما بجمع الكتب وكان لثقته في عباس ومدى ماكان يتمتع به من علم واسع ومعرفة بالوان المعرفة ان اوكل اليه مهمة جمع الكتب العلمية النفسية واستنساخها من المشرق ، وقد قام عباس بهذا الدور على الوجه الكامل(١) .

وفي عصر الإمارة أدخل العالم الأندلسي فرج بن سلام إلى الأندلس بعض كتب الأديب المشرقي عمر بن بحر المعروف بالجاحظ والذي التقى به في العراق وأخذ عنه العلم(٢) .

وهذا بلا شك فيه إشارة مهمة إلى مدى التأثير العلمي للمشرق في الأندلس في عصر الإمارة الذي كان يمثل مرحلة الإقتباس والنقل والتي ما لبثت أن خفت حدتها بعد فترة من الزمن لتأخذ الأندلس طريقها نحو استقلال الشخصية العلمية والمشاركة في بناء الحضارة الإسلامية .

ومما لا شك فيه أن عصر الخلافة يمثل وجها جديدا في البناء الحضارى للأندلس ، فقد اخذت حركة نقل التراث الفكري المشرقي التي كانت على أشدها في عصر الإمارة تخف وتهدأ .

ففي عصر الخلافة بدأ الأندلسيون يتوجهون نحو الاعتماد على أنفسهم في بناء كيانهم العلمي ، وبذلك أصبحوا في موقف العطاء والبذل العلمي ، ولا

(١) ماهر حماده : المكتبات في الإسلام ، ص١٢٢ (نقلا عن ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج١ ، ص٤٥ ـ ٣٧٤) .

(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٥٠ .

يعني هذا انهم قطعوا علاقتهم بالمشرق بل ظلوا على اتصال به وبعلمائه ولكن في صورة أقل مما حدث قبل هذا العصر . ومن هنا نجد أن ظاهرة انتقال الكتب كانت تتم مابين الشرق إلى الغرب على الأغلب ، حيث أن المشرق ـ في عصوره الأولى على الأقل ـ كان متقدما على الأندلس في ميدان النشاط الفكري والتأليف(١) .

وفي عصر الخلافة دخلت بعض الكتب المشرقية إلى الاندلس ، فقد عاد أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م) إلى الأندلس حاملا معه رسائل الصفا وكان أول من أدخلها(٢) .

وكان العلامة مسلمة بن سعيد يرتحل إلى المشرق في طلب كتب العلم وجمعها ثم يعود إلى الأندلس حاملا ألوان التصانيف في مختلف فروع العلم(٣) وسوف نفصل الحديث عنه فيما يختص بالكتب عند الاندلسيين .

ويتضح من خلال سير من تقدم من العلماء ان التأثير الفعال للرحلات العلمية للاندلسيين كان في عصر الإمارة . ولكن لما كان لذلك التأثير من القوة والدفع ما نتج عنه ازدهار النشاط العلمي . ورقي الحركة العلمية بعد ذلك ـ أي في عصر الخلافة ـ فقد رؤى وجوب الإشارة إلى اولئك العلماء . ونظرا لخشية التكرار فسوف نؤجل الحديث عن أهم الشخصيات العلمية المرتحلة إلى المشرق إلي حين التعرض لكل منهم فيما يختص به من علم .

وكانت تحدث موجات رحيل معاكسة فيرحل علماء المشرق إلى الأندلس لينشروا علومهم هنالك . وليبلغوا بذلك الجاه والمنزلة عند السلطان ، ويأتي في مقدمتهم من ذوي الشهرة العلمية الأديب اللغوي أبو على القالي الذي حظي

---

(١) ماهو حماده : المرجع السابق ، ص١٩١ .

(٢) صاعد : لبقات الأمم ، ص٩٤ ـ ٩٥ ـ ابن ابي اصبيعه : عيون الأنباء ، ص٤٨٤ ـ ٤٨٥ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص٢٢٥ .

بمنزلة كريمة لدى الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وتبعه أيضا في عصر المنصور العلامة صاعد بن الحسن الذى دخل الاندلس (٣٨٠هـ/٩٩٠م) وقد أسهم العالمان في نشاط الدراسات الأدبية واللغوية في الأندلس وخاصة أبو علي القالي[١] .

وقد عقد المقري بابا ضمنه أبرز علماء المشرق الوافدين إلى الأندلس فقال (اعلم ان الداخلين للاندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الاعيان منهم فضلا عن غيرهم ومنهم من اتخذها وطنا ، وصيرها سكنا إلى أن وافته منيته . ومنهم من عاد إلى المشرق بعد ان قضيت بالأندلس منيته)[٢] .

وهذا بلاشك يوضح ما كانت عليه الأندلس آنذاك من نشاط علمي جذب العلماء من خارج الأندلس للمشاركة في نهوض الحركة العلمية . كما أنه يدل على ما كان يتمتع به حكام الأندلس من حب للعلم ، وتشجيع للعلماء ، وما رحيل أبي علي القالي ، وصاعد بن الحسن إلي الاندلس إلاّ دليلا على ذلك .

ومن كبار العلماء الوافدين على الأندلس . المحدث عبدالرحيم بن أحمد التميمي البخاري (٣٨٢هـ ٤٧١هـ) الذى عده العلماء طبقة ابن حزم وابن عبد البر النمري . ووصفه المقري بقوله : (الذى اعتقده أنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث ، وهو ثقة عدل ليس له مجازفة والحق أبلج)[٣]

والحق أن دخول هذا العلامة الاندلس فيه دليل على ما بلغته من مستوى علمي باهر إذ أن هذا المحدث رغم ما وصف به من حفظ للأحاديث وتضلع في علم الحديث إلا أنه سمع من شيوخ الاندلس[٤] وكفى بذلك شهادة على الازدهار العلمي للاندلسيين آنذاك وكيف أنهم أصبحوا في موقف العطاء العلمي .

---

(١) سوف نتعرض إلى مكانتها العلمية عند الحديث عن الأدب واللغة .

(٢) نفح الطيب ، ج٣ ، ص٥ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص٦٣ ـ ٦٤ .

(٤) المصدر السابق ، ج٣ ، ص٦٣ .

وممن وفد على الأندلس من العلماء ثابت بن محمد الجرجاني الذى وصفه ابن الخطيب بالكامل وذلك لسعة علمه ، وعمق معرفته بالأدب واللغة بالإضافة إلى ما تمتع به من فروسية وشجاعة(١) .

وكـــان علـــى منـــوالـــه الأديـــب أبو وهـــب عبـــد الرحـــمن العبـــاســـي (ت٣٤٤هـ/٩٥٥م) الذى وصف بتنوع معارفه وتفننه في العلوم والآداب ، وأنه كان ينهج طريقة الفلاسفة في التفكير والكلام(٢) .

بروز الشخصية العلمية الأندلسية في عصر الخلافة

وكما قلت من قبل كان للرحلات العلمية التي قام بها الأندلسيون إلى المشرق لتحصيل العلوم والآداب أثر كبير في وسم نشاطهم العلمي بسمة مشرقية . وكانت هذه السمة أكثر وضوحا فيما قبل عصر الخلافة ، ولعل ذلك عائد إلى ما فرضه التقدم الحضارى للمشرق من سيادة فكرية على بقية الأقطار الإسلامية الأخرى ممن لم تصل في مستوى حضارته ورقية العلمى آنذاك .

وكان المشرق إبان ذلك الوقت يمثل في نظر الاندلسيين مصدر الحضارة ومنبع العلم مما فرض عليهم الاتجاه في رحلاتهم العلمية إلى مراكز العلم في المشرق ليقتبسوا الوان الثقافة عن علمائه وفقهائه(٣) .

ولا أدل على اعجاب الاندلسيين بالمشرق ، وما كانوا يبدون نحوه من آيات الأجلال والأكبار من أبيات شعرية قالها الفقيه الأندلسي المشهور ابن حزم حيث ضمنها اعجابه بالمشرق وحنينه إلى لقاء علمائه فيقول من ضمن تلك

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطه ، ج١ ، ص٤٥٤ .

(٢) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٨ ـ ٥٩ .

(٣) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص٣١٣ ـ عبدالكريم التراتي : مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس ، ص٦٦٥ .

الأبيـــات :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة	ولكـن عيبـي أن مطلعـي الغـرب
ولو أنني من جانب الشرق طالـع	لجد على ماضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابـة	ولا غروان يستوحش الكلف الصب
فان ينـزل الرحمـن رحلـي بينهم	فحينئذ يبدو التأسف والكرب(١)

فابن حزم رغم قدراته العلمية العميقة ، وما كان يتمتع به من علم واسع في الكثير من العلوم والمعارف ، كان لا يزال يتطلع إلى المشرق ، ويرنو بناظريه إلى أكناف العراق ، حيث نوابغ العلماء ، وجها بذة الفكر الإسلامي .

وأهم ميادين العلم ، التي اصطبغت بسمة التقليد والمحاكاة عند الاندلسيين هي الدراسات الادبية ولكن رغم ذلك فإن : (من الخطأ الكبير ألا يخايلنا عند دراسة الأدب الاندلسي إلا هذا الاستقلال في الشخصية الاندلسية لأننا ندرس ادبا يستند إلى حضارة مشتركة في الشرق والغرب ، فلو لم يكن التقليد مقصوداً لكان التشابه أيضاً محتوما)(٢) .

وعليه فإن الدراسات العلمية والوان الثقافة في أقطار العالم الإسلامي مشرقه وغربه تخضع في مجموعها لسمة التشابه ، وذلك لارتكازها على لغة وثقافة إسلامية واحده وهذا بلا شك يؤدي بالضرورة إلى ما وصفناه ، فمن العسير إذن أن يطالب الأندلسيون بالتواصل إلى نتائج علمية لم يصل إليها المشارقة مادام الأمر على هذه الحال .

أما بالنسبة للعلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وقراءات ، فمن عوامل وجود الشبه والتقارب بين الدراسات الأندلسية والمشرقية هو اتحاد المصدر وهو

---

(١) الحميدي : الجذوه ، ص٣١٠ .

(٢) احسان عباس : المرجع السابق ، ص٣٩ ـ ٤٠ .

القرآن الكريم والسنة الشريفة ، واللذان انبثقت عنهما علوم الدين المذكوره فمن الطبيعي وقد اتحد المصدران أن تتحد النتيجة أو تتقارب(١) .

أما بقية العلوم الأخرى فقد كانت بعيدة نسبياً عن دائرة التقليد وبالتالي خلت الكثير من جوانب دراساتها من سمة التشابه .

ويشير عبد الكريم القواتي إلى قضية التأثير العلمي للمشرق في الأندلس وهو في ذلك يبدى اقتناعه بأن صورة الحركة العلمية في الاندلس انعكاس للثقافة المشرقية فيقول ـ بعد عرض مسهب لذلك الموضوع ـ (وهذا ما يجعلنا نعتقد أن دراسة الحياة الفكرية في الشرق تغني إلى أبعد الحدود عن دراستها في الأندلس العربية)(٢) .

ولا شك أن في هذا القول مجافاة للصواب وتجنياً سافراً على التراث الثقافي الأندلسي ووصفه بالصورة التقليدية وأنه مجرد انعكاس لصورة الثقافة المشرقية في مرآة التقليد والمحاكاه .

ووجه الحق أن الاندلسيين قد حققوا ـ خاصة في عصر الخلافة وما تلاه من عصور حضارة علمية تشهد لهم بطول الباع والنبوغ الفكري حتى قال ابن حزم في هذا الصدد ـ بعد ان ذكر براعة أهلها في العلم والمعرفة ـ (وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه عن محلة العلماء فقد ذكرنا من تآليف أهله ما أن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مصر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها)(٣) .

---

(١) احمد امين : ظهر الإسلام ، ج٣ ، ص٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس ، ص٦٧٧ .

(٣) المقري : النفح ، ج٣ ، ص١٧٧ .

فأين وجه الحق بين هذين القولين . إن الحق بلا شك يبدو واضح السمات جليا ظاهرا في قول ابن حزم الذى هو أعرف وأخبر بما كان عليه بلده وما ضمه من علماء بارعين أسهموا في نشاط الحركة العلمية وقدموا للعلم عطاء سخيا يتمثل في انتاجهم العلمي النفيس والذي لا يزال أهل المشرق يكنون له أعظم تقدير وتكريم إلى وقتنا الحاضر(١) .

واذا كان من الانصاف أن تشير إلى فضل ما قدمه المشرق للاندلس في الميدان العلمي فإن من الحق أيضا أن نشير إلى أن الأندلسيين بعد ذلك وخاصة في عصر الخلافة نفذوا من دائرة التقليد إلى محيط الابداع العلمى مع بروز الشخصية العلمية في ميدان الفكر. ففي القرن الرابع الهجرى بدأت الحركة العلمية الاندلسية تتخذ قالبا جديدا وشكلا مغايرا لما سبق فضلا عن سعيها إلى اثبات ذاتها ، واستقلالها الشخصي عن المشرق فاهتمت منذ ذلك الحين بحاضرها واد ركها مايشبه الشعور القومي ، وكان للحكم المستنصر أثر بارز في بناء الكيان العلمي للاندلس ، والعمل على استقلال الشخصية العلمية للأندلس ورفع شأنها وذلك بما هيأه من مسائل علمية لتحقيق ذلك الهدف ، فاذا بالمكتبة الاندلسية تزخر بعيون التصانيف والمؤلفات وهكذا وجدت الأندلس رجالها وتاريخها وفكرها فتحدثت عنه وخلدته(٢) .

وبعد هذا كله فمن غير الانصاف أن ننفي عن الأندلسيين سمة الإبداع وبالتالي نصفهم بالتبعية الثقافية للمشرق واضمحلال شخصيتهم العلمية في موجة التقليد والمسايرة لغيرهم .

---

(١) انظر فيما بعد القسم الثاني لتلمس الإنتاج العلمي الرائع للأندلسيين في مختلف الوان المعرفة .

(٢) احسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ، ص٧٩ .

وعليه فإن النهضة العلمية في الأندلس آنذاك بلغت الذروة ، وأصبحت في درجة لا تقل عن نظيرتها في المشرق بدليل الأعداد الهائلة لعلماء الاندلس في شتى حقول المعرفة وما انتجوه من نفائس الكتب في ذلك ، والتي اتضحت معها الشخصية العلمية للأندلس التي استقلت إلى حد كبير[1] .

وتبعا لذلك فان هناك دلائل ومؤشرات انبثقت عن شعورهم بحتمية الاستقلال الفكرى ، واثبات قدرتهم على صنع حضارتهم وصبغها بالسمة الاندلسية . وتتجلى لنا نزعة الاندلسيين إلى الاستقلال وتطلعهم إلى اثبات قدراتهم الشخصية في المعترك العلمي بما يروي عن الحكم المستنصر الذى كان يفاخر بعلماء بلده ويعتز بقدراتهم العلمية أمام منافسيهم من أهل المشرق ، فيقول في أحد علماء الأندلس « اذا فاخرنا أهل المشرق بيحيى بن معين فأخرناهم بخالد بن سعيد »[2] .

ويحيى المذكور (١٥٨ ـ ٢٣٢م :/ ٧٧٤ ـ ٨٤٧م) أحد حفاظ الحديث وعلمائه الكبار من أهل المشرق . ووصفه الذهبي بسيد الحفاظ وكان ذا بصر بالجرح والتعديل[3] وقد كان هذا العلامة يمثل بعلمه الواسع وثقافته الرفيعة مثالا بارزا على التألق العلمي للمشارقة . ولما كان خالد بن سعد متضلعا في الحديث ومعرفة علومه كان هذا دافعا للخليفة المستنصرللاعتزاز بمكانته ونبوغه الواضح وكونه فخرا للاندلس كما أن يحيى فخر أهل المشرق في الحديث .

ومما روي في ذلك أن الأديب المشرقي صاعد بن الحسن دَخَلَ على الحاجب المنصور بن أبي عامر ، وكان صاعد يرتدي ثياباً جديدة ، فمشى جانب البركة لازدحام الحاضرين في الصحن ، فزلقت رجله فسقط ، فضحك

---

(١) احمد هيكل : الأدب الاندلسي ، ص١٩٠ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ج٣ ، ص١١ .

(٣) الزركلي : الاعلام ، ج٨ ، ص١٧٢ ـ ١٧٣ .

المنصور والحاضرون وأشار باخراجه من الماء فأخرج وقد أضرّ به البرد فأمر له بكسوة واشار عليه بان يصف حالته وسقوطه في الماء شعرا . فقال صاعد بيتا من الشعر استبرده المنصور . وكان في الحاضرين ابو مروان الجزيري أحد أدباء الأندلس فأنشد شعرا على لسان صاعد يصف سقوطه في الماء وأبدع ابو مروان في ذلك مما أدخل السرور على المنصور فقال :

« لله درك : قسناك بأهل العراق ففضلتهم فيمن نقيسك بعد »(١) .

وتؤكد هذه الحادثة ما سبق قوله من تطلع الأندلسيين إلى قمة التنافس ، وصدارة الموكب العلمي آنذاك .

وعندما وفد أبو علي القالي على الأندلس سنة ٣٣٨هـ / ٩٤٩م ، أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يرافقه وفد من العلماء ، ويصحبه إلى ان يصل إلى بلاط الخلافة ، وفي طريقهم إلى قرطبه ، كانوا يتجاذبون الحديث في الأدب حتي قال ابو علي القالي بيتا من الشعر ، إلا أحد الأدباء من الوفود ويدعى ابن رفاعه الألبيرى عارض أبا علي في كلمة وردت في ذلك البيت . ولكن الاخير تمسك برأيه حولها ، مما أسخط ابن رفاعة ، فانصرف عن صحبه الوفد قائلا : « مع هذا يوفد على امير المؤمنين وتتجشم الرحلة لتعظيمه وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا تغلط الصبيان فيه ؟ والله لا تبعته خطوة « وفارق الوفد ، ولما وصل خبر ذلك إلى الحكم المستنصر وكان للعهد قال : » الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطيء وافد أهل العراق الينا(٢) .

ولا شك ان هذه القصة تضيف قوة إلى ما أوردناه من ظواهر الاعتزاز بالشخصية الاندلسية ، وتوضح مدى ثقتهم بمستواهم الفكري أمام الثقافات

(١) الازدي : بدائع البدائه ، ص٣٥٥ ـ ٣٥٦ ـ المقري : النفح ، ج٣ ، ص٩٥ .
(٢) المقري : النفح ، ج٣ ، ص٧٠ ـ ٧١ .

الأخرى الوارده عليهم بل أنهم أصبحوا على قدم المساواه مع أندادهم من أهل المشرق حضارة وعلما ، حتى روي المقري أن ابن سعيد ـ المؤرخ الاندلسي ـ قال أنشدني والدي للحافظ أبي الطاهر السفلي قال وكفى به شاهدا وبقوله مفتخرا :

بلاد اذربيجان في الشرق عندنا كأندلس بالغرب في العلم والأدب

فما أن تكاد الدهر تلقى مميزا من أهليهما الا وقد جد في الطلب(١)

وعندما وفد أبو على القالي على الاندلس ، وتحدث عن نظرته إلى اهالي الاقاليم التي مربها في طريقة إلى الاندلس ، ودرجاتهم في العلم ، فلما وصل إلى القيروان وخرج منها لاحظ انه كلما بعدت ديارهم عن القيروان كلما كان ذلك ادعى إلى قلة فهمهم وقصر علمهم ، حتى كأن قربهم أو بعدهم من المدينة المذكورة ـ مقياسا على نباهتهم أو قصور أفهامهم ، وحتى قال أبو علي : إنَّ نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في افهامهم بقدر نقاص هؤلاء عمن قبلهم . فسأحتاج إلى ترجمان بهذه الأوطان(٢) .

ولكن هل صدق ظن أبي علي فاحتاج إلى ترجمان في مخاطبة أهل الأندلس ، والتحدث معهم ؟ وهل كان الاندلسيون على بعدهم عن مراكز العلم في المشرق في مستوى علمي ضئيل ، ورداءة في الافهام ، تؤكد ظن القالي ، وترسخ في ذهنه ما دار في حسبانه ؟

إن الأمر كان بخلاف ذلك . فقد ظهرت شمس الحقيقة للقالي عندما حل بين الأندلسيين فقد هاله ما رأى من تمكنهم في ضروب العلم والأدب ورسوخ أقدامهم في ذلك يقول ابن بسام بعد ايراده الخبر السابق (فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق في ذكائهم . ويتغطى عنهم عند

---

(١) المقري : نفس المصدر والجزء ، ص٢٢٤ .

(٢) ا بن بسام : الدخيره ، القسم الأول ، ج١ ، ص٤ .

المباحثة والمناقشة ويقول لهم : « إن علمي علم رواية ، وليس بعلم دراية ، فخذوا عني ما نقلت ، فلم آل لكم ان صححت » .

هذا مع اقرار الجميع له يومئذ بسعة العلم وكثرة الروايات والأخذ عن الثقات)(١) .

ولا شك أن هذا اقرار من القالي ببراعة الأندلسيين واتساع معارفهم . وعلو مستواهم العلمي . وفي ذلك إشارة أيضا إلى بروز الشخصية العلمية للأندلسيين واثبات لقدراتهم في الميدان الفكري وانهم ليسوا بأقل من غيرهم علما ومعرفة .

وإلى جانب شهادة القالي بفضل الاندلسيين في الميدان العلمي فقد أورد المقري في معرض افتخار أبي الوليد إسماعيل بن محمد الشقندي بفضائل الأندلس ، وبراعة أهلها في العلم والأدب ، وذلك رداً على أحد علماء المغرب وهو ابن المعلم الطنجي الذي فضّل المغرب على الأندلس وأنها أوسع علماً وأزهر حضارة ، فكتب الشقندي رسالة في تفضيل الاندلس علي غيرها في ميدان العلم ، وفي ختام الرسالة قال .. مخاطبا لابن المعلم ــ (وأنا أحكي لك حكاية جرت لي في مجلس الفقيه الرئيس أبي بكر بن زهر ، وذلك أبي كنت يوما بين يديه ، فدخل علينا رجل عجمي من فضلاء خراسان ، وكان ابن زهر يكرمه فقلت له : ما تقول في علماء الاندلس وكتابهم وشعرائهم ؟ فقال : كَبُّرْتُ فلم أفهم قصده . واستبردت ما أتى به ، وفهم مني أبو بكر ابن زهر أني نظرته نظر المستبرد المنكر. فقال لي : أقرأت شعر المتنبي ؟ قلت نعم . وحفظت جميعه. قال فعلى نفسك اذن فلتنكر وخاطرك بقلة الفهم فلتتهم . فذكرني بقول المتنبي :

كَبَّرْتُ حَوْلَ دِيارِهِم لَمّاً بَدَتْ ... منها الشُّموس وليس فيها المشرق

---

(١) نفس المصدر والجزء والصفحة .

فاعتذرت للخراساني ، وقلت : قد والله كبرت في عيني بقدر ما صغرت نفسي عندي ، حين لم أفهم مقصدك(١) .

ولكن قد يقول أحدهم إن شهادة أبي علي القالي والعالم الخراساني السابق الذكر إنما أتت من قبيل المجاملة لأن الاثنين كانا في ضيافة الاندلسيين فمن غير الطبيعي أن يأتيا بغير ذلك ؟ ولكن نقول : إذا صح هذا وهو أمر بعيد ، فإن المتنبي وهو الذى يعد من أشهر شعراء الإسلام ــ إن لم يكن أشهرهم ــ قد شهد لابن عبد ربه الشاعر الأندلسي عندما سمع من أحد علماء الأندلس في مصر ، فقد أحسن ابن عبد ربه في شعره مما أطرب المتنبي وصفق بيديه وقال : « يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبواً(٢) .

ثم لا ننسى أن الحسن ابن هاني المعروف « بأبي نواس » وهو من نوابغ الشعراء في العراق قد شهد للشاعر الاندلسي عباس بن ناصح بالمتقدم عليه في ميدان الشعر وقد اشرنا إلى ذلك عند الحديث عن الشعر في عصر الإماره

فإذا كان الامر كذلك فقد وضح الحق وتكشفت المزاعم التي ألحقها البعض من الكتاب حول الحركة العلمية في الاندلس ، وانها تقليد وصورة مشوهة لثقافة المشرق .

وقد ألف ابن حزم رسالة في فضل الأندلس وجهود علمائها في ميدان الإنتاج العلمي وختم رسالته بعقد مقارنة بين نوابغ العلماء الاندلسيين في حقول المعرفة المختلفة وبين أندادهم من المشارقة ، وتعتبر هذه الرسالة من أعظم شواهد التفوق العلمي للأندلسيين منذ بداية عصر الإمارة إلى عصر

---

(١) النفح ، ج٣ ، ص٢٢٢ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ، ج٢ ، ص٢٢٢ ــ ٢٢٣ ــ المقري : النفح ، ج٣ ، ص٥٦٥ .

المؤلف نفسه . وهي بلاشك تعطينا دليلا حاسما على نضوج الشخصية العلمية للاندلسيين وتفوقهم(١) .

ومن الغريب بعد ما تقدم أن يصف أحد المؤرخين والجغرافيين ممن عاصر هذه النهضة العلمية من علماء المشرق وهوابن حوقل الذي دخل الأندلس في عصر عبد الرحمن الناصر ـ أن يصف أهل الأندلس بقوله : « ومن اعجب أحوال هذه الجزيرة (الأندلس) بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها . وضعه نفوسهم ونقص عقولهم .. »(٢) .

ويكفي للرد على هذه المزاعم ما قاله الجغرافي المشرقي والذى عاصرابن حوقل وهو محمد بن أحمد المقدسي لنعرف الفرق الشاسع والتباين الواضح بين ما زعمه الأول وادعاه وما قاله الثاني للحقيقة وانتصارا للحق ، يقول المقدسي : (وقد دلت الدلائل واتفقت الاراء على انه مصر جليل رفق طيب وان ثم عدلا ونظراً وسياسة وطيبة ونعما ظاهرة ودينا ..... غزاة ابدا في جهاد ونفير مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات وفوائد)(٣) .

ويبدو أن سبب تحامل ابن حوقل على الاندلسيين هو تشيعه للفاطميين وولاؤه لهم وهو أمر أشار إليه أثناء كلامه عن الأندلس ، فيقول (ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعه نفوسهم ونقص عقولهم ، وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة

---

(١) نظرا لاهمية هذه الرسالة ودلالتها الواضحة على التقدم العلمي للأندلسيين في عصر الخلافة وما قبله . فقد رؤي وضعها في ختام الرسالة كملحق من الملاحق .

(٢) صورة الأرض ، ص١٠٤ .

(٣) أحسن التقاسيم ، ص٢٣٢ .(١) المقري : النفح ، ج١ ، ص٤٦٢ ـ ٤٦٣ .

ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والابطال وعلم موالينا عليهم السلام بمحلها في نفسها ومقدار جبايتها ومواقع نعمها ولذاتها)(1) .

وبهذا يتضح لنا تحامله على الأندلسيين وتحيزه لمواليه من الفاطميين ، ولا يستعبد أيضا أن يكون قد دخل الاندلس كعين للفاطميين لمعرفة أحوال الأندلس والاطلاع على مظاهر قوتها وضعفها .

وختاما يتبين بوضوح ما نجم عن الرحلات العلمية من آثار ونتائج علمية كبيرة للاندلسيين حيث كانوا في بدء اشتغالهم بالعلوم ينقلون عن المشارقة علومهم ومعارفهم ، وبمرور الوقت أخذ نشاطهم العلمي يتخذ اتجاها مغايرا لاتجاهه الأول حيث رأوا من واقع الانتماء لوطنهم أن تكون لهم شخصية علمية مستقلة يثبتون من خلالها أنهم أقدر على صنع حضارتهم وبناء كيانهم العلمي بأنفسهم ، فكان عصر الخلافة دورة مضيئة في جبين التاريخ الاندلسي تشهد لأهله بنبوغهم العلمي وبقدرتهم على اثبات ذاتهم في ميدان الحضارة الإسلامية .

---

(1) صورة الأرض ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .



الفصل الثالث

الكتب والمكتبات في الأندلس

أ ـ عناية الأندلسيين بالكتب

ب ـ اهتمام الأندلسيين بجمع الكتب واقتنائها ، وبإنشاء المكتبات .

مكتبة الخليفة الحكم المستنصر ـ مكتبة المنصور بن أبي عامر ـ مكتبة الوزير أبي المطرف عبد الرحمن بن فطيس ـ مكتبة محمد بن يحيى الغافقي القرطي .

ج ـ حرفة الوراقة في الأندلس وأثرها في النشاط العلمي .

أ ـ عناية الأندلسيين بالكتب :

لما كان الكتاب يمثل بما يحويه من ثمرات الفكر الإنساني وسيلة مهمة من وسائل العلم والمعرفة في أى عصر من العصور ، وفي أى مجتمع من المجتمعات لذا فمن الطبيعي أن نقف على مقدار الأهمية العظمى التي تعطى للكتاب في الحياة العلمية لدى أي أمة من الأمم .

ولما كانت الأندلس قد دخلت ميدان الحياة العلمية فقد أعطت الكتاب المنزلة اللائقة به في خضم النشاط العلمي الذي عايشته وبلغت به درجة رفيعة بين الأقطار الإسلامية .

وفي عصر الخلافة كانت الحاجة ماسة إلى الكتب والتآليف العلمية ، وذلك نتيجة لازدهار الحركة العلمية والاقبال الشديد على المعرفة ، وكانت قرطبة تحتل الصدارة في النشاط والازدهار العلمي ، فكان أهلها أكثر الاندلسيين عناية واهتماما بالكتب حتى قال أحد علماء الأندلس يصف هذه الظاهرة العلمية عند أهل قرطبة : (وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب . صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة حتى ان الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلاّ لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس هو عند احد غيره والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفربه)(١) .

وقد حظي الكثير من علماء الأندلس بمكانة اجتماعية رفيعة بين أفراد المجتمع ، فبعلمهم احتلوا المنزلة السامية بين السلطان والرعية على حد سواء ، لهذا فقد تطلع البعض ممن لم يتمكن من التعلم واكتساب المعرفة إلى التشبه بأولئك العلماء ومسايرتهم في بعض مظاهر سلوكهم كالاهتمام بالكتب والعناية

---

(١) المقري : النفح ، ج ١ ، ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣ .

بها . فأقبلوا يزينون منازلهم بخزائن الكتب لينالوا من وراء ذلك مكانة وجاها بين الناس ، وليقال انهم من ذوى المعرفة ، وعلى الاقل من محبي العلم .

ولم يكن الاهتمام بالكتب وقفا على مدينة قرطبة ، بل تعدها إلى المدن الأندلسية الأخرى والتى نعمت هي بدورها بالتطور العلمي والازدهار الثقافي وفي مقدمة تلك المدن اشبيلية ، وطليطة ، ومرسيه ، وغرناطه ، ويذكر أنه كان في المدينة الأخيرة سبعون مكتبة عامه غير المكتبات الخاصة(١) .

ومن دلائل عناية الاندلسيين بالكتب ـ حتى بين من لم تكن لهم سابقة في العلم والمعرفة ـ ما رواه أحد العلماء القرطبيين ويُدعى الحضرمي بقوله (أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلي أن وقع وهو بخط جيد وتسفير(٢) مليح ففرحت به اشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه . فيرجع إلى المنادي بالزيادة علي . إلي أن بلغ فوق حده . فقلت له : ياهذا . أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى مالا يساوى . قال : فأراني شخصا عليه لباس رياسه ، فدنوت منه وقلت له : اعز الله سيدنا الفقيه . إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده . قال : فقال لي : لست بفقيه و لا أدري ما فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لا تجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يتسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما ازيد فيه ، والحمد لله على ما انعم به من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي فاحرجني وحملني على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيرا إلا عند مثلك يعطي الجوز من لاعنده أسنان ، وأنا الذى أعلم ما في هذا الكتاب ، واطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة مابيدى بيني وبينه)(٣) .

---

(١) عمر كحاله : مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام ، ص٢٤٤ .

(٢) التفسير : التجليد .

(٣) المقرى : النفح ، ج١ ، ص٤٦٣ .

ونلمس في هذا النص عدة فوائد منها ما كان للكتب من أهمية عظيمة وأنه كانت لها سوق خاصة يتم فيها بيعها وشراؤها بالإضافة إلى ذلك المستوى الفني الرفيع الذى صاحب هذه الحركة العلمية من الاهتمام بالخط وتجليد الكتب كما أن في النص دليل واضح على ما كان للكتب من منزلة سامية في قلوب الاندلسيين العالم منهم والأمي .

ونتيجة لهذا الازدهار العلمي السائد في الأندلس أن كانت هناك منافسات علمية بين المدن الاندلسية المختلفة ، وأيها اكثر علما ومعرفة ، حتى قامت مناظرات في التفضيل بين تلك المدن . ومن جملة ما حدث من تلك المناظرات ما تم بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب(١) حيث دارت بين العالمين ابن رشد وابن زهر مناظرة وكان كل منها يسعى إلى تفضيل مدينته على مدينة الآخر فأخذ ابن زهر في تفصيل وتقديم اشبيلية ـ مسقط رأسه ـ على مدينة قرطبة ، فانبرى له ابن رشد قائلا : ما أدرى ما تقول غير أنه اذا مات عالم باشبيليه فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتي تباع فيها وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيليه(٢) .

وعلى الرغم من أن هذه المناظرة التي حدثت بين هذين العالمين كانت في عصر الموحدين ـ أى في القرنين السادس والسابع الهجريين ـ إلا أنها تدل على أن قرطبة احتفظت بمكانتها العلمية بعد انقضاء قرنين على ما وصلت إليه من ازدهار في عصر الخلافة .

---

(١) احد سلاطين الموحدين بل يعد من اشهرهم ، واسمه يعقوب بن عبد الرحمن بن عبد الحق بن محيو بن بكر من قبيلة زناته يكنى بأبي يوسف ويلقب بالمنصور ، وكان له فضل كبير في الحاق الهزيمة بالنصارى في الاندلس سنة ٦٧٢هـ وتوفي سنة ٦٨٥هـ .
(ابن الخطيب : الاحاطة ، ج٤ ، ص٣٥٨ ـ ٣٥٩ ـ ٣٦١) .

(٢) المقري : النفح ، ج١ ، ص١٥٥ ـ ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس ، ص٦٥ .

والحق أن ما أشار إليه ابن رشد في وصفه لأهل اشبيليه فيه مبالغة إذ أنه عرف عن أهلها المنافسة الشديدة لأهل قرطبة في ميدان العلم حتى أنه نسب إليها أعداد كبيرة من العلماء وبخاصة في عصرملوك بني عباد في القرن الخامس الهجرى .

ولعل من دلائل نهضة اشبيلية وتألقها العلمي انه كان بها سوق خاص بالكتب يتردد إليه أهل الأدب والعلم بحثا عن نفائس الكتب ونوادرها بالإضافة إلي انه كان لعناية أهلها بالكتب واشتغال الكثير منهم بتجارتها أن كان بها شارع يسمى شارع الوراقين(١) .

وبهذا يتضح أن العناية بالكتب واقتنائها لم يكن وقفا على قرطبة بل تعداها إلي المدن الاخرى . كما أن الاهتمام بالكتب لم يكن موضع عناية المسلمين في الأندلس فقط بل شاركهم في ذلك المسيحيون من أهل البلاد ، فقد كتب مطران قرطبة الغارو في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي (ان جميع المسيحيين المميزين بالذكاء كانوا يعرفون لغة العرب وآدابهم ، ويقرأون ويطالعون كتب العرب بولع ، ويجمعون مكتبات كبيرة من تلك الكتب بنفقات باهظه)(٢) .

اهتمام الاندلسيين بجمع الكتب واقتنائها ، وبإنشاء المكتبات : نتيجة للازدهار العلمي الذى نعمت به الاندلس آنذاك ، وما استتبع ذلك من الاهتمام بالكتب والحرص على جمعها ، ان ظهرت في ذلك العصر ظاهرة العناية بالكتب وتفشت بين الكثير من أفراد المجتمع الأندلسي ، ويأتي في مقدمة من اعتنى بجمع الكتب الخليفة الحكم المستنصر الذى كان يستهدف من وراء ذلك

---

(١) خوليان ريبرا : المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الإسلامية ، ترجمة جمال محمد محرز ، مجلة معهد المخطوطات العربية م٥ ، ج١ ، ص٧٨ ، مايو ١٩٥٩م) .

(٢) روبرت بريفالت : أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الانسانية ، ص١٤٥ .

توفير وسائل النهضة العلمية في وطنه فعمد إلى جمع الكتب وحرص على اقتناء نفائس المصنفات ونوادر التآليف الإسلامية منها وغير الإسلامية وبلغ من حبه للكتب وسعيه في جمعها انه (لم يُسمعْ في الإسلام بخليفة بلغ مبلغه في اقتناء الكتب والدواوين وايثارها والتهمم بها)(١) .

والجدير بالذكر ان الخليفة المستنصر نهج عدة وسائل في سبيل جمع الكتب من شتى البقاع ، فكان له وراقون منتشرون في أقطار العالم الإسلامي يسعون لاقتناء نفائس الكتب ونوادرها . ومن بين أولئك الوراقين طائفة لازمت مدينة بغداد للاطلاع على كل جديد في العلوم الأدب ، وكان أحدهم ويدعى محمد بن طرخان يقوم بهذه المهمة على الوجه المطلوب تحقيقا لرغبة مولاه الحكم المستنصر(٢) .

وهكذا نلمس مدى ماكان يوليه الخليفة الحكم لهذا الجانب العلمي من عناية كبيرة واهتمام بالغ ، وقد وصف ليفي بروفنسال هذه الظاهرة العلمية بقوله : (إن شبكة حقيقية لحساب العاهل الاسباني من الباحثين والسماسرة والنساخين قد انتشرت واخذت تتابع تحرياتها عن التآليف في طول العالم الإسلامي وعرضه)(٣) .

ومما يؤكد عناية الخليفة الحكم بالكتب وما يخرجه العلماء من انتاجهم العلمي حرصه على الاطلاع على ما يؤلفه بعضهم قبل أن يخرجوه للناس ، فقد

(١) ابن الابار : الحلة السيراء ، ج١ ، ص٢٠١ .

(٢) ابن الابار : نفس المصدر والجزء ، ص٢٠٢ ـ ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص٤٤٦ ـ المقري : النفح ، ج١ ، ص٣٨٦ ـ عبد الرحمن الحجي : التاريخ الاندلس ، ص٢٩٩ ـ عمر كحاله : مقدمات ومباحث ص٢٤٣ ـ انيس النصولي : المرجع السابق ، ص١٢١ ـ حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي ، ص٩٧٣ ـ آدم متز : المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٢٢ ـ مصطفى الشكعه : الأدب الاندلسي : ص١٠٢ .

(٣) حضارة العرب في الاندلس ، ص٦٣ ـ ٦٤ .

بعث إلى أبي الفــرج الأصفهانــي بمــال جزيل ليبعث إليه بنسخــة من كتابــه (الأغاني) فارسلها إليه قبل ان تراها الأعين في العراق(١) .

ونتيجة لهذا الحرص الشديد على اقتناء كتب العلم ان دخلت الاندلس اعداد هائلة من الكتب في شتى حقول المعرفة فإلى جانب الكتب الإسلامية كانت هناك كتب من تراث الاوائل ككتاب الحساب الهندي المعروف عند العرب « بالسندهند » الذي صاحب دخوله الاندلس دخول الارقام الهندية التي ما لبثت أن انتقلت إلى اوروبا(٢) .

ومن الكتب القديمة التي دخلت الاندلس كتابا هورشيش وديسقوريدس ، الأول في التاريخ والثاني في النباتات الطبيه وكان الامبراطور ارمانوس السابع قد اهداهما للخليفة عبد الرحمن الناصر .

ويبدو أن اهتمام الخليفة الحكم المستنصر بالكتب لم يعرف حدودا ولا قيودا ، بل كان شغفه بها عاما ينسحب على كل ألوان المعرفة . فقد استجلب من بغداد ومصر والشام وغيرها من ديار المشرق عيون التآليف النفسية ، والمصنفات الغربية الإسلامية وغير الإسلامية (وجمع منها في بقية ايام أبيه ثم في مدة ملكة من بعده ما كاد يضاهي ما جمعته ملوك بني العباس في الازمان الطويلة ، وتهيأ له ذلك لفرط محبته للعلم وبعد همته في اكتساب الفضائل وسمو نفسه إلى التشبه بأهل الحكمة من الملوك ، فكثر تحرك الناس في زمانه قراءة كتب الاوائل وتعلم مذاهبهم)(٣) .

---

(١) المراكشي : المعجب ، ص٦١ ـ ٦٢ ـ ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص١٤٦ ـ المقري : النفح ، ج١ ، ص٣٨٦ .

(٢) عبد الجليل الراشد : التقدم الفكرى عند أهل الاندلس ، مجلة المؤرخ العربي العدد الثالث عشر ، ص١٣٥ .

(٣) صاعد : طبقات الأمم ، ٨٨ .

ولعل في هذا النص دليل على مدى التأثير الكبير الذى نجم عن دخول ألوان التصانيف والكتب العلمية إلى الأندلس وكيف أنها أثرت في مفاهيم الناس وأفكارهم فبسبب اهتمام الحكم المستنصر بكتب الأوائل ان كثرت في عصره هذه الكتب واطلع عليها الناس وعرفوا ما فيها فكان لذلك أثر في انصراف الكثير منهم إلى دراسة علوم الأوائل كالفلسفة والرياضيات والفلك وغيرها مما نجم عنه ظهور تيارات علمية مختلفة في هذه العلوم المشار إليها . وهذا بلا شك احدى النتائج المهمة التي انبثقت عن ظاهرة الإقبال على الكتب العلمية واقتنائها لدى الأندلسيين .

وكان لشغف الحكم المستنصر باقتناء الكتب أنه كان يبث في مختلف أقطار العالم الإسلامي إلى جانب الوراقين من تجار الكتب نساخين مهره ينسخون له مالم يستطيع وراقوه شراءه من الكتب لنفاستها وحرص أصحابها عليها ، فكان له أعداد كبيرة من الناسخين ينسخون له الكتب في القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية وغيرها من مراكز العلم(١) .

---

(١) أنخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص١٠ .

مكتبة الخليفة الحكم المستنصر :

نتيجة لتلك الجهود الجبارة في ميدان العناية بالكتب والاهتمام بجمعها . أن تقاطرت علي قرطبه أعداد هائلة منها ، وأصبح لدى الخليفة الحكم مجموعة عظيمة من المصنفات ولو تصورنا الحالة التي كانت ترد فيها الكتب إلى الأندلس ، وكيف أن اعوان الحكم المستنصر المنتشرين في الاقطار قد سعوا في جلب ما يرضي ميول الحكم ، وان قرطبة كانت تستقبل بين آونة وأخرى افواجا من الكتب التي يبعثها الوراقون من مختلف الاصقاع لادركنا ضخامة ما ضمته من تصانيف العلم . (حتى غصت بها بيوته ، وضاقت عنها خزائنه)(١) .

وازاء هذا الوضع فقد رسم الحكم المستنصر خطة لانشاء مكتبة عامره تكون نفعاله ولطلاب العلم أيضا . ولا يفهم من هذا أنه لم يرث عن أبيه عبد الرحمن الناصر شيئا من الكتب فقدورث عنه ثروة طيبة من الكتب كانت نواة وأساساً لمكتبة عظيمة نماها الحكم ورعاها وامدها بذخائر نفيسة من التآليف العلمية حتى أصبحت في ـ صورة فريدة لم يجمع مثلها أي خليفة في الإسلام وبلغ من ضخامة محتويات تلك المكتبة أن اشتهر أمرها في الاوساط العلمية في العالم الإسلامي ، وأصبحت مثلاً بارزاً على الازدهار العلمي والنشاط الفكري حتى غدت تلك المكتبة من أعظم خزائن الكتب في الإسلام وتقف موقف الند مع خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد وخزانة الفاطميين بالقاهرة(٢) .

ويذكر ابن حزم محتويات مكتبة الخليفة الحكم المستنصر فيقول (واخبرني « قليد » الفتى ـ وكان على خزانة العلوم بقصربني مروان بالأندلس ـ

---

(١) ابن الابار : الحلة السيراء ، ج١ ، ص٢٠١ .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج١ ، ص٤٦٦ ـ ٤٦٧ .

أن عدد الفهارس التي كانت (فيها) تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسه في كل فهرسة خمسون ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين فقط)(١) .

ونستشف من هذا النص أموراً كثيرة لعل أولها ضخامة ما حوته تلك المكتبة فاذا كان ما وصف في هذه الفهارس إلا الدواوين فقط فما بالنا بمصنفات العلم وكتب المعرفة الأخرى التي ولا شك ستكون أعظم وأكثر عددا . بالإضافة إلى ذلك نلمس مما ذكره ابن حزم مستوى ما كانت عليه تلك المكتبة من تنظيم فالمكتبة كانت مرتبة حسب المواضيع اي أن كل موضع له فهارسه الخاصة به ، وهذا يشبه ما يسمى الآن ـ بالفهرسة الموضوعية أو الفهرسة حسب الموضوعات(٢) .

واذا كان الأمر كذلك فقد يتساءل البعض كم كانت تحوى هذه المكتبة من نفائس الكتب ؟

يذكر المقري عند حديثه عن مكتبة الخليفة الحكم المستنصر (أنه جمع من الكتب مالا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل أنها كانت اربعمائة الف مجلد ، وانهم لما نقلوها اقاموا ستة أشهر في نقلها)(٣) .

وقد أشار إلى هذا العدد الهائل من الكتب الكثير من الكتاب المحدثين ممن كتبوا عن ذلك الخليفة وتعرضوا لسيرته العلمية(٤) . بل إن زيغريد هونكه

---

(١) جمهرة انساب العرب ، ص١٠٠ ـ ابن خلدون : العبر ، ج٤، ص١٤٦ ـ المقرى : نفح الطيب ، ج١ ، ص٣٨٧ .

(٢) ماهر حماده : المرجع السابق ، ص١٥٥ .

(٣) نفح الطيب ، ج١ ، ص٣٩٥ .

(٤) عبد الرحمن الحجي : المرجع السابق ، ص٣١٧ ـ السيد عبد العزيز سالم : قرطبه حاضرة الخلافه ، ج٢ ، ص١٦٢ ـ مصطفى الشكعه : المرجع السابق ، ص١١٣ ـ محمد عبد العزيز : المرأة العربية في الأندلس ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثالث عشر ، ص١٠٦ ـ

Thomas :

Irving :

Falcon of Spain, P192 - Titus Burckardt: Moorish Culture inspain, p37 .

تشير إلى أن تلك المكتبة ضمت نصف مليون من الكتب القيمة[1] واخيرا يأتي أحد الكتاب الغربيين وهو وليم درابر فيشير في كتابه المنازعة بين العلم والدين إلى مكتبة خلفاء بني أمية بقرطبة وأنها اشتملت على ستمائة ألف مجلد ، وأن فهرس أسماء تلك الكتب يتألف من أربعة وأربعين مجلد[2] .

ولكن أليس من حق الباحث أن يقف قليلا قبل أن يسلم بهذا العدد الهائل من الكتب والذي تبدو فيه سمة المبالغة ؟ حقا إن الحكم اقتنى في مكتبته المذكورة أعداداً كبيرة من الكتب . و لكن الباحث في التاريخ الإسلامي يستشف أن بعض المؤرخين المسلمين قد اعتادوا الإسراف والمبالغة فيما يخص المقادير الكمية والارقام العددية للاشياء ، كأعداد الجيوش أو البنائين أو الثروات وغير ذلك ممن يرون في كثرته وضخامة عدده رفعه وتمجيد لذوي الشأن من السلاطين والحكام .

ولا يستبعد أن إطلاق هذا الرقم الكبير على محتويات مكتبة الحكم المستنصر قد أتى من قليل إضفاء سمات الازدهار العلمي على عصر الحكم المستنصر الذي هو في غنى عن ذلك بما أسداه للحياة العلمية من جهود مخلصة ومثمرة لم يسبقه إلى ذلك أي حاكم في الاندلس من قبل ومن بعد وهذا ما شهد به التاريخ .[3]

كما أن مصادر التاريخ الأندلسي الأولى لم تذكر أياً من الأرقام المذكورة فلم يشر إليها ابن الفرضي أو الحميدي أو الضبي أو ابن بشكوال أو ابن الأبار .

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص٣٥٢ .

(٢) عمر كحاله : مقدمات ومباحث ، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(٣) من المؤسف ان لم يبق كتاب واحد من ذخائر تلك المكتبة التي جمعها الحكم المستنصر ، بيد ان ليفي بروفنسال اشار إلى انه عثر على مجلد منها في فاس وهو يحمل تاريخ ٣٥٩هـ وفيه دلالة على أنه نسخ لأمر الخليفة الحكم .

(انظر حضارة العرب في الاندلس ، ص٦٥) .

ثم أن تدقيقنا في النص الذى اورده المقري يعطينا شيئا من الشك وعدم التثبت من صحة الخبر ، فايراده في النص قيل « حتى قيل » فيه إشارة إلى خلو النص من اليقين والتثبيت .

مكتبة المنصور بن ابى عامر :

أتى بعد الخليفة الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد الذي كان معتزلا لشئون الدولة لتسلط المنصور بن أبي عامر على الأمر وتوليه زمام الأمور ، لذلك فالمنصور بن أبي عامر هو الأحق بالحديث . فقد كان للمنصور مكتبة كبيرة اختص بها وولده من بعده ، وكان يقوم على النظر فيها والإشراف على محتوياتها العلامة الوراق محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي القرطبي (ت٤٢٣/١٠٣١م) وكان لمهارته في الخط وشئون الوراقة أثر في معرفته الجديدة بشئون الكتب وصيانتها واصلاح ماقد يكون في خطوطها من اخطاء ، فكان يقوم على فحصها ويقابل بين نسخها . هذا بالإضافة إلى براعته في التاريخ فقد ألف مصنفا في تاريخ العامرين(١) .

وفي هذا دلالة على ماكان للمنصور من جهد بارز في النشاط العلمي في عصره وانه كان بتمتع بروح علمية واهتمام بكتب العلم ، وفيه أيضا رد على من وصف عصره بالانحطاط في الميدان العلمي .

مكتبة الوزير أبي المطرف عبد الرحمن بن فطيس :

وبرز إلى جانب ما ذكر من المعتنين بالكتب علماء أجلاء عرفوا بالعناية بالكتب والاهتمام بجمعها حتى اشتهر ذلك عنهم ويأتي في مقدمة هؤلاء العلامة الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن فطيس وكان في عهد المنصور بن أبي عامر (٣٤٨ ـ ٤٠٢هـ / ٩٥٩م ـ ١١١م) وقد عرف عنه الشغف الشديد بكتب العلم

(١) ابن الابار : التكملة ، ج١ ، ص٣٨٤ ـ خوليان ريبرا: المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، م٥ ، ج١ ، ص٧٤ .

والسعي في اقتنائها فاجتمع له بذلك خزانة ضخمة من غرر التصانيف وبلغ من عنايته بذلك أنه كان اذا سمع بكتاب عند أحدهم كان يبعث في شرائه ويبالغ في ثمنه فاذا لم يبعه صاحبه والا انتسخه ورده عليه(١) .

ونتيجة لهذا الاهتمام البالغ فقد اجتمع لدى العلامة المذكور أعداد هائلة من الكتب في شتى ألوان المعرفة وبلغ من غزارتها ان أهل قرطبة اجتمعوا لبيعها مدة عام كامل وكانت هذه السنة سنة الفتنة ، وما ترتب عليها من الاضطراب والفوضى ، ورغم ذلك فقد اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسميه(٢) .

وقد وصف ابن فرحون سيرة ابن فطيس ومبلغ عنايته بالكتب بقوله (جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس)(٣) .

والحق أن ذلك العالم كان يمثل الوجه المشرق للنشاط العلمي في عصر المنصور فقد أثبت من خلال سلوكه عمق اخلاصه للعلم ، وحبه الشديد للكتب والتصانيف وخاصة إذا علمنا أنه استفاد من تلك الثروة العلمية ، فقد خصص له في داره مجلسا حرص على أن يتوفر فيه المناخ المناسب للبحث والاطلاع ، فكان هذا المجلس (عجيب الصنعة ، حسن الآلة ، ملبس كله بالخضرة ، جدرانه وأبوابه وسقفه وفرشه وستوره ونمارقه ، وكل ذلك متشاكل الصفات وقد ملأه

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص٣١٠ ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج١ ، ص٤٧٨ ـ آدم ميتز : المرجع السابق ، ج١ ، ص٣٢٦ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص٣١٠ .

ـ الدينار القاسمي نسبة إلى الأمام القاسم المأمون والذى حكم قرطبه من سنة ٤٠٨هـ إلى سنة ٤١٢هـ (المقرى : نفح الطيب ، ج١ ، ص٤٣١) .

انظر ايضا Lavoix : Catalogue Des Monnaies Musulmanes " Espagne Et Afrique "

(٣) الديباج المذهب ، ج١ ، ص٤٧٨ .

بدفاتر العلم ودواوين الكتب التي ينظر فيها ويخرج منها وبهذا المجلس كان أنسه وخلوته رحمه الله)(١) .

ولا شك أن في هذا النص دلالة على ماذكرناه عنه فقد كان يأنس في خلوته إلى كتب العلم فأفاده ذلك كثيرا حتى وصف بأنه (كان من جهابذة المحدثين وكبار العلماء والمسندين ، حافظا للحديث وعلله ، منسوبا إلى فهمه واتقانـــه ..)(٢)

كما اتصف ابن فطيس بالحرص الشديد والعناية البالغة بكتبه وحفظها وصونها من العبث والضياع ، فلا يفرط فيها ولا يتساهل في اخراجها حتى انه لم يعر كتاباً من كتبه ابدا ، واذا ما ألح عليه أحدهم في كتاب من كتبه اعطاه للناسخ لينسخ منه نسخة فيعطيه أياها وإلا استبقاها عنده إذا لم يأخذها ذلك الشخص(٣) .

وقد سلك هذه الطريقة الكثير من العلماء حرصا منهم على كتبهم إذ اعتبروها من نفائس ما يملكون من أشياء ، وكانوا يجدون فسحة في ارضاء من يطلب منهم كتابا من كتبهم بنسخه واعطائه نسخة منه وفي هذا يقول أحد العلماء وهو محمد بن الفرج الانصارى (ت٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) .

يامستعيــر كتابي إنـه علـق	بمهجتي وكـذاك الكـتب بالمهـج
فـأنت في سعة إن كنت تنسخه	وأنت من حبسه في أعظم الحرج(٤)

مكتبة محمد بن يحيى الغافقي :

وممن اشتهر بجمع الكتب والعناية بها الأديب محمد بن يحيى الغافقي

(١) النباهي : تاريخ قضاة الاندلس ، ص٨٧ ــ ٨٩ .
(٢) ابن بشكوال : المصدر السابق ،ج١ ، ص٣١٠ .
(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص٣١١ .
(٤) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج٢ ، ص٥٣٩ .

القرطبي ويعرف بابن الموصل (ت٤٣٣هـ / ١٠٤١م) وقد وصف بحبه البالغ للكتب ومعرفته التامة بغرائبها ونفائسها ، فكان عارفا بخطوطها حتي كان الجميع يحتكم إليه في أفضلية الخطوط وأيها احسن ، وبلغ من اهتمامه بالكتب أن آثرها على كل لذة حتى اجتمع لديه من الكتب مالم يجتمع عند أحد بعد الحكم المستنصر[1] .

وكان لمعرفة الغافقي بالكتب ودرايته الواسعة بألوان التصانيف أن ضمت خزانته نسخا بديعة من الكتب بخطوط مؤلفيها فكان لديه اصلاح المنطق بخط ابي علي القالي ، والغريب المصنف أصل أبي على ، ونوادر ابن الاعرابي بخط أبي موسى الحامض ، وتاريخ ابي جعفر الطبري بصلة الفرغاني بخط ابن ملول الدمشقي وقد بيعت هذه التصانيف بعد موته وكان لنفاستها أثر بالغ في أرتفاع أثمانهخا حتى قومت الورقة في بعض الكتب بربع مثقال[2] .

وما من ريب أن في ذلك إشارة واضحة إلى مدى ما اتصف به الأندلسيون من اهتمام وعناية بالكتب واستعداد الكثير منهم ببذل الغالي من الأثمان في سبيل المعرفة بشراء كتبها . وفيه دلالة ايضا على الرقي العلمي الذي كان يعيشه المجتمع الاندلسي في ذلك العصر .

---

(١) ابن الابار : التكملة ، ج١ ، ص٣٨٧ ـ خوليان ربيرا : المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا ، معهد المخطوطات العربية ، م٥ ، ج١ ، ص٧٥ .

(٢) ابن الابار : نفس المصدر والجزء والصفحة .

ـ المثقال : هو الدينار ويزن ٤,٢٥ فربعه يساوي تقريباً ١,٠٦جرام . أشار المقدسي في كتابه احسن التقاسيم ، ص٢٤٠ . إلى العملات والموازين التي يستعملها أهل الأندلس ثم ذكر ضمن حديثه المثقال وأن الدينار لديهم يزل عنه بحبه . كما يشير ابن خلدون إلى أن وزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبه من الشعير . وبناء عليه فربع المثقال يساوى ما وزنه من الذهب الخالص ثمانية عشر حبه من الشعير .

(انظر المقدمة ، ص٢٦٣) .

ومما يؤسف له أن الكثير من العلماء المشتغلين بالعلم والمعتنين بالكتب لا يلبث أحدهم أن يموت حتى تتفرق كتبه وتجد طريقها إلى سوق الكتب لبيعها ، وهذا بلا شك عائد إلى مايتصف به ورثة العالم من صفات العلم أو عدمها ، وإن حادثة تفرق كتب الخليفة الحكم المستنصر وابن فطيس والغافقي لدليل واضح على هذه ــ الظاهرة المؤله إذ قلما نجد الخلف أمينا على ما تركه السلف من تراث علمي عزيز على النفس .

وكان البعض من المعتنين بالكتب يشتغل بالنسخ كالعلامة أحمد بن عباس بن أبي زكريا الذى برع في نسخ الكتب وكان ذا خط بديع مشتهراً بجمع الكتب وتخير نفائسها (مغاليا فيها ، نفاعا من خصه بها لا يستخرج منها شيئا ، لفرط بخله بها . الا لسبيلها حتى لقد اثرى كثير من الوراقين والتجار معه فيها وجمع منها مالم يكن عند ملك)(١) .

ونلحظ في النص أشارة مهمة إلى الوراقين في الحركة العلمية ، وأنهم أسهموا بقدر كبير في ازدهارها . وان الكثير منهم كان يؤدي عمله في خدمة ذوي الثراء من العلماء كالعلامة المذكورة مقابل ماكانوا يلقون على ذلك من مكافآت سخية مما جعل حرفة الوراقة آنذاك من أهم الحرف في المجتمع الإسلامي بالإضافة إلى ما اتصفت بـه من رفعة وسمو لكونها في خدمة العلم والمعرفة .

والى جانب ماذكر فقد عرف عن هشام بن عبد الرحمن (ت٤٢٣هـ / ١٠٣١م) جودة النسخ والإهتمام بالكتب وحيازته للكثير منها(٢) كما أن الفقيه محمد بن يوسف بن الفرضي (ت٤٠٣ / ١٠١٢م) ، كان جماعا للكتب حتى اقتنى منها عددا كبيراً لم يقتنيه أحد من أهل قرطبه(٣) .

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج١ ، ص٢٥٩ ــ ٢٦٠ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٦٥٠ .

(٣) ابن بشكوال : نفس المصدر ، ج١ ، ص٢٥٣ ــ آنحل بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص٢٧١ .

ومن الطريف أنه كان لأحد العلماء وهو أحمد بن محمد الأموي الطليطي المعروف بابن ميمون (٣٥٣ ـ ٤٠٠هـ ـ ١٠٠٩م) مكتبة عامرة مليئة بالكتب وألوان التصانيف . وحدث أن شب حريق هائل في أسواق طليطلة وامتدت النيران إلى دار ابن ميمون فالتهمته إلا الزاوية التي بها الكتب ، وكان في ذلك الوقت مشغولا بالجهاد ، فعجب الناس من ذلك وظلوا يختلفون إلى الدار المحترقة في دهشة وتعجب ، ونظرا لما تمتع به ذلك العلامة من إجادة للنسخ فقد كان الكثير من كتبه بخط يده(١) .

وقد كان للمرأة الأندلسية جهد وافر في هذا الميدان العلمي الهام ، حيث كان لإحداهن وهي عائشة بنت أحمد (ت٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م) مكتبة عامرة بالكتب ، مع إتصافها باجادة النسخ وحسن الخط(٢) .

كما اشتغل الكثير من العلماء بمهمة البحث عن الكتب في مختلف الاقطار وادخالها الاندلس ، فهذا أحدهم وهو مسلمة بن سعيد (ت٤٠٦هـ / ١٠١٥م) قد آب من احدى سفراته إلى الأندلس بثمانية عشر حملا مشدودة من الكتب ، وقد عرف عنه كثرة التجوال في أطراف بلاد المشرق لجمع كتب العلم واقتناء نفائسها فكلما اجتمع له مقدار صالح نهض به إلى مصر ثم ينطلق منها إلى الأندلس . ومن الطبعي أنه لم يتم له ذلك إلا بمال جزيل أعانه على شراء الكتب والبحث عن نفائسها(٣) .

وبناء على ما تقدم فإن ظاهرة اقبال الاندلسيين على كتب العلم وحرص الكثير منهم على اقتنائها لهي دليل ساطع على ما اتصف به المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة من رقي علمي وازدهار حضاري رفيع .

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٢ .

(٢) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٩٢ .

(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٢٥ ـ خوليان ريبيـــــرا : المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الإسلامية ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، م٥ ، ج١ ، ص٦٧ .

والحق أن الاندلسيين بما عرف عنهم من ميل شديد لاقتناء الكتب وتكوينهم المكتبات إنما يمثلون وجهاً مشرقاً في حياتهم العلمية في صورة قلما نجدها في أي قطر من الاقطار الإسلامية ، ولا أدل على ذلك من سعي الكثير من الاميين إلى دخول حلبة التنافس مع المهتمين من العلماء بذلك ولعل قصة الحضرمي فيها مايؤكد ذلك .

ح ـ حرفة الوراقة في الأندلس وأثرها في النشاط العلمي

أولا : ظهور صناعة الورق في الاندلس :

جدير بالذكر قبل الحديث عن إسهام فئة الوراقين في ازدهار الحركة العلمية ان نشير إلى أحد فضائل الحضارة الإسلامية الأندلسية على أوروبا ، وهي : صناعة الورق ، فقد اشتهرت الأندلس وخاصة مدينة شاطبة بصناعة الورق الفاخر الذي كان لنفاسته صدى عظيم في العالم الإسلامي آنذاك . وكان بالمدينة المذكورة مصانع كبيرة للورق في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . ثم انتقلت صناعته إلى مدينة طليطلة منذ القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلاد(١) .

وكان لبراعة أهل شاطبة في صناعة الورق وتفوقهم في ذلك ، أن كانوا يصدرونه إلى كافة أرجاء الأندلس ، وإلى ذلك يشير ياقوت بقوله (وهي مدينة كبيرة قديمة ، قد خرج منها خلق من الفضلاء ، ويعمل الكاغد الجيد فيها ، ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس)(٢) .

---

(١) عبد الرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي ، ص٣٨ ـ ماهر حماده : المرجع السابق ، ص٧٤ ـ محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية ، ج١ ، ص٢٦٠ .

(٢) معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٠٩ .

بل إنه ذكران الاندلسيين كانوا يصدرونه إلى المشرق وهو ما أشار إليه الإدريسي(١) .

وهذا بلا شك يعطينا دلالة واضحة على أن صناعة الورق كانت موجودة في الاندلس في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي بخلاف من قال بغير ذلك من الكتاب(٢) .

ويدل على ذلك أيضا ما ذكر من أنه قد عثر في مكتبه الأسكوريال على مخطوطة مكتوبة في سنة ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م على ورق مصنوع من القطن ، وتدل على أن العرب أول من أحل الورق محل الرق (*) .(٣)

---

(١) عبد الرحمن بدوي : المرجع السابق ، ص٣٨ ـ روبرت بريفالت : المرجع السابق ، ص١٧٣ ـ أ . سيديو : تاريخ العرب العام ص٤٢٥ .

(٢) يذكر جلال مظهر في كتابه حضارة الإسلام ، ص٣٨٥ أن صناعة الورق دخلت الأندلس في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، والحق ما أشير اليه اعلاه لتظافر المعلومات التاريخية التي تنص على أن الورق وجد في الأندلس في القرن الرابع الهجري .

(×) الرق هو : جلد الغزال .

(٣) غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص٤٨٢ .

ثانيا : دور الوراقين في ازدهار الحركة العلمية :

كان من نتائج صناعة الورق في العالم الإسلامي ، وانتشار استعماله أن ظهر في المجتمع الإسلامي طائفة من المشتغلين بشئون الكتاب من نسخ وتجليد وتجاره[1] ، وهؤلاء هم (الوراقون) الذين كان لهم يد بيضاء على الحضارة الإسلامية ، وقد عرف عن وراقي الأندلس أنهم أمهر الوراقين وأحذقهم في هذا الميدان ووصفت خطوطهم بأنها مدوره[2] .

وفي عصر الامارة كانت دكاكين الوراقين قليلة إلا أن حرفة نسخ الكتب وتجليدها كانت مزدهرة من قبل ، وخاصة فيما يتعلق بتجهيز النسخ الجذابة للقرآن الكريم[3] .

وقد قام بالعمل في هذا الميدان الحضاري في عصر الخلافة الكثير من الاشخاص الذين رأوا في هذه المهنة أشرف عمل يقربهم إلى الثواب الطيب والذكر الحميد ، وعلى سبيل المثال قام يوسف بن محمد الهمداني (ت٣٨٣هـ / ٩٩٣م) بنسخ تفسير وتاريخ الطبري وتميز الهمداني بروعة خطه وجماله[4] .

ونظر للخدمات الجليلة التي يقدمها الوراقون للعلم ، فقد كان الكثير من العلماء المشتغلين بالتأليف والبحث العلمي يوظفون لديهم طائفة منهم ليقوموا بنسخ مايهمهم من التصانيف ، فالخليفة الحكم المستنصر لعنايته الكبيرة بشئون العلم والمعرفة جند طائفة من الوراقي للعمل في قصره الذى ضم مكتبته الكبيرة فخصص للوراقين جناحا كبيرا في ذلك القصر ليقوموا بأداء عملهم

---

(١) اضاف عمر كحاله إلى هذه المهمات التي يؤديها الوراقون مهمة رابعة وهي بيع الورق وسائر أدوات الكتابة كالأقلام والحبر (مقدمات ومباحث ، ص٢١٥)

(٢) المقدسي : المصدر السابق ، ص٣٩ .

(٣) Thomas Irving : Falcon of Spain, P.160 .

(٤) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ج٢ ، ص٢٠٦ .

فيه[١] . ولا شك أنه كان لاولئك الوراقين دور في ترتيب وتنظيم مكتبة الحكم المستنصر ، وذلك لسعة ثقافتهم وعمق معرفتهم بشئون الكتب وما يتعلق بها .

ومن أبرز أولئك الوراقين عباس بن عمرو بن هارون الكناني (٢٩٥ ـ ٣٧٩هـ / ٩٠٧ ـ ٩٨٩م) وكان من أهل صقلية ، وقدم الأندلس بعد عروجه على القيروان ، فدخل الأندلس ٣٣٢٦هـ / ٩٤٧م وكان الحكم المستنصر آنذاك لايزال وليا للعهد ، ولكنه كان قد عرف بحبه للعلم واكرامه للعلماء فاتصل به ذلك الورّاق وأنزله الحكم المستنصر منزلة كريمة وعيّنة في جملة الوراقين وأمده بكل ما يلزم لمهنته من الورق والمداد وغيرها من أدوات الوراقة[٢] .

وإلى جانب عباس اشتغل بالوراقة لدى الحكم المستنصر ظفر البغدادي ، وكان لبراعته في فن الوراقة أن عُدَّ من رؤساء وكبار الوراقين[٣] .

ونلمس من اطلاق لفظ « الرئيس » أنه كان هناك نظام يسود مهنة الوراقة ، فكان لكل مجموعة من الوراقين رئيس يشرف عليهم في مهمة النسخ والتثبت من صحة ما يقومون به ويصحح ماقد يقع منهم من آخطاء .

وممن عمل لدى الحكم المستنصر من الوراقين يوسف البلوطي الذى اشتهر بجودة خطة وقدرته التامة في ميدان النسخ[٤] .

ولا ريب أن مثل هذا النشاط العلمي الحافل بوجوهه المختلفة كاف لاعطاء الدليل الواضح على مدى ما حققه الحكم المستنصر للحركة العلمية من جهود ، وعلى ما حققه الاندلسيون في ميدان العلم . وما أبدع ما وصف به دوزي مجال

---

(١) ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص١٤٦ ـ المقري : النفح : ، ج١ ، ص٣٨٦ ـ اعتماد القصيري : فن التجليد عند المسلمين ، ص٣٠ .

(٢) ابن الفوضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩٩ .

(٣) ابن الابار : التكملة ، ج١ ، ص٣٤٧ .

(٤) ابن الابار : نفس المصدر والجزء والصفحة .

النشاط العلمي في قصر الحكم المستنصر حيث قال : (كان قصره حافلا بالكتب واهلها حتى بدأ وكأنه مصنع لا يرى فيه إلاّ نساخون ومجلدون ومزخرفون يحلون الكتب بالمنمنمات (*) والرسوم الجميلة)(١) .

وكان العلامة ابن فطيس ـ الآنف الذكر ـ لعنايته بالكتب واشتغاله بالعلم أن عَيَّنَ لديه ستة من الوراقين يكونون في خدمته لنسخ مايريد من الكتب وقد قرر لهم مقابل جهودهم تلك رواتب مجزية(٢) .

وكان لابي علي القالي وراقون يعنونه على أداء عمله العلمي في البحث والتأليف ، فأحدهم وهو محمد بن الحسين الفهري لازم أبا علي القالي واستفاد من علومه ومعارفه وتولى مع نساخ آخر نسخ مالم يهذبه أبو علي من كتابه البارع وتهذيبه من أصوله التي بخطه وخطهما مما كتبا بن يديه(٣) .

والجدير بالذكر ان الوراقين قد نالوا من وراء عملهم هذا منزلة رفيعة في المجتمع كما أنهم بلغوا درجة طيبة من الثراء ، وقد سبق القول عن العلامة احمد بن عباس(٤) أنه كان لاهتمامه بالكتب أن استعان بالكثير من الوراقين في جلب نفائس الكتب ونسخ الكثير منها وأنهم بذلك قد نالوا ثراء وجاها .

وكانت عملية النسخ من مهمات الوراقين وقد نالت ازدهارا كبيرا في المجتمع الأندلسي ولا عجب اذا قلنا ان النساء لعبن دورا مهماً في هذا الميدان ، فقد مارس النسخ طائفة كبيرة منهن مع اتصافهم بالبراعة وجودة الخط ، وكان لذلك أثره في بلوغ بعضهن منزلة عالية لدى الخلفاء حيث كان للخليفة عبدالرحمن الناصر كاتبة تدعى (مزنة) وصفت بالمهارة في الكتابه

---

(١) انخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص١٠ .

(*) هي الرسوم التوضيحية كالنباتات وأعضاء الجسم .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص٣١٠ ـ ٣١١ .

(٣) ابن الابار : التكملة ، ج١ ، ص٣٧١ .

(٤) انظر قبل سيرة هذا العالم .

وحسن الخط ، كما كان للخليفة الحكم المستنصر كاتبه تدعي (لبنى) عرفت بالبراعة في الكتابة وسعة الادب حتى قال في وصفها ابن بشكوال (لم يكن في قصرهم ـ أى الخلفاء ـ انبل منها وكانت عروضية ، خطاطة جدا) (ت٣٧٤هـ / ٩٨٤م)[١]

وممن برعن من النساء في الخط عائشة بنت أحمد القرطبي (ت٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) فقد كانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتعني بالعلم[٢] .

وعرفت الأديبة صفية بنت عبد الله الربى بالبراعة في الكتابة وجودة الخط ، وقد حدث أن عاتبتها احدى النساء على خطها فقالت :

وعائبة خطي فقلت لها اقصري فسوف اريك الدر في نظم أسطري

وناديت كفي كي تجود بخطها وقربت أقلامي ورقي ومحبري

فخطت بأبيات ثلاث نظمته ليبدو لها خطي ، وقات لها : انظري[٣]

فخطت بأبيات ثلاث نظمتها ليبدو لها خطى وقلت لها انظري

وكان في قرطبة وأرباضها المختلفة طائفة كبيرة من النساء البارعات في الخط وكن ينسخن المصاحف بخط بديع[٤] .

وبناء عليه فقد اتضح ماكان عليه المجتمع الأندلسي من نشاط كبير في ميدان الحركة العلمية ولم يكن هذا النشاط مقصوراً على الرجال فحسب بل امتد أيضا إلى النساء اللاتي شاركن في بناء الكيان العلمي للأندلس ليس فقط في ميدان النسخ بل وفي ازدهار العلوم والأدب .

(١) الصلة ، ج٢ ، ص٦٩٢ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٦٩٢ .

(٣) الحميدي : الجذوة ، ص٤١٢ .

(٤) ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الاندلس ، ص٦٤ .

ولأهمية النسخ في النشاط العلمي باعتباره وسيلة من وسائل حفظ العلوم وصيانتها من الضياع ونشرها بين الناس ، نود أن نشير إلى الكيفية التي كانت تتم بها عملية النسخ ، فقد كانت هناك طريقتان للنسخ أولهما أن ينسخ الناسخ من المخطوط مباشرة بنفسه ، وبعد اتمامه لعملية النسخ يعرضه على غيره لمراجعته والتأكد من خلوه من الأخطاء وثانيهما أن يملي شخص على عدد من النساخ مايراد نسخه للحصول على عدة نسخ منه ، وبعد الفراغ من عملية النسخ تجرى المقابلة بين النسخ لمعرفة ماقد يكون في بعضها من أخطاء وتصحيحها(١) .

ومما يلحق بحرفه الوراقة التجليد وزخرفة الكتاب ، وهو ما يزيد الكتاب قيمة وجمالا في الباطن والظاهر ، كما يرفع شأنه عند هواة اقتناء الكتب . فكان الوراقون يحرصون بالإضافة إلى جودة النسخ ، أن يكون الكتاب على جانب من جمال الشكل وجودة التجليد ليكون في مظهره الأنيق ملائماً لقيمته العلمية .

وقد رأينا من قبل كيف عثر العلامة الحضرمي ـ الذى خرج في طلب كتاب له ـ على نسخة منه لدى أحد الوراقين في سوق الكتب فسر به لحسن خطه وجودة تجليده(٢) .

ولئن اشتهرت شاطبه بصناعة الورق وإسهامها فى دفع عجلة الحركة العلمية بما قدمته من الورق الممتاز ، فإن مدينة مالقة كانت تشتهر كمركز لصناعة الجلود الممتازة والتجليد الفاخر(٣) ، ولعل من أسباب رقي فن التجليد

---

(١) ماهر حماده : المرجع السابق ، ص١٧٥ ـ ١٧٦ .

(٢) انظر قصته في بداية الحديث عن عناية الاندلسيين بالكتب .

(٣) ماهر حماده : المرجع السابق ، ص١٨٣ .

اهتمام الخلفاء باستقدام أمهر المجلدين من أهل الأندلس بالإضافة إلى استقدام البارعين منهم من صقليه وبغداد(١) .

وأخيراً فإن الكتاب الاسلامي آنذاك حظي باهتمام وعناية بالغين ، وإنْ دَلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على ما تمتع به الأندلسيون من نشاط وافر وقدرات كبيرة في ميدان الحركة العلمية ، ويأتي الوراقون منهم في الصف الثاني من حيث الإسهام في النشاط العلمي ، فقد كانوا عاملا من عوامل ازدهار الحضارة الإسلامية بما اسهموا به من نشر الكتاب الإسلامي بين أقطار المسلمين .

ونختتم الحديث عن هذا الموضوع باعتراف جميل لأحد الكتاب الغربيين حيث يقول : (بينما كانت سائر بلدان أوروبة تتمرغ في القذر والحطة ، نعمت اسبانيا بمدن نظيفةمنظمة ذات شوارع معبدة ومضاءة . وكان في ميسور قرطبة وحدها أن تعتز بنصف مليون من السكان ، وسبعمائة مسجد ، وثلاثمائة حمام عمومي ، وسبعين مكتبة عامة ، وعدد كبير من دكاكين الوراقين)(٢) .

---

(١) اعتماد القصيري : فن التجليد عند المسلمين ، ص٣٠ .

(٢) روم لاندو : الإسلام والعرب ترجمه منير بعلبكي ، ص١٧٧ .



الفصل الرابع

ازدهار التعليم في الأندلس :

أ ـ مراكز التعليم لدى الأندلسيين .

ب ـ طريقة التعليم عند الأندلسيين .

جـ ـ عناية الخلفاء بالتعليم .

من مظاهر النشاط العلمي في عصر الخلافة نهضة التعليم وإقبال أفراد المجتمع الأندلسي على العلم والاهتمام بالمعرفة .

ومن الطبيعي ـ وعصر الخلافة يمثل الانطلاقة العلمية والنشاط الحضارى في كافة ميادينه ـ أن نرى ميدان التعليم بمراكزه العلمية قد نال من النهضة والرقي نصيبا وافرا بل كان له القدح المعلى في ذلك التطور العلمي الذي شدته الاندلس آنذاك .

أ ـ مراكز التعليم لدى الأندلسيين :

كان المسجد عند المسلمين يمثل المركز العلمي الذي يتلقون فيه العلوم والمعارف على ايدي العلماء . ولم تكن لهم مدارس خاصة بالتعليم والتدريس إلا فيما ظهر في المشرق بعد فترة طويلة . لذلك كان اعتمادهم في حياتهم العلمية على المسجد وهو ما سلكه الأندلسيون . فقد كانوا (يقرؤن جميع العلوم في المساجد بأجره)(١) .

ولما كانت قرطبة تمثل قطب الرحى في النشاط العلمي باعتبارها حاضرة الخلافة ودار الملك فقد حظي جامعها الشهير بمكانة علمية لاتداني . فكان دوره عظيما في نشاط الحركة العلمية في عصر الخلافة وما تلاه من عصور حيث ضم بين أورقته حلقات العلم والدرس .

وكان طلاب العلم يدرسون في جامع قرطبه المذكور علوم الدين والأدب والتاريخ والجغرافيا والطب والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم(٢) .

---

(١) المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص٢٢٠ .

(٢) يذكر عبد الحليم منتصر في كتابه تاريخ العلم ص٥٤ ـ ٥٥ انه الي جانب تدريس العلوم الدينية في المسجد كانت تدرس العلوم الاخرى من أدب ولغة ومنطق وطب وفلك وان السيوطي ذكر أن دروسا مختلفة رتبت في الجامع الطولوني وان عبد اللطيف البغدادي اشار ايضا إلى ان درسا في الطب كان يلقي في الازهر في منتصف النهار من كل يوم ولا شك ان ذلك كان صورة عامة للتعليم عند المسلمين .

ويتسامح الكثير من الكتاب المعاصرين في اطلاق صفة الجامعة على ذلك الجامع فيذكر توماس ارفنج Thomas irving أن الخليفة الحكم المستنصر قدم الكثير من الجهود الموفقة في سبيل تطوير ورقي جامعة قرطبة(١) .

كما أن جبرائيل جبور يذكر نقلا عن نيكلسون Nicholson ان قرطبه كانت آنذاك من أهم الأوساط العلمية وكان في جامعها ـ أو ان شئت فقل في جامعتها ـ العالم أبو بكر القرشي يحاضر في الحديث .. والأديب الكبير أبو علي القالي يبحث مع الطلاب في أدب العرب ، وابن القوطية يلقي دروسه في النحو(٢) .

بالإضافة إلى ذلك يشير عبدالكريم التواتي إلى جامع قرطبه ويضفي عليه من الصفات الجامعية ما يجعله قريبا من الوصف الحديث للجامعات فيقول (وتتميما للعمل العلمي أمَدَّ الحكم جامعة قرطبة بكل ما تتطلبه من امكانيات بشرية ومالية وعيّن لها اخاه المنذر عميدا . ثم أخذ هو بنفسه يقضي جل أوقاته بين ابهائها وأروقتها يطالع ويقرأ)(٣)

ويتفق روم لاندو مع من ذكرناه من حيث وصفه بهذه الصفة ، وأن تلك الجامعة التي أسسها الخليفة عبد الرحمن الناصر ـ في زمن سابق على انشاء كل من الجامع الازهر والمدرسة النظامية ـ كانت مركزا للمعرفة للمسلمين والنصارى الوافدين من المشرق واوروبا(٤) .

ومما يوكد هذا الطابع الجامعي لجامع قرطبة أن المصادر التي تناولت تاريخ الأندلس وتراجم علمائه تشير إليه وإلى جامع مدينة الزهراء التي بناها

---

(١) FALCON OF SPAIN, P192

(٢) ابن عبد ربه رعقده ، ص٤٤ .

(٣) مأساة انهيار الوجود العربي في الاندلس ، ص٦٦٠ ـ ٦٦١ .

(٤) الإسلام والعرب ، ص١٧٨ .

عبد الرحمن الناصر باعتبارهما المركز العلمي الذي يجتمع فيه العلماء ، ويفد إليه طلاب العلم لاكتساب المعرفة .

فقد كان الأديب اللغوي أبو علي القالي يعقد مجالسه العلمية في جامع الزهراء فتتقاطر أفواج الطلبه عليه للأخذ عنه وذلك في كل يوم خميس . وكان يكتب عنه أكثر من أربعمائة من طلاب العلم في وقت إملائه الأمالي(١) . بل إن بعض حلقات العلم كانت تضم أعداداً هائلة من التلاميذ فيشير الحميدي إلى أن الأديب عبد الملك بن زيادة الله السعدي التميمي (ت بعد ٤٥٠هـ) كان يجتمع إليه في مجلس الإملاء بجامع قرطبه خلق كثير ، وانه لما رأى كثرتهم أنشد :

إني إذا احتوشتني ألف محبرة ... يكتبن حَدَّثني طورا وأَخْبَرَني

نادت بعقرتي الأقلام معلنة ... هذي المفاخر لا قعبان من لبن

ولا ريب أن فيما تقدم دلالة على أن الجامع كان آنذاك مقر العلم والتعليم الذي يؤدي رسالته في تعليم الناس وفتح المعرفة لهم والرقي بحياتهم الدينية والدنيوية(٢) .

واتصف جامع قرطبة في عصر الخلافة بالنشاط العلمي الكبير فقد كان بمثابة مصدر اشعاع أضاء للأندلسيين ولغيرهم الكثير من دروب المعرفة التي قادتهم إلى درجة رفيعة من الحضارة فكان الطلاب يتوافدون إليه من شتى أنحاء البلاد بل من جميع أنحاء العالم الإسلامي والمسيحي على حد سواء في جو اتسم بالتسامح والود من جانب المسلمين(٣) .

---

(١) الاشبيلي : ريحان الألباب (مخطوط) ورقة ١١٣٩ .

(٢) جذوة المقتبس ، ص٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(٣) زكريا هاشم : المرجع السابق ، ص٣١٣ .

ولم يكن جامع قرطبة وجامع الزهراء(٤) هما الجامعين الوحيدين في اداء - هذه الرسالة العلمية بل إن مدن الأندلس الأخرى كانت تضم في جوامعها حلقات العلم وندوات الدرس . وأشهر تلك المدن أشبيليه ، وطليطلة ، وشاطبه ، ومرسية وغرناطة من المدن التي شاركت في حركة البناء الحضارى والتطور العلمي بما قدمته من نشاط كبير تمثل فيما أخرجته تلك المدن من علماء أجلاء كان لهم انتاج علمي في حقول المعرفة المختلفة وسوف نتعرض فيما بعد لأبرزهم في حقول المعرفة والعلم .

ورغم ماتقدم حول انحصار التعليم والتدريس بالمساجد والجامع إلا أن هناك إشارات مهمة تذكرها كتب التاريخ والتراجم الأندلسية تفيد أنه كانت تعقد بعض حلقات العلم والدرس في مواضع أخرى غير الجامع . فقد كان الكثير من العلماء على جانب كبير من الثراء وسعة العيش مما دفع بعضهم إلى المشاركة في نشاط حركة التعليم وذلك بتخصيص مجالس علمية في دورهم ومن هؤلاء العلامة الطليطلي أحمد بن سعيد بن كوثر (ت٤٠٣هـ /١٠١٢م) الذى كان يقصده تلاميذه وهم يربون على الاربعين في وقت الشتاء فينزلهم في مجلس قد فرش ببسط الصوف مبطنات والحيطان باللبود ووسائد الصوف ، ولتوفير الدفء للمجلس كان هنالك كانون على قامة الانسان مملوء فحماً

(٤) جامع قرطبة انشاه المسلمون بعد ان شاطروا أهل البلاد المفتوحة كنيستهم في قرطبه ولما ضاق المسجد وسّعه الأمير عبد الرحمن الداخل وضم شطر الكنيسة وذلك سنة ١٩٦هـ / ٧٨٥م بعد أن أرضى النصارى ثم أخذ الأمراء ومن بعدهم الخلفاء في توسيعه ، ويلاحظ فيه المؤثرات الشامية المقتبسة من المسجد الأموى بدمشق .

(المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص٥٦٠ وما بعدها وأحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والاندلس، ص١١٣) . أما عن الزهراء وجامعها ، فهي مدينة بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر على بعد ثمانية كيلو مترات شمال غرب قرطبة وكان قد بناؤها سنة ٣٢٥هـ تحتإشراف ابنه الحكم المستنصر ولم يتم بناؤها نهائيا إلا بعد أربعين سنة في عهد الخليفة الحكم وقد اشتهرت بجامعها البديع . انظر (المقري : النفح ، ج١ ، ص٥٦٠ وما بعدها وكذلك أحمد العبادي المرجع السابق ، ص٢٢٠ وما بعدها .

يتوسط المجلس فيأخذ دفئه كل من المجلس فاذا انتهى التدريس قدم لهم الموائد عليها ثرائد بلحوم الخرفان بالزيت العذب . او ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد(١) .

ويتضح مما تقدم مدى عمق الإخلاص للعلم والمعرفة والتفاني في نشرهما ولو كلف ذلك الإنسان راحته وما له كما أن في ذلك إشارة إلى حرص الأستاذ وتلاميذه على انعقاد حلقة الدرس رغم ظروف البرد القارس في فصل الشتاء .

وإلى جانب ما ذكر فقد كانت بعض حلقات العلم تنعقد في السجون ولا مبالغة في ذلك فكثير من العلماء كانت تعترضهم في حياتهم بعض الظروف القاسية التي تقودهم إلي السجن فيظلون حبيسي جدرانه مما يدفع تلاميذهم إلى مكابدة المشاق من أجل لقائهم والأخذ عنهم . ومن هؤلاء العلماء الأديب احمد بن مفرج الجياني (ت ٣٦٦هـ / ٩٧٦م) الذى كان تلاميذه يلتقون به في السجن فيأخذون عنه الأدب واللغة ، وكان الخليفة الحكم المستنصر قد سجنه لكلام بلغه عنه(٢) .

ولعل في ذلك صورة واضحة من صور الإخلاص للمعرفة وصورة من صور الوفاء من التلاميذ لأساتذتهم ، فهؤلاء التلاميذ لم يتوانوا في سبيل لقاء شيخهم حتى ولو كان في اقسى المواضع وفي أجواء السجن كما أن في ذلك إشارة مهمة إلى ما كان يتمتع به ذلك الأديب من مكانة علمية مموقة .

وقد عرف عن بعض العلماء الاشتغال بالتجارة والبيع والشراء ولكن ذلك لم يمنعهم من أداء واجبهم العلمي والقيام بالتعليم والتدريس للتلاميذ وخاصة

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص٣٦ ـ ٣٧ .

(٢) ابن بشكوال : نفس المصدر والجزء ، ص٥ ـ ٦ .

المبتدئين منهم . فقد كان العلامة المقري ابراهيم بن مبشر البكري (ت٣٩٥هـ / ١٠٠٤م) (يقرىء في دكانه قرب المسجد الجامع بقرطبة . وينقط المصاحف ويعلم المبتدئين)(١) .

ومن دلائل التفوق العلمي وازدهار التعليم في المجتمع الاندلسي ما عرف عن بعض حلقات العلم التي كانت تعقدها بعض النساء ممن وصلن إلى درجة رفيعة من العلم والأدب ، فقد كانت الأدبية مريم بنت يعقوب الفصولي تعلم النساء وتعطيهن دروسا في الأدب مع احتشام وعفه . وكانت مقيمة بأشبيلية وطال عمرها حتى بلغت سبعين سنة(٢) .

وبناء عليه فإن هذه الظواهر العلمية تعطينا دلالة واضحة على ما بلغه الاندلسيون في مضمار التعليم والتدريس . كما أن فيما تقدم إشارة مهمة إلى أن الجامع لم يكن هو المركز الوحيد للعلم والمعرفة رغم كونه المركز الرئيسي لتلقي العلوم والمعارف ــ بل كانت هناك مواضع اخرى يرتادها العلم .

والجدير بالذكر ان الخليفة الحكم المستنصر لعب دورا هاما في رفع المستوى التعليمي في بلاده فقد كانت له جهود مثمرة في هذا الميدان . وقبل أن نعرض لتلك الجهود يحسن أن نتحدث عن طريقة التعليم عند الأندلسيين .

---

(٣) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج١ ، ص٨٨ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ٤١٢ ــ ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص٦٩٤ .

ب ـ طريقة التعليم عند الأندلسيين :

كان الأندلسيون يحرصون على أن يكون القرآن الكريم هو الأساس المتين في تعليم أولادهم ، ولم يكونوا يقتصرون على ذلك بل كانوا يضمون إليه تعلم اللغة العربية ورواية الشعر وتعليم الخط ، وقد أفادهم هذا المنهج في ترسيخ المعارف المتنوعة لديهم . وكان لإقبالهم على اللغة العربية والشعر والأدب في صغرهم أثر في رسوخ ملكاتهم في هذه العلوم فيما بعد(١) .

ويذكر ابن خلدون أن العلامة أبا بكر بن العربي(٢) قد رسم منهجا جديدا في طريقة التعليم وهو أن يقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم ، وذلك لأن الشعر ديوان العرب ، وفي تقديمه تعليم العربية ضرورة لتقويم اللغة عند الطفل ثم ينقل منه إلى الحساب ليلم بما لا يصح أن يجهله منه . يلي ذلك دراسة القرآن الكريم كما نصح بأن ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه فالجدل ثم الحديث وعلومه . وينتقد ابن العربي المنهج الذي يفتتح بتعليم القرآن للصبي لعدم معرفته وفهمه لمسائله وقضاياه . كما أنه نهى أن يجمع في التعليم بين علمين الا أن يكون المتعلم على نصيب كبير من النباهة والقدرة على الاستيعاب(٣) .

ويتضح من ذلك مدى ما أولاه الأندلسيون لهذا الميدان من عناية واهتمام وكيف أنهم نظموا عملية التعليم لدى الأطفال . حرصا منهم على أن ينشأ

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص٥٣٨ ـ ٥٣٩ ـ سامي العاني : دراسات في الأدب الاندلسي ، ص٩٦ .

(٢) هو محمد بن عبد الله المعافري (٤٦٨هـ ـ ٥٤٣هـ / ١٠٧٥م ـ ١١٤٨م) من أهل اشبيلية وكان من حفاظ الحديث وكبار العلماء رحل إلى المشرق وافاد من علمائه وكانت له مكانة رفيعة بين علماء الاندلس (ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ٥٩٠) .

(٣) المقدمـــة ، ص٥٣٩ .

أولادهم نشأة علمية سليمة . والحق أن المنهج الذى رسمه ابن العربي أقرب إلى المنهج التعليمي الصحيح .

كما أن العنصر التربوي السليم متوفر فيه . فقد بدأ بما يقوم لغة الطفل ويكسبه البلاغة بقراءة الشعر ثم يدرس الحساب ويلم بمسائله حتى اذا أدرك ذلك يكون متهيئاً لحفظ القرآن وفهمه لما يتمتع به من ثروة لغوية .

وكان للاهتمام العظيم بالتعليم وأدائه أن انصرف بعض العلماء إلى رسم المناهج التربوية التى يجب أن تتوفر في عملية التعليم فقد صنف العلامة أحمد ابن عفيف بن عبد الله الأموي (٣٤٨ ـ ٣٢٠ / ٩٥٩ ـ ١٠٢٩م) كتابا في « آداب المعلمين » ويقع في خمسة أجزاء(١) .

ويذكر المقري أن الأندلسيين كانوا يدفعون أجرة في سبيل تعلم العلوم وأنهم يقبلون على العلم والمعرفة اخلاصا لهما وليس طلبا لجاه أو ثراء .

وأن العالم فيهم يكون بارعا لأنه طلب العلم برغبته وبباعث في نفسه يحمله على الانفاق من أجل العلم(٢) .

ويبدوا أن الأجرة التي كان يدفعها الراغبون في العلم لم تكن تتمثل فقط في دفع مبلغ من المال للعالم أو الشيخ وإنما كانت تتمثل ايضا في تقديم هدايا عينية له أو إكرامه في ابتياع حاجة له . وفي هذا يقول المقري (والعالم عندهم معظم في الخاصة والعامة يشار إليه ، ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس ويكرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك)(٣) .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة . ج١ ، ص٣٨ ، ـ ٣٩ .

(٢) النفح ، ج١ ، ص٢٢٠ ـ ٢٢١ .

(٣) نفس المصدر والجزء والصفة .

جـ - عناية الخلفاء بالتعليم :

سعى الخلفاء إلى تأمين وسائل التعليم لأفراد شعبهم الأندلسي ، وكان عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر عهداً زاهراً شهد المجتمع الأندلسي فيه نهضة واسعة في ميدان العلم .

وما من شك أن الخليفة عبد الرحمن الناصر أسهم بجهد بارز في ذلك النشاط العلمي ، وإن كانت المصادر التاريخية يندر أن تشير إلى اسهامه في تطوير الحقل التعليمي ، بعكس الحال بالنسبة لابنه الخليفة الحكم المستنصر .

ورغم هذا فان هناك إشارات أوردها الدارسون المحدثون تشير إلى جهد الخليفة عبد الرحمن الناصر في هذا الصدد وأنه كان في عصره في قرطبه ٨٠ مدرسة عليا(١) .

والحق أن الخليفة الحكم المستنصر هو احق بالتنويه والإشارة إلى دوره في هذا الميدان بما قدمه واسداه للحركة العلمية ، وقد سبقت الإشارة إلى دوره في النهضة العلمية ويهمنا ونحن نتحدث عن ازدهار التعليم في الاندلس في عصر الخلافة أن نعرف بجهوده في هذا الصدد .

يأتي في مقدمة جهود الخليفة الحكم المستنصر اسهامه في رفع شأن التعليم في بلاده وتوفيره وتيسيره لرعيته حيث أمر بانشاء سبعة وعشرين مكتبا يلحق ثلاثة منها بالمسجد الجامع بقرطبه ، والباقي فرقه على أرباض قرطبه وعيّن العلماء والفقهاء للقيام بالتدريس للطفال في تلك المكاتب وأجرى عليهم المرتبات وأغدق عليهم الصلات وبالغ في تعليم أطفال المسلمين(٢) .

---

(١) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص٤٩٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص٢٤٠ ــ ٢٤١ ــ احسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ، ص٧١ ــ هــ ج ولز : معالم تاريخ الانسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، جـ٣ ، ص٨٣٠ ــ لو ثروب ستودارد : حاضره العالم الإسلامي ترجمة عجاج نويهض ، =

وكان لهذه الخطوة الكريمة من الحكم المستنصر اثر كبير في اوساط المجتمع الأندلسي فلهجت الألسن بشكره والاشادة بفضله على العلم وابنائه حتى قال أحد شعراء بلاطه وهو ابن شخيص .

وساحة المسجد الاعلى مكللة   مكاتبا لليتامى من نواحيها

لو مكنت سور القرآن من كلم   نادتك ياخير تاليها وراعيها(١)

ولم يقتصر الخليفة الحكم على ما تقدم بل كان يسعى إلى الأفضل في سبيل الرقي بالمستوى العلمي لرعيته ، فيذكر ابن عذارى أنه في سنة ٣٦٤هـ / ٩٧٤) أي قبل وفاته بسنتين ـ حبس حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء(٢) .

وفيما ذكره ابن عذارى إشارة إلى انه كانت تعقد بعض حلقات العلم والدرس ليلا وفي ذلك دليل على مدى عناية الأندلسيين بالعلم وصبرهم على المشقات في سبيل تحصيله .

وعلى هذا يكون الخليفة الحكم المستنصر قد أتاح الفرصة لجميع أفراد المجتمع في الاستفادة مما هيأه لهم من سبل لاكتساب المعرفة وتلقي العلم . فلم يعد العلم قاصرا على ذوي القدرة من الناس بل أصبحت فرص التعليم متاحة لكل شخص يريد ذلك(٣) .

ولكن هل استفاد أفراد الرعية من هذه الإمكانيات التي وفرها لهم الخليفة الحكم المستنصر ؟

= جـ ١ ، ص١٣٩ ـ محمد كرد علي : الإسلام والحضارة العربية ، ج١ ، ص٢٦٢ ـ سيد امير علي : مختصر تاريخ العرب ، ص٤٢٤ ـ زكريا هاشم : المرجع السابق ، ص٣١٣ ـ انيس النصولي : المرجع السابق ، ص١٢٢ .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص٢٤١ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص٢٤٩ .

(٣) ANWAR CHEJNE: MUSLIM SPAIN, P. ١٦٤ ,

والحق أن الأندلسيين كانوا يتمتعون بميل ورغبة شديدة نحو العلم والمعرفة . وقد سبقت الإشارة إلى تكلفهم أجرة التعليم من أجل العلم وحده . فكيف إذا توفرت الامكانيات والوسائل لهم . من الطبيعي حتما أن يكون ذلك حافزا شديدا لهم في التسابق إلى ميادين العلم والمعرفة وتحصيل العلوم والآداب .

ولم يكن الحاجب المنصور بن أبي عامر أقل ممن سبقه بل عرف عنه أنه من رواد الحركة الفكرية وأنه كـان لنشأتـه العلميـة أثر كبير في تشجيعه العلم واكرامه العلماء فكان محبا لمجالسهم حريصا على صحبتهم في حلـه وترحالـه(١) .

ويشير عبدالكريم التواتي إلى أن المنصور سار على نهج الخليفة الحكم من حيث الاهتمام بالتعليم وتوفيره للرعية وأنه كان يحضر أحيانا حلقات الدروس ويستفسر الطلاب عن مشاكلهم ويحثهم على اكتساب المعرفة ويمنح المتفوقين منهم المكافآت السخية(٢) .

ويبدو الفرق شاسعا بين حال المجتمع الأندلسي ونظيره الاوربي آنذاك مما يجعلنا نشعر بالاجلال والتقدير لذلك الشعب الذي لم يرتض ذل الجهل وسطوة ـ الأمية فكان الشعب الأندلسي في ذلك العصر يمثل شعلة متوهجة بنور المعرفة ، وكان مما يسر النفس الا ترى طفلا أو طفلة بلغ الثامنة عشر ولم يتزود بالعلم الكافي على الأقل لتأهيله للقراءة والكتابة(٣) .

---

(١) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، ج٢ ، ص٧٠٣ .

(٢) مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس ، ص٦٦٣ .

(٣) جلال مظهر : علوم المسلمين ، ص٨١ ـ سامي العاني : المرجع السابق ص٩٥ .

وفي الوقت الذي لم يكن في أوروبا غير قلة بسيطة من الرهبان ممن يعرف القراءة والكتابة كان كل فرد في الأندلس تقريبا يقرأ ويكتب ويلم ولو بقدر من ألوان المعرفة(١) .

وقد أدرك الغربيون مدى ما كان يتمتع به جيرانهم من العرب الأندلسيين من حضارة زاهره وتطور علمي باهر ، فلم يخفوا اعجابهم بذلك ومن بينهم زيغريد هونكه التي تحدثت عن قرطبه في القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادي ووصفتها بأنها سيدة التمدن بل واكبر اوروبا كلها مما حوته من مظاهر الحضارة الفكرية والعمرانية حيث كان بها ١١٣٠٠٠ منزل ، و ٦٠٠ مسجد ، و ٣٠٠ حمام ، ٨٠ مدرسة عليا ، و ٢٠ مكتبة فيها عشرات الالاف من الكتب(٢) .

وبهذا يتضح لنا حقيقة الازدهار العلمي الذى ساد أرجاء الأندلس في عصر الخلافة والذي كان دافعا قويا ليتجه الأوروبيين نحو مصادر الاشعاع الفكري في قرطبه وغيرها من مدن الأندلس لينهلوا منها ألوان المعرفة والثقافة ، وهو امر اعترف به الكثير من الكتاب الغربيين .

---

(١) روم لاندو : المرجع السابق ، ص١٧٨ ماهر حماده : المكتبات في الإسلام ، ص٩٩ ــ محمد عثمان : المرأة العربية في الأندلس ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثالث عشر ، ص١٠٦ .

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص٤٩٩ .

ــ لم تسعفنا المصادر التاريخية الاندلسية في التحقق مما اشارت إليه الكاتبة الالمانية زيغريد هونكه عن عدد المدارس والمكتبات في قرطبة في القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادي . وربما يكون لدي الكاتبة من المصادر الأوروبية ما اعتمدت عليه في استخلاص هذا الاحصاء عن المدارس والمكتبات في قرطبة في تلك الفترة .



القسم الثاني

نشاط العلوم والآداب في عصر الخلافة



الفصل الأول

العلوم الدينية

أ ـ الفقه

ب ـ الحديث

ج ـ علوم القرآن (القراءات ـ التفسير)

د ـ علم الكلام وموقف الأندلسيين منه .

أ ـ الفقه

محمد بن يحيى بن لبابة ، يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثي ، محمد بن القاسم الثغرى ، محمد بن الحارث الخشني ، عبد الله بن إبراهيم الأصيلي ، عبد الرحمن القنازعي ، مروان بن علي الأسدي ، محمد بن عمر (ابن الفخار) ، عبد الله بن محمد بن عيسى (ابن الأسلمي) ، ابن عبد البر النمري ، علي بن أحمد (ابن حزم) .

نالت العلوم الدينية عناية عظيمة من الأندلسيين ، وأولوها اهتماما كبيرا ، وقد سبق القول في التمهيد إلى بداية نشاط الدراسات الدينية في الأندلس . وكيف أن أحد الصحابة وكثير من التابعين كان لهم دور بارز في نشؤ تلك الدراسات وأنهم بذلك أول من يعزى إليه الفضل في نشاط الحركة العلمية الدينية في الأندلس .

والحق أن الفقه احتل لدى الأندلسيين مكانة عالية ، ومنزلة سامية ، وكان عالم الفقه يحظى منهم بكل تقدير وإجلال ، فكانت سمة الفقيه عندهم عظيمة جليلة ، وقد يخلعون هذه الصفة على النحوى أو اللغوى ، فيقال له فقيه ، لأن هذه الصفة لديهم أرفع السمات ، ولأجل هذا فالفقيه معظم لدى الخاصة والعامة(1) .

وتبعا لهذا فقد نال الفقهاء كل تقدير وإجلال من الخلفاء والأمراء ، وكان هؤلاء يدنون منزلتهم ، ويستشيرونهم فيما يعرض لهم من أمور ، فالخليفة الحكم المستنصر أراد أن يقطع شجرة العنب من الأندلس في محاولة للقضاء على شرب الخمر فاستشار الفقهاء في ذلك فذكروا له أنها قد تصنع من غيرها

---

(1) المقرى : نفح الطيب ، ج1 ، ص221 ـ زكريا هاشم : المرجع السابق ص555 .

فكف عن ذلك [1] وفي ذلك إشارة إلى مكانة هؤلاء العلماء وإلى ما كانوا يتمتعون به من احترام وتعظيم لحقهم سواء من الخلفاء الذين أنزلوهم منزلا كريما لديهم ، أو من العامه الذين كانوا يكنون لهم كل ولاء وتقدير .

وما من شك أن هذه المنزلة العالية للفقهاء قد أتاحت لهم أن يلعبوا دورا كبيرا في تشكيل بعض الاحداث ، ومنها على سبيل المثال حادثة الربض التي وقعت في عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ١٩٨هـ والتي لعب الفقهاء دورا في وقوعها ، وانظر كتاب ابن الأثير الكامل ، ج٥ ، ص١٧٢ وتاريخ الأندلس حافل بالكثير من المواقف التي تشهد بما كان للفقهاء من تأثير قوي في الدولة والمجتمع .

وقد تسنى للكثير من الفقهاء أن يتوصلوا إلى مناصب رفيعة في الدولة كميدان الفتيا والحسبه والشرطه[2] وغيرها من الميادين الهامه .

وفي عصر الخلافة ازدهرت الدراسات الفقهية ، وذلك بفضل طائفة من الفقهاء النابغين الذين أسهموا بقدر عظيم في نهوض ذلك العلم والرقي بدراساته

ومن الطبيعي أن يسير هؤلاء الفقهاء على المذهب المالكي تبعا لما سار عليه فقهاء المالكية من قبل .

وفي مقدمة فقهاء عصر الخلافة يبرز الفقيه محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة (ت٣٣٠هـ / ٩٤١م) الذي كان من أعظم الفقهاء علماً وأوسعهم دراية بمسائل الفقه ووجوهه المختلفة ، وكان لذلك يعتمد

---

(١) المقرى : نفس المصدر ، ج٢ ، ص٢١٤ .

(٢) للاطلاع على من تولى القضاء من فقهاء عصر الخلافة وغيره . انظر الخشني قضاة قرطبة وكذلك النباهي : تاريخ قضاة الأندلس . واما من تولي منصب الفتيا والحسبة والشرطة فكتب التراجم الأندلسية . كتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي . وجذوة المقتبس للحميدى فتحوي الكثير من الأمثلة على ذلك .

عليـــه فـي الفتيا ، كما ولاه الخليفــة عبد الرحمن الناصر قضاء البيره(١) .
ولابن لبابه نشاط في ميدان التأليف ، فقد صنف كتابا قيما في الفقه على المذهب المالكي وهو كتاب « المنتخب » وكان لهذا الكتاب شأن كبير بين فقهاء الأندلس حتى قال فيه ابن حزم (ما رأيت للمالكي كتابا أنبل منه في جمع روايات المذهب وتأليفها وشرح مستغلقها ، وتفريع وجوهها)(٢)

وانصرف الكثير من طلاب العلم إلى دراسة الفقه ومعرفة مسائلة . فكانت الجوامع المنتشرة في الأندلس تحفل بحلقات العلم والمناظرات العلمية في هذا الميدان العلمي .

ومن أشهر المجالس العلمية في جامع قرطبة مجلس الفقيه يحيى بن عبد الله ابن يحيى الليثي (ت٣٦٧ هـ / ٩٧٧م) فقد كان يعقد مجالسه العلمية في جامع قرطبة ايام الجمع ، ويلقي هناك دروسه الفقهية على طلاب العلم الذين يزدحم بهم مجلسه لإشتهار ذلك الفقه بعلو المكانة العلمية والمعرفة الواسعة بالفقه(٣) .

ونظرا لمنزلة هذا الفقيه العلمية فقد حرص الخليفة الحكم المستنصر على ان يتلقى ابنه هشام المؤيد العلم على ذلك الفقيه فسمع منه هشام دروسا مختلفة في الفقه(٤) .

ونبغ الفقيه عبد الله بن محمد بن القاسم الثغري(٥) (ت٣٨٣هـ / ٩٩٣م) في الفقه ، وارتحل إلى المشرق حيث أخذ عن الكثير من العلماء ثم عاد إلى

---

(١) الخشني : تاريخ علماء الأندلس (مخطوط) ورقة ١٠١ .
ـ البيره . من كور الاندلس الجليلة القدر نزلها جند دمشق من العرب ، وبينها وبين غرناطة ستة أميال (الحميري : الروض المعطار ، ص٢٩) .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص٩٨ ـ الضبي : بغية الملتمس ، ص١٤٤ ـ المقري : النفح ، ج٣ ، ص١٧١ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٩١ .

(٤) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٩١ .

(٥) الثغري نسبة إلى الثغر ، وهو الموضع القريب من العدو (ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨١ .

الأندلس ليوليه الخليفة الحكم المستنصر القضاء على بلده ، وكان لتضلعه في الفقه وسعة علمه أن شبهه أصحابه بسفيان الثوري[1] .

وكان للخلفاء وفي مقدمتهم الحكم المستنصر أثر في دفع مجلة العلوم وتشجيع العلماء على البحث والدرس ، فالفقيه محمد بن الحارث بن أسد الخشني (ت٣٦١هـ / ٩٧١م) ألف للحكم كتبا كثيرة حتى قال عنه ابن الفرضي : (بلغني أنه ألف له مائة ديوان . وقد جمع له في رجال الأندلس كتابا قد كتبنا منه في هذا الكتاب ما نسبناه إليه (يعني كتابه تاريخ علماء الأندلس)[2] .

ولم يكن الخشني هو العلامة الوحيد الذى يحظى بتأييد الخليفة الحكم المستنصر ، فإلى جانبه كان الفقيه أبو بكر محمد بن أحمد بن يحيى (ت٣٨٠هـ / ٩٩٠م) يلقي كل تكريم وتبجيل من ذلك الخليفة الذى أظهر اهتماما كبيرا بالدراسات الفقهية ، فقد ألف له أبو بكر كتبا كثيرة في ذلك ومن بينها كتابا في فقه التابعين ، ولمعرفته الواسعة بالفقه وأحكام الشريعة فقد ولاه الخليفة القضاء[3] .

---

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج١ ، ص٢٤٤ ــ ٢٤٥ ــ ٢٤٦ ــ ياقوت : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٨١ ــ سفيان الثوري : هو ابو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي (٩٧هـ ــ ١٦١هـ / ٧١٥م ــ ٧٧٧م) كان راسخاً في علم الحديث ، وعد من ابرز فقهاء المحدثين وقد أراد الخليفة العباسي ان يوليه القضاء فهرب وتخفى حتى مات بالبصره (ابن قتيبه : المعارف ص٢١٧ ــ ٢١٨ ــ ابن النديم : الفهرست ص٣١٤) .

(٢) تاريخ علماء الاندلس ، ج٢ ، ص١١٣ ــ الحميدي : الجذوة ، ص٧١ ــ الضبي : البغية ، ص٧١ ــ ابن فرحون : الديباج المذهب ج٢ ، ص٢١٢ ــ ٢١٣ .

(٣) الصفدي : الوافي ، ج٢ ، ص٥١ .

كما أن الفقيه محمد بن عبد الله بن سيد (ت٣٦٣هـ / ٩٧٣م) نال منزلة سامية لدى الخليفة الحكم ، وبتشجيع منه بوب له ذلك الفقيه (المستخرجة) في الفقه المالكي[1] والمستخرجة : كتاب فقهي يعرف بالعتبية نسبة إلى الفقيه العتبي ـ تلميذ عبد الملك بن حبيب[2] . الذى تقدم الحديث عنه في التمهيد .

وكان لازدهار حركة الدراسات الفقهية في الأندلس وما تبع ذلك من اختلاف العلماء وتباين الأراء في تفسير مسائل الفقه وقضاياه أثر في اتجاه البعض من الفقهاء نحو الاشتغال بدراسة مسائل الاختلاف ومحاولة حصر وجوهها المختلفة والخروج بما يكون أقرب للصواب ، فقد صنف الفقيه محمد بن حارث الخشني (كان حيا في حدود ٣٣٠هـ) كتابا في (الاتفاق والاختلاف لمالك بن أنس وأصحابه)[3] .

كما صنف أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الاصيلي (ت٣٩٢ هـ / ١٠٠١م) كتابا فيما اختلف فيه الفقهاء وأسماه (الدلائل في اختلاف العلماء) وقد لقي ذلك الكتاب قبولا حسنا بين علماء عصره[4] .

واتجه الكثير من الفقهاء في دراساتهم الفقهية نحو شرح وتوضيح قواعد مذهبهم المالكي والعمل على تفسير المسائل الفقهية على ضوء من آراء وأقوال الامام مالك بن أنس رحمه الله بل إن الموطأ وهو الكتاب الفقهي الذى يعتبر حجر الاساس لمذهبهم الذى يسيرون عليه قد لقي منهم عناية فائقة ، واهتماما بالغا ، حيث تناولوه بالشرح والإيضاح منذ دخول مذهب مالك إلى الأندلس .

---

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٧٣ .

(٢) المقري : النفح ، ج٣ ، ص١٧١ .

(٣) الحميدي : الجذوة ، ص٥٣ ـ الضبي : البغية ، ص٧١ .

(٤) ابن فرحون : المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٣٣ ـ الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٣ ، ص١٠٢٤ ـ ابن قنفذ : الوفيات ، ص٢٢٣ .

وفي عصر الخلافة ظهرت العديد من الشروحات لموطأ مالك ، فممن أسهم في هذا الميدان محمد بن عبد الله بن محمد المريّ (٣٢٤ هـ ـ ٣٩٨ هـ / ٩٣٥م ـ ١٠٠٧م) الذى كان له جهد بارز في ازدهار الدراسات الفقهية يتمثل في شرح كتاب الموطأ وغير ذلك من كتب الفقه بالإضافة إلى تأليفه كتابا في اختصار المدونة(١) .

كما أن الفقيه عبد الرحمن بن مروان القنازعي (٣٤١ هـ ـ ٤١٣هـ / ٩٥٢م ـ ١٠٢٢م) كان له قدم راسخ في هذا الميدان ، حيث توفر على دراسة الفقه وشرح مسائله، فتناول الموطأ بالشرح والتفسير ، وألف في ذلك كتابا قيما ضمنه ما نقله يحيى بن يحيى في موطأه ويحيى بن بكير في موطأه(٢) .

وسار على هذا المنوال الفقيه مروان بن على الأسدي القطان القرطبي ، حيث ألف كتابا في شرح موطأ مالك ، وكان لهذا الكتاب وقع طيب بين الفقهاء فأخذوه عن القطان ، ومنهم الفقيه أبو عمر بن الحذاء الذى اخذ عنه ذلك الكتاب سنة ٤٠٥هـ .

ثم مالبث أن أرسل في طلب الكتاب مرة اخرى وكان بطليطلة والقطان ببونه(٣) ـ فارسل إليه الكتاب وقد اضاف إليه شروحا وزيادات كثيرة(٤) .

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة في تاريخ غرناطه ، ج٣ ، ص١٧٣ .

ـ والمدونه ، مجموعة من المسائل الفقهية في فروع المالكية أخذها عبد السلام بن سعيد التنوخي (١٦٠هـ ـ ٢٤٠ : ٧٧٧ ـ ٨٥٤م) المعروف بسحنون ـ من أهل القيروان عن عبد الرحمن بن القاسم عن الأمام مالك بن أنس ، وأصبحت هذه المدونة التى دونها سحنون عن ابن القاسم من أشهر كتب الفقه على المذهب المالكي (ابن خلدون : المقدمة ، ص٤٥٠ ـ الزركلي : الأعلام ، ج٤ ، ص٥ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

(٣) بونه : ميناء جزائري يقع بالقرب من الحدود التونسية .

ـ (أحمد عطية الله : القاموس الإسلامي ج١ ، ص٣٩٧ .

(٤) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦١٦ .

وهكذا نلمس ما كان عليه فقهاء عصر الخلافة من هتمام وعناية بالغين بالموطأ ونلمس ايضا مدى ما كانوا يحملونه في نفوسهم من تقدير واجلال لهذا الكتاب باعتباره السجل الحافظ لاراء وأقوال إمامهم مالك بن أنس إمام دار الهجرة الذى اقتنعوا بعلمه وفقهه الواسع وما لبثوا أن تحمسوا لمذهبه ثم أخذوا في نشره والعمل على ارساء قواعده بما قدموه من شروح وايضاحات كثيرة على كتاب الموطأ .

وإذا كان الحكم المستنصر قد حاز الفضل العظيم في تشجيع الحركة العلمية فإن من الانصاف أن نشير إلى ما أسهم به الحاجب المنصور بن أبي عامر في هذا الميدان ، فقد كان له دور كبير في دفع عجلة العلوم الدينية فبأمر منه صنف الفقيهان احمد بن عبد الملك المعروف بابن المكوى الاشبيلي وصاحبه أبو مروان المعيطي كتاباً اسمياه « الاستيعاب » ضمناه أقاويل مالك بن أنس رحمه الله فجمعا ارآءه واقواله في مصنف كبير لقي من العلماء والدارسين كل ثناء وتقدير ، حيث كان بمثابة موسوعة فقهية لآراء مالك وأقواله في الفقه وكان بذلك مرجعا لكل طالب علم وباحث في مسائل الفقه على المذهب المالكي(١) .

وكان ابن بشكوال قد ذكران تأليف هذا الكتاب تم بأمر الخليفة الحكم المستنصر ولكن الحقيقة بخلاف ذلك ، فالحميدي وهو اقرب زمنيا في تاريخ ذلك الأمر إلى جانب تاكيد الضبي لما أورده الحميدي ، يعطينا دليلاً على أن تأليف الكتاب تم بأمر المنصور وليس كما قال ابن بشكوال الذي عاش في فترة بعيدة عن عصو الخلافة(٢) .

---

(١) الحميدى : الجذوة ص١٣٢ ــ ١٣٣ ــ ابن فرحون : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٧٦ ــ الصفدى : المصدر السابق ، ج٧ ، ص١٤٤ .

(٢) عاش ابن بشكوال في القرن السادس الهجري ، وكانت وفاته سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م

وجاء تأليف ذلك الكتاب تأكيد لما بلغه الأندلسيون من رقي علمي حيث كانوا في ذلك العصر اكثر منافسة لأندادهم من المشارقة في ميدان البحث والتأليف ، فلا يكاد أهل المشرق يتوصلون إلى سابقة في ميدان البحث حتى ينبرى أهل الاندلس لهم بالتوصل لمثل تلك السابقة العلمية أو أفضل منها ، فكما أن القاضي أبا بكر محمد بن أحمد الحداد الشافعي البصري قد جمع اقوال الشافعي في كتابه الباهر(١) فقد رأى المنصور ألا يكون الاندلس قاصرا عما توصل إليه المشارقة في ميدان البحث والتأليف .

وبرز في ميدان الفقه آنذاك محمد بن عمر بن يوسف المعروف بابن الفخار (ت٤١٩هـ / ١٠٢٨م) وكان من أهل قرطبة وأحد الحفاظ المشار اليهم بالبنان وقد رحل إلى المشرق فحج وأقام بالمدينة(٢) ورحلته العلمية هذه كانت وساما عظيما وللاندلسيين ، فقد خبرنا أن الاندلسيين كانوا يرتحلون في طلب العلم إلى المشرق ، ولكن الأمر اختلف هذه المره مع ابن الفخار فبعد اقامته بالمدينة لفت أنظار الناس اليه بعلمه الواسع ومعرفته العميقة بالفقه فتقاطروا عليه يأخذون عنه ويستفتونه فيما يعرض لهم من القضايا الفقهية (وكان يفخر بذلك على اصحابه ويقول لقد شوورت بمدينة رسول الله صلى دار مالك بن أنس ومكان شوراه (٣)

وهكذا يتضح لنا الدرجة الرفيعة التي بلغها علماء الأندلس في ذلك العصر، وكيف أنهم اثبتوا قدرتهم الكبيرة على الوصول إلى مابلغه أندادهم من المشارقـــة .

(١ المقري : النفح ، ج٣ ، ص١٣٢ .
(٢) ابن بشكوال : الصله ، ج٢ ، ص٥١٠ ـ ابن تغري بردي : النجوم الزاهره ، ج٤ ، ص٢٦٨ ـ المقري : النفح ، ج٢ ، ص٦٠ ـ ٦١ .
(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٥١٠ .

وكان من نتائج التطور الحضارى وظهور عامل الترف في المجتمع الاندلسي أن عكف بعض الاشخاص على ممارسة ضروب من السلوك تنافي تعاليم الشريعة مما دعا بعض الفقهاء إلى دراسة هذه الظواهر والعمل على وضع الحلول لها معتمدين في ذلك على مصادر الشريعة وما توصلوا إليه من اجتهادات فقهية ، فالفقيه عبد الله بن محمد بن عيسى المعروف (بابن الأسلمي (ت٤٢٠هـ / ١٠٢٩م) اسهم في هذا الميدان بتصنيفه كتبا مختلفة ، مثل كتاب « تفقيه الطالبين والارشاد إلى اصابة الصواب في الأشربة) وكتاباً آخر صغير الحجم سماه (تنبيه المريدين المخدوعين بشبه الفاتنين على الانبذه المسكره من أي الاشجار والحبوب كانت من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال جماهير الفقهاء والمحدثين في أمصار المسلمين) وألف أيضا كتابا في قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا شهادة بينكم) الآية إلى آخر الآيات الثلاث[١] . وكان لهذه الكتب مكانة عاليه بين الفقهاء فتلقوها بقبول حسن حتى ذكر ابن الأبار أنه أطلع على كتابيه الأخرين مما يؤكد مكانتها العلمية وخاصة أن مؤلف تلك الكتب اتصف بالعلم الواسع وحسن السيرة[٢] .

وفي أواخر عصر الخلافة برز في الساحة العلمية فقيهان كان لهما دور عظيم في إثراء الحركة الفقهية بما أخرجاه من دراسات مهمة ، كما ذاع صيتهما ليس في الأندلس فقط بل في العالم الإسلامي كله . الأول : الفقيه أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمري (٣٦٢ ـ ٤٦٠ هـ / ٩٧٢ ـ ١٠٦٧ م)، والثاني علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ ـ ١٠٦٣م) .

---

(١) سورة المائدة ، اية (١٠٦) .

(٢) ابن الابار : التكملة ، ج٢ ، ص٧٩٦ .

فالأول ، وهو ابن عبد البركان له جهد بارز في ميادين العلم المختلفة فقد اسهم بنشاط وافر في إثراء حقول المعرفة من دين وتاريخ وأدب (وألف مما جمع تواليف نافعة سارة عنه ، وكان يميل في الفقه إلى أقوال الشافعي رحمة الله عليه)(١) .

ورغم ميله إلى المذهب الشافعي الا أنه كان صاحب فضل عظيم على المذهب المالكي فقد صنف كتبا عديده على ذلك المذهب ، ومن بينها كتابا « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والاسانيد » والكتاب يقع في حجم كبير حيث بلغ سبعين جزءا وقد اثنى عليه ابن حزم ، ووصفه بانه ليس له نظير في فقه الحديث(٢) ، وبالإضافة إلى ذلك فقد صنف كتابا اسماه (الاستذكار لمذاهب علماء الامصار في شرح ماتضمنه الموطأ من معاني الرأى والاثار) وقد اشار ابن حزم إلى إنه أختصار لكتاب التمهيد المتقدم الذكر(٣) .

وكان لكتب ابن عبد البر في الفقه اثر في اقبال الدارسين عليها ومطالعتها فتعاقب العلماء وطلبة العلم على دراستها ، وقد ذكر ابن خير الاشبيلي انه أخذ الكتابين المذكورين عن شيوخه(٤) .

وكان لعلم ابن عبد البربحاجه القضاه وأهل الفتيا إلى من يجمع لهم آراء واقوال من سبقهم من أئمة العلم والفقه في مجال الفتيا اثر في انصرافه إلى تصنيف كتاب يضم أقوال أهل المدينة وفي مقدمتهم مالك بن أنس واتباعه واسماه « الكافي » وقد اثني ابن حزم على هذا الكتاب واشار إلى ماضمنه

---

(١) الحميدي : الجذوة ، ص٣٦٧ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج١ ، ص٥٦٤ ـ ٥٦٥ .

(٢) الحميدي : نفس المصدر ، ص٣٦٨ .

(٣) ابن خير : فهرسة مارواه عن شيوخه ، ص٨٦ ـ المقري : النفح ، ج٣ ، ص١٦٩ ـ ١٧٠ .

(٤) فهرسة ماروا ه عن شيوخه ، ص٨٦ .

ابن عبد البر من مسائل لايستغني عنها المفتي وان الناس قد استغنوا بذلك الكتاب عن التصانيف الطوال في الفقه ويقع ذلك الكتاب في خمسة عشر جزءا(١) .

ولم تكن هذه الكتب وحدها ما ألفه ابن عبد البر بل انه لتضلعه في الفقه ومعرفته بمسائله قد ألف كتابا في « اختلاف اصحاب مالك بن انس واختلاف رواياتهم عنه « ويقع ذلك الكتاب في اربعة وعشرين جزءا(٢) .

ويلاحظ كثرة الأجزاء التي يتضمنها كل كتاب من كتب ابن عبد البر المذكور ، كما يبدوا أنه كان ينهج في تاليفه منهج التأني وعدم التسرع بحيث لم يكن يحمل نفسه مشقة الإخراج السريع لتاليفه وما يترتب عليه من نصب ومشقة من جهة ، ومايتولد عن التسرع من هفوات لا يخلو منها اي عمل عجل من جهة أخرى ، فكان يوزع جهده العلمي على فترات بحيث ينجز في كل فترة جزءا من انتاجه العلمي لينتهى الأمر باجزاء كثيرة لأي من كتبه العديدة ، ولا شك أن عمره المديد الذى بلغ ما يقارب قرنا من الزمان ـ حيث توفي عن ٩٨ عاما له كان أثر في رسوخ مكانته العلمية ، وغزارة انتاجه العلمي النفيس الذى اثرى به المكتبة الإسلامية .

اما ابن حزم فهو علي بن أحمد بن سعيد ، وأصله من الفرس وجده الاقصى في الإسلام هو (يزيد) مولى يزيد بن أبى سفيان(٣) وقد تلقى ابن

(١) المقري : النفح ، ج٣ ، ص١٧٠ ـ هذا ويذكر الحميدي : (في الجذوة ، ص٣٦٨) انه يقع في ستة عشر جزءا .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص٣٦٨ .

(٣) الحميدي : الجذوة ، ص٣٠٨ ـ الضبي : البغية ، ص٤١٥ .

ذكر عبد الحليم عويس في كتابه (ابن حزم الاندلسي ، ص٥١) ان يزيد بن ابي سفيان هو « يزيد الخير » والحق أن هذا اللقب ليس له بل كان لاحد الصحابة واسمه زيد بن مهلهل =

حزم العلم على ايدى الكثير من العلماء ، كأحمد بن الجسور في علم الحديث ، ومحمد بن الحسن المذحجي في المنطق ، وعبد الرحمن بن أبي زيد في الأدب وغيرهم من العلماء(1) .

ويعتبر بن حزم من أكبر علماء الإسلام قاطبة في ميدان التصنيف والتأليف في أبواب العلم المختلفة ، فقد اثرى المكتبة الإسلامية بنفائس الكتب وروائع المؤلفات مما لم يكن لغيره الا ما ذكر عن الحافظ محمد بن جرير الطبري ، فقد ذكرانه صنف ما يقارب من اربعمائة مجلد في شتى ضروب المعرفة(2) .

وفيما يتعلق بنشاطه العلمي في ميدان الفقه فقد مال به النظر في بداية حياته إلى مذهب الشافعي حيث سار على ذلك فترة من الزمن ولكنه مالبث ان انحرف عنه إلى المذهب الظاهرى الذى ينسب اصلا إلى الفقيه المشرقي داوود بن علي الاصفهاني(4) فعمل على تنقيحه وصياغته في منهج

= الطائي الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ٩هـ ، ومعه وفد من طيء ، وكان لكثرة خيله ان لقبه قومه يزيد الخليل ولكن الرسول ﷺ اسماه زيد الخير (الزركلي : الاعلام ، ج٣ ، ص٦١) .

(١) عبد الحليم عويس : ابن حزم الاندلسي ، ص٦٧ ـ انخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص٢١٣ .

(٢) صاعد : طبقات الامم ، ص١٠٢ ـ ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٤١٦ ـ ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، ج١ ، ص١٤٣ ـ المراكشي : المعجب ص٩٤ .

(٣) الكتب نقد وعرض (ابو محمد على حزم وكتابه جوامع السيرة وخمس رسائل اخرى ، تحقيق احسان عباس وناصر الدين الأسد ، نشر دار المعارف بمصر) مقالا بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، ج٤ ، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦ ، العدد ١ ـ ٢ ـ ص١٨٨

(٤) هو أبو سليمان داوود بن علي بن داوود بن خلف الاصفهاني ، أول من استعمل قول الظاهر والغى الرأى والقياس ، وقد وصف بالعلم والفضل وتوفي سنة (٢٧٠هـ / ٨٨٣م) (ابن النديم : الفهرست ، ص٣٠٢) .

فقهـي لـه قواعد واصول ، ثم عمل على بثه مناضحا عنه ، فألف فيه من الكتب الكثير(١) .

ومذهب ابن حزم الظاهـري يعتمد فيه على قبول ما نص عليه في القرآن أو ورد فيه حديث موثوق على ظاهر معناه الا أن يكون هناك ضرورة من عقل أو حس تدعو إلى صرف المعنى عن ظاهره وإلى الأخذ بالتأويل(٢) .

وابن حزم يوضح لنا ذلك في كتابه الفصل فيقول : (واعملوا ان دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه ، وجهر لاسر تحته ، كله برهان لا مسامحة فيه ، واتهموا كل من يدعو أن يتبع بلا برهان وكل من ادعى للديانة سرا وباطنا فهى دعاوى ومخارق ، واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها ولا أطلع اخص الناس من زوجة أو ابنة أو ابن عم أو صاحب على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم ، ولا كان عنده عليه السلام سرولا رمز ولا باطن غير ما دعى الناس كلهم اليه)(٣).

ونتيجة لخروج هذا الفقيه على المذهب المالكي واصطدامه باتباعه فقد تألب عليه الفقهاء وتصدى لمناظرته الكثير منهم ، وكان لجرأته في قول الحق أثر

---

(١) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الأول ، ج١ ، ص١٤٠ ـ ١٤١ ـ المراكشي : المعجب ، ص٩٤ ـ ابن سعيد : المغرب ، وشيي الطرس ، ج١ ، ص٣٥٥ ـ لطفى عبدالبديع : الإسلام في اسبانيا ، ص٤٢ .

(٢) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، ص ٥٩٦ ـ قدري طوقان : العلوم عند العرب ، ص١٨٤ .

(٣) ج٢ ، ص١١٦ . وللوقوف اكثر على معاني الظاهرية واسباب انتهاج ابن حزم لها ، انظر : عبد الحليم عويس : ابن حزم الاندلسي من ص٨٥ إلى ص٩٦ . كما أن بالنثيا في كتابه الفكر الاندلسي ، ص٢١٨ اشار إلى ان ابن حزم عوض قواعد مذهبه في كتابه « الأبطال » والذى نشر جولد زيهرى جزءا منه وقد بين فيه ابن حزم اسس مذهبه وضعف المذاهب الأخرى .

وانظر ايضا محمد ابو زهره : ابن حزم حياته وعصره . أراؤه وفقهه . ففيه الكثير من المعلومات عن الظاهرية .

في توتر علاقتـه من غيره من الفقهـاء الذين وقفـوا ضده وعملوا على تثبيط همته ، والقضاء على مذهبه ، ولكنه جابههم بموقف أكثر صرامة وقوة ، فكان شديد الوطأة على خصومه ، حاد اللسان في مناظراته العلمية ، حتى « ان البعض من العلماء صوروا اسلوبه هذا في صورة قاتمة فوصفوا لسانه بانه وسيف الحجاج شقيقان[1] .

والحق اننا لو امعنا في موقف ابن حزم وحالته النفسية التي نجمت عن تألب الفقهاء عليه وتظافرهم على احباط نشاطه ، بالإضافة إلى تشرده عن وطنه ، واحراق كتبه لعذرناه بعض الشيء فيما اتصف به من صلابة في مواقفه مع العلماء ، وما اتسم به حديثه من صراحة شديدة .

وأما عن مؤلفاته العلمية في الفقه فقد ألف من الكتب « كتاب الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام وسائر الاحكام على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع « أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه كما ألف كتاب « الاحكام في اصول الاحكام » وكتاب « الإجماع ومسائله على ابواب الفقه »[2] .

واشار السلفي في معرض حديثه عن كتب ابن حزم أن كتاب الإيصال يقع في أربعين مجلدا[3] وهذا بلا شك فيه اشارة واضحة إلى المجهود العلمي الذى قدمه ذلك الفقيه وإلى ما كان يتمتع به من علم واسع بالشريعة الإسلامية .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٣ ، ص٣٢٨ ـ الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٣ ، ص١١٥٣ ـ ١١٥٤ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص٣٠٨ ـ ٣٠٩ ـ الضبي : البغية ، ص٤١٥ ـ ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٤١٥ ـ ٤١٦ .

(٣) اخبار وتراجم اندلسية . تحقيق احسان عباس ، ص٥٣ .

والجدير بالذكران ابن حزم لم يكن بارعا في علوم الدين فقط بل كان متضلعا في الكثير من العلوم كالتاريخ والأدب والفلسفة وغيرها من العلوم ، وأن ما قدمه للمكتبة الإسلامية لدليل واضح على ما ذكر عنه .

ولم يكن ابن حزم أول ظاهري في الأندلس ، فقد سبقه إلى ذلك الكثير من العلماء ومنهم الفقيه منذر بن سعيد البلوطي ، وإلى ذلك يشير الحميدي بقوله عنه (قال لنا أبو محمد علي بن أحمد : وكان مائلا إلى القول بالظاهر ، قويا على الانتصار لذلك ، ومن مصنفاته كتاب « الانباه على استنباط الأحكام من كتاب الله » وكتاب « الابانه عن حقائق أصول الديانه »[١] .

وفي عصر الخلافة كان لبعض النساء دور بارز في حركة الدراسات الفقهية فممن برعن منهن في الفقه ، فاطمة بنت محمد بن يوسف المغامي (ت٣١٩هـ / ٩٣١٣م) والتي وصفت بالفقه والعلم والورع وانها لما ماتت كان يوما جليلا لكثرة من سار في جنازتها من أهل العلم تقديرا واجلالا لمنزلتها وقدرها العلمي وفضلها[٢] .

كما اشتهرت خديجة بنت جعفر التميمي زوجة الفقيه عبد الله بن اسد بالعلم الواسع في الفقه ، وقد حدثت عن زوجها بموطأ القعنبي قراءة عليه بلفظها ، كما أخذت الكثير من العلوم عن زوجها المذكور[٣] .

ولما كان عصر الخلافة وما قبله يحفل بأعداد هائلة من علماء الفقه فقد اتجه الكثير من العلماء إلى تأليف كتب التراجم التي تحفظ أسماء وسير أهل

---

(١) الجذوة ، ص٣٤٨ ـ ٣٤٩ .

(٢) الضبي : بغية الملتمس ، ص٥٤٧ .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٦٩٣ .

ـ القعنبي : هو عبد الله بن مسلمة بن قعنب (ت٢٢١هـ / ٨٣٥م) مديني سكن البصره وروى عن مالك ووصف بالعلم والفقه ـ (ابن عبد البر : الإنتقاء ، ص٦١) .

العلم تخليدا لمآثر بلدهم وفضله في العلم ، فألف أحمد بن محمد بن عبد البر كتابا في تاريخ فقهاء الاندلس وقد استعان به ابن الفرضي في كتابه « تاريخ علماء الأندلس » وأشار إليه في مقدمة كتابه ، كما ألف الفقيه عبد الله بن محمد بن دليم (ت٣٥٠هـ / ٩٦٢م) كتابا أسماه « الطبقات ممن روى عن مالك وأتباعهم من أهل الامصار » وقد نقل عنه القاضي عياض اليحصبي في كتابه المدارك[١] وألف محمد بن عبد الله ابن عبد البركتبا في فقهاء وقضاة قرطبة[٢] وصنف محمد بن حارث الخشني كتابا في اخبار الفقهاء والمحدثين »[٣] .

وموجز القول فقد أظهر الاندلسيون بنشاطهم العلمي في ميدان الفقه قدرة هائلة من التحصيل العلمي والانتاج الفكري الواسع في عصر الخلافة الذى ضم الكثير من الفقهاء البارزين اغنوا الفقه بدراساتهم الفقهية القيمة ، وقد حرص هؤلاء الفقهاء في مسيرتهم العلمية على الالتزام بالمذهب المالكي ـ عدا البعض منهم كابن حزم ـ والعمل على رفع شأنه بما قدموه من بحوث علمية ومصنفات نفسية ، وإن الناظر في نتائج هذا النشاط العلمي ليدهشه القدر الهائل من المؤلفات العلمية التي قدمها أولئك العلماء في صورة تؤكد التفوق العلمي الذى أحرزه الأندلسيون آنذاك في ميدان الفقه .

---

(١) الزركلي : الأعلام ، ج٤ ، ص١٢٠ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص٦٤ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٥٣ .

ب ـ الحديث

يحيى بن مالك بن عائذ ـ محمد بن عبد الملك ـ قاسم بن أصبغ ـ بيت الباجي ـ يعيش بن سعيد الوراق ـ أبو بكر ابن الأحمر ـ احمد بن مفرج ـ محمد بن عبد الله المرى ـ عبد الرحمن بن فطيس ـ عبد الله بن يوسف ـ (ابن الفرضي) هشام بن عبد الرحمن الصابوني ـ ابن عبد البر النمرى ـ عثمان ابن أبي بكر الصدفي ـ ابن حزم .

منذ بداية اشتغال الأندلسيين بالعلوم نجد أن علوم الدين قد احتلت الصداره في نشاطهم العلمي ، وكان علم الحديث هو والفقه في مقدمة العلوم الدينية التي توفر الأندلسيون على دراستها .

وقد أقبل الأندلسيون على دراسة الحديث وجمعه وترتيبه ، ولا ننكر فضل المشرق على الأندلس في هذا المجال ، فقد كان للرحلات العلمية التي قام بها رجال الحديث إلى المشرق دور كبير في نهضة علوم الحديث ونشاط دراساته في الأندلس . ولعل رحلة بقي بن مخلد في عصر الإمارة تعد نقطة تحول مهمة في حركة الدراسات الدينية ومن بينها (الحديث) .

وكان علماء الحديث من أكثر الناس رحلة في طلب العلم ، وكانوا كثيرا مايلقون المشقات في سبيل البحث عن طائفة من الأحاديث وربما عن حديث واحد ، وأظهر الكثير منهم صبرا وجلدا في سبيل ذلك ، فيروي أن أبا المطرف ابن فطيس الاندلسي رحل في طلب حديث واحد إلى بعض كور الاندلس حتى سمعه من الشيخ الذى رواه وانصرف ، ثم رحل أيضا في طلب حديث لسفيان بن عيينه[1] . إلى عالم يسكن باقليم البيرة فسمعه منه[2] .

---

(١) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران (١٠٧ ــ ١٩٨هـ / ٧٢٥م ــ ٨١٣م) كان من أهل الحديث والفقه ووصف بالورع وتجنب الفتيا (ابن قتيبه : المعارف ص٢٢١) .

(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٥٣ .

وتحفل كتب التراجم الاندلسية بالكثير من علماء الحديث الذين يعدون ـ بالمئات في عصر الخلافة ، فقد تميز ذلك العصر بنشاط كبير في ميادين العلم المختلفة ومن بينها علوم الدين . ونظر للأعداد الهائلة من أهل الحديث فسوف نتقصر على ذكر ابرزهم ممن كان له سهم وافر في ازدهار علم الحديث ودراساته المختلفة .

يأتي في مقدمة علماء عصر الخلافة المحدث يحيى بن مالك بن عائذ (ت ٣٧٥هـ / ٩٨٥م) رحل إلى المشرق وقصد العراق وغيرها من البلدان ، وسمع بها من سبعمائة عالم وأكثر ، وظل في المشرق يتردد على حلقات العلم ويلتقي بالشيوخ وقد استغرقت رحلته ما يزيد على عشرين سنة عاد بعدها إلى الأندلس وهو أوسع علما وأكثر معرفة فتسابق الناس إلى مجالسه العلمية وحلقات درسه ، وكان لكثرة الإقبال عليه من طلاب العلم أن اتخذ له مكانا في جامع قرطبه ، وعين له وقتا معلوما في كل أسبوع للتدريس فيه وللإملاء ، فكان يملي في كل يوم جمعه ، وكان مجلسه ذلك من أشهر المجالس العلمية في قرطبه(٢) .

وإلى جانب ابن عائذ برز محمد بن عبد الملك بن أيمن (ت٣٣٠هـ / ٩٤١م) الذى وصف بالبراعة التامة في علم الحديث والتمكن في علومه ، وقد ألف كتابا في السنن صنفه على تراجم كتاب ابي داوود ، وتميز ذلك الكتاب بالدقة والإتقان ، وكان ابن ايمن قد رحل إلى المشرق بصحبة رفيقه المحدث قاسم ابن اصبغ فوصلا العراق سنة (٢٧٦هـ / ٨٨٩م) ، وكانا يعتزمان لقاء

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ج١ ، ص٣١٢ .

(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٩٣ ـ ١٩٤ ـ الحميدي : الجذوة ، ص٣٧٩ ـ ٣٨٠ (يذكر وفاته سنة ٣٧٦هـ) .

الحافظ المحدث أبي داوود السجستاني صاحب السنن ، ولكنهما وصلا بعد وفاته بسنه ، فلما فاتهما أبو داوود اتجه كل منهما إلى تصنيف كتاب في السنن على تراجم كتاب أبى داوود وخرّجا الحديث من روايتهما عن شيوخهما ، وكان لكتابيهما منزلة رفيعة بين المحدثين وأهل العلم لدقتهما وجلالهما[1] .

ومما يدل على علو كعب بن أيمن في الحديث وعلومه أنه حدث بالمشرق كما حدث بعد ذلك في الأندلس ولقي من أهل عصره كل تقدير وإجلال وقد أشار الحميدي إلى ثناء ابن حزم على كتاب ابن أيمن فيقول : (ومصنف ابن أيمن مصنف رفيع . احتوى من صحيح الحديث وغريبه ما ليس في كثير من المصنفات)[2] .

وإضافة إلى ما تمتع به ابن أيمن من سعة العلم في الحديث ، فقد كان بارعا في الفقه حافظا لمذهب مالك ولعل مما ساعده على الحفظ والمهارة في اكتساب العلم ما وصف به من ذكاء ونباهة استطاع بهما أن يحفظ الكثير من كتب العلم وتصانيف العلماء فيذكر أحد اصحابه من العلماء أن ابن أيمن كان يأتيه إلى منزله فيأمره باخراج كتابه كذا وكذا الذى فيه حديث كذا وكذا فيبدي صديقه دهشته بعدم معرفته لذلك حتى إذا أخرج كتابه المذكور وجد ما وصفه ابن أيمن بالتمام مما يبعث على الإعجاب بقوة حافظته وذكائه لدرجة أنه كان حافظا لكتب غيره من العلماء أكثر من حفظهم لها[3] .

---

(١) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه ، ص١٢٤ ـ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٢ ، ص٣٢٧ ـ المقرى : النفح ، ج٣ ، ص١٦٩ .

(٢) جذوة المقتبس ، ص٦٨ .

(٣) الخشني : تاريخ علماء الأندلس (مخطوط) ورقة ٦٨ أ .

أما عن رفيق رحلته إلى المشرق قاسم بن أصبغ البياني[1] (ت٣٤٠هـ / ٩٥١م) فيعد من كبار حفاظ الحديث ، ومن ألمع من أخرجته الأندلس في هذا الميدان ، وقد سمع العلم من شيوخ وطنه ثم رحل إلى القيروان ومصر ومكه والمدينة والعراق ثم عاد إلى الأندلس فتهافت عليه طلاب العلم يأخذون عنه ويسمعون منه ما اكتسبه من العلوم والمعارف وقد سمع منه الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم وأخوته ، وطال عمره حتى أخذ عنه الكبار ثم الصغار وعرف بسعة علمه في أكثر من علم كالحديث والفقه والأدب والنحو[2].

ونظر لمكانة البياني العلمية فقد قربه إليه الحكم المستنصر إبان ولايته للعهد وكلفه بتأليف كتاب في الحديث فصنف كتابا في السنن المسنده بدأه في محرم سنة ٣٢٤هـ وقد اختصره من كتابه الكبير فجاء في سبعة أجزاء ، وفيه من الحديث المسند ألفان وأربع مائة وأربعة وتسعون حديثا[3] .

وقد نهج قاسم بن أصبغ في تأليفه لذلك الكتاب أن يكون على أبواب كتاب العلامه المشرقي ابن الجارود صاحب كتاب المنتقي ويشير الحميدي إلى ثناء صديقه ابن حزم على كتاب قاسم بقوله : (قال لنا أبو محمد علي بن أحمد : وهو خير منه (أى من كتاب ابن الجارود) انتقاء وأنقى حديثا وأعلى سندا وأكثر فائده)[4] .

---

(١) البياني : نسبة إلى بيانه من أعمال قرطبه (الحميرى : الروض المعطار ص٥٩) .

(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥ ـ ٣٦٦ ـ الحميدي : الجذوة ، ص٣٣٠ ـ الضبي : البغية ص٤٤٧ ـ ٤٤٨ ـ ابن فرحون : الديباج المذهب ج٢ ، ص١٤٥ ـ ١٤٦ ـ الذهبي : المصدر السابق ج٣ ، ص٨٥٣ ـ ٨٥٤ ـ السيوطي : بغية الوعاه ، ج٢ ، ص٢٥١ ـ المقري : النفح ، ج ٢ ، ص٤٧ ـ ٤٨ ـ احمد امين : ظهر الإسلام ، ج٣ ، ص ٥٠ ـ السيد عبد العزيز سالم : قرطبه حاضرة الخلافه ، ج٢ ، ص١٩٧ ـ ١٩٨ .

(٣) ابن خير : المصدر السابق ، ص١٢٤ ـ ابن العماد : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣٢٧ ـ المقرى : النفح ، ج٣ ، ص١٦٩ .

(٤) جذوة المقتبس ، ص٣٣١ .

وبذلك يتبين لنا المنزلة العلمية التي حظي بها قاسم بن أصبغ ، وما كان يتمتع به علم واسع ، ومعرفة كبيرة بالحديث ، وبراعة في التصنيف ، وأنه بذلك قد بَزَّ غيره من علماء المشرق .

ولقاسم بن أصبغ كتب أخرى في الحديث مثل كتاب « الناسخ والمنسوخ » وكتاب « غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ » هذا بالإضافة إلى مشاركته في علوم اخرى كالتاريخ ، فقد ألف كتابا في الأنساب وصف بالجوده والحسن ، وصنف أيضا كتابا في فضائل قريش(٢) .

ولعل من دلائل النهضة العلمية في الأندلس ، وانصراف الناس إلى العلم باخلاص وهمة صادقة ما يلاحظ من بروز أسر علمية في المجتمع الأندلسي أسهم أبناؤها في الحركة العلمية ، ومن أشهر الأسرات العلمية في ميدان الحديث أسرة الباجي أو بيت الباجي باشبيليه ، فقد كانت هذه الأسرة من أعظم الأسرات التى أسدت للعلم والمعرفة جهودا علمية مثمرة ، فكان لها بذلك يدٌ بيضاء على العلم ، وكان أفرادها جميعهم في الفضل والتقدم على درجة رفيعة حازوا بها قصب السبق في العلوم(٢) .

فمن علماء هذه الأسرة عبد الله بن محمد بن علي بن شريعة اللخمي ـ (٢٩١هـ ـ ٣٧٨هـ / ٩٠٣م ـ ٩٨٨م) والمعروف بابن الباجي ، كان من حفاظ الحديث المعدودين ، ومن علمائه المذكورين ، وقد تلقى علومه في بلده أشبيلية ثم ارتحل إلى قرطبه وقام بالتدريس في جامعها حيث تقاطرت نحوه أفواج أهل العلم يأخذون عنه ، وقد أظهر صبرا وجلدا في أداء رسالته العلمية حتى روي انه حدث ودرس نحوا من خمسين سنه(٣) .

---

(١) الحميدي : نفس المصدر والصفحه .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٥٢٢ ـ ٥٢٣ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٤٠ ـ ٢٤١ ـ الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٣ ، ص١٠٠٥ ـ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣١٥ .

ويبدو من انتساب هذا المحدث إلى أشبيلية مدى ما كانت عليه هذه المدينة الأندلسية من رقي وازدهار علمي رفيع ، فلم تكن أقل عطاء وبذلا من حاضرة الخلافة وعاصمة الدوله ، وكان لها في الحياة العلمية في الأندلس دور بارز وجهد واضح لاينكر .

وخلف ذلك المحدث ابنه بن عبد الله (٣٣٢هـ ــ ٣٩٦هـ / ٩٤٣ ــ ١٠٠٥م) الذى لم يكن بأقل قدرا من أبيه ، فكان عالما بالحديث عارفا بعلومه ، وكان قد اكتسب علومه في بداية حياته العلمية من أبيه ثم شد رحاله إلى المشرق مع ابنه محمد حيث لقيا أقطاب العلم في المشرق فاخذا عنهم وسمعا الكثير ثم عادا إلى الاندلس . ليتولى العلامة أحمد القضاء ببلده أشبيلية ، ثم ما لبث أن رحل إلى قرطبة ليقيم بها وينشر علمه بين أهلها الذين ازدحموا على حلقات درسه ومجالسه العلمية ، وكان لنباهته وسعة علمه أنه شورر في ميدان القضاء وعمره ثمان عشر سنة(٢) .

ولم يتوقف عطاء تلك الأسرة في ميدان العلم فقد خلف العلامة المذكور ابنه محمد بن أحمد (٣٥٦هـ ــ ٤٣٣هـ / ٩٦٦م ــ ١٠٤١م) ليحمل راية العلم من بعد أبيه ويؤدي دوره وواجبه تجاه وطنه وأمته ، وإذا كان العلامة المذكور يعد من علماء الحديث إلا أن اهتمامه بالفقه قد غلب عليه . وكان له مشاركة في تصنيف بعض الكتب المتعلقة بالفقه والقضاء(٢) .

ومما يبعث على الإعجاب بهذه الأسرة أن العلم لم يكن مقصورا على أفرادها من الرجال بل شمل حتي النساء ، ومنهم فاطمة بنت محمد بن علي أخت المحدث عبد الله بن محمد بن علي المتقدم الذكر . وقد شاركت هذه

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص١١ ــ ١٢ .

(٢) ابن بشكوال : نفس المصدرا ، ج٢ ، ص٤٢٢ ــ ٤٢٣ .

الفقيهة أخاها المذكور في الأخذ عن بعض شيوخه وأجاز لها العلامة المحدث محمد بن فطيس الألبيرى في جميع روايته بخط يده(١) .

وكان من عوامل نشاط الحركة العلمية في ميدان الحديث ماأبداه الخليفة الحكم المستنصر من تشجيع للعلماء على البحث والدراسة ومنهم علماء الحديث فبتشجيع من الحكم المستنصر ألف المحدث يعيش بن سعيد الوراق كتابا في الحديث وهو مسند حديث ابن الاحمر وكان العلامة يعيش من أروى الناس عن ابي بكر محمد بن معاوية القرشي المعروف (بابن الأحمر) ، وقاسم بن أصبغ البياني ، وهو ما حدا بالحكم المستنصر إلى أن يأمره بتأليف مسند في حديث ابن الاحمر فالف له ذلك الكتاب(٢) .

ولعناية يعيش بن سعيد بمسند ابن الأحمر فقد كان كثيرا ما يقرأه في حلقات درسه ، فقد اشار الحميدي إلى أن ابن عبد البر قال : (قرأ علينا ابو عثمان يعيش ابن سعيد سنة تسعين وثلاثمائة « مسند حديث أبي بكر محمد بن معاوية القرشي » ومن تأليفه مما سمع منه ، وأخبرنا بذلك عنه)(٣) .

ولا شك أن اهتمام الحكم المستنصر بإخراج مصنف في حديث ابن الأحمر لدليل على مكانتـه العلمية وما يتمتـع بـه من منزلـة علمية كبيرة بين أهـل الحـديث .

وكان ابن الأحمر قد رحل إلى المشرق فأخذ عن علمائه وفي مقدمتهم أحمد بن شعيب النسوي ، وينسب إلى ابن الأحمر أنه أول من أدخل كتابه في

---

(١) الضبي : البغية ، ص٥٤٧ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص٣٨٦ ـ ٣٨٧ .

(٣) الجذوة : ص٣٨٧ .

السنن إلى الأندلس حيث أخذ العلماء عنه ، وبقي مشتغلا بالعلم والبحث إلى قريب من عهد الحكم المستنصر(١) .

وكان لابن الأحمر إسهام في حركة الانتاج العلمي المتصل بالحديث فقد ألف مسندا في الحديث فيه من الحديث المسند أربعة آلاف حديث وثلاثون حديثا ومن الصحابة ثلاث مائة وثلاثعشر ، ومن النساء ثلاث وأربعون امرأة(٢) .

وبالإضافة إلى ما ذكر عن اهتمام الحكم المستنصر بالتأليف العلمي في ميدان الحديث ما ذكر عن محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرح القرطبي (ت٣٨٠هـ / ٩٩٠م) الذى رحل إلى المشرق في طلب العلم ، وقصد الحجاز واليمن ومصر والشام والعراق وأخذ من علماء كثيرين قدر هو عددهم بما يزيد عن مائتي عالم وشيخ ، ولدى عودته إلى الأندلس كان الحكم المستنصر آنذاك وليا للعهد ، ونظرا لما عرف عنه من عناية بالعلم واكرام لأهله فقد أرسل في طلب هذا العالم إلى قصره حيث أكرم نزله ورفع مكانته بين علماء الحديث فصنف له مؤلفات عديدة في مختلف ضروب المعرفة(٣) .

ويلاحظ الباحث في سير أولئك العلماء الأفذاذ أنهم كانوا حسب المصطلح الحديث « موسوعين » نبغوا في علوم شتى ، وكانوا يطلقون في الأندلس على من اتصف بذلك لفظ (متفنن) أي أن له سهماً وافراً فى كل فن من العلوم ، فالعلامة محمد بن عبد الله بن محمد المري (٣٢٤هـ ـ ٣٩٨هـ / ٩٣٥م ـ

(١) الحميدي : نفس المصدر ، ص٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) ابن خير : المصدر السابق ، ص١٤٣ .

(٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ج٢ ، ص٩١ ـ ٩٢ ـ ٩٣ ـ الحميدي : الجذوة ، ص٤٠ ـ الضبي : البغية ، ص٤٩ .

١٠٠٧م) كان بارعا في الحديث وعلومه إلى جانب رسوخه في الفقه والتفسير والادب والتاريخ ، فكان بذلك (راسخا في كل جمّ من العلم .... ما رؤى قبله ولا بعده مثله)(١)

كما أن المحدث عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس (٣٤٨هـ ـ ٤٢٠هـ / ٩٥٩م ـ ١١١١م) كان من أئمة الحديث وكبار علمائه حافظا للحديث عارفا بعلومه وما يتصل به من أسماء الرجال بصيرا بالمعدلين منهم والمجرحين ، عرف بالذكاء وتوقد الذهن ، وقد أعانه ذلك الحفظ حتى أنه كان يلقي دروسه في الحديث من حفظه ، وكان التلاميذ يكتبون عنه ذلك ، واضافة إلى تضلعه بالحديث وعلومه فقد كان بارعا بالتاريخ والسير والأدب محبا للكتب جماعا لها(٢) .

وقد صنف ابن فطيس كتبا في الحديث منها « كتاب الأخوة من المحدثين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين « في اربعين جزءا ، و« مسند حديث محمد بن فطيس » في خمسين جزءا ، و« مسند قاسم بن أصبغ العوالي » في ستين جزءا ، وكتاب في « الكلام على الاجازة والمناوله » في عدة أجزاء ، ، « الناسخ والمنسوخ » في ثلاثين جزءا(٣) .

ولابن فطيس تصانيف كثيرة في فروع مختلفة من العلم ولكننا اكتفينا بذكر ما هو متصل بالحديث(٤) .

ومن دلائل النهضة العلمية في ميدان الحديث ما قام به الكثير من علماء الأندلس من دراسة لكتب الصحاح ، كصحيح البخاري وصحيح مسلم ، والسنن

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج٣ ، ص١٧٢ ـ ١٧٣ .
(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٣١٠ ـ ٣١١ .
(٣) ابن بشكوال : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٤) انظر مؤلفاته الأخرى في المصدر السابق نفس الجزء والصفحة ، وانظر الذهبي تذكرة الحفاظ ، ج٣ ، ص١٠٦١ ـ والبغدادى : هدية العارفين ، ج١ ، ص٥١٥ .

كسنن الترمذي ، والنسائي ، فتناولوها بالايضاح والشرح ، فممن ينسب إليه الاستغال بذلك العلامة هشام بن عبد الرحمن بن عبد الله الصابوني (ت٤٢٣هـ / ١٠٣١م) الذى كانت له عناية بصحيح البخارى ، فشرحه وراعى في تفسير أحاديثه أن يكون على حروف المعجم ، وقد وصف ذلك الكتاب بالأهمية العلمية(١) .

وأثبت الأندلسيون قدرتهم الكبيرة في إثراء ميدان الحديث وعلومه بتآليفهم ودراساتهم المتعددة ، ويأتي في مقدمة هؤلاء أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمرى الذى سبق الحديث عنه في ميدان الفقه فإلى جانب ما تميز به من علم واسع في الفقه ، فقد كان من حفاظ الحديث والعارفين بعلومه وطرقه حتى قال فيه أبو الوليد الباجي ـ من علماء عصر الطوائف ـ (لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر في الحديث)(٢) .

وقد شارك ابن عبد البر في حركة الإنتاج العلمي بكتبه التالية « كتاب التقصي لحديث الموطأ » وكتاب « الانباه عن قبائل الرواه في أسماء رجال الحديث » وكتاب « الكنى في رجال الحديث » وكتاب « الشواهد في اثبات خبر الواحد »(٣)

وكان لقدرة ابن عبد البر على التأليف أن أخرج كتبا كثيرة في فروع العلم المختلفة ونال بذلك منزلة رفيعة بين علماء عصره ، وما تلى ذلك من عصور حتى قال فيه ابن سعيد ـ مشيدا بعلمه ـ (وانظر إلى آثاره تغنك عن أخباره)(٤) .

---

(١) ابن بشكوال : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٥٠ .

(٢) الذهبي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص١١٣٨ .

(٣) الذهبي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص١١٢٩ ـ ١١٣٠ ـ البغدادى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٥٠ ـ ٥٥١ .

(٤) المغرب في حلي المغرب ، ج٢ ، ص٤٠٧ ـ ٤٠٨ .

ومما يؤكد أهمية الرحلات العلمية ما أدخله الكثير من علماء الأندلس إلى بلادهم من ضروب التآليف العلمية ومنها الحديث . فقد روي أن العلامة عثمان بن أبي بكر الصدفي (ت٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) رحل إلى المشرق فسمع من أهل العلم ومنهم الحافظ ابي نعيم الأصفهاني الذى كتب عنه بخطه ما يقارب الف حديث ، ثم عاد إلى الأندلس وهو يحمل كتبا قيمة في الحديث ، وقد نسب اليه انه أول من أدخل كتابا غريب الحديث للخطابي إلى الأندلس(١) .

وكان لابن حزم قدم راسخة في الحديث ، فهو يعد من حفاظه والعارفين بعلومه ، وقد صنف في ذلك كتبا عديده ، فمما ينسب إليه منها كتاب « الجامع في صحيح الحديث » وكتاب « شرح حديث الموطأ والكلام على مسائله » وترتيب مسند بقي بن مخلد ، وأجوبة من صحيح البخاري ، وكتاب مهم السنن وغيرها(٢) .

وكما شاركت النساء في ميدان الفقه فقد كان لهن مشاركة في نشاط الدراسات المتعلقة بالحديث وعلومه ، ونلاحظ من سير النساء العلمية أن المرأة لم ـ تقتصر في أخذ العلم عن المقربين لها كالأب أو الأخ أو الزوج بل سعت إلى كسب العلم وأخذ المعرفة أنى كانت وسلكت في ذلك طريق الرحلات العلمية ولكن مع من تربطها به صلة القرابة أى أن تكون مع محرم لها ، فيذكر أن راضية مولاة الخليفة الناصر والتي اعتقها ابنه الحكم المستنصر وتزوجها لبيب الفتى أنها رحلت هي وزوجها إلى المشـــرق فحجا سويا سنـــة (٣٥٣هـ / ٩٦٤م) ، وكانا يقرءآن ويكتبان ويتدارسان كتب العلم ، ودخلا الشام ولقيا

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٤٠٨ .

(٢) عبد الحليم عويس : ابن حزم الاندلسي ، ص١١٢ (وفيه انظر بقية المصنفات المنسوبة لابن حزم في الحديث) .

الشيوخ والعلماء هناك ، ثم رحلا إلى مصر فالتقيا بشيوخ العلم هناك ايضا . وقد روى عنها العلامة أبو محمد بن خزرج ، وقال عندي بعض كتبها ، وتوفيت راضية سنة (٤٢٣هـ / ١٠٣١م) بعد عمر مديد بلغ مائة وسبعة أعوام(١) .

ونظرا لما حفل به ذلك العصر وما قبله من اعلام المحدثين فقد صنف بعض العلماء معاجم لعلماء الحديث فمنها ما صنفه مسلمة بن القاسم بن ابراهيم (ت ٣٥٣هـ / ٩٦٤م) حيث صنف كتابا طبقات المحدثين والذيل على الطبقات المذكور(٢) .

وكان لصلات العلامة أحمد بن سعيد الصدفي (ت ٣٥٠هـ / ٩٦١م) - بأهل الحديث والعلم عامة أثر كبيرفي معرفته الواسعة بالعلماء ، مما دفعه إلى تصنيف معجم في المحدثين بلغ فيه الغاية والدقة واخذه عنه تلاميذه وأهل العلم(٣) .

وأخيرا لا يفوت الباحث في سير العلماء وخاصة علماء الدين أن يشير إلى ما صنفه العلامة المحدث عبد الله بن يوسف الأزدي المعروف (بابن الفرضي) (٣٥١هـ ٤٠٣هـ / ٩٦٢م - ١٠١٢م) فقد صنف كتابه المشهور « تاريخ علماء الأندلس » حيث ضمنه أعداداً كبيرة من أولى العلم في الفقه والحديث بوجه خاص ، ولعل سعة علمه في الحديث وعلومه كان له أكبر الأثر في إخراج هذا العمل العلمي الرائع ، ومما يؤسف له أن نهاية ابن الفرضي كانت مؤلمة للغاية ، حيث قتل في الفتنة التي اجتاحت قرطبة

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٦٩٣ - ٦٩٤ .

(٢) البغدادي : هدية العارفين ، ج٢ ، ص٤٣٢ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ،ج١ ، ص٤٣ - ٤٤ - الصفدي : المصدر السابق ، ج٦ ، ص٣٨٩ - ٣٩٠ - أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص٤٠١ .

سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م[1] كما أن لابن الفرضي مؤلفاً اسمه « المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال » وقد لقي هذا الكتاب قبولا كبيرا لدى العلماء آنذاك حتى قال فيه ابن حزم (لا أعلم مثله في فنه البته)[2] .

وموجز القول في النشاط العلمي للأندلسيين في هذا الميدان من العلوم الدينية أنهم استطاعوا أن يبرهنوا على قدراتهم الواسعة في تناول هذا العلم من العلوم الدينية بالدراسة والبحث الجادين وقدموا في ذلك روائع من إنتاجهم العلمي الغزير .

والحق أننا لو نظرنا في كتب التراجم الأندلسية لها لنا ما حوته من أعداد غزيرة لعلماء الحديث ، وهذا يدل دلالة واضحة على ما بلغه علم الحديث من نشاط كبير يبعث على الإعجاب بأولئك العلماء ، وبما قدموه من تصانيف وتآليف لا تزال المكتبة الإسلامية حتى وقتنا الحاضر تضم أعداداً كبيرة منها .

---

(١) الحميدي : الجذوة ، ص٢٥٤ ــ ٢٥٥ ــ الضبي : البغية ، ص ٣٣٤ ــ ٣٣٥ ــ ٣٣٦ ــ ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص٢٥٢ ــ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج١ ، ص٤٥٢ ــ ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٢ ، ص١٠٥ ــ ١٠٦ ــ ابن قنفذ : الوفيات : ص٢٢٧ ــ ٢٢٨ ــ الزركلي : الأعلام ، ج٤ ، ص١٢١ ــ بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٦ ، ص١٠١ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، ج٣ ، ص١٧٠ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الاندلس) .

ج ـ علوم القرآن

القــراءات :

أحمد بن محمد الطلمنكي ـ عثمان بن سعيد الداني ـ مكي بن أبي طالب القيسي ـ علي بن محمد الأنطاكي ـ أحمد بن علي الربعي ـ عبد الملك بن إدريس البجاني ـ أحمد بن قاسم اللخمي .

يقصد بعلوم القرآن ما يتعلق به من علوم كالقراءات والتفسير ، وكان للاندلسيين في هذه العلوم نشاط واضح ملموس ، ويجدر بنا قبل الحديث عن النشاط العلمي المتعلق بالقراءات أن نشير إشارة سريعة إلى معنى القراءات .

روي أن الصحابة رووا القرآن عن الرسول ﷺ على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها ، وانتقل ذلك عنهم إلى غيرهم واشتهر إلى أن استقرت سبع طرق معينة وتواتر نقلها أيضا بادائها ، واختصت تلك القراءات بأصحابها الذين اشتهروا بروايتها من بين القراء الآخرين فأصبحت هذه القراءات أصولا للقراءة وذاعت بين المسلمين(١) .

والقراء السبعة هم نافع المدني ، وعاصم بن أبي النجود ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن كثير ، وعبد الله بن عامر ، وحمزة بن حبيب ، وعلي بن حمزه الكسائي(٢) .

والقراءات التي يقرأ بها الناس اليوم وصحت روايتها عن الأئمة إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، ووافق اللفظ بها مصحف عثمان

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص٤٣٧ .

(٢) احمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص٩٢ . وانظر : ابن قتيبه : المعارف ، ص٢٣٠ ـ ٢٣١ .

رضي الله عنه الذى أجمع الصحابة رضي الله عنهم ومن أتى بعدهم عليه ونبذ ماسواه(1) .

ولما كانت الحركة العلمية في الأندلس في عصر الخلافة قد ازدهرت بصورة كبيرة وشملت ميادين العلم المختلفة فإنه من الطبيعي أن يكون لعلوم القرآن نصيب وافرفي هذا النشاط العلمي ، وقد سبق القول في التمهيد إلى أن العلامه الغازي بن قيس أحد علماء عصر الإمارة قد ارتحل إلى المشرق حيث أخذ القراءات عن العلامة المقرى نافع المدني وصحح مصحفه على مصحف نافع ثلاث عشر مرة(2) .

وفي هذا إشارة إلى بداية اشتغال الأندلسيين بعلم القراءات واهتمامهم بها ، وأن دخول قراءة نافع ـ وهو أحد القراء السبعة ـ إلى الأندلس في عصر الإمارة ليعد مؤشرا إلى ما سوف تحتله هذه القراءه المعينة بين قراء الاندلس ، وخاصة إذا علمنا أن الغازي بن قيس الذى ينسب إليه إدخالها كان معلما للتلاميذ ومؤدبا لهم وهو أمر يفيد بلا شك في سرعة انتشار هذه القراءة بين الأندلسيين .

وعليه فان جهود الغازي بن قيس كانت فاتحة الجهود العلمية في هذا الحقل من الدراسات ، وقد أشار المقدسي إلى انتشار قراءة نافع بين الأندلسيين مما يؤكد غلبتها على من سواها من القراءات(3) .

وفي عصر الخلافة برز العديد من علماء القراءات والذين أثروا هذا الميدان بجهودهم الموفقه ، وكانت هذه الطائفة من العلماء تحتل مرتبة عالية في المجتمع الأندلسي نظرا لارتباط حياتهم العلمية بالقرآن الكريم من جهة ، وبما

---

(1) مكي بن أبي طالب : الابانة عن معاني القراءات ، ص21 ـ 22 .

(2) ابن الجزري : غاية النهاية ، ج2 ، ص2 .

(3) أحسن التقاسيم ، ص236 .

يقومون من دور تربوى في تعليم أطفال المسلمين قراءة القرآن بوجه سليم يضمن لهم الفهم الصائب والادراك الصحيح لمعاني القرآن ، وما ينتج عن ذلك من حسن التهذيب وغرس المعاني الكريمة في نفوس الناشئة ليكون ذلك زاداً لهم في مسيرتهم العلمية .

ولا يعنى هذا أن دور القراء كان محصورا في ذلك بل كان علم القراءات علما واسعا وعميقا فكان الكثير من طلاب العلم يقبلون على دراسته ومعرفة قواعده ، والتي يستهدف منها قراءة القرآن على الوجه الصحيح بعيدا عن التصحيف أو الخلط .

ومن علماء القراءات في عصر الخلافة العلامة المقرى أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي (٣٤٠هـ ـ ٤٢٩هـ / ٩٥١م ـ ١٠٣٧م)[١] ، وكان لهذا المقرى مكانة بارزة بين قراء عصره ، نظرا لما تمتع به من معرفة واسعة بعلوم القرآن ، فقد كان إماماً بارعاً في علم القرآن ، قراءته ، وإعرابه ، وأحكامه ، وناسخه ومنسوخه ، ومعانيه . وكان له فيها تصانيف تنم عن سعة علمه وعمق فهمه في هذا الميدان[٢] .

وكانت له رحلة إلى المشرق حيث التقى بعلماء القراءات فأفاد منهم واخذ عنهم شيئا كثيرا ، وممن أخذ عنهم علي بن محمد الأنطاكي ، ومحمد بن علي الأدفوي ، ثم عاد إلى الاندلس وهو أوفر حظا وأكثر علما . ونسب إليه إدخال بعض القراءات إلى الأندلس[٣] .

---

(١) الطلمنكي : نسبة إلى طلمنكــه ، وهي مدينة بثغر الاندلس بينهـا وبين وادى الحجـارة عشـرون ميلا .

(الحميرى : المصدر السابق ، ص١٢٨) .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص٤٥ ـ ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٩ ـ الصفدي : الوافي ، ج٨ ، ص٣٢ ـ ٣٣ .

(٣) ابن الجزرى : غاية النهاية ، ج١ ، ص١٢٠ ـ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٣ ، ص٢٤٤ .

كان الطلمنكي ذا همة عالية في تعليم وتدريس طلبة العلم ، وكان لا يأخذ على ذلك أجراً بل كان يحتسب علمه لوجه الله ، واخذ ينتقل من بلد إلى بلد ينشر علمه في كل منها ، وكان الناس يسارعون إلى حلقات درسه ، لما اتصف به من علم ومعرفة ، وقد روى أنه خرج على تلاميذه وهم يتدارسون القرآن ويتلقون القراءات عليه فقال : اقرأوا واكثروا فاني لا اتجاوز هذا العام ، فاظهر تلاميذه دهشتهم وقالوا لم يرحمك الله ؟ فقال رأيت البارحة من ينشدني في النوم :

اغتنموا البربشيخ ثوى يرحمه السوقة والصيد

قد ختم العمر بعيد مضى ليس له من بعده عيد

وقد توفي في ذى الحجة من ذلك العام (٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)[١] .

وعاصر الطلمنكي من القراء المشهورين العلامة المقرى أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان القرطبي الداني[٢] الذى يعتبر بحق أحد مفاخر الاندلس في هذا الميدان فكان ذا قدم راسخه في القراءات ، عارفا بمعانيها عالما بما يتصل بها ، كما صنف فيها الكثير من الكتب الدالة على علمه وفهمه ، وقد حرص على أن يكون علم القراءات وقواعده ميسور المأخذ . سهل المنال ليكون أدعى إلى فهمه وتعلمه ، فنظم علوم القراءات في أرجوزه ليحفظها طلبة العلم[٣] .

---

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٣ ، ص١٠٩٩ .

(٢) الداني : نسبة إلى دانيه ، مدينة بشرقي الاندلس . (الحميرى : الروض المعطار ، ص٧٦) .

(٣) الحميدي : الجذوة ، ص٣٠٥ ـ الضبي : البغية ، ص٤١١ ـ ٤١٢ ـ الحميري : المصدر السابق ، ص٦٧ ـ السيد عبد العزيز : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٩٨ ـ لطفي عبد البديع : المرجع السابق ، ص٤٥ .

وقد أطنب المؤرخون في الثناء على الداني وانه لم يكن له نظير في عصره ولا بعد ذلك أيضاً ، وأنه لم يكن أحد يضاهيه في حفظه وتحقيقه وعلمه الواسع بالقراءات ورواياتها ومعانيها وطرفها ، وكيف أنه تمكن بجهوده العلمية البارعة من جعل القراء عالة عليه في كتبه وآرائه(١) .

وقد انصرف الدانى إلى ميدان البحث والتأليف فأخرج تصانيف علمية قيمة تشهد له بعلو كعبه في علوم القرآن حتى قال فيه أحد العلماء (ومن ينظر في كتبه علم مقدار الرجل وما وهبه الله تعالى فيه فسبحان الفتاح العليم)(٢)

ومن تصانيف الدانى في القراءات كتاب « جامع البيان في القراءات السبع وهو من أعظم كتبه ، ويشتمل على نيف وخمسمائة رواية وطريق حتى قيل انه جمع فيه كل ما يعلمه في هذا العلم(٣) .

كما ألف الداني من التصانيف كتابه « التيسير في القراءات » . ونظم منظومه اسماها « الاقتصاد » في علم القراءات وتقع في مجلد . كما ألف كتابا في طبقات القراء في أربعة أسفار ، ضم فيه المقرئين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين إلى عصر مؤلفه على حروف المعجم(٤) .

ولم تكن شهرة الدانى مقتصره على بلده الأندلس بل كان ذائع الصيت مشهور الاسم في العالم الإسلامي لما كان له من جهد عظيم رائع في الدراسات العلمية المتصلة بعلوم القرآن الكريم(٥) .

---

(١) الذهبي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص١١٢٠ ـ ١١٢١ ـ المقري : النفح ، ج٢ ، ص١٣٥ ـ ١٣٦ ـ شكيب ارسلان : الحلل السندسية ، ج٣ ، ص٣٣٢ ـ ٣٣٣ ـ احمد عطية الله : القاموس الإسلامي ، ج٢ ، ص٣٣٢ ـ لطفي عبد البديع : الإسلام في اسبانيا ، ص٤٥ .

(٢) ابن الجزري : المصدر السابق ،ج١ ، ص٥٠٤ ـ ٥٠٥ .

(٣) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص٥٣٨ .

(٤) ابن خير : المصدر السابق ، ص٧٢ .

(٥) للوقوف على اسماء مصنفاته الأخرى انظر : ابن الجزرى : غاية النهاية ، ج١ ، ص٥٠٤ وايضا ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه ، ص٢٩ .

وكانت الأندلس تستقبل الكثير من العلماء في مختلف وجوه المعرفة حيث كانوا يلقون كل تأييد وتشجيع من الخلفاء ففيما يتصل بعلم القراءات فقد وفد على الأندلس العلامة المقرى مكي بن أبي طالب حموش بن حمد بن مختار القيسي (٣٥٥ ـ ٤٣٧هـ / ٩٦٥م ـ ١٠٤٥م) وذلك سنة (٣٩٣هـ / ١٠٠٢م) حيث استقبله الحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر بكل ترحيب وتكريم ، وعينه للتدريس بجامع الزهراء ، ولما زال نفوذ العامريين نقله الخليفة محمد بن هشام المهدى إلى قرطبة ، ونظرا لما تمتع به مكي من علم واسع ومعرفة عميقة بعلوم القرآن فقد كان لذلك أكبر الاثر في ازدياد حركة الاقبال على مجالسه العلمية ، فتهافت عليه طلبة العلم وعلموا مقداره العلمى فأخذوا عنه وسمعوا منه الكثير ، ولذلك ذاع صيته في الاندلس في علم القراءات(٢) .

ومما يدل على منزلته العلمية ما وصفه به أحد أصحابه وهو أحمد بن محمد المقرى حيث قال (كان نفعه الله من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية ، حسن الفهم والخلق ، جيد الدين والعقل ، كثير التأليف في علوم القرآن ، محسنا لذلك ، مجودا للقراءات السبع ، عالما بمعانيها(٢) .

وقد صنف مكي كتباً كثيره ، منها « كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية » ، وكتاب « تفسير إعراب القرآن » ، وكتاب « التبصره في القراءات السبع » ، وكتاب « البيان عن وجوه القراءات في كتاب التبصره « وقد وصف بغزارة الفائدة .(٣)

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ج٢ ، ص٦٣٢ ـ ٦٣٣ ـ ابن الجزرى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٣٠٩ ـ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهره ، ج٥ ، ص٤١ ـ الانبارى : نزهة الألباب ، ص٢٥٤ ـ ٢٥٥ ـ ابن قنفذ : المصدر السابق ، ص٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(٢) ابن بشكوال : الصله ، ج٢ ، ص٦٣١ .

(٣) الانبارى : نزهة الالباء ، ص٢٥٤ ـ ٢٥٥ ـ المقرى : النفح ، ج٣ ، ص١٧٩ .

وكان مكي يدرك ما هو عليه من علم ومعرفة ادراك ثقة وليس غرورا بنفسه ، فهو قد قدم من تصانيف العلم والتاليف ما يجعله يحتل مكانه رفيعة بين علماء عصر فقد قال في مقدمة احد كتبه (هذا كتاب أبين فيه إن شاء الله تعالى معاني القراءات وكيفيتها وما يجب أن يعتقد فيها ، مع ما يتصل بذلك من فوائدها وغرائب معانيها ، وما علمت أحداً تقدمنى إلى مثل كتابي هذا اى بما جمعت وبينت فيه اعظم الله عليه الأجر واكمل به الذكر ، وجعله لوجهه خالصا)(١) .

وظهر غير هؤلاء قراء آخرون ، ولكنهم لم يصلوا في علمهم وشهرتهم إلى ما وصل إليه من ذكرناه ، فمنهم علي بن محمد بن أسماعيل الانطاكي (٢٩٩هـ ـ ٣٧٧هـ / ٩١١م ـ ٩٨٧م) الذى دخل الأندلس سنة (٣٥٢هـ / ٩٦٣م) فتلقاه الخليفة الحكم المستنصر بكل اجلال وترحيب ، وقد وصف الانطاكي بالبراعة في القراءات ، فدرس على يديه الكثير من طلبة العلم وأخذوا عنه(٢) .

ولابن عبد البر النمرى تآليف في القراءات منها « البيان عن تلاوة القرآن » والتجويد والمدخل إلى العلم بالتحديد » جزءان و « الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء(٣) .

ومن علماء القراءات القادمين إلى الأندلس : أحمد بن علي الربعى ـ (ت٤١٠ هـ / ١٠١٠م) وكان قد قدم الاندلس سنة (٣٧٦هـ / ٩٨٦م) واتخذ له مجلسا في جامع قرطبة للتدريس به ونظرا لعلمه الواسع بالقراءات فقد عيّنه الحاجب المنصور بن أبي عامر مؤدبا لابنه عبد الرحمن ، وكان ذلك العلامة

---

(١) الابانه عن معاني القراءات ، ص١٩ ـ ٢٠ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ج١ ، ص٣١٦ ـ ٣١٧ .

(٣) الحميدي : الجذوة ، ص٣٦٧ ـ ٣٦٨ ـ الضبي : البغية ص٤٩٠ .

بارعا في القراءات عارفا بعلوم القرآن ، قراءته وإعرابه ، وأحكامه ، وناسخه ومنسوخه ، وقد ألف في أحكامه كتابا قيما(١) .

وكان لاهتمام الخليفة الحكم المستنصر بالحركة العلمية رحرصه الشديد على متابعة ما صنف في فروع العلم ما ذكر من أن العلامة المقرى عبد الملك بن ادريس البجاني(٢) رحل إلى المشرق حيث أخذ عن علمائه ثم عاد إلى الأندلس ومعه كتاب الوقف والابتداء عن نافع برواية ورش ، وما ان علم الخليفة الحكم بذلك حتى بعث في احضاره فاطلع عليه وأفاد منه(٣) .

واتخذ العلامة المقرى أحمد بن قاسم اللخمي (٣٦٣ ــ ٤١٠هـ) له مكانا في مسجد الغازي بقرطبة ، لتعليم الناس القراءات ، كما أنه ألف فيها كتابا لقي من العلماء كل قبول وثناء(٤) .

وشاركت النساء في هذا النشاط العلمي ، فقد نبغت منهن المقرئة ريحانة التي درست القراءات واخذت بعض علومها بالمريه عن أبي عمرو ثم قرأت عليه القراءات الأخرى غير السبع وأجازها(٥) .

وبهذا يتبين للباحث في هذا العلم أنه كان لأهل الاندلس مشاركة عظيمة في ازدهار الدراسات الدينية المتعلقة بالقراءات ، فظهر بين علمائهم قراء قديرون استطاعوا أن يقدموا لهذا العلم المهم من علوم القرآن الشيء الكثير بل

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص٨٥ ــ ابن فرحون : الديباج ، ج١ ، ص١٧٤ .
(٢) البجاني نسبة إلى بجانة ــ مدينة بالاندلس من اعمال كوره البيرة بينها وبين غرناطة مائة ميل (ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٣٩) .
(٣) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص١٣ .
(٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص٣١ ــ ٣٢ .
(٥) الضبي : البغية ، ص٥٤٦ .

إننا لا نبالغ إذا قلنا إن أهل الاندلس كان لهم القدح المعلى في إثراء المكتبة الإسلامية بكتب القراءات ، وأن من دلائل تقدمهم في هذا العلم واسهامهم الوافر في ازدهاره ما يتمتع به بعض علماء القراءات من الأندلسيين من مكانة عالية بين المسلمين حتى عصرنا الحاضر ، ويكفى في هذا الصدد شهادة العلماء لأبي عمرو الداني بأن القراء جميعهم عالة عليه وعلى تصانيفه وكفي بهذا فخرا للأندلسيين وبما قدموه من جهود في علم القراءات .

التفسير

أحمد بن بقي بن مخلد ــ عبد الرحمن بن مروان القنازعي ، محمد بن عبد الله المرى ــ منذر بن سعيد البلوطي ــ مكي بن أبي طالب .

ومما يدخل في علوم القرآن الكريم علم التفسير ، الذى حظي باهتمام كبير من علماء الاندلس ، إذ كان من الطبيعي والقرآن الكريم هو مصدر التشريع ، ومنبع الاحكام ان ينال الكثير من عناية العلماء ، فاقبلوا على النظر في كتاب الله ومحاولة تفسيره مع الاستفادة من جهود العلماء الذين سبقوهم في هذا المجال .

ومن أوائل الدراسات في هذا الميدان ما ألفه العلامة بقي بن مخلد الذى تقدم الحديث عنه في عصر الإمارة ــ فقد صنف في التفسير كتابا قيما وصفه ابن حزم بقوله (انه الكتاب الذى أقطع قطعا لا استثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره)(١) .

ولا شك ان شهادة ابن حزم لها قيمتها العلمية الكبيرة لما عرف عنه من علم واسع ومعرفة عميقة بعلوم الدين .

واذا كان كتاب بقي بن مخلد قد ألفه في عصر الاماره فما من ريب انه كان له اعظم الاثر فيما تلاه من ألوان الانتاج العلمي في التفسير فقد أفاد منه علماء التفسير باطلاعهم عليه ، ولعل من دلائل التأثير الذى تركه بقي بعد وفاته ما اتصف به ابنه أحمد بن بقي (ت٣٢٤هـ / ٩٣٥م) من صفات اكتسابها عن والده في ميدان العلم ، فقد كان بارعا في علوم القرآن وتفسيره وأحكامه واختلافات العلماء فيه وكان لعلمه الواسع بما تقدم يصفه ابن عبد ربه بأنه من عجائب الدنيا وبأنه نسيج وحده(٢) .

---

(١) المقرى : النفح ، ج٣ ، ص١٦٨ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الاندلس .

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب ، ج١ ، ص١٧٠ ــ ١٧١ ، (نقلا عن ابن عبد ربه وهو مما ليس في كتابه العقد الفريد) .

وكان الكثير من علماء الأندلس يتناولون ما يفد إليهم من كتب التفسير المشرقية بالدراسة العميقة والبحث ، وتتجلى مقدراتهم العلمية وما بلغوه من معرفة واسعة بالتفسير ومناهجه بما سلكوه تجاه تلك الكتب الوافدة عليهم فلم يقتنعوا بقراءتها بل كان لهم دور كبير في تنقيح تلك الكتب بالإضافات العلمية أو بالتصريح لما يرد ـ فيها من بعض المعلومات ، أو بالاختصار لما فصل منها في صورة تنم عن مستواهم العلمي ونضوجهم الفكري . فيذكر أن العلامة عبد الرحمن بن مروان الانصاري ـ المعروف « بالقنازعي » (ت ٤١٣هـ / ١٠٢٢م) ارتحل إلى المشرق فأخذ عن العلماء وسمع عن الكثير منهم ، ثم عاد إلى الأندلس سنة (٣٧١هـ / ٩٨١م) ليبث علمه وينشره بين الناس فرأى من الفائدة العلمية وتيسير المعرفة لدارسي تفسير القرآن أن يختصر تفسير ابن سلام فتناول ذلك بطريقة علمية ماهرة تنم عن مقدرته العلمية وسعة معارفه في التفسير(٢) .

وكان للكثير من العلماء اهتمام وعناية بعلوم الدين عامة ومن بينها التفسير . فالعلامـــة محمـد بن عبد الله المري (٣٢٤ ـ ٣٩٦ هـ/ ٩٣٥ ـ ١٠٠٧ م) كانت له جهود علمية مختلفة في الحديث والفقه والتفسير ، ومما يتعلق بالتفسير تصنيفه لكتاب في تفسير القرآن(٣) ولا ريب أن ارتباط نشاطه العلمي بعلوم الدين ومعرفته الواسعة بتلك العلوم كان له تأثيره الكبير في تعميق معرفته بتفسير القرآن ومعرفة أحكامه وما يتصل بذلك إذا أن الحديث والفقه أكثر العلوم ارتباطا بالقرآن الكريم في تفسير معانيه ومعرفة أحكامه .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٣٢٣ .

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة ، ج٣ ، ص١٧٣ .

وكان للقاضي منذر بن سعيد البلوطي(1) دراسات مهمة في ميدان التفسير وأحكام القرآن الكريم ، فقد وصف بحفظ أقوال العلماء في تفسيره وأحكامه ووجوهه وحلاله وحرامه ، وصنف في ذلك تآليف عديده منها كتاب « الأحكام » وكتاب « الناسخ والمنسوخ » وكتاب في « تفسير كتاب الله العزيز »(2) .

وللعلامة قاسم بن أصبغ البياني مشاركة في ميدان التفسير ، حيث صنف كتابا في احكام القرآن الكريم(3) .

ونسب للوزير الكاتب أحمد بن محمد بن برد (ت418هـ / 1027م) كتاب في تفسير القرآن الكريم واسمه « التحصيل في تفسير القرآن »(4) ومع أن الحميدي ذكر ذلك العلامة في كتابه جذوة المقتبس(5) إلا أنه لم يشر فيه إلى تصنيفه لذلك الكتاب ، وهذا مما يدعونا إلى الشك في نسبة ذلك الكتاب إليه ، إضافة إلى ما وصف به من عناية بالأدب والشعر وانه لم تذكر له سابقة في علوم الدين ، ونحن نعلم أنه لايفسد كتاب الله العزيز أديب أو شاعر بل عالم بالدين عارف بالقرآن الكريم وتفسيره وأحكامه .

وكان لمهارة المقرى مكي بن أبي طالب في علوم القرآن أثر في أكتسابه معارف جمة في ميدان التفسير ووجوهه المختلفة . فقد صنف في تفسير

(1) البلوطي : نسبة إلى فحص البلوط . وهي ناحية من نواحي قرطبه (الحميرى : المصدر السابق ، ص 140) .

(2) الزبيدى : طبقات النحويين ، ص295 ـ الحميرى : المصدر السابق ، ص140 .

(3) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج1 ، ص20 .

(4) البغدادى : المصدر السابق ، ج1 ، ص72 .

(5) ص115 : وذكر الحميدي ان الأديب المذكور كان حيا سنة 440هـ ـ حيث رآه زائراً صديقه ابن حزم بضع مرات . وفي هذا اشارة إلي مجانبة البغدادي للصواب عندما ذكر وفاته سنة 418هـ .

القرآن ، وأحكامه كتابا قيما ، حيث ذكر ابن خير أن له كتابا في ذلك اسمه « الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وانواع علومه « في سبعين جزءا ، وله أيضا كتاب غريب القرآن . وأن شيخه محمد بن مكي بن أبي طالب حدثه بهما(١) .

وبهذا يتجلى لنا المشاركة الطيبة التي قام بها الأندلسيون في ميدان التفسير ويأتي في مقدمتها تفسير بقي بن مخلد الذي يعتبر وساما وضاء في الدراسات القرآنية للأندلسيين والذي لم يكتف الأندلسيون بذلك فنشطوا في ميدان البحث والتأليف حول القرآن وما يتعلق به من تفسير وأحكام فأخرجوا في ذلك إنتاجاً علمياً قيماً .

---

(١) فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص٤٣ ــ ٤٤ ، ص٦٧ . كما ان الانبارى ذكر هذين الكتابين في كتابه نزهة الألباء ، ص٢٥٤ ــ ٢٥٥ .

د ـ علم الكلام وموقف الأندلسيين منه

تعريف علم الكلام ـ موقف الأندلسيين منه وأثر ذلك في ضعف الاشتغال به ـ من ابرز المتكلمين في عصر الخلافة ـ عبد الله بن مسره وأتباعه ـ محمد بن وهب القبرى ـ محمد بن أحمد الشافعي .

لكي نستكمل الحديث عن نشاط الأندلسيين في العلوم الدينية يتوجب علينا أن نتعرف على موقفهم من علم الكلام والمشتغلين به ، وقد عَرَّفَ العلماء هذا العلم بأنه (العلم الذى يتضمن الحجاج (الجدال) عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعه المنحرفين في الإعتقادات ـ عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد هو التوحيد)(١) .

وكان لخروج المشتغلين بهذا العلم عن منهج أهل السنة والجماعة أثر في تألب الفقهاء ضدهم ، فالفقهاء يرون في علم الكلام أنه بدعة من البدع التي يجب محاربتها والتنكيل بأتباعها ، ولهذا وقف علماء المسلمين من أهل الكلام على انهم أهل بدع وزيغ ، فيشير الضبي إلى كلام ابن عبد البر النمرى عن هذا الموضوع فيقول (أجمع أهل الفقه والاثار في جميع الامصار ان أهل الكلام أهل بدع وزيغ ولا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء) كما ذكر ابن عبد البر في كتابه بيان العلم حال أهل الكلام فيقول (أهل الاهواء عند مالك وسائر اصحابنا هم أهل الكلام ، فكل متكلم فهو من أهل الاهواء والبدع اشعريا كان أو غير أشعري ولا تقبل له شهادة في الإسلام ويفجر ويؤدب على بدعته فإنه تمادى عليها استتيب منها)(٢) .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص٤٥٨ .

(٢) بغية الملتمس : ص١٥٧ ـ

وبناء على ذلك فإن أصحاب علم الكلام كانت ترى فيهم جماعة المسلمين هذا الرأى وتعاملهم على أنهم أهل ضلال(١) . ومن ثم كانت تبادر إلى التصدي لهم ، وإحراق كتبهم ، ففي الاندلس كان لفقهاء المالكية دور بارز في القضاء على المتكلمين وعلى أية حركة تستهدف الخروج على مذهبهم الذى ساد الأندلس .

وقد أشار المقديسي إلى كراهيتهم لعلم الكلام وبغضهم لاتباعه ، وأنهم إن عثروا على معتزلي فقد يكون نصيبه القتل(٢) .

وهذا بلا شك يعطينا دليلا واضحا على الموقف الصارم الذى اتخذه علماء الأندلس تجاه أهل الكلام ودراساتهم ، وكان لموقف العلماء المذكور أثر في القضاء على تعدد المذاهب ومنع تسرب التيارات الكلامية للأندلس ، الأمر الذى ادى إلى ضعف اشتغال الاندلسيين به ، وهذا ما عبر عنه ابن حزم بقوله (وأمّا علم الكلام فان بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقلّ لذلك تصرفهم في هذا الباب فهي على كل حال غير عربية عنه ...)(٣) .

ورغم تضافر جهود فقهاء الاندلس في محاربة علم الكلام والتضييق على المتكلمين إلا أنه ظهر بعض المشتغلين به ، ومن هؤلاء يحيى بن السمينة (ت٣١٥هـ / ٩٢٧م) الذى ارتحل إلى المشرق ، ولقي هناك علماء الكلام وتأثر بأقوالهم وآرائهم في ذلك ، ثم نقلها إلى الأندلس ، وكانت له وارآئهم في الاعتزال(٤) .

---

(١) للوقوف اكثر على حال هذا العلم عند المسلمين وما قيل فيه وسبب ظهوره في المجتمع الإسلامي انظر . ابن خلدون : المقدمة ، ص٤٥٨ ، وما بعدها وكذلك عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، ص٢٠٤ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٢) احسن التقاسيم ، ص٢٣٦ .

(٣) المقرى : النفح ، ج٣ ، ص١٧٦ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل علماء الاندلس) .

(٤) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٨٨ .

ونسب الاشتغال بهذا العلم إلى خليل بن عبد الملك بن كليب ، من أهل قرطبه وبسبب ما نسب إليه من اعتناق آراء أهل الكلام ، فقد اجتمع العلماء بعد موته وأخرجوا كتبه ثم أحرقوها بالنار . إلا ماله علاقة بالفقه(١) .

وظهر في عصر الخلافة محمد بن عبد الله بن مسرة (٢٦٩ ــ ٣١٩هـ/٨٨٢م ــ ٨٣١م) واشتهر باعتناقه اراء في علم الكلام تنافي تعاليم الشريعة الإسلامية ووصفه الحميدى بقوله (كان على طريقة من الزهد والعباد بسق فيها ، وافتن جماعة من أجلها وله طريقة في البلاغة وتدقيق في غوامض إشارات الصوفية وتواليف في المعاني نسبت إليه بذلك مقالات نعوذ بالله منها والله أعلم به)(٢) .

ويعتبر ابن مسرة هذا من أبرز المشتغلين بعلم الكلام إلى جانب اشتغاله بالفلسفة مما استوجب تدخل الدولة في القضاء على آرائه وعلى ما ابتدعه أصحابه من بدع خارجه على الدين(٣) ، ففي التاسع من ذى الحجة (٣٤٠هـ/٩٥١م) ــ قرىء على الناس بجامعي قرطبه والزهراء كتاب الخليفة عبد الرحمن الناصر إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر بانكاره لما ابتدعه أصحاب ابن مسرة من أفكار خارجه على الدين واستمالتهم الناس إلى مذهبهم وتسترهم بالزهد ، وأن الخليفة أخذته الحمية للدين فأوعز إلى المذكور بتتبع هذه الطائفة والتحقيق معهم ورفع أمرهم إليه لينظر في شأنهم فسعى الوزير إلى تحقيق ذلك(٤) .

---

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج١ ، ص١٣٩ .
(٢) جذوة المقتبس : ص٦٣ .
(٣) لمعرفة المزيد عن مذهب ابن مسره انظر ابن حزم : الفصل في الملل والنحل ، ج٤ ، ص١٩٩ . وانظر ايضا احسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ، ص٣١ ــ ٣٨
(٤) ابن حيان : المقتبس ، ج٥ ، ص٢٤ ــ ٢٥ .

وفي سنة ٣٥٠هـ جيء بجماعة من أتباع ابن مسرة إلى القاضي محمد بن يبقي فأمر بما لديهم من كتب فأحرقت وأصحابها ينظرون إليها بين الحاضرين وقد ألف القاضي المذكور كتابا في الرد على ابن مسره وتفنيد كلامه حول العقيدة(٢) .

وكان لاحتكاك الأندلسيين بعلماء المشرق وتأثرهم بالمجالس العلمية هناك وما يدور في بعضها من مناضرات وجدل بين المتكلمين أثر في اعتقادهم للكثير من الأفكار الكلامية ، وتأثرهم بعقائد المتكلمين فأحدهم وهو محمد بن وهب القبرى ، ارتحل إلى المشرق فأطلع على علوم في المعاني والاراء الكلامية ثم عاد إلى الأندلس لبث أفكاره وما اعتنقه من تعاليم فأظهر شيئا من ذلك فشنع الناس عليه في ذلك ووضع نفسه موضع السخط والكراهية(٣) .

ومن المتكلمين الذين وفدوا إلى الأندلس محمد بن أحمد الشافعي (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م) حيث أنزله الخليفة الحكم منزلا كريما ، ولكن مالبث ان سخط عليه فاخرجه من البلد لما عرف عنه من اعتناق لاراء المعتزلة ونشره لها بين الناس(٤) .

وعليه فإن علم الكلام كان بدعة من البدع ، ولا شك أن أتباعه بخروجهم على ما رسمته الشريعة الإسلامية ـ من وجوب التسليم بما أنزله الله عز وجل من تعاليم عن توحيده والإيمان به مطلقا ـ لا شك أنهم بخروجهم على ذلك قد استوجبوا سخط الأمة الإسلامية وكراهية جماعة المسلمين لهم فلم تستقم لهم

---

(١) النباهي : تاريخ قضاة الاندلس ، ص٧٨ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص٩٢ ـ الضبي : البغية ، ص١٣٠ ـ ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٤٩٧ ـ ٤٩٨ .

(٣) الصفدي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٧ .

قناة ولم يعمر مذهبهم طويلا ، وقد وضح لنا من خلال هذا البحث صرامة موقف الفقهاء المالكية في الأندلس في محاربة المتكلمين وارائهم باعتبارهم أهل بدع وزيغ وضلال وبذلك تدرك حال علم الكلام في الأندلس وانكماشه بسقوط أتباعه أمام قوة أهل السنة .

وخاتمة القول في دور الأندلسيين في ميدان العلوم الدينية ، أنهم استطاعوا أن يطرقوا كل أبواب العلوم الدينية وأن يحققوا في ذلك نشاطا علميا رائعا فقد شهد عصر الخلافة نهضة علمية قوية في كل ميادين المعرفة ، ولما كانت العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وقراءات هي العلوم الاكثر التصاقا بعقيدة المسلمين في الاندلس . فقد توفر على دراستها أعداد هائلة من العلماء ، وقد حظيت هذه العلوم منذ عصر الإمارة بكثير من الاهتمام والعناية حتى إذا جاء عصر الخلافة كان النشاط العلمي في أوج قوته وذروة ازدهاره ، فاقبل علماء الاندلس بهمة ونشاط على البحث والتأليف في تلك العلوم وتمكنوا من إخراج روائع من الإنتاج العلمي تشهد لهم بالنبوغ والتفوق العلمي .

ويكفي أحدنا للوقوف على هذه الحقيقة أن يتصفح كتاب ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس) أو غيره من كتب التراجم الاندلسية ففيها ما يثبت أن الأندلسيين كانوا في ذلك العصر قد بلغوا شوطا كبيرا في الازدهار العلمي ، وأنهم استطاعوا أن يشاركوا غيرهم من المسلمين في الأقطار الأخرى في دعم المكتبة الإسلامية بنفائس الكتب في الفقه والحديث والتفسير والقراءات .

الفصل الثاني

الأدب والنحو وعلوم اللغة

أ ــ الأدب :

أولا ــ النثر .

(النثر الفني ـ النثر التأليفي الأدبي)

ثانيا ــ الشعر .

ب ــ النحو وعلوم اللغة .



ا ـ الأدب :

أولاً ـ النثر :

والنثر بدوره ينقسم إلى نوعين :

١ ـ النثر الفني .

ب ـ النثر التأليفي الأدبي .

وسوف نبدأ الحديث عن النثر الفني .

النثـر الفنـي

تعريف النثر الفني ـ أهمية الكتابه عند الاندلسيين ـ منصب الكتابه في عصر الإمارة ثم في عصر الخلافه ، وأبرز من تولاه ـ تاثير الأدب المشرقي في الانتاج الأدبي الأندلسي المتصل بالنثر الفني ـ غلبة الكتابة الديوانية على أنواع الكتابة الفنية ـ سمات الكتابة الفنية آنذاك ـ النثر الفني في فترة الحجابه وما اتسم به ـ بروز الشخصية العلمية الأندلسية في هذا الحقل الأدبي ـ من أبرز أدباء هذه الفترة ـ عبد الملك الجزيرى ـ ابن دراج القسطلي ـ أحمد بن عبد الملك بن شهيد ـ كُتَّاب الأندلس وبراعتهم في النثر والشعر على حد سواء .

النثر الفني يقصد به : أسلوب الرسائل الديوانية . والإخوانيات ، والوصايا وغيرها من مواضيع النثر الفنى(١) .

ومن الطبيعي أن ينال ميدان النثر الفني نصيباً كبيراً من الاهتمام بعد أن اتسع نشاط الحركة العلمية . وقد برز في عصر الخلافة عدد كبير من الكتاب البلغاء الذين أغنوا هذا الميدان بإنتاجهم الأدبي الرفيع .

ونظر لأهمية الكتابه وما نالته من عناية لدى الأندلسيين فقد كان لكاتب الرسائل منزلة جليلة في قلوب الناس ، ولكن هذا لايشفع له من انتقادهم اذا جنح عن الصواب ، وكان لسمو منصب الكتابه أن كان صاحبها يشرف ويعظم بذلك في المخاطبات(٢) .

---

(١) مصطفى الشكعة : الأدب الاندلسي ، ص٥٧٠ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، ج١ ، ص٢١٧ ـ إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص٣٢٥ ـ بطرس البستاني : دائرة المعارف ، ج٤ ، ص٤٨٠ ـ وبالاضافة إلى كاتب الرسائل كان هناك كاتب الزمام وهو المسئول عن شئون الخراج ويفترض فيه أن يكون مسلما لاحتياج اعيان الناس ووجوههم إليه (المقرى : النفح ، ج١ ، ص٢١٧) .

وفي عصر الإماره كان يضم بلاط الدولة أكثر من كاتب ، وهو أمر كان يبدو أنه من مقتضيات السياسة وما يفترضه نظام الدولة(١) ، إلا أنه في عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط نرى أنه قد استجد نظام جديد في الكتابة ، إذ اختص ذلك الأمير بكاتب خاص يدعى محمد بن سعيد الزجالي واتخذ لوزرائه كاتبا خاصا لكتاباتهم(٢) . وقد استمر هذا النظام حتى سقوط الدولة الأمويه(٣) .

وحينما تولى الأمر عبد الرحمن الناصر وقبل أن يتلقب بالخلافة قام بالكتابه لديه الكاتب عبد الله بن محمد الزجالي الذى يعتبر من كبار الكتاب البلغاء . وهو الذى أنشأ البيان الخاص بمروق ابن مسرة(٤) .

وظل الزجالي في منصب الكتابه حتى توفي ٣٠١هـ/٩١٣م : فتولاها بعده الأديب عبد الله بن بدر ، الا أن عبد الرحمن الناصر عزله سنة ٣٠٢هـ/وولى الكتابة بعده عبد الملك بن جهور الذى عُزِلَ هو الآخر سنة ٣٠٤هـ/٩١٦م . ليتولى الكتابه عبد الحميد بن بسيل الذى لم تطل مدته في ذلك المنصب ليعود عبد الملك بن جهور إلى الكتابه مرة أخرى(٥) .

وفي عصر الخلافه اتسعت مهام صاحب الرسائل ، وتشعبت وظائفه ، نظراً لما استجد من أعباء ومسئوليات . وبذلك رأت المصلحة أن يكون هناك أكثر من كاتب لمواجهة الأعباء الملقاه على كاهل الدولـه ، وهـذا ما حدا

---

(١) للإطلاع على اسماء كتاب الأمراء انظر : البيان المغرب ، ج٢ ، ص٥٨ ـ ٦١ ـ ٦٨ ـ ٨٠ ـ ٩٣ ـ ١١٣ ـ ١٥٢ .

(٢) ابن حيان : المقتبس تحقيق محمود مكي ، ص٣٤ ـ ٣٥ .

(٣) ابن حيان : المصدر السابق ، ص٣٥ .

(٤) محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الاندلس ، ج٢ ، ص٧٠٠ ـ (وانظر في ذلك البيان المغرب ، نفس المرجع والجزء ، ص٧٠٨) .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص١٦٥ .

بالخليفـة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤هـ إلى تعيين أربعة من الكتاب يحمل كل منهم لقب وزير ويتولى النظر في جانب من منصب الكتابة (فقلد الوزير جهور بن أبي عبدة النظر في كتب جميع أهل الخدمة ، وقلد الوزير عيسى ابن فطيس النظر في كتب أهل الثغور والسواحل والأطراف وغير ذلك ، وقلد الوزير الكاتب عبد الرحمن الزجالي النظر في تنفيذ كل ما يخرجه من العهد والتوقيعات ، وينفذ به الأمر أو الرأى وغير ذلك ، وقلد الوزير محمد بن حدير النظر في مطالب الناس وحوائجهم ، وتنجيز التوقيعات لهم ، فالتزم القوم مالزموا ، فاعتدل بهم ميزان الخدمة ، وسهلت مطالب الرعية)(١) .

وهكذا نلحظ أن منصب الكتابه كان له دور بالغ في تيسير وتسهيل أمور الدوله وما يصدر عنها من قرارات تخدم أهداف الدولة والمجتمع على حد سواء .

ويأتي في مقدمة كتاب عصر الخلافة جعفر بن عثمان المصحفي الذى استعمله الحكم المستنصر أثناء ولايته للعهد كاتبا لديه ، وعندما تولى الخلافة عينه وزيرا وإبقاه على وظيفة الكتابه ، (وكان مقدما في صناعة الكتابة ، مفضلا على طبقته بالبلاغه ، وله شعر كثير مدون يدل على تمكنه من الإجاده ، وتصرفه في أفانين البيان)(٢) . وفي هذا دليل على ما كان يحرص عليه الخلفاء من تعيين ذوى الكفاءات الأدبية الناجحة في منصب الكتابة .

ويذكر ابن عذارى أنه لثقة الخليفة الحكم المستنصر في جعفر فقد جمع له إلى جانب الكتابه الخاصة الكتابه العليا وهي خطة الكتابة(٣) .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص٢٢٠ .

(٢) ابن الابار : الحلة السيراء ، ج١ ، ص٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

(٣) البيان المغرب ، ج٢ ، ص٢٥٤ .

وبالإضافة إلى ما اشرنا إليه من الكتاب فقد كان لبعض النساء دور بارز في ميدان الكتابه الفنيه ، فقد اختص بعض الخلفاء ببعض الكاتبات . فكان ممن اختص الخليفة عبد الرحمن الناصر الكاتبة مزنة (ت٣٥٨هـ/٩٦٨م) ، وقد وصفت هذه الكاتبه بالأدب الواسع ، وحسن الخط(١) .

كما اختص الخليفة الحكم المستنصر بكاتبة تدعى لبُنى (ت٣٧٤هـ/٩٨٤م) وقد عرف عنها البراعه في الكتابه وجودة الخط(٢) .

ولا ريب أن دخول الكتب الأدبية المشرقية للأندلس إلى جانب التأثيرات الأدبية للمشرق في أدباء الأندلس كان لهما من التأثير ما يكفي لطبع انتاجهم في هذا الميدان بالطابع المشرقي ، فلو عدنا قليلا إلى ما قبل عصر الخلافه لرأينا الأديب فرج بن سلام القرطبي قد رحل إلى المشرق . ودرس على أدبائه وفي مقدمتهم اديب المشرق عمرو بن بحر الجاحظ فأخذ عنه علومه وتصانيفه الأدبيه مثل البيان والتبيين (وخف على قلب الجاحظ ، فاستكثر منه ، وكتب كثيرا من مصنفاته ورسائله ، فكان أول من ادخلها الأندلس)(٣) .

ومن غير شك أنه كان لتلك الكتب تأثير واضح في تلوين صور الإنتاج الأدبي الاندلسي ، ومنها بطبيعة الحال النثر الفنى الذى اخذ يتجه إلى الاهتمام بالبدء والموضوع والختام ، وانعكست عليه فخامة الخلافة فكثرت الألقاب ، والجمل الدعائيه المفخمه والعبارات الاعتراضية المعظمه(٤) .

ويبدو من خلال الاطلاع على ما وصل إلينا من ضروب النثر الفنى آنذاك أن الكتابه الديوانيه كانت غالبة على أنواع الكتابة الفنيه ، ولذلك لم تظهر

---

(١) الضبي : بغية الملتمس ، ص٥٤٦ ـ ابن بشكوال : الصله ، ج٢ ، ص٦٩٢ .

(٢) ابن بشكوال : الصله ، ج٢ ، ص٦٩٢ .

(٣) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق محمود مكي ، ص١٦٤ .

(٤)أحمد هيكل : الادب الاندلسي ، ص٢٥٢ .

الكتابة الديوانية كانت غالبة على أنواع الكتابة الفنية ، ولذلك لم تظهر الكتابه الإنشائية المستقلة إلا في أواخر عصر الخلافة بظهور كتاب بارعين أغنوا ميدان الكتابه الفنية بأمثلة رفيعة من كتابتهم الانشائية(١) .

وتدل الكتابة الرسمية في هذه الفترة على تفضيل الإيجاز والقصد في التعبير وايثار المعنى(٢) . ومن نماذج هذه الكتابة خطاب عبد الرحمن الناصر إلى احد المتمردين الذى كان قد تحصن بأحد الحصون ، وقد جاء فيه (ولما رأيناك قد تذرعت باظهار اتقاء الله رأينا ان نعرض عليك أولا مالا بد لك منه آخرا ، وليس من أطاع بالمقال كمن أطاع بعد الفعال فبادر مستسلما إلى قرطبه(٣)) ومن الأمثلة أيضا على هذه الكتابة خطاب الخليفة الحكم المستنصر إلى وزيره جعفر المصحفي ، وكان قد أصابه مرض شديد فأوصى اذا مات بتحقيق بعض المطالب لورثته فبعث إليه الحكم برسالة يعده فيها بتحقيق ما أوصى به ويسأل له الشفاء والعافية(٤) .

وكانت الخطب السياسية والدينية تمثل لونا من ألوان النثر الفنى البديع . فمن النماذج السياسية للنثر الفني خطبة منذر بن سعيد البلوطي في الحفل الذى أقامه الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٣٦هـ/٩٤٨م) لاستقبال وفد امبراطور الروم قسطنطين السابع(٥) .

(١) احسان عباس : المرجع السابق ، ص٣٢٦ .

(٢) احسان عباس : المرجع السابق ، ص٣٢٦ .

(٣) ابن سعيد : المغرب ، ج١ ، ص١٨٤ .

(٤) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص٦٩ ــ ٧٠ .

(٥) انظر هذه الخطبه البليغه في النباهي : تاريخ قضاة الاندلس ، ص٦٦ ــ ٦٧ ــ ٦٨ . والامبراطور المذكور يدعى رومانوس حكم من سنة ٩١٢م إلى ٩٥٩م ، وقد عرف عنه ميله إلى العلم والأدب .

(سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص٤٠٨ ــ ٤٠٩ .

ولمنذر بن سعيد خطب دينية تتسم بالبلاغة وجزالة القول ، وقد وصفه الحميدي بقوله (كان عالما فقيها ، واديبا بليغا ، وخطيباً على المنابر وفي المحافل مصقعا)(١) .

وعرف عن الأديب أحمد بن محمد بن أضحى البلاغة ، والتقدم في البيان ، فمن خطبه ما قاله بين يدى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، حيث قال : الحمد لله المحتجب بنور عظمته عن أبصار بريته ، والدال بحدوث خلقه على أوليته ، والمنفرد بما أتقن من عجائب دهره ومن صمديته(٢) ..

وفي فترة الحجابه ازدهرت حركة النثر الفنية فلمع في ذلك الوقت كتاب بارزون يحررون الرسائل ويصدرون المنشورات ويصفون الوقائع والأحداث المهمة وصفا نثريا(٣) .

وتجلت في النثر الفني تأثيرات مشرقية مقتبسة عن طريقة ابن العميد والتى تميل إلى الإطناب ، وتعتمد على المحسنات من سجع وجناس(٤) .

ويبدوا أن النثر الفني في مسيرته قد تعرض لألوان من التأثير الفني المشرقي ففي بداية الحركة النثرية كان أسلوب الجاحظ يغلب على كتابات الاندلسيين ثم مالبث الحال أن تطور لتحل تأثيرات مشرقية جديدة كطريقة ابن العميد . ولكن الحال لم يدم على هذا التقليد بل ما لبث الأندلسيون أن بلغوا درجة أرقي وأسمى من ذى قبل ، فأظهر الكثير منهم نبوغا وابداعا وكان لتمرسهم بالكتابه الفنية واشتغالهم الدائب بها أثر في تولد ظاهرة النقد التي

---

(١) جذوة المقتبس ، ص٣٤٨ .
(٢) ابن الخطيب : الإحاطه ، ج١ ، ص١٥١ .
(٣) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص٣٣٨ .
(٤) أحمد هيكل : نفس المرجع والصفحه .

اسهمت في نقاء الكتابة الفنية وتخليصها من الشوائب . فهذا الأديب أحمد بن سعيد بن حزم (تقريبا من ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) يقول في هذا الصدد (إني لأعجب ممن يلحن في مخاطبة أو يجيء بلفظه قلقه في مكاتبه ، لأنه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه ويطلب غيره فالكلام أوسع من هذا)(١) .

ويتجلى من خلال هذا النص مدى مالحق الكتابه الفنية في الأندلس من تطور ورقي ، وأنه أصبح هنالك الكثير من الأدباء والكتاب الذين اتصفوا بالنظرة الفاحصة والبصيرة النافذه في تقييم الإنتاج الأدبي من الكتابات الفنية ، ولا شك أنها ظاهرة صحية في ميدان المعرفة .

ويأتي في طليعة كتاب هذه الفترة أبو مروان عبد الملك بن ادريس الجزيرى الذى تولى الوزارة والكتابة للمنصور بن أبي عامر ثم لابنه عبد الملك ، وما من شك في ان ما اتصف به من ادب واسع وبلاغة في القول كان له أثره الكبير في توليه تلك المناصب ، فقد كان (عالما اديبا شاعرا غزير الماده ، معدودا في أكابر البلغاء ومن ذوي البديهه في ذلك وله رسائل واشعار كثيرة مدونة)(٢) .

وقد اظهر عبد الملك براعة ومقدرة في كتاباته التي كان يكتبها في بلاط المنصور بن أبي عامر ثم لابنه عبد الملك ، وقد عرف عنه في كتاباته ميله إلي طريقة الكاتب المشرقي عبد الملك الزيات(٣) .

ومن المؤسف أن كانت نهاية عبد الملك حزينه ومؤله ولا تتناسب مع مقامه

---

(١) الحميدي : الجذوه ، ص١٢٦ ـ الضبي : البغية ، ص١٨٢ .

(٢) الحميدي : الجذوه ، ص١٢٦ .

(٣) ابن سعيد : المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٢١ .

الأدبي إذ قضى آخر عمره سجينا بأمر عبد الملك المظفر[1] ، وقد وصف ابن حيان مكانته الأدبية بقوله (ولم يخلف مثله كتابة وخطابة وبلاغة وشعرا وفهماً ومعرفة وبه ختم كتاب الاندلس رحمه الله)[2] .

وخلف عبد الملك في ديوان الانشاء الأديب أبو حفص بن برد (ت٤١٨هـ/١٠٢٧م) وقد تولى هذا المنصب لدى الخليفة هشام المؤيد بالله ثم المستعين وغيره ، ووصف هذا الكاتب بالبلاغة وروعة البيان ، فقد أشار ابن بسام إلى مقدرته الفائقة في الكتابه وأنه أسمع ببلاغته الصم بيانا ، وان له رسائل تعرب عن مقامه الرفيع في هذا الميدان[3] .

ويحتل الشاعر المشهور ابن دراج القسطلي مكانة سامية بين كتاب تلك الفترة ، فكان من كتاب الإنشاء في عهد المنصور ، معدودا في جملة العلماء والأدباء ، وكانت طريقة في البلاغة والرسائل تدل على براعته ، وحسن طريقته في الكتابه[4] .

ويتضح لمن اطلع على رسائل ابن دراج وكتاباته النثرية عنايته الشديده بانتقاء الألفاظ المناسبة التي تؤدى المعنى في صورة بديعة وجميلة ، ويحوى ديوانه الكثير من رسائله التي تؤكد ذلك . ومن كتاباته النثرية الرائعة وصفه

---

(١) لم يشر أي مؤرخ ممن ترجم لعبد الملك الجزيرى أسباب سجنه ولكن ابن بشكوال في كتابه الصله ، ج٢ ، ص٣٥٧ . بقوله (وتوفي بالمطبق في سخطة المظفر عبد الملك بن أبي عامر في ذى القعده سنة ٣٩٤هـ) .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٣٥٧ (نقلا عن ابن حيان فيما لم يتوفر بين أيدينا من كتاباته التاريخية) .

(٣) الذخيرة ، القسم الأول ، ج١ ، ص٨٤ .

(٤) الحميدي : الجذوه ، ص١١٠ .

لفتح شنت ياقب[1] حيث أبدع في الوصف ، وحاز على سرور الحاجب المنصور واعجابه[2] .

وفي أواخر عصر الخلافة يلمع في سماء الكتابة الفنية الأديب البارع احمد بن عبد الملك بن شهيد ، (المولود ٣٨٢هـ/٩٩٢م) ، وكان لابن شهيد اراء صائبة وتعاليم موفقه في ميدان الكتابة فقد عرف عنه التمكن في ميدان الأدب والتصرف في وجوه البلاغة . وقد تكلم عن الملكة الأدبية سماها (الطبع) وكيف تقوى بالثقافة ومدى تأثيرها في العمل الأدبي ، كما تحدث عن أثر البيئة والظروف السياسية والاجتماعية في الاذواق والملكات[3] .

ولم يلزم ابن شهيد أسلوباً معينا في كتاباته إلا أنه كان أكثر اعجابا بالبديع وكأنما انشأ رسالته في البرد والنار والحطب والحلواء ليحاكي المقامات فهو مفتون بقدرة البديع في الوصف[4] .

ونظر لمكانته الأدبية فقد وصفه صديقه ابن حزم بقوله (ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا ، وهو حي لم يبلغ سن الاكتهال

---

(١) شنت ياقب تقع بمنطقة جليقية بالشمال الغربي ، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى ما يزعمه النصارى من ان بها قبر القديس يعقوب الحوارى ، وكان المنصور قد قام بحملته المذكوره (٣٨٧هـ/٩٩٧م) يسانده في ذلك الأسطول الذى تحرك من مرساه امام قصر ابي وانس في مياه البرتغال الحديثة (انظر : محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الاندلس ، ج٢ ، ص٥٥٩) .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص١١٢ .

(٣) احمد هيكل : الأدب الاندلسي ، ٣٩٤ ـ ٣٩٥ .

(٤) احسان عباس : المرجع السابق ، ص٣٣٣.

ـ عن بعض رسائل ابن شهيد في الوصف انظر الثعالبي : يتيمة الدهر ج٢ ، ص٤٤ وما بعدها ، والاصفهاني : خريدة القصر ، ج٢ ، ص٦٤١ ـ ٦٤٢ .

وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من ـ لساني عمرو وسهل)(١) .

ولعل من دلائل اهتمام أدباء الاندلس بهذا الجانب الفني من الأدب أن عكف البعض منهم على دراسة ميدان الكتابة الفنية والبحث في أفضل السبل الكفيله بإخراج ألوان النثر الفني في صور جيدة وقيمه . فقد قام الأديب عبد الله بن محمد البطليوسى (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) بدراسة كتاب أدب الكاتب لابن قتيبه الأديب المشرقي (ت٢٧٠هـ/٩٨٠م) ووضع له شرحا مفيدا(٢) .

ويبدوا أن الأندلس قد حفلت بأعداد كبيره من الكتاب الأمر الذى دفع أحد العلماء وهو محمد بن موسى بن هشام (ت٣٠٩هـ) إلى تصنيف كتاب في « طبقات الكتاب بالأندلس »(٣) ، وكان هذا الأديب حيا في عصر الإماره وتوفي قبل عصر الخلافة . ومما سبق ذكره يتبين لنا مدى ما وصلت إليه الأندلس في هذا المضمار الأدبي المهم ، وأن عصر الخلافة بغير شك قد حظي بإعداد من الكتاب أكبر وأكثر من عصر الإماره ، وفي ذلك دلالة على النهضة الادبية الكبيرة التي عاشتها الاندلس في عصر الخلافة .

وختاما فان ميدان النثر الفني كان في تطوره وازدهاره مماثلا لما سارت عليه بقية العلوم والآداب من اعتماد على التاثيرات العلمية للمشرق في بداية

---

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج٣ ، ص١٧٨ . (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الاندلس) .

ـ عمرو : هو عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ ولد بالبصره ونشأ ـ ببغداد كان من ذوى الأدب والبلاغة والفصاحة يميل إلى المعتزله في مذهبهم ، الف عدداً من الكتب القيمة في الأدب كالبيان والتبيين والحيوان (ابن نباته سرح العيون ، ص١٤٠ ـ ١٤١)

ـ اما سهل : فهو سهل بن هارون الكاتب من نيسابور . تفرد في زمانه بالبلاغة وله كتب في الأدب ، وقد حظي بمنصب الكتابة لدى الخليفة المأمون (ابن نباته : المصدر السابق ، ص١٣٦ ـ ١٣٧) .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص٤٧ ـ ٤٨ .

(٣) الحميدي : الجذوه ، ص٨٨ .

الأمر ، ثم ما لبث الحال أن تغير ليبدأ الأندلسيون في محاولة التخلص من قيود التقليد والمحاكاة لغيرهم ، لينتهي الامر بوضوح الشخصية الأندلسية وبروزها . وهو ما نلاحظه في الإنتاج الأدبي لعدد من كتاب الأندلس ، كابن دراج وابن برد وأخيراً ابن شهيد الذى ذاع وعلا ذكره في المشرق والاندلس علي حد سواء برسالته الرائعه « التوابع والزوابع » . وقد أشار مصطفى الشكعه إلى براعة كتاب الاندلس وجمعهم بين المهارة في النثر واجادة الشعر وأنهم (حينما يكتبون يحوزون اعجابنا ويثيرون دهشتنا بجمعهم بين جوهرى النثر والشعر ، والاجادة فيهما على حد سواء . إذ أن أساتذتهم المشارقة من الكتاب كانوا على إجادتهم للكتابة تضمحل انغامهم وتقل موسيقاهم حين يكتبون الشعر)[1] .

---

(١) الأدب الاندلسي موضوعاته وفنونه ، ص٥٦٩ .

النثر التأليفي الأدبي

المقصود بالنثر التأليفي الأدبي ـ عناية الأندلسيين بالأدب ـ ما حفل به عصر الخلافة من الأدباء . وأبرزهم في ذلك . أحمد بن محمد (ابن عبد ربه) وانتاجه الأدبي ـ أبو علي القالي ودوره الكبير في إزدهار الحركة الأدبية في الأندلس ـ صاعد بن الحسن وكتابه الفصوص ـ ابن حزم وكتابه (طوق الحمامه) ـ حسان بن ابي عبده وتآليفه الأدبيه .

نعني بالنثر التأليفي الأدبي تأليف كتب أدب بمفهوم القرن الثالث والرابع الهجريين لكلمة أدب ، فقد كان الأدب آنذاك يقصد به الثقافة العربية الخالصه التي يستهدف بها التأديب ككتاب الكامل للمبرد ، والأمالي لأبي علي القالي ، والأغاني للاصفهاني(١) .

والجدير بالذكر ان الأندلس بلغت في عصر الخلافة درجة رفيعة في النشاط الادبي ، ولا عجب اذا قلنا ان الادب قد استحوذ على جانب واسع من اهتمام الاندلسيين فابدعوا فيه وكان لهم في ذلك إنتاج أدبي رائع .

وقد بلغ من عناية الأندلسيين بالأدب أن اصبح أنبل علم لديهم وبه يتوصل إلى صحبة الخلفاء والامراء وينال به رضاهم ، واذا لم يكن العالم أدبياً أو يتصف بشيء من الأدب فانه يكون مستثقلاً في مجالس الخلفاء(٢) .

وبناء على ما تقدم فان الكثير من العلماء الاندلسيين بمختلف تخصصاتهم العلمية كان لا يخلو أحدهم من أدب أو قرض للشعر ، وإنَّ

---

(١) احمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص٢٥٩ ـ ٢٦٠ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، ج١ ، ص٢٢٢ .

تصفحنا لكتب التراجم الأندلسيه ومنها كتاب جذوة المقتبس للحميدى ليؤكد هذه الحقيقة .

ولم يكن الأمر مقتصرا على المسلمين بل نجد أن المسيحيين من أهل البلاد كانوا يقبلون على دراسة اللغة العربية وآدابها في حين كانوا يجهلون الكثير عن لغتهم وآدابهم ، وهذا ما دفع مطران قرطبه الفارو إلى أن يقول : (إن جميع الشبان المسيحيين المميزين بالذكاء كانوا يعرفون لغة العرب وآدابهم ويقرأون ويطالعون كتب العرب بولع ويجمعون أعداداً كبيرة من تلك الكتب بنفقات باهضة ويعلنون في كل جهة على رؤوس الاشهاد اعجابهم بذلك الأدب(١) .

ويذكر أحمد أمين أن الأندلسيين أنتجوا في الأدب أكثر مما انتجوا في العلوم الأخرى ، وأنهم اثروا من وصف الحياة الإجتماعية بما تضمه مجالسهم بمختلف مشاربها ، ومن وصف الطبيعة والمواقع الحربية وغير ذلك(٢) .

وما اشار إليه الكاتب المذكور لا يخلو من الصواب ، إلا أن الاندلسيين لم يكونوا أكثر إنتاجا في الأدب من بقية العلوم . حيث يبدو أنهم كانوا أكثر انتاجا في حقل العلوم الدينية من بقية فروع العلم ، فقد كان علماء الدين أكثر من الأدباء والشعراء يدل هذا ما حفلت به كتب التراجم الأندلسيه من تراجم الفقهاء والمحدثين والمفسرين ، وبالتالي فإن نشاطهم وانتاجهم في مجال العلوم الدينية كان أكبر وأوسع .

---

(١) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص٤٨٥ ــ ٤٨٦ ــ روبرت بريفالت : المرجع السابق ، ص١٤٥ ــ اغناطيوس كراتشكوفسكي الشعر العربي في الاندلس ، ترجمة وتعليق محمد منير مرسي ، ص٢٨ ــ خوليان ريبيرا : المكتبات في اسبانيا الإسلامية مقال منشور بمجلة معهد المخطوطات العربية ، ج٥ ، الجزء الأول ، ص٦٩ .

(٢) ظهر الإسلام ، ج٣ ، ص٣٥ .

وقد أنتج علماء الأندلس مؤلفات غزيره وتصانيف في ميدان الأدب وبها استطاعوا أن يرسموا وجها رائعا للأندلس ، إذ احتلت بعض مؤلفاتهم الأدبيه مكانة عالية ليس في الأندلس بل وفي المشرق ايضا .

ونظر للأعداد الهائلة من الأدباء التي حفل بها عصر الخلافة فسوف نكتفي بالاشارة إلى أبرزهم ، ممن كان لهم اسهام وافر في ازدهار الأدب بما قدموا من انتاج أدبي قيم .

ويأتي في مقدمة أولئك الأدباء أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٦هـ ــ ٣٢٨هـ/٨٦٠هـ ــ ٩٣٩م) كان بارعا في الأدب وقول الشعر ، مما كان له أكبر الأثر في تقريب منزلته لدى الامراء في عصر الإمارة ثم لدى الخليفة عبد الرحمن الناصر . كما نال ابن عبد ربه بعلمه وادبه منزلة رفيعة وشهرة واسعة بين ادباء عصره(١) .

وقد نشأ ابن عبد ربه بقرطبة وطلب العلم بها ثم رحل إلي المشرق حيث تلقى العلم هناك ، وكان لاطلاعه علي كتب الأدب المشرقية أثر في تكوين ثقافته وبالتالي في بروز التأثير الأدبي المشرقي في مصنفاته الأدبية وأهمها كتاب (العقد(٢)) .

ولابن عبد ربه مؤلفات عديدة في الأدب واللغة ، ولكن ما يهمنا منها كتابه الأدبي « العقد » والذى عرف فيما بعد « بالعقد الفريد » حيث أن وصفه بالفريد لم يتم إلا فيما بعد وفي عصور متأخره . فلم يذكر ابن الفرضي أو الحميدى أو الضبي ذلك بل أشاروا إليه باسم (العقــد) فقط .

---

(١) الحميدى : الجذوه ، ص١٠١ ــ الثعالبي : يتيمة الدهر ، ج٢ ، ص٧٥ ــ ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج١ ، ص١١٠ ــ ابن كثير : البداية والنهايه ، ج١١ ، ص١٩٣ ــ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٢ ، ص٣١٢ .

(٢) أحمد أمين : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٨٥ .

ويعتبر هذا الكتاب من روائع الأدب العربي وأركانه وأصوله ، كما يعتبر مرآة لثقافة الأندلسيين في الأدب[1] .

وقد اعتمد ابن عبد ربه في تأليفه لذلك الكتاب على ثقافته المشرقية مما اكتسبه في رحلاته العلمية ، فقد استند في تأليفه إلى العديد من المصادر ـ العلمية لعلماء المشرق كالمبرد والأصمعي ، والمدائني ، وابن المقفع ، والجاحظ وابن قتيبه وغيرهم[2] .

ونلمح مدى التأثير العلمي للمشرق على الحركة الأدبية الاندلسية من خلال قراءتنا لكتاب (العقد) ، ونظراً لما حواه من أدب وشعر لأهل المشرق فلم يحظ في بادىء الأمر بقبول واسع لديهم حتى قال الصاحب بن عباد ـ أبرز وزراء بني بويه في المشرق ـ عند مطالعته لذلك الكتاب : (هذه بضاعتنا ردت الينا)[3] .

واشار ابن عبد ربه في مقدمة كتابه إلى طريقته في التأليف ، فقال : (وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الأدب ومحصول

---

(١) لطفي عبد البديع : المرجع السابق ، ص٧٥ .

(٢) أحمد أمين : المرجع السابق ، ص٧٥ ـ جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده ، ص٤٤ .

ـ المبرد : محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الازدي الثمالي (٢٠٧هـ ـ ٢٨٥هـ/٨٢٢ ـ ٨٩٨م) من أشهر أدباء الإسلام له كتاب الكامل في اللغه (ابن النديم : الفهرست ، ص٨٧) .

الأصمعى : عبد الملك بن قريب الباهلي من كبار أهل الأدب وكانت الراوية اغلب عليه ، ولد (١٢٣هـ/٧٤٩م) وعمر طويلا (ابن قتيبه : المعارف ، ص٢٣٧) .

المدائني : علي بن محمد بن عبد الله (١٣٥هـ ـ ٢٢٥هـ/٧٥٢ ـ ٨٣٩م) له كتب في المغازي وايام العرب وكان بصريا وسكن المدائن فنسب إليها (ابن الاثير : الكامل ، ج٥ ص٢٦٢)

ابن المقفع : عبد الله بن المقفع ، من أئمة الكتاب وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق ولي كتابة الديوان للمنصور العباسي ـ (الزركلي : الإعلام ، ج٤ ، ص١٤٠) .

وقد مرت ترجمة الجاحظ اما ابن قتيبه فقد اشرنا إليه سابقا في المتن عند الحديث عن النثر الفنى .

(٣) ياقوت : معجم الادباء ، ج٢ ، ص٢١٩ ـ ٢٢٠ .

جوامع البيان ، فكان جوهر الجوهر ، ولباب اللباب ، وإنما لي فيه الاختيار وحسن الاختصار وفرش لدرر كل كتاب وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء واختيار الكلام أصعب من تأليفه وقد قالوا : اختيار الرجل وافد عقله)

وبهذا يتضح المنهج الذى سار عليه ابن عبد ربه في تأليفه كتابه المذكور حيث كان عنصر [الاختيار] هو العامل الرئيسي في ذلك . فقد انتقى عيون الأخبار والاشعار ونقل كلام العلماء وأقوال الأدباء . وأسهم أيضا في الكلام عن مقدمة كل باب والتمهيد له بفرشة أدبية تدل على بلاغته وأدبه الواسع . وما من شك أن اختياره لما ورد في كتابه من مادة علمية لدليل على ما اتصف به من ثقافه أدبية وإحاطة بمعارف العرب وأخبارهم .

وقد أشار الحميدى إلى منهج ابن عبد ربه في تقسيم كتابه بقوله (وهو مقسم على معان وقد سمى كل قسم منها باسم من أسماء نظم العقد كالواسطه ونحوها)(١) .

ويلاحظ في هذا التقسيم جمال وابداع حيث جعل من كتابه عقداً بديعاً يحتوى على خمسة وعشرين حبه من جهة ، وخمسة وعشرين حبة من جهة أخرى ، وفي وسطها كلها واسطة العقد، وسمى كل باب من الأبواب باسم جوهره فتشكلت قلاده جميلة تنم عن ذوق فني أضفاه ابن عبد ربه على كتابه المذكور .

وقد نال هذا الكتاب مكانة رفيعة بين كتب الأدب العربية واثنى عليه أكثر من عالم وأديب ووصف بالقيمة الأدبية لما ضمه من ضروب الأدب والمعارف التي لا تتوفر في غيره من كتب الأدب الأخرى الا فيما ندر(٢) .

(١) جذوة المقتبس ، ص١٠١ .

(٢) ابن خلكان :وفيات الاعيان ، ج١ ، ص١١٠ ــ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٢ ، ص٣١٢ .

وقد أطنب ابن كثير في الثناء على كتاب العقد وأنه ينم عن فضائل جمه وآداب ومعارف كثيرة ، إلا أنه لم يغفر له زلاته فأشار إلى تشيعه وتحامله على بنى اميه وان هذا مخالف للمألوف لانه من موالي بني أميه فكان جديرا به أن يواليهم(١) .

وعلى الرغم مما قيل عن تشجيع ابن عبد ربه الا أن هناك ما يثير الشك في نسبة ذلك إليه . فقد ذكر ابن الآبار أن القاسم بن خلف الجبيري أشار إلى أن الفقيه منذر بن سعيد البلوطي نزل على أبيه خلف في داره بطرطوشه(٢)، واثنا مطالعته لكتبه قرأ احدها وكان يضم ارجوزه لابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء ويجعل معاويه رابعهم ولم يذكر عليا فيهم ثم وصل ذلك بذكر الخلفاء من بني مروان إلى عبد الرحمن بن محمد ، فلما رأى ذلك منذر غضب وكتب في حاشية الكتاب :

اوما على لا برحت ملعنا بابن الخبيثة عندكم بامام

رب الكساء وخير آل محمد داني الولاء مقدم الإسلام(٣)

وما من شك أن في هذا الخبر ما يفرض على الباحث اعادة النظر فيما يتعلق بتشيع ابن عبد ربه وتحامله على بني أمية .

ومن كبار ادباء ذلك العصر الأديب البارع واللغوي الكبير أبو علي اسماعيل ابن القاسم بن عيذون المعروف ب « القالي » (٢٢٨ ـ ٣٥٦هـ/٩٠٠م ـ ٩٦٦م) وكان متضلعا في الأدب واللغة والنحو عارفا بها ، والقالي من أهل

---

(١) البداية والنهاية ، ج١١ ، ص١٩٣ ـ ١٩٤ .

(٢) طرطوشة : مدينة بشرق الاندلس بالقرب من بانسيه .(القزويني : اثار البلاد ، ص٥٤٤) .

(٣) التكمله ، ج١ ، ص٢٩٣ .

العراق أخذ علومه ومعارفه عن علمائه كأبي بكر بن دريد الأزدي ، وأبي بكر بن الانباري ، وابن درستويه وغيرهم .(١)

وقد توفر القالي على دراسة الأدب واللغة حتى أظهر براعة في تلك العلوم وذاع صيته بين علماء عصره . ويقال ان الأمير الحكم المستنصر كتب اليه ورغبه في القدوم إلى الأندلس ، فشد القالي رحاله إلى الأندلس ودخلها سنة ٣٣٠هـ/٩٤١م في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث حظي بمنزلة سامية في بلاط الخلافة كما استفاد الأندلسيون من علمه الواسع في الأدب واللغة واتخذوه حجة فيما نقله(٢) .

والجدير بالذكر أن القالي حين دخوله الأندلس جلب معه الكثير من عيون الكتب ونفائس المصنفات الأدبية واللغوية والنحوية لأهل المشرق ، وكان من بينها دواوين شعرية للجاهليين والإسلاميين كشعر ذي الرمة ، وعمرو بن قميئه والحطيئه والنابغة الجعدي ، والأخطل ، وجميل بن معمر العذرى وغيرهم(٣) .

ومما لا شك فيه أنه كان لهذه الكتب اثر عظيم في دفع عجلة النشاط الادبي في الأندلس ، وانها قد دفعت الأندلسين إلى ميدان البحث والتأليف في الأدب واللغة والنحو بعد استفادتهم من مطالعة كتب المشارقة ومصنفاتهم التي جلبها أبو علي القالي .

---

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٢٦ ـ المقري : النفح ، ج٣ ، ص٧٢ .

(٢) الحميدى : الجذوه ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ـ المراكشي : المعجب ص٥٩ ـ ٦٠ ـ الصفدي : الوافي ، ج٩ ، ص١٩١ ـ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٣ ، ص١٨ ـ السيد عبد العزيز سالم : قرطبه حاضرة الخلافة ، ج٢ ، ص١٦٤ ـ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج٤ ، ص٤٧٦ ـ نقولا زياده : لمحات من تاريخ العرب ، ص١٧٤ ـ كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٢ ، ص٢٧٨ .

(٣) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه ، ص٣٩٥ ـ ٩٦ ـ ٩٧ ـ ٩٨ . وهناك الكثير من المصنفات في الأدب والاشعار ذكرها ابن خير في كتابه المذكور .

وكان القالي جم النشاط عظيم الاجتهاد في نشر علومه ومعارفه في الأندلس وقد سبق القول عند الحديث عن التعليم ما كان يقوم به من التدريس بجامع الزهراء ـ وانه كان يكتب عنه في مجلسه العلمي كل خميس أربعمائة شخص أثناء إملائه الآمالي .

وفي ميدان التأليف العلمي أسدي القالي خدمات علمية جليلة بما صنفه من الوان التصانيف في الأدب واللغة والنحو .

ففي الأدب ألف كتابه « الآمالي « ويسمى بالنوادر أيضاً ، حيث صَدَّرَ كتابه بمقدمة أثنى فيها على الخليفة عبد الرحمن الناصر ثم ولي عهده ابنه الحكم المستنصر وجهودهما في نشاط الحركة العلمية ، ثم أشار إلى طريقته في تدريس كتابه ، وكيف أملاه على تلاميذه ، ثم ما تضمنه من المعارف ، فيقول ـ (فامللت هذا الكتاب من حفظي في الأخمسة بقرطبه وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركه واودعته فنونا من الأخبار ، وضروبا من الأشعار ، وأنواعا من الأمثال ، وغرائب من اللغات ...)(١)

ويلاحظ من النص مدى ما كان يتمتع به القالي من علم واسع بالأدب واللغه وقوة حافظته التي أعانته على اكتساب معارفه الواسعه في تلك العلوم .

كما أن في النص إشارة إلى ماكان عليه جامع قرطبه وجامع الزهراء من مكانة رفيعة في حياة الأندلسيين العلمية ومدى اسهامهما في النشاط العلمي وازدهار العلوم والأداب .

والجدير بالذكر أن كتاب الامالي قد حظي بمنزلة طيبة بين كتب الأدب واللغة ، ولقي من الأدباء كل ثناء وتقدير ، فذكره ابن خير فيما رواه عن شيوخه

---

(١) الامالي : ج١ ، ص٣ .

ووصفه بالحسن وأنه يشتمل على أنواع من العلم لا نظير له في معناه(1) . بل إن العلامة ابن حزم الأندلسي أشار إليه وعدّه من مفاخر الأندلس العلمية وقارن بينه وبين كتاب المبرد « الكامل » ، فقال (وهذا الكتاب مبار لكتاب « الكامل » الذى جمعه أبو العباس المبرد ، ولئن كان كتاب ابي العباس اكثر نحوا وخبرا فان كتاب أبي علي لأكثر لغة)(2) .

ورغم هذه المكانة العالية التي احتلها كتاب الامالي لدى الأندلسيين إلا أنه لم يسلم من نقد العلماء . فقد ألف العلامة اللغوي والجغرافي البارع أبو عبيد البكري كتابا في نقد وتصحيح بعض ما ورد في الامالي وسمى كتابه « التنبيه » وقال في مقدمته (وأبو علي ـ رحمه الله ـ من الحفظ وسعة العلم والنبل ومن الثقة في الضبط والنقل بالمحل الذى لا يجهل وبحيث يقصر عنه الثناء الأحفل . ولكن البشر غير معصومين من الزلل مبرئين من الوهم والخطل . والعالم من عدت هفواته وأحصيت سقطاته . كفى المرء نبلا أن تعد معايبه)(3) .

ولأبي علي القالي كتب أخرى منها « الإبل ونتاجها وجميع احوالها » في خمسة أجزاء ، وكتاب « حلي الإنسان والخيل وشياتها » وكتاب « مقاتل الفرسان » وكتاب « تفسير القصائد والمعلقات وتفسير إعرابها ومعانيها »(4)

ويبدوا أن كتبه المذكوره قد امتدت إليها يد الضياع كما امتدت إلى غيرها من الآف الكتب لعلماء المسلمين في الشرق والغرب .

---

(1) ص٣٢٥ .

(2) المقرى : نفح الطيب ، ج٣ ، ص١٧٢ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(3) ص١٥ .

(4) ابن خير : المصدر السابق ، ص٣٥٥ .

وفي عهد المنصور بن ابي عامر وفد على الأندلس الاديب صاعد بن الحسن الربعي(١) من أدباء المشرق . وقد أمدنا صاعد بمقتطفات يسيرة عن سيرته العلمية في المشرق وكيف تلقى علومه على القاضي ابى سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي ، والحسن بن أحمد النحوي الفارسي ، وأنه استظهر كتب اللغه المتداولة آنذاك ، وكتب الأدب ودواوين شعر الجاهلية مما قربه إلى السلطان(٢) حتى عينه الوزير أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف(٣) النظر في خزانة كتبة فأفاده ذلك باطلاعه على عيون التأليف واتيح له نسخ الكثير من الكتب التي خرجت في نهب دار المقتدر(٤) والتي كانت بخط الأصمعي والفراء وأبي زيد وابن السكيت ما يزيد على ثلاثة الآف ورقة . إلا أنه فقدها في الحادثة التي وقعت بين الوزير وصاحب بغداد مما حمله على الرحيل عن بغداد والبحث عن وطن آخر يجد فيه ما يناسب مكانته العلمية فكانت الاندلس مقصده(٥). وعندما دخل صاعد الاندلس استقبله المنصور بن أبي عامر بحفاوة

---

(١) جانب الأديب أبو عبد الله محمد الاشبيلي الصواب في كتابه المخطوط (ريحان الالباب) ورقة ١٣٩ أ » عندما أشار إلى قدوم صاعد بن الحسن في عهد الخليفة الحكم المستنصر وانه نال رتبة المنادمه في بلاطه . ولكن الحقيقة ما أشرنا إليه في المتن .

(٢) هو السلطان عضد الدولة بن الحسن بن بويه خلف والده الحسن على ممالكه بعد وفاته ودخل العراق سنة ٣٦٦هـ (ابن الاثير : الكامل ، ج٧ ، ص٣٦٧) .

(٣) احد وزراء الدولة البويهية قال عنه ابن خلكان (كان احد البلغاء ، وممن يجرى عند عضد الدولة مجرى الوزراء) (وفيات الاعيان ، ج٤ ، ص٤٠٦) .

(٤) المقتدر : هو الخليفة جعفر بن احمد بويع بالخلافة سنة ٢٩٥هـ وكانت مدة خلافته اربعا وعشرون سنة واحد عشر شهرا . (المسعودى : مروج الذهب ، ج٤ ، ص٢٩٢) اما عن نهب داره فقد تم ذلك سنة ٣١٧هـ حينما اقدم مؤنس الخادم وغيره من رجال الدولة على خلع المقتدر وتوليه اخيه القاهر بدلا منه (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١١ ، ص١٥٩) .

(٥) الفصوص (مخطوط) ج١ ، ورقة أ ب .

ـ انظر في ترجمة الفراء وابي زيد السكيت (ابن قتيبه : المعارف ، ص٢٣٧) و (ابن النديم : الفهرست ، ص١٠٨) اما الاصمعي فقد مرت ترجمته .

بالغة وتكريم عظيم ، وأراد أن يجارى به القالي الذي ذاع صيته في عهد الحكم المستنصر . ونظرا لاهتمام صاعد بما يعلي مكانته في بلاط الحاجب المنصور فقد رأى ان يتقرب إليه بعمل علمي ، وصادف أن اطلع صاعد على كتاب الأمالي لأبي علي القالي فقال للحاجب المنصور (إن اراد المنصور أمليت كتاب دولته أرفع منه وأجل لا اورد فيه خبرا مما أورده ابو علي فأذن له المنصور في ذلك فجلس بجامع مدينة الزهراء[1] من اجل ذلك واخذ يملي كتابه المترجم ب « الفصوص » فلما اكمله تتبعه ادباء الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحه عندهم ولا خبر ثبت لديهم)[2] .

وقد أشار صاعد في مقدمة كتابه المذكور إلى أمر المنصور له بتأليف ذلك الكتاب وما رغب إليه في أن يمده بضروب من الأدب والشعر مما لم يتضمنه كتاب الكامل وغيره من كتب النوادر من التي تساوى الناس في ذكرها وتكافؤ في علمها .

ولم يلق كتاب الفصوص ما كان يأمله صاعد من قبول واستحسان من المنصور ، فقد كان منافسوه من الادباء له بالمرصاد ، حيث اجتهدوا في كشف جوانب النقص في كتابه وتضخيم ما قد يكون فيه من أخطاء حتى أخلوه من المحاسن وصوره للمنصور في صورة قاتمه مما دفعه إلى أن يأمر بقذفه في النهر ، واستغل ذلك احد خصومه من الادباء فقال :

---

(١) مدينة الزهراء . مدينة غربي قرطبه بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ هـ وذلك تحت اشراف ابنه الحكم ولكن لم يتم بناءها الا في عهد الخليفة الحكم ، وقد انتقل اليها الخليفة عبد الرحمن سنة ٣٣٦هـ (احمد مختار العبادى : تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢١) .

(٢) المقرى : مفح الطيب ، ج٣ ، ص٧٨ .

(٣) الفصوص : (مخطوط) ، ج١ ، ورقة ١ أ .

قد غاص في النهر كتاب الفصوص وهكـــذا كـل ثقيـل يغـــوص

فاجابه صاعـد :

عـــاد إلى معدنــــه انمـــــا توجد في قعر البحار الفصوص

والحق أن هذا الجفاء من المنصور لكتاب صاعد لم يدم طويلا ، فقد أشار المؤرخـون إلى أن المنصـور أثاب صـاعداً علـى كـتابـه المذكور خمسة آلاف دينار(١) .

وقد أدلى ابن بسام برأيه في موقف الأدباء من صاعد وتألبهم على نقده وكيف أنه أعانهم على نفسه فيقول (وما أحسب أن أحدا يجتري على اخراج تصنيف وابداء تأليف يضيق عنه التعديل . ويدفع في صدره النقد والتحصيل ، لاسيما وصاعد علم ان قرطبه ... ميدان جياد وبلد جدال وجلاد ، ولكنه اشترط غير المشهور فلم يظفروا منه بكبير وأعانهم هو على نفسه بما كان يتنفق به من تنحله وكذبه ولم يكن عند أبي عامر تحرير ولا بصر بالنقد مشهور والافليس يخلو كتاب الفصوص المذكور من غريبة مسموعه ، ولا من فائدة رائعه بديعه ولكنه خبر وجدناه فنقلناه)(٢) .

وهكذا نلمس أن هناك عاملين كان لهما أعمق الأثر في وقوف الأدباء ضد صاعد ومحاولتهم الغض من شخصيته العلمية . فأولهما : اشتراطه الجدية في تأليفه وبأنه سيورد مالم تورده كتب غيره من أهل الأدب . وثانيهما : ما كان يتصف به في بعض الأحيان من ادعاء للحقائق وتزييف للأخبار .

---

(١) ابن بسام : الذخيره . القسم الأول ، ج١ ، ص٨ ـ المراكشي : المعجب ، ص٧٧ ـ ٧٨ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٢ ، ص٤٨٩ ـ ابن كثير : المصدر السابق ، ج١١ ، ص٢١ ـ السيوطي : بغية الوعاه ، ج٢ ، ص٧ ـ المقري : النفح ، ج٣ ، ص٧٨ .

(٢) ابن بسام : الذخيره ، القسم الرابع ، ج١ ، ص٨ .

ورغم ذلك وانصافا للحقيقة فقد كان صاعد (عالما باللغة والأدب والاخبار سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشره)(١) .

وقد جانب كراتشكوفسكي الصواب عندما وصف اسلوب صاعد في كتاباته الأدبية بأنه أسلوب بدوي(٢) .

والحق أن ذلك مخالف للحقيقة العلمية المعروفه عن صاعد وما اتصف به من أدب واسع ودراية باللغة ، تكفلان له حسن الأسلوب ، وجودة الكتابه الأدبية في مضمار البحث والتأليف ، وان من يطلع على كتابه الفصوص ليقف علي حقيقة الحال وصدق القول في ذلك .

وبالاضافة إلى كتاب الفصوص فان لصاعد مؤلفات أخرى صنفها للمنصور بن أبي عامر منها كتاب « الهجفجف بن عدقان بن يثربي مع الحنوت بنت مخرمه بن انيف « وكتاب » الجواس ابن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء » ، وكان المنصور شديد الشغف بالا ستماع إلى هذا الكتاب الاخير فرتب له من يقرأه عليه كل ليله(٣) .

ويبدو من خلال عنواني الكتابين أنهما من كتب الاسماء التي تصنف لامتاع ـ السلطان بما تضمه من الأخبار والقصص الطريفة فيقضي ليله في الاستماع إليها والتمتع بطرافتها .

---

(١) الحميدي : الجذوه ، ص٢٤٠ .

ـ حفظت لنا الكثير من كتب التاريخ والتراجم نصوصا ادبيه تثبت ما كان عليه صاعد من دراية بالأدب ومعرفة واسعه به . انظر الحميدى : جذوة المقتبس ، ص٢٤٣ ـ ابن بسام : الذخيره ، القسم الرابع ، ج١ ، ص٢١ ـ ٢٢ ـ الازدي : بدائع البدائع ، ص٢٩٩ ـ ٣٠٠ ـ ٣٠١ ـ المقرى : نفح الطيب ، ج١ ، ص٥٨٣ ـ ٥٨٤ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج١ ، ص٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(٢) الشعر العربي في الاندلس ، ص٣٦ .

(٣) الحميدى : المصدر السابق ، ص٢٤٠ .

كما برز أدباء قديرون غيرهم في مقدمتهم الأديب أحمد بن عبد الملك بن شهيد الذى حظي بمنزلة رفيعة لدى الحاجب عبد الملك بن المنصور ، حيث استوزره ولكنه رغم تضلعه في الأدب لم يبلغ منزلة الكتابه في الديوان فلم يلقب بالوزير الكاتب كما كان يتمنى(١) .

وقد برع ابن شهيد في ميدان الادب فألف فيه كتبا منها « كشف الدك وايضاح الشك » وكذلك « حانوت عطار » وكتاب « التوابع والزوابع »(٢) .

وتعود شهرته الواسعة إلى كتابه الأخير « التوابع والزوابع » ويقصد ـ بالتوابع هنا الجن تصحب الإنسان ، والزوابع تعني : العواصف ، وتعني الزوبعه ايضا رئيس الجن ، وقد سمى ابن شهيد كتابه المذكور بهذا الاسم نظرا لاعتماده في شرح وتوضيح آرائه في الكتاب والأدباء والشعراء وقضايا الشعر على لسان الجن ، وقد نهج هذا المنهج أبو العلاء المعرى في كتابه رسالة الغفران(٣) .

وقد وجه ابن شهيد رسالته إلى شخص كناه أبا بكر واسمه يحيى بن حزم ــ وهو شيخ من شيوخ الأدب ومن بيت غيربيت ابن حزم الفقيه المشهور(٤) .

وقد قدم في أول رسالته بما يشبه المدخل إلى القصه ، فذكر نشأته العلمية وكيف عجب أبو بكر لذلك ، وحلف ان تابعه تنجده وزوبعة تعينه لأن ما

---

(١) سامي العاني : دراسات في الأدب الاندلسي ، ص٣١٧ .

(٢) ابن خلكان : الوفيات ، ج١ ، ص١١٦ ـ ١١٧ ـ حنا الفاخورى : المرجع السابق ، ص٨٣١ .

(٣) احمد امين : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٢١٠ ـ احمد هيكل : المرجع السابق ، ص٣٨١ .

ـ اشار البعض من الكتاب إلى ان رسالة التوابع والزوابع اتت تقليدا لرسالة ابي العلا المعري ولكن الحق ان الاخيره اتت بعد الأولى بعشرين سنه ، وانظر في توضيح ذلك احمد امين : ظهر الإسلام ، ج٣ ، ص٢١٠ وسامي العاني : المرجع السابق ، ص٣٣٣ .

(٤) الحميدي : الجذوة ، ص٣٧٤ .

يملكه من أدب لا يتأتي إلا لغير الأنس ويقر له أبو بكر بذلك فيوضح أنه كان له صديق فمات وأراد أن يقول في رثائه شيئا من الشعر ولكنه ارتج عليه ، فاذا بجني اسمه زهير بن نمير يتصور له على هيئة فارس ويقدم نفسه كصديق تابع له يعينه على الشعر متى أراد ، ثم غاب في الحائط . وأنه كلما ارتج عليه اغاثه ذلك التابع . ثم ينتقل إلى صلب القصة وأنه تذاكر أخبار الشعراء وأصحابهم من التوابع حتى اشتاق إلى لقاء بعضهم ، فابدى الجنى استعداده لمساعدته بعد أن يستأذن من شيخ الجن فاستأذن منه ، ثم عاد إلى ابن شهيد حيث طاروا في الفضاء حتى أتوا الأرض الجن . وطاف به تابعه على أصحاب الشعراء الأقدمين كامرىء القيس وطرفه من الجاهليين ، وابي تمام والمتنبي من الاسلاميين ، وفي كل لقاء مع احدهم يصور مقابلته معه ويسم كل منهم بالملامح التي عرف بها الشاعر في حياته ويسمع من تابعه وينشده هو حتى ينال اعجابه(١) .

ويلاحظ في هذه الطريقة الخياليه التي سار عليها ابن شهيد في سبيل ابراز مواهبه الأدبية وما كان عليه من ادب وبلاغه ، مدى ما تمتع به من مهارة فائقة على التعرف بفنون الكلام ، وما يملكه من خيال واسع استغله في اخراج صورة ادبية رائعه تضمنت اراءه في النقد وصور الصراع بين الموهبه وسعة الإطلاع ، وقد شحن تلك الرسالة بروائع نظمه ونثره معارضا بها غيره ومزج ذلك بمسحة من الفكاهه مع اعجاب بالنفس(٢) .

ومن المؤسف انه لم تصلنا هذه الرسالة كاملة ، كما لم يعثر على مخطوطة لها . وانما وصلنا منها ماضمنه ابن بسام في كتابه الذخيره من

---

(١) احمد هيكل : المرجع السابق ، ص٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

(٢) احسان عباس : تاريخ الأدب الاندلسي ، ص٣٤٠ .

نصوص ، وقد نقلها بطرس البستاني ونشرها فصححها وحقق ما فيها وشرحها وقدم لها دراسة تاريخيه ، فقسم تلك النصوص إلى مدخل وأربعة فصول ، فالأول : توابع الشعراء ، والثاني : توابع الكتاب ، والثالث : نقاد الجن ، والرابع : حيوان الجن(١) .

ويأتي ابن حزم صديق ابن شهيد في مقدمة ادباء تلك الفترة بما قدمه من انتاج ادبي رائع يتمثل في كتابه « طوق الحمامه » الذى يعتبر أهم ما ألفه ابن حزم في ميدان الأدب ، والكتاب عن « الألفة والآلاف » اى الحب والمحبين .

والجدير بالذكر ان قيمة الكتاب ليست فيما يخص من فلسفة حول الحب بل ان قيمته تبرز فيما تحويه من القصص والحكايات التي تصور مظاهر الحياة داخل قصور الخلفاء والأمراء ، واساليب السلوك السائدة هنالك . كما انه يشتمل على الكثير من الاعترافات الشخصية لابن حزم والتي تلقي ضوءا على سيرته الشخصية في شبابه(٢) .

ومما يزيد الكتاب اهمية انه كتاب في الحب يكتبه فقيه من فقهاء الاندلس عرف بالحزم في الدفاع عن الدين ، وانه صرف حياته في الاشتغال بعلومه .

فتخصيصه وقتا للكلام عن هذا الموضوع فيه مايسترعي النظر ويثير التساؤل ، وقد كان ابن حزم يحسن وهو يكتبه ما سوف يتعرض له من بعض الاشخاص من نقد لمخالفته سيرته العلمية الدينية ، ولكنه صرح بانه لا يميل إلي المراءآة وان غايته كانت رسم صورة واقعية لحياته وحياة الناس ببلده حول موضوع واحد هو الحب(٣) .

---

(١) نشر هذا الكتاب دار صادر ببيروت سنة ١٩٨٠م .

(٢) احمد هيكل : المرجع السابق ، ص٣٤٢ ـ غرسية غومس : الشعر الاندلسي ، ص٤١ .

(٣) احسان عباس : المرجع السابق ، ص٣٤١ .

وكان تأليف ابن حزم لهذا الكتاب لرغبة أحد أصدقائه من مدينة المرية ، حيث ارسل إلى ابن حزم في مدينة شاطبه يطلب منه تصنيف رسالة في صفة الحب ومعانيه واسبابه واعراضه . وقد اشار ابن حزم إلى ان تصنيفه للكتاب من قبيل اعطاء النفس حقها من الراحة والانشراح تبعا للاثر القائل « اريحوا النفوس فأنها تصدأ كما يصدأ الحديد »(١) .

وفي هذا إشارة إلى ما تمتع به ذلك الفقيه من مرونة وتسامح إلى جانب ما اتصف به من ثقافة واسعه وادراك عميق لمفاهيم الحياة واسرارها الاجتماعية .

ويذكر ابن حزم أنه قسم كتابه على ثلاثين بابا . منها في أصول الحب عشرة ، وفي أعراض الحب وصفاته المحموده والمذمومه اثنا عشر بابا ، ومنها في الآفات الداخله على الحب ستة أبواب ، ومنها بابان ختم بهما الرسالة . وهما باب الكلام في قبح المعصيه ، وباب في فضل التعفف(٢) .

ولا شك أن البابين الاخيرين يدلان بما يقطع الشك على ما اتصف به ذلك الاديب من نزاهة وعفه يمليانهما عليه تقوى الله ، فقد الف ذلك الكتاب في موضوع الحب وما قد يجر إليه من لهو وعزوف عن الاستقامه ، ولكنه تأكيدا لصلاحه وما اتصف به من خشية لربه فقد ختم كتابه بالبابين المذكورين ، وقد

---

(١) طوق الحمامه : ص١ ـ ٢ .

ـ المريه : مدينة محدثه امر ببنائها الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤هـ ، وهي من مراسي الاندلس وكانت تقصدها مراكب التجار من الاسكندرية والشام (الحميري : الروض المعطار ، ص١٨٣ ـ ١٨٤) .

ـ شاطبه : مدينة في شرق الاندلس . وقد اشتهرت بصناعة الورق ، (ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٠٩) .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣ ـ ٤ .

أشار إلى ذلك بقوله : (وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فذلك مفترض على كل مؤمن)(١) .

وآخيرا فإن ميدان التأليف الأدبي قد لقي من الأندلسيين نشاطا وافرا حيث أخرج الأندلسيون الكثير من روائع الأدب التي تشهد بعلو كعبهم في هذا الميدان .

ولا يفوتنا أخيرا أن ننوه بمزيد من الإعجاب ، بدور الخليفة الحكم المستنصر في ازدهار الحركة الأدبية . فالى جانب دوره في تشجيع القالي على تأليف كتابه الامالي فقد ذكرانه بعث بألف دينار ذهب إلى الاصفهاني لقاء إرساله نسخة من كتابه الأغاني ، فبعث إليه بها قبل ان يرى الناس كتابه في العراق(٢) .

وقدم الحاجب المنصور جهدا مشكورا في نهضة الأدب ، فقد صنف له الأديب حسان بن أبي عبده كتابا على شاكلة كتاب أبي السرى الذى الفه للخليفة العباسي هارون الرشيد وسماه « ربيعة وعقيل » وقد أثنى ابن حزم على ذلك الكتاب ووصفه بأنه من أملح وأطرف ما صنف ، وأنه ضم مختارات بديعه من شعر حسان المذكور(٣) .

وهكذا يتضح أن الأندلسيين بلغوا شأواً رفيعاً في حقل الأدب وانهم لم يكونوا فيه بأقصر باعاً عن أندادهم من أهل المشرق ، فان العديد من مصنفاتهم الادبية لا تزال حتى يومنا تحتل منزلة طيبة في قلوب أهل العلم وخاصة ذوي الأدب منهم .

---

(١) المصدر السابق ، ص٣ـ ٤ .

(٢) ابن الابار : الحلة السيراء ، ج١ ، ص٢٠٢ ـ ابن خلدون : العبر ج٤ ، ص٣١٧ .

(٣) الحميدي : الجذوه ، ص٩١٦ .

ثانيا : الشعر

مكانة الشعر لدى الأندلسيين ـ أثر الطبيعة الأندلسية في الشعر ـ الشعراء في بلاط الخلافه ـ أبرز شعراء الأندلس : أحمد بن عبد ربه ـ يوسف بن هارون الرمادي ـ ابن هانيء الاندلسي ـ احمد بن دراج القسطلي ـ عبادة بن ماء السماء ـ احمد بن شهيد ـ مروان بن عبد الرحمن (الطليق) ـ أثر الخلفاء في ازدهار الشعر ـ تأليف المعاجم لأهل الشعر .

احتل الشعر لدى الأندلسيين مكانة عظيمة ، وأصبح يمثل تقريبا السمة الأدبية العامة لهم حتي روى أن مدينة شلب قل أن يرى أحد من أهلها من لا يقول شعرا ، ولا يتعانى الأدب ، ولو مر شخص بالحراث خلف فدانه وسألته الشعر لقرض في ساعته أي معنى يقترح عليه واى معنى يطلب منه(١) .

وقد كان للطبيعة الأندلسية أثر كبير في تألق الحركة الشعرية . وبروز الكثير من الشعراء الأندلسيين ، فقد اتصفت الأندلس بالطبيعة الساحره من مياه جارية ، وجبال خضراء ، وجنات تزهو بخضرة أشجارها ورونق أزهارها فرققت مشاعرهم ، وأزالت جفوتهم ، واثارت ملكاتهم الفكريه فاستغلوا أحاسيسهم العميقة وخيالاتهم الواسعه في وصف جمال الطبيعة والتغني بمفاتنها(٢) .

---

(١) القزويني : اثار البلاد ، ص٥٤١ ـ ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٥٧ ـ ٣٥٨ .
ـ ستانلي لين بول : العرب في اسبانيا ، ص١٣٨ ـ زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص٥٠٧ .
ـ شلب : بكسر اولها وسكون ثانيها . مدينة بغربي الأندلس وغرب قرطبه بينهما مسيرة عشرة ايام (ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٥٧) .
(٢) السيد عبد العزيز سالم : قرطبه حاضرة الخلافة ، ج٢ ، ص١٦٨ احمد هيكل : المرجع السابق ، ص٢١٦ .

وبرع الأندلسيون في فن الوصف ، وتصوير الطبيعة وجمالها الاخاذ ، فقد قدمت إلينا كتب الأدب الاندلسي ومصادره المختلفة ضروبا من الإبداع الشعرى في مجال الوصف تكاد تنطق بروعة التصوير وحلاوة الوصف ، ولعل من أعظم الكتب التي حفظت لنا نماذج رائعة من شعرهم . كتاب « التشبيهات » لابن الكتاني الأديب والطبيب الأندلسي الذى عاش في عصر الخلافة ، وقد تناول في كتابه الكثير من روائع الشعر الأندلسي في ميدان الوصف والتشبيه ، واورد في ذلك للكثير من شعراء الأندلس كابن عبد ربه(١) . ويوسف بن هارون الرمادى ، وعباده بن ماء السماء الذى يتجلي في أشعارهم عمق تأثير البيئة الاندلسية .

وعليه فإن البيئة الأندلسية كانت ذات تأثير بالغ في تشكيل اشعار الأندلسيين وتلوينها بما يناسب من ألوان الطبيعة الجميلة التي تشد أذهانهم وتثير أحاسيس الجمال عندهم .

ويلاحظ الدارس للشعر الأندلسي أن للأندلسيين من خلال أشعارهم أخيلة ذهنية ولعبا بالمعانى يكاد أن يتصفوا به وحدهم . وقد يتفوقون في ذلك على المشارقة ، اذ ولعوا بذلك ولعا شديدا . فلم يقلدوا المتنبي في قوة معانيه وروائع حكمه وقوة شاعريته بل أخذوا اسلوبه . وحاكوا فخامة تعبيراته وعمق خيالاته كما فعل شاعرهم ابن هاني(٢) .

وأبدع الأندلسيون في مجالات الشعر المختلفة وأثروا ميدان الشعر بالكثير من اشعارهم البديعة ، وقد وصفها البارون فون شاك بقوله : (إن

---

(١) للاستزاده عن مدى تأثير الطبيعة في الشعر الأندلسي . انظر : سعد اسماعيل شلبي : البيئة الأندلسية واثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف ، ص٦٧ ـ ٢١٨ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج٣ ، ص١٠٥ ـ ١٠٦ ـ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص٣٠٠ .

أشعار الأندلسيين تمتاز بصفة عامة ـ بجزالة الالفاظ ، وجمال رنينها ، وابداع الاخيله ، وبعد مداها ..)(١)

وكان لعصر الخلافة بما اتسمت به الأندلس من ازدهار كبير في ميادين الحضارة ، وما نعمت به من رخاء واستقرار ، وما تميزت به الخلافة من هيبة وسلطان أثر في انصراف الكثير من الشعراء نحو تصوير تلك المظاهر ، وعندما وفد رسل ملك الروم إلى قرطبه سنة ٣٣٦هـ أنشد منذر بن سعيد قصيدة طويلة ضمنها الاشاده بالخليفة عبد الرحمن الناصر وما اتسم به من قوة ونفوذ ، ويقول فيها :

ترى الناس افواجا يؤمون بابه ... وكلهم ما بين راج وآمل

وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس او رجاء لنائل(٢)

ويفيدنا ابن حيان بالكثير من المعلومات عن المواقف التي ارتبطت بالخلافة والتي نظم الشعراء في وصفها أشعاراً بديعه ، فمن هذه المواقف وصف الأعياد والاحتفالات ، ومما يرويه في هذا الصدد ما قيل بمناسبة عيد الفطر (٣٦٠هـ/٩٧٠م) ، فيقول : (وظلت الخطباء والشعراء في هذا الحفل تناغي فيما ترتجل من خطبها وتنشد من أشعارها فتكثر وتجيد)(٣) .

وفي بداية عصر الخلافة توصل الكثير من الشعراء إلى درجات رفيعه في بلاط الخلافه ، فكان بلاط الخليفة عبد الرحمن الناصر يضم عددا من الشعراء المبدعين ، وكان في مقدمة هؤلاء ابن عبد ربه ، واسماعيل بن بدر ، وعبد الملك ابن سعيد المرادى ، والشاعر المشرقي طاهر بن محمد المهند ، ومحمد بن حسين الطبني(٤) .

---

(١) انخل بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص٤٦ .
(٢) المقري : النفح ، ج١ ، ص٣٧٣ .
(٣) المقتبس : تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص٣١ .
(٤) ابن حيان : المقتبس ، ج٥ ، ص٤٠ .

ونظرا لكثرة الشعراء الذين حفل بهم عصر الخلافة فسوف نقتصر على أبرزهـم والمبدعين منهم . وفي مقدمـة هـؤلاء يأتي الأديب الشاعر أحمد بن عبد ربه ـ (٢٤٦هـ ـ ٣٢٨ هـ/ ٨٦٠م ـ ٩٣٩م) والذى كان يتمتع بموهبة رفيعة في الشعر ، وقد أتاح له ذلك مكانة عالية لدى الأمراء والخلفاء ، وكان لعامل السن وما تتسم به مراحله المختلفة من انطلاق أو تنسك أثر في انقسام شعره إلى قسمين : قسم قرضه وهو في ريعان الشباب ، واتسم شعره في هذه المرحلة بالانطلاق في قول الشعر من غير التزام أو تحفظ ، وقسم قرضه في سن الشيخوخه عندما أدركه الندم وتطلع للتوبه والتكفير عن معاصيه ، فكان شعره في هذه المرحله يتصف بالزهد والنسك وسماه المحصات[١] .

ولابن عبد ربه شعر كثير . فمنه أرجوزة في سيرة الخليفة عبد الرحمن الناصر وحروبه وما تهيىء له من النصر في المواقع الحربيه مع أعدائه ، واول تلك الارجوزة :

سبحان من لـم تحوزه أقطار ولـم تكـن تدركـه الأبصـار[٢]

ولا شك أن أرجوزته تلك لها من الفائدة العلمية أكثر مما لها من الفائدة الأدبية ، فإنها تفيدنا في معرفة سيرة الخليفة السياسية والعسكرية ومواقفه مع النصارى وغيرهم ، فهى بالتالي أكثر نفعا في مضمونها في مجال التاريخ أكثر من الأدب .

ونظرا لما تمتع به ابن عبد ربه من ثقافة واسعة فقد كان أبرز ما في شعره أنه مرآة لثقافته وسعة اطلاعه على ضروب من المعرفة كالفقه وميدان الأمثال وهو ماينم عنه شعره الذى يحفل به كتابه العقـد[٣] .

---

(١) احسان عباس : المرجع السابق ، ص١٩٥ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٢ ، ص٣٦٣ ـ ٣٦٤ .

(٣) احسان عباس : المرجع السابق ، ص١٩٩ ـ ٢٠٠ .

ولم تكن سمعة ابن عبد ربه في خارج وطنه بأقل شهرة منها في داخل وطنه ، فقد نال سمعة حسنه بين اهل المشرق ، فيذكر أن أحد علماء الأندلس في أثناء عودته من الحج ومروره بمصر التقى بالشاعر المشرقي المتنبي وذلك في مسجد عمرو بن العاص فتجاذبا أطراف الحديث حتى قال المتنبي : أنشدني لمليح الأندلس – يعني ابن عبد ربه – فأنشده أبياتا من شعره طرب لها المتنبي وطلب إعادتها ثم صفق بيديه وقال : ياابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا(١) .

ونظرا لما اتسم به شعر ابن عبد ربه من جزالة وعذوبه فقد كان الحكم قبل خلافته حريصا على الاستماع إلى شعره فجمع له ابن عبد ربه قسما كبيرا من شعره . وذكر الحميدى انه رأى منه ما يربو على عشرين جزءا(٢) .

وبرز من شعراء تلك الفترة يوسف بن هارون الرمادى الكندى (ت٤٠٣هـ/١٠١٢م) وقد سمي بالرمادي نسبة إلى موضع بالمغرب اسمه رماده كان أحد أبائه منها ، ووصف هذا الشاعر بجودة الشعر ، وسرعة بديهته في قوله . وغزارة ماقاله منه ، لذلك كان مشهورا لدى الخاصة والعامة بالمهارة في الشعر ، ورسوخ قدمه في فنونه المختلفة حتى وصفه ادباء عصره بقولهم (فتح الشعر بكندة وختم بكنده ، يعنون امرأ القيس والمتنبي . ويوسف بن هارون)(٣)

---

(١) المقرى : النفح ، ج٣ ، ص٥٦٥ – ياقوت الحموى : معجم الادباء ، ج٢ ، ص٢٢٢ – ٢٢٣ .

(٢) جذوة المقتبس ، ص١٠١ .

(٣) الحميدى : الجذوة ، ص٣٦٩ – ٣٧٠ – الضبي : البغية : ص٤٩٣ – ٤٩٤ – ابن بشكوال : الصلة ،ج٢ ، ص٦٧٤ – ابن سعيد : المغرب ، ج١ ، ص٣٩٢ – ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٧ ، ص٢٢٥ – ٢٢٦ – المقرى : النفح ، ج٤ ، ص٣٥ – ٣٦ – ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٣ ، ص١٧٠ – ١٧١ – احمد هيكل : الادب الاندلسي ، ص٢٨٧ – ٢٨٨ – السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج٢ ، ص١٧٣ – ١٧٤ .

وفي هذا النص دلالة كبيرة على منزلة يوسف الشعرية وأنه بلغ درجة رفيعة بين شعراء عصره ، فقد وصف شعره بالجوده وأنه في طبقة شعراء الأندلس المعدودين ، وفي مقدمة الحكم المستنصر(١) .

ولما قدم الأديب أبو علي القالي الأندلس كان الشاعر الرمادي في مقدمة مستقبليه والمرحبين به ، ومدحه بقصيدة طويلة منها .

فالشرق خال بعـــده وكأنما نزل الخـراب بربعـه المأهـول

فكأنه شمس بدت في غربنـا وتغيبت عن شرقهم بأفـول(٢)

وقد طال عمره فبلغ نحو قرن من الزمان وكان له أثر في غزارة ما خلفه من شعره ، وتظهر براعة الرمادى في أنه طرق أغراضا جديدة من الشعر كشعره في الطيران . ومن المؤسف أنه رغم غزارة شعره لم يصلنا ديوانه الشعرى ، وما وصلنا من شعره نجده متفرقا في كتب الأدب(٣) .

وكـان الرمادى يخرج في شعره بعض الأحيان عن مبدأ التحفظ والالتزام ـ الخلقي مما كان له اثر في تعقب الشرطه له حتى قبضت عليه وعلى أصحابه ممن كانوا يجارونه في هجاء الناس ونشر مثالبهم(٤) .

وفي السجن كان يستشفع إلى الخليفة الحكم المستنصر في اطلاقه بما كان يقرضه من قصائد المدح وطلب العفو ، ثم اتجه في عزلته إلى قول الشعر في أوصاف الطيران حتى ألف في ذلك كتابا كبيرا سماه « كتاب الطير » ، وصف فيه كل طائر وما تميز به من خواص ، وكانت كل قطعة شعرية يذيلها

(١) المراكشي : المعجب ، ص٦٩ ـ ٧٠ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ، ج٣ ، ص٧٥ ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج٧ ، ص٢٢٦ .

(٣) احمد هيكل : المرجع السابق ، ص٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

(٤) انظر عن هذه الحادثه في ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص٧٤ ـ ٧٥ .

بمدح هشام بن الحكم ليشفع له عند أبيه في اطلاقه ، وقد وصف كتابه المذكور بالجودة والملاحة(١) .

وفي عصر الخلافة تألق الشاعر محمد بن هانىء الأزدي (ولد سنة ٣٢٦هـ/٩٣٧م) بمدينة أشبيلية ، وأصله من بنى المهلب الذين حكموا بعض أجزاء بلاد المغرب ، وانتقل والده منها إلى الأندلس ، وكان منذ صباه يهوى الشعر حتى اشتهر ذلك عنه ، وفي بداية شهرته الشعرية قصد صاحب أشبيلية جعفر بن علي فوجد قصره حافلا بأعيان الشعراء . وهناك تمكن من إلقاء قصيدته الرائعة التي كانت بداية انطلاقه في ميدان الشهرة ، ومطلعها :

أليلتنا اذ أرسلت واردا وحفا ... وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا

حتى إذا بلغ قوله :

كَأنَّ لِوَاء الشمس غرة جعفر ... رأى القِرْنَ فازدادت طلاقته ضعفا

لم يتمالك جعفر نفسه فقام إليه مرحبا به ، وأوسع له في العطاء وأنزله منزلة كريمة بين شعرائه(٢) .

ونظرا لما نسب إلى ابن هانىء من اشعار تقدح في العقيدة فقد اسخط الناس عليه ، واستغل خصومه ومنافسوه من الشعراء ذلك فألبوا الناس ضده واتهموه بالإلحاد والخروج على الدين بأشعاره ، فأوعز إليه حاكم اشبيليه بالخروج عن المدينة . فخرج منها نحو المغرب لينزل ضيفا على الفاطميين الذين

---

(١) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص٣٦٩ ـ ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

(٢) ابن سعيد : المغرب ، ج٢ ، ص٩٧ ـ ٩٨ ـ ابن الخطيب : الاحاطه ، ج٢ ، ص٢٨٩ ـ ٢٩٠ ـ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهره ، ج٤ ، ص٦٧ ـ ٦٨ ـ الصفدى : الوافي ، ج٤ ، ص٤٢١ ـ اغاطيوس كراتشكوفسكي : الشعر العربي في الاندلس ، ص٣٢ ـ محمد كرو : ابن هاني الاندلسي ، ص١٢ ـ ١٣ ـ احمد هيكل : المرجع السابق ، ص٢٣٧ .

رأوا فيه داعية لمذهبهم . فرحب به المعز لدين الله الفاطمي وجعله شاعر بلاطه(١) .

ووصف ابن هانيء بكثرة الشعر وجودته . وأنه سار على منهج المتنبي ، فتعمد القوة في أفكاره وأوزانه وألفاظه ، وأمعن في المغالاة حتى إذا مدح شخصا جعله أفضل الناس وأكملهم ، غير أنه يلاحظ على شعره قعقعة الالفاظ(٢) .

والحق أن هذا الشاعر أبدع في الشعر وبرع فيه لدرجة جعلت الكثير من الأدباء يصفونه بأنه لم ينبغ بأنه في شعراء الأندلس مثله ، وأنه كان عند أهل الأندلس في منزلة المتني عند أهل المشرق(٣) .

إلا أن ما يؤخذ على ابن هانيء مغالاته الشديدة التي يخرج بها عن الدين والالتزام بتعاليمه . فقد تكلم ابن كثير عن شعره ومغالات في الوصف وأنه من أكبر الكفر وخاصة قصيدته في مدح المعز الفاطمي التي أولها .

ماشئت لا ما شاءت الأقدار .....(٤)

وفي عهد الحاجب المنصور بن ابي عامر ظهر الشاعر أحمد بن دراج القسطلي (٣٤٧هـ ـ ٤٢١هـ/٩٥٨م ـ ١٠٣٠م) الذى ينتسب إلى موضع في الأندلس يعرف بقسطلة دراج ، وكان من المتضلعين في الأدب ككاتب إنشاء ماه ، وفي الشعر كشاعر بارع فهو (معدود في جملة العلماء والمقدمين من الشعراء والمذكورين من البلغاء ، وشعره مجموع يدل على علمه)(٥) .

---

(١) احمد الهاشمي : جواهر الأدب ، ج٢ ، ص١٩٧ـ١٩٨ ـ احمد امين : ظهر الإسلام ، ج٣، ص١٣٥ .

(٢) الحميدى : الجذوه ، ص٩٦ ـ محمد كرو : المرجع السابق ، ١٥ ـ ١٦ ـ حنا الفاخورى : المرجع السابق ، ص٨٣٠ .

(٣) احمد الهاشمي : جواهر الادب ، ج٢ ، ص١٩٨ .

(٤) البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٢٧٤ .

(٥) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص١١٠ ـ ١١١ .

ويعتبر ابن دراج القسطلي من ألمع من أخرجته الأندلس من الشعراء إن لم يكن ألمعهم . ولا نعرف شيئا كثيراً عن نشأته الأولى . إلا أنه يبدو أنه أخذ علومه على شيوخ عصره شأنه شأن غيره من أهل العلم ، وعندما شعر بقدرته على قول الشعر ومهارته في طرق فنونه المختلفة اتصل بالحاجب المنصور ووقف بين يديه لينشده قصيدته التي يمدحه فيها ومطلعها :

اضـاء لهـا فجـرالنهى فنهاهـا عن الدنف المضني بِحَرٍّ هواها(٢)

ولم يكن المنصور وجلساؤه يعرفون عن صاحبها أى شيء فاتهموه في نسبتها إليه ، وكان بلاط المنصور يعج بالشعراء المتنافسين على الصدارة فيه فخشوا أن يأتي من يزيحهم أو يزاحمهم الجاه والمنزلة لدى المنصور ، فسعوا به إليه ووصفوه بالانتحال والسرقة ، ولكن المنصور كان أكثر حكمة فعرض أن يختبر ابن دراج في الشعر فإن نجح قربه وأكرمه وإن كان غير ذلك اقصاه .

واستطاع ابن دراج أن يفوز في اختبار المنصور له ، وأن يتبوأ مكانة عالية بين شعراء بلاطه ، فقد أثبته في ديوان الشعراء . ولم يزل ابن دراج منذ ذلك الوقت في علو ورفعه حتى بَزَّ غيره من الشعراء . ووصف بانه لم يكن بالأندلس مثله في الشعر(٣) .

ولو تصفحنا ديوان ابن دراج وأمعنا النظر في قصائده للمسنا ما كان عليه من بلاغة شعرية ، بالإضافة إلى ما يلاحظ من سعة ثقافته الأدبية

---

(١) ابن دراج : ديوان بن دراج ، تحقيق محمود مكي ، ص٨ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص١١٠ ــ ١١١ ــ ١١٢ ــ الضبي البغية ، ص١٥٨ ــ ١٥٩ ــ ١٦٠ ــ ابن بشكوال : الصلة ، ج١ ، ص ٤٠ ــ الصفدى : المصدر السابق ، ج٨ ، ص٤٩ ــ الحميرى : الروض ــ المعطار ، ص١٦٠ ــ ابن العماد : شذرات الذهب ج٣ ،ص٢١٧ ــ احمد امين : المرجع السابق ، ج٣ ، ص١٣٠ ــ ١٣١ ــ السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٧٢ .

والتاريخية ، فمما يلفت النظر في شعره معارفه التاريخية وعلمه بالأنساب ، فهو يمدنا في الكثير من قصائده باسماء الملوك الماضين ، والأقوام الغابره ، ومسميات عن أماكن تاريخية لا يعرفها الا من درس التاريخ وعني بدراسة شخصياته البارزة ، ومن قصائده التي تتضمن هذه الإشارات التاريخية قصيدته التي مطلعها :

منكم إليكم مساعي المجد تنصرف ونحوكم عنكم الآمال تنعطف

وكذلك قصيدته التي مطلعها :

بشراك من طول الترحل والسرى صبح بروح السفر لاح فاسفرا(١)

وظل ابن دراج في بلاط المنصور يساير ركابه في سلمه وحربه ، فأمدنا بغرر من قصائده في غزوات المنصور وغير ذلك من الاحداث ، ثم استمر في مكانته الرفيعة في عهد ابنه المظفر عبد الملك ، ولما زال نفوذ العامريين اتصل بالبقية من أمراء الدولة الأموية ، ثم رحل إلى بلنسيه ، ثم إلى سرقسطه ، لينزل على يحيي بن المنذر الذى اكرمه هو وابنه المنذر من بعده ، ثم لم يلبث أن رحل إلى دانيه ليمدح أميرها مجاهد العامرى وظل هناك حتى وافته المنية(٢) .

وكانت شهرته الشعرية قد بلغت أهل المشرق فاعجبوا به ووصفه احدهم وهو الاديب ابو منصور الثعالبي بإنه بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام ، وأنه أحد فحول الشعراء ، وممن أجاد في النظم وبرع فيه(٣) .

وأثنى عليه ابن بسام ووصفه وصفا ينم عن منزلته وقدره الأدبي الرفيع ، فقال فيه (أحد من تضاطت الآفاق عن جلالة قدره . وكانت الشام والعراق ادنى خطى ذكره)(٤) .

---

(١) انظر ديوان ابن دراج ص٣٠٢ و ص١٠٢ .
(٢) ديوان ابن دراج : تحقيق محمود مكي ، ص٥٨ ـ ٥٩ .
(٣) يتيمة الدهر ، ج٢ ، ص١٠٤ .
(٤) الذخيرة : القسم الأول ، ج١ ، ص٤٤ ـ ٤٥ .

وأشاد به ابن حزم في رسالته التي وضعها عن فضل علماء الأندلس ، وأنه لو لم يكن لهم من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي لما قصر عن شأو بشار بن برد ، وحبيب (ابو تمام) ، والمتنبي[1] .

وبناء عليه فانه يتضح لنا مدى ما كان لهذا الشاعر من مكانة عظيمة بين شعراء الأندلس . وقد خلف ديوانا ضخما من القصائد الطوال ، والحق أن المدح غلب على ديوانه ، ويعتبر الموضوع الرئيسي الغالب على قصائده . و لعل من دواعي اكثاره من المدح ارتباط حياته ببلاط المنصور ثم بابنه عبد الملك وغيرهم من الحكام[2] .

والجدير بالذكر أن ديوان شعره لم تصبه يد الضياع كما ضاعت من قبل دواوين غيره من الشعراء فقد كان لجهود الباحثين أثر في التوصل إلى كشفه . فقد اطلع عليه حسين مؤنس عند محمد التطواني . وحصل على نسخة منه ، حيث اهداها إلى محمود مكي الذى تناوله بالدراسة والتحقيق فاخرجه في حلة قشيبه أضافت إلى تراثنا الأدبي الإسلامي صفحة مضيئة تشهد بروعة الأدب الأندلسي وبلاغة أهله .

ومن شعراء بلاط المنصور الشاعر بن عبد الله بن ماء السماء (ت٤١٩هـ/١٠٢٨م) الذى كان من فحول الشعراء وكبارهم ، ومن المقدمين في ديوان الشعراء . وقد وصف بالبراعة في نظم الشعر ، والتصرف في فنونه ، ونسب اليه الارتقاء بصناعة التوشيح حتى (كأنها لم تسمع بالأندلس الا منه ولا أخذت الا عنه ، واشتهر بها اشتهارا غلب على ذاته وذهب بكثير من حسناته)[3] .

(١) المقرى : نفح الطيب ، ج٣ ، ص١٧٨ .

(٢) احمد هيكل : الأدب الاندلسي ، ص٣١٢ .

(٣١) ابن بسام : الذخيرة . القسم الأول ، ج٢ ، ص١ ـ ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٤٥٠ .

وعرف عن عباده براعته في الوصف ، وقد أورد له المؤرخون والأدباء الكثير من الأمثلة الدالة على تضلعه في ذلك وقدرته الكبيرة فيما يطرق من فنون الشعر(١٢) .

وفي أواخر عصر الخلافة برز بعض الشعراء . كالعلامة على بن أحمد بن حزم الذى قال فيه صديقه الحميدى (كان له في الأدب والشعر نفس واسع ، وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير وقد جمعناه على حروف المعجم)(٢) .

واشعار ابن حزم متفرقة في كتب الأدب والتاريخ ، وخاصة في كتابه طرق الحمامه الذى سبق القول إليه . كما أن لابن حزم قصيدة شعرية رائعة في الرد على نقفور ملك الروم الذى أرسل قصيدة طويلة للخليفة العباسي يتهدده ويتوعده بخراب ديار الإسلام وانه سوف يملكها ، فتصدى له شعراء كثيرون من بينهم ابن حزم . وقد أورد هذه القصيدة السبكي في طبقات الشافعية . وابن كثير في البداية والنهاية(٣) .

كما أن أحمد بن شهيد كان له مشاركة في قول الشعر بالرغم من تفوقه في النثر الذى غلب شخصيته الأدبية . أما عن انتاجه الشعرى فلم يجمع في حياته ولم يؤثر عنه ديوان من دواوين الشعر ، ولذلك بقيت أشعاره مبثوثه في كتب الأدب والتاريخ الأندلسيه وكتب الأدب المشرقية كاليتيمة للثعالبي .

---

(١) انظر في هذا الصدد : الحميدى ، الجذوه ، ص٢٩٣ ـ ٢٩٤ والكتاني . التشبيهات ، ج١ ، ص١٩ ، ج٢ ، ص٢٢٠ .

(٢) الجذوه ، ص٣٠٩ .

(٣) طبقات الشافعية ، ج٣ ، ص٢١٤ ـ ٢٢٢ ـ البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٢٤٧ ـ ٢٥٢ .

وقد تمكن المستشرق الفرنسي « شارل بلا « من أن يجمع قدرا لا بأس به من شعره يقع في ثمانمائة وثلاثة وأربعين بيتا ، وقدمه في ديوان وصدره بدراسة جيده(١) .

ومهر الكثير من خلفاء وأمراء بني أمية في الشعر ، فقد تناول ابن الأبار في كتابه (الحلة السيراء) من برع في الشعر وكان لهم به عناية ، وأورد لهم الكثير مما قرضوه .

وأكثر من اشتهر بقول الشعر من الخلفاء من بني أميه في الاندلس ، الخليفة المستعين الذى وصف بالادب ، والفصاحة في قول الشعر ، وأن له انتاجاً بديعاً فيه(٢) .

ومن المشهورين بقول الشعر من أمراء بني أميه في الأندلس مروان بن عبد الرحمن المعروف ب « الطليق » الذى وصف بالبراعة في الشعر ومهارته في فنونه المختلفة . وقد شبهه ابن حزم في ملاحة شعره وحسن تشبيهه بابن المعتز العباسي . وكان قد سجن لاقدامه على قتل أبيه فمكث في السجن ستة عشر عاما ثم اطلق في عهد الحاجب المنصور ، وفي سجنه هذا قال اكثر شعره(٣) .

وكان للنساء مشاركة كبيرة في ازدهار الشعر ، فقد برز منهن شاعرات مجيدات ، كالاديبة صفية بنت عبد الله الربيعي (ت٣١٧هـ) التي وصفت بالنباهة في الأدب والبراعة في قول الشعر(٤) .

---

(١) سامي العاني : المرجع السابق ، ص٢٢٤ ـ ٢٢٥ .
(٢) ابن الابار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص٨ ـ ٩ .
(٣) الحميدي : الجذوة ، ص٣٤٢ ـ ٣٤٣ ـ ابن الابار : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٢٠ ـ ٢٢١
(٤) الحميدى : الجذوه ، ص٤١٣ .

كما اشتهرت من بينهن الشاعرة الغسانية التي كانت تمدح الملوك . وكانت من بجانة كما ذكر أن لها قصيدة طويلة تمدح فيها خيران العامرى ، وتعارض بها قصيدة ابن دراج التي مدح بها الامير المذكور وأولها :

لك الخير قد أوفى بعهدك خيران   وبشراك قد آواك عز وسلطان

ومطلع قصيدتها :

أتجزع أن قالوا ستظعن أظعان   وكيف تطيق الصبر ويحك إن بانوا(١)

وقد أفرد مصطفى الشكعة في كتابه عن الأدب الأندلسي بابا عن شاعرات الأندلس ، وقد يكون أشهرهن في باب الشعر ولادة بنت المستكفي التي عاشت أكثر عمرها في عصر ملوك الطوائف .

والحق أن من عوامل ازدهار الحركة الأدبية ومنها ميدان الشعر يعود إلى عوامل من اهمها ما بذله الخلفاء من جهود وفي مقدمتهم الخليفة الحكم المستنصر ، وقد سبقت الاشارة إلى ما ذكره الحميدى من أنه رأى أجزاء كثيرة من شعر ابن عبد ربه الذى جمعه للحكم المستنصر .

كما أنه بتشجيع من الخليفة الحكم المستنصر ألف الأديب أبو عمر احمد ابن فرج الجيانى كتابا في الشعر أسماه « الحدائق (عارض فيه كتاب الزهره لأبي بكر محمد بن داوود الاصبهاني ، إلا أن أبا بكر إنما ذكر مائة باب في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر اورد مائتي باب . في كل باب مائتي بيت ليس فيها باب تكرر اسمه لأبي بكر ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئا)(٢) .

ولعل في هذا المنهج الذى سار عليه ابن فرج دليل علي ماتمتع به شعراء الأندلس وأدباؤها من علم واسع بالأدب وقدرة كبيرة على اثبات شخصيتهم العلمية في ميدان المعرفة ، ومناهج التأليف ، ومن المؤسف أن ذلك الكتاب لم يصلنا .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص٦٩٦ ــ المقرى : النفح ، ج٤ ، ص١٧٠ .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص١٠٤ ــ ١٠٥ .

ومن دلائل اهتمام الحكم المستنصر بالحركة الشعرية ورغبته في ازدهارها ما ذكر أنه عزم على الغزو سنة (٣٥٢هـ/٩٦٣م ، وكان يحرص على اصطحاب العلماء والشعراء حتى في حروبه ، ولكن حدث أن أحدهم وهو عبد الله بن مغيث اعتذر عن صحبه الخليفة في تلك الغزوة لضعف جسمه ، ولكن الحكم أراد أن يعوض تخلف الأديب عن صحبته بما يرضى شغفه العلمى فعرض عليه مقابل تخلفه أن يؤلف كتابا في أشعار خلفاء بنى أميه كما ألف الصولى ـ الأديب المشرقي ـ كتابا في أشعار خلفاء بنى العباس ، فابدى ذلك الأديب قبوله ، وعرض عليه الخليفة تأليف الكتاب في منزلة او بدار الملك ، فاختار دار الملك ، وفي أثناء عودة الخليفة من الغزو تلقاه أحد أتباعه بمؤلف ابن مغيث في أشعار خلفاء بنى اميه ، فسربه الخليفة الحكم وزاد في إعلاء منزلته وأوسع له في العطاء(١) .

وسار الحاجب المنصور على خطى الحكم المستنصر في تشجيع الأدب ، ففي ميدان الشعر أظهر إهتماما كبيرا وادخل على الحركة الشعرية في بلاطه نظاما جديدا ، فقد وضع ديوانا يضم أسماء الشعراء ، وينزلهم فيه حسب مراتبهم في الشعـــــر .

وكانت الصلات والأعطيات المرسومه لهم حسب مراتبهم المذكورة ، وقد أوكل أمر هذا الديوان والاشراف عليه إلى الأديب عبد الله بن محمد بن سلمه . وكان على جانب كبير من الأدب ومعرفة الشعر وفنونه ، فكانت على يديه تخرج عطايا الشعراء ، وبنظره ينزلون منازلهم المختلفة(٢) .

وقد مر معنا كيف أن المنصور اختبر الشاعر ابن دراج القسطلي وعندما اثبت نجاحه ومقدرته الشعرية ضمَّهُ إلى ديوان الشعراء .

---

(١) الحميدى : نفس المصدر ، ص٣٥٢ ـ ٣٥٣ ـ احسان عباس : المرجع السابق ، ص٦٩.

(٢) الحميدى : الجذوه ، ص٧٨ ـ المراكشي : المعجب ، ص٦٠ ـ احسان عباس : المرجع السابق ، ص٧٥ ـ اغناطيوس كراتشكوفسكي : المرجع السابق ، ص٣٣ .

كما أن من دلائل اهتمام المنصور بالشعر وازدهاره ، حرصه الشديد على مصاحبة الأدباء والشعراء له في سلمه وحربه ، فكان حريصا على أن يرافقوه ـ ويسيروا معه أينما حل وارتحل(١) .

ويشير غرسيه غومس إلى أن الأندلسيين قد نظموا الشعر في كل فن وباب من الزهديات والتاريخيات إلى النوريات التي أكثر الناس في عصر الحاجب المنصور(٢) .

وهكذا نرى أن الخليفة الحكم ومن بعده المنصور بن أبي عامر كان لهما أثر كبير في ازدهار الحركة الشعرية ، وما ادى إليه ذلك من بروز أعداد هائلة من الشعراء الذين لا يقل البعض منهم مقدرة وبراعة عن أشهر شعراء المشرق .

وبناء عليه (لم يصل الشعر الاندلسي إلى أوجه الكامل وسمته الجمالي إلا في القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادي الذى يقترن بقيادة الخلافة الأموية الأندلسية (٣١٧هـ/٩٢٩م)(٣) .

ونتيجة للأعداد الهائلة من الشعراء الذين ظهروا في الأندلس فقد اؤلفت معاجم كثيرة تضم تراجمهم . وممن صنف في ذلك الأديب محمد بن هشام المرواني (ت٠ ٣٤٠هـ/٩٥١م) حيث الف كتابا في اخبار شعراء الاندلس ، كذلك الف اسماعيل بن محمد الاشبيلي (ت٠ ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) كتابا جمع فيه اشعار أهل الأندلس سماه كتاب « البديع في وصف الربيع » ، وألف علي بن عبد المحسن الفتوحي (ت٣٨٤هـ/٩٩٤م) مؤلفا في تراجم الشعراء واللغويين عنوانه « المستجاد من فعلات الاجواد(٤) .

---

(١) على ادهم : المنصور بن ابي عامر ، ص١٧٨ ـ احمد امين : ظهر الإسلام ، ج٣ ، ص١٥٦ ـ ستانلي لين بول : قصة العرب في اسبانيا ، ص١٥٢ .

(٢) الشعر الاندلسي ، ص٣٨ .

(٣) غرسيه غومس : الشعر الاندلسي ، ص٣٤ وما اشال إليه غرسيه غومس اعلاه من ان قيام الخلافة الاموية في الاندلس سنة ٣١٧هـ مخالف لما اوردته الكتب التاريخية من ان ذلك كان سنة ٣١٦هـ .

(٤) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

بل إن مما يؤكد براعة الأندلسيين في الشعر ما صنفه الاديب قاسم ابن نصير (ت٣٣٨هـ/٩٤٩م) فقد صنف كتابا في تراجم من برع من الفقهاء في نظم الشعر(١) .

وأخيرا فإن عصر الخلافة قد أنجب فئة من الشعراء شهد لهم الأدباء من معاصريهم ومن أتى بعدهم بالبراعة في الشعر والتصرف في فنونه ، فابن عبد ربه قد شهد له المتنبي بالمهارة في قول الشعر وجودة ما يقوله منه ، وكفى ابن عبد ربه فخرا أن يشهد له شاعر المشرق الأكبر . كما أن يوسف بن هارون وصفه الأدباء بانه والمتنبى ختم بهما الشعر .

وأن ابن دراج كان بالاندلس كالمتنبي بالمشرق ، وهذا بلا شك دليل كبير على تفوق الاندلسيين وعلى ما بلغوه من درجة رفيعة ومكانة سامية في قرض الشعر .

---

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ج١ ، ص٣٦٤ .

النحو وعلوم اللغة

عناية الأندلسيين بالنحو ـ بداية الاشتغال به ـ مكانة النحاه واللغويين في المجتمع الاندلسي ـ تأثر الاندلسيين بالمناهج التعليمية المشرقية في النحو ـ أبرز النحاه واللغويين : ابو علي القالي ـ ابن القوطية ـ محمد بن الحسن الزبيدى ـ أحمد بن ابان ـ ابن سيده الاعمى وانتاجه العلمى في اللغه .

ب ـ النحو وعلوم اللغة :

من الطبيعي وقد أثبت الأندلسيون قدراتهم الواسعة في ميادين المعرفة أن يمتد نشاطهم العلمي إلى حقل الدراسات النحوية واللغوية ، فقد انصرف الكثير من علماء الأندلس إلى البحث والنظر في هذه العلوم ، وذلك لارتباطها الشديد بعلوم كثيرة كعلوم القرآن والدين بوجه عام .

وكان الأندلسيون يحرصون علي استقامة الفاظهم ، وصحة كلامهم وخلوه من اللحن ، ولهذا نجد أن علم النحو عندهم كان في درجة رفيعة ، ومن العلوم القيمة لديهم ، فاهتموا به وسعوا إلى دراسته وحفظ قواعده (وكل عالم في أي علم لا يكون متمكنًا من علم النحو ، بحيث لا تخفي عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الازدراء)(١) .

وفي بداية اشتغال الاندلسيين بالنحو كانوا يعتمدون على قراءة كتب الأدب والنصوص الأدبية دون استعمال كتب النحو . ثم قادهم ذلك إلى التوسع في دراسته فتناولوا كتب النحو وعكفوا علي دراستها . وأول ما ذاع بينهم كتابي الكسائى (ت١٨٨هـ/٨٠٤م) وسيبويه (ت١٧٧هـ/٧٩٣م) ثم لم يلبث

---

(١) المقرى : النفح ، ج١ ، ص٢٢١ .

بعضهم ان اتجه إلى تأليف كتاب في ذلك . مثل جودي بن عثمان (ت١٩٨هـ/٨١٣م) والذى نسب إليه انه أول من أدخل إلى الأندلس كتاب الكسائى(١) . وكان جودي قد رحل في طلب العلم إلى المشرق ، والتقى هناك بكبار علماء النحو كالرياشي والفراء ، والكسائي(٢) .

ويتبين لنا من أثر الرحلات العلمية في ازدهار حركة الدراسات النحوية واللغوية في الأندلس . وكيف ان ذلك دفع الاندلسيين إلى طرق ميدان الدراسات النحوية واللغوية والنظر فيما وصل إلى ايديهم من انتاج أهل المشرق، فاستفادوا من ذلك كله . وتيسر لهم الانطلاق بعد ذلك في البحث والتأليف ، فلم تمر فترة وجيزة حتى نشطت حركة الدراسات النحوية واللغوية وأتت اكلها .

ففي القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى ، ظهر بعض علماء النحو الأندلسيين الذين كان لهم اهتمام بالغ بهذه العلوم . ومنهم العلامة مفرج بن مالك الذى عكف على دراسة كتاب الكسائى دراسة دقيقة فوضع له شرحا مفيدا في توضيح مسائل وشرح قواعده . كما أن معاصره أبا بكر بن خاطب

---

(١) آنخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص١٨٥ ـ الكسائى : على بن حمزه بن عبد الله الكوفي أخذ عن جماعة من اهل العلم ثم قدم بغداد ، فعينه الرشيد مؤدبا لا بنيه الامين والمأمون مات بالرى وخلف كتبا في النحو والقراءات . (ابن النديم : الفهرست ، ص٩٧ ـ ٩٨) .
سيبويه : عمرو بن عثمان مولى لبني الحارث أخذ النحو عن الخليل وبرع فيه فألف فيه كتابا اشتهر عنه . (ابن الندين : الفهرست ، ص٧٦ ـ ٧٧)

(٢) لطفي عبد البديع : الإسلام في اسبانيا ، ص٧٣ .
الرياشي : محمد بن سليمان من علماء اللغة والنحو كثير الرواية عن الاصمعى ، توفي سنة ٢٥٧هـ/٨٧٠م .(ابن النديم : الفهرست ص٨٦) .
الفراء : يحي بن زياد ، له كتاب معانى القرآن وكتب في النحو ، توفي (ت٢٥٧هـ/٨٢٢م) . (ابن النديم : الفهرست ، ص٩٩ ـ ١٠٠)

النحوى ألف كتابا في النحو قوبل بالكثير من الرضى والاستحسان من علماء النحو[١] .

ومما يجدر ذكره أن علماء النحو واللغة احتلوا مكانة سامية في بلاط الخلافة والمجتمع الاندلسي على السواء ، ذلك انه يعول عليهم في تأديب الناشئة ، وتعليمهم قواعد اللغة العربية والنطق بها نطقا سليما ، فقد اهتم الخلفاء والامراء بهذه الفئة من العلماء ، وحرصوا على تقريبهم ، والاعتماد عليهم في تنشئة أبنائهم نشأة علمية سليمة ، ولهذا يلاحظ عند الاطلاع على تراجم النحويين واللغويين اشتغال الكثير منهم بتأديب أبناء الخلفاء أو الامراء وغيرهم من أفراد المجتمع .

وعندما رحل النحوي الأندلسي محمد بن يحيي الرباحي إلى المشرق اطلع هناك على أساليب الدراسة ومناهج النحويين في التعليم ، وفي عودته إلى وطنه انجفل إليه الناس ليأخذوا عنه العلم ، ولم يكن في عهده عند مؤدبي العربية عناية كبيرة بالنحو ، وكان الاندلسيون يعانون صعوبات في طريقة التعليم والتأديب ، بالاضافة إلى عدم درايتهم بدقائق العربية فبين لهم الرباحي المناهج العلمية وطرق التأديب عند أهل المشرق ، ووجوب عنايتهم بالنحو ومعرفة مسائله[٢] وفي هذا إشارة إلى التطور التعليمي للأندلسيين واقتباسهم الوان التقدم العلمي والحضارى عن اخوانهم من أهل المشرق . ولا شك ان الحال لم تدم على هذه الصورة فقد استطاع الأندلسيون بعد ذلك أن يثبتوا قدراتهم الذاتية في ميدان النشاط العلمي بصوره المختلفة .

---

(١) شوقي ضيف : المدارس النحوية ، ص٢٨٩ .

(٢) الزبيدى : طبقات النحويين ، ص٣١٠ ـ ٣١١ .

ويلاحظ في دراسة النحو وعلوم اللغة ارتباطهما ببعض ، ولذلك فمن الصعب الفصل بينهما في دراستنا عن النشاط العلمي لتلك العلوم .

وعلى عادة الخلفاء في تشجيع النشاط العلمي وحث العلماء على البحث والتأليف فقد خصص الخليفة الحكم المستنصر جانبا من دار الملك لتكون اشبه بما يسمى في عصرنا بمركز البحوث والدراسات(١) ، وفي هذا المكان كان العلماء ـ والباحثون يجتمعون للبحث والدراسة والتأليف ، ومن هذه الاجتماعات العلمية ماذكر ان الحكم المستنصر دعا بعض العلماء وهم محمد بن ابي الحسين ، وأبو علي القالي ، وابني سيد ، وذلك لمقابلة كتاب العين للخليل بن احمد ، وأحضر من هذا الكتاب نسخا كثيرة من جملتها نسخة القاضي منذر بن سعيد التي رواها بمصر عن ابن ولاد . وقد انصرف هؤلاء العلماء إلى دراسة تلك النسخ ومعرفة وجوه الإختلاف بينها ، فلا حظوا أن نسخة منذر بن سعيد كانت اكثر خطأ فبينوا ذلك للخليفة ، ولما بلغ ذلك منذراً غضب ، وبعث بأبيات شعرية يغض فيها من علمهم ويسخر منهم ، مما دفع العلامة محمد بن ابي الحسين لأن يرد عليه بأبيات طويلة ضمنها سوء معرفته بكتاب العين ، ويثنى فيها على أبي علي القالي وسعة علمه(٢) .

---

(١) في هذا المكان من دار الملك ألف الاديب عبد الله بن مغيث كتابه في شعر خلفاء بنى اميه في الاندلس للخليفة الحكم المستنصر .(انظر باب الشعر) .

(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ، ص٥٠ ـ ٥١ ـ ٥٢ ـ الازدى : بدائع البدائه ، ص٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤ .

ـ الخليل بن أحمد بن عمر الفراهيدى الازدى ولد بالبصره سنة ١٠٠هـ/٧١٨م ، واشتغل بالعلوم وصنف الكثير من الكتب في اللغة ومنها كتاب العين ولم يتمه ، وكتاب النقط والشكل والنغم والشواهد وهو أول من وضع العروض ، توفي سنة ١٦٠هـ/٧٧٦م ، (ابن نباته : سرح العيون ، ص١٥٢) .

وظهر في عصر الخلافة أعداد كبيرة من علماء النحو واللغة ، وسوف نكتفي بالإشارة إلى أبرزهم . فيأتي في مقدمتهم الأديب اللغوى أبو علي القالي الذى وفد إلى الأندلس في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر . وكان من ضمن الكتب التي أدخلها الاندلس كتاب سيبويه في النحو . وقد نهج في تدريسه للنحو نهج البصريين ، وتبعه في ذلك تلميذه ابن الإفليلي الذى كان يقرى كتاب سيبويه ويدرسه لتلاميذه في جامع قرطبه(١) .

وكان لابي على مشاركة واسعة في نشاط علوم اللغة ، فكان بارعا فيها ، مجتهدا في دراستها فألف في ذلك كتابا مهماً اسماه (البارع في اللغه) ، والذى وصف بانه (في اللغات كلها وأنه زاد على كتاب الخليل بن أحمد نيفا واربعمائة ورقة ما وقع في العين مهملا فاملاه مستعملا ، ومما قلل فيه الخليل فاملى فيه زيادة كثيرة ، ومما جاء دون شاهد فأملي الشواهد ، وكان ابتداء أوله سنة تسع وثلاثين وكماله في شوال (٣٥٥هـ/٩٦٥م) ومات رحمة الله قبل ايعاب النسخة المرفوعة منه ، وقبل ان ينقحه فاستخرج من الصكوك والرقاع وخرج بخط فصيح في مائة واربعة وستين جزءا عدد اوراقها اربعة آلاف ورقة واربع مائة وست واربعون ورقة)(٢) .

كما ان القالي صنف في « المقصور والممدود » مما نال ثناء وتقدير علماء اللغة والنحو ، ووصفه ابن حزم بانه لم يؤلف مثله في بابه(٣) .

واكد القالي علو كعب وقدرته الفائقة في النحو بما أضافه من دراسات مهمة إلى تلك العلوم وإلى ما صنفه غيره من علماء اللغة ، فقد ألف للخليفة

---

(١) شوقي ضيف : المرجع السابق ، ص٢٨٩ ـ ٢٩٠ .
(٢) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه ، ص٣٥٥ .
(٣) المقرى : النفح ، ج٣ ، ص١٧١ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل علماء الاندلس) .



الحكم المستنصر كتاب « فعلت وأفعلت » وجعله ثلاثة أضعاف ما كان للزجاج النحوي المشرقي(١) .

ومن علماء النحو واللغة المشهورين في عصر الخلافة محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م) ، وهو من أهل قرطبة ، وكان من البارعين في النحو ، والمتضلعين في علوم اللغة حتى بز فيها غيره من العلماء فكان مرجعا في اللغة والنحو ، لا يلحق شأوه ، وله في هذا العلوم مؤلفات قيمة منها كتاب (تصاريف الأفعال) ، وكتاب (المقصور والممدود) وغير ذلك من الكتب المهمة في ذلك(٢) .

وكان ابن القوطية يعقد مجالسه العلمية في جامع قرطبة ، حيث كان يزدحم علي مجالسه تلك الكثير من طلبة العلم ، فيأخذون عنه كتب اللغة ويقرأونها عليه وممن تردد على مجالسه العلمية العلامة ابن الفرضي الذى ذكر أنه درس على يديه العربيه ، وسمع منه كتاب (الكامل للمبرد) ، ولكن لم يتم سماعه منه لوفاة استاذه ابن القوطية(٣) .

ولعل من شواهد نبوغ ابن القوطية في اللغة والنحو ما كان يبديه أبو علي القالي له ـ وهو بالمنزلة التي لا تنكر ـ من ضروب التقدير والاجلال لعلمه وفضله)(٤) .

---

(١) ابن خير : الصدر السابق ، ص٣٥٢ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس ، ج٢ ، ص٧٦ ـ ٧٧ ـ الحميدي : الجذوة ، ص٣٦ ـ الضبي : بغية الملتمس ، ص١١٢ ـ ابن فرحون : الديباج ج٢ ، ص٢١٧ ـ ٢١٨ ـ الصفدي : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٤٢ ـ ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ج٤ ، ص٣٦٨ ـ ٣٦٩ ـ السيوطي : بغية الوعاه ، ج١ ، ص١٩٨ .

(٣) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٧٧ .

(٤) الثعالبي : يتيمه الدهر ، ج٢ ، ص٧٤ .

ولا شك أن في ذلك ما يشير إلى الدرجة الرفيعة التي كان يحتلها ابن القوطية في ميدان الدراسات النحوية واللغوية ، وأنه قد أسهم بقدر كاف في ازدهارها بما كان يعقد من مجالس الدرس في جامع قرطبه وما تلقاه عنه طلبة العلم من المعرفة الواسعة في تلك العلوم إلى جانب مشاركته في ميدان التأليف العلمي .

ومن معاصرى ابن القوطية الأديب النحوى محمد بن الحسن الزبيدى الاشبيلي (ت٣٧٩هـ/٩٨٩م) الذى انتقل إلى قرطبة وأخذ عن علمائها النحو واللغة والأدب وكان لعلمه الواسع ومعارفه الغزيرة في النحو أثر في تقريبه إلى بلاط الخلافه . فنال جاها ورياسة ، وصحب أبا علي القالي وأخذ عنه الأدب واللغة وبرع على وجه الخصوص في النحو واللغة ، حتي وصف بأنه أوحد عصره في علم النحو وحفظ اللغه . وقد لقي من الخليفة الحكم المستنصر كل تكريم وتشجيع فعينه في بعض مناصب الدولة ، ولكنه مع ذلك لم ينصرف عن واجبه العلمي فكان علي صلة بحلقات العلم والتدريس وأخذ الكثير عنه كتبه وعلومه(١) .

ولا شك أن في ذلك دلالة على ما اتسم به ذلك العصر من اخلاص للعلم ، فالمناصب التي تولاها الزبيدى لم تكن لتشغله عن ميدان البحث والدرس . وتعد تلك الظاهرة سمة من سمات ذلك العصر .

وكان للزبيدي نشاط كبير في حقل التأليف ، فقد ألف الكثير من المؤلفات في النحو وعلوم اللغة ، فصنف كتاب « الواضح » واختصر كتاب « العين » ،

---

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٨٩ ــ ٩٠ ــ الصفدى : الوافي ، ج٢ ، ص٣٥١ ــ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص٣٧٢ ــ ٣٧٣ ــ كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج ٢ ، ص٢٨٠ .

وألف في « الأبنية » و« لحن العامة » وفي « أخبار النحويين »[1] .

وكان الزبيدى يلقي من الخليفة الحكم المستنصر كل تشجيع فقد خلع عليه خلعة سنية بعد تصفحه لكتابه في اختصار كتاب العين[2] .

ونظرا لعناية الزبيدي بالنحو فقد ألف في طبقات النحويين كتابا نفسيا . ضمنه أشهر النحاة في المشرق والأندلس من زمن أبي الأسود الدؤلي إلى زمن عبد الله الرباحي شيخه في النحو ، وهذا الكتاب من بين ما اعتمد عليه الباحث في الكلام عن علماء اللغة والنحو الاندلسيين .

وقد نهج الزبيدي في تأليفه لذلك الكتاب منهجا املاه عليه الخليفة الحكم المستنصر ، فقد كان لاهتمامه بحركة التأليف أن أورثه ذلك خبرة واسعة في التصنيف ومناهج التأليف ، وإلى هذا أشار الزبيدى في مقدمة كتابه المذكور بقوله : (ألفت هذا الكتاب على الوجه الذى أمرني به ...... (أى الخليفة الحكم المستنصر) واقمته على الشكل الذى حده ، وامدني ، رضي الله عنه ، في ذلك بعنايته وعلمه ، واوسعنى من روايته وحفظه إذ هو البحر لاتعبر اواذيه ، ولا تدرك سواحل ولا ينزح غمره ، ولا تنضب مادته ..)[3] .

وهكذا يتبين ما كان عليه الزبيدى من علم واسع بعلوم النحو واللغه ومدى إخلاصه التام في نشر معارفه النحويه واللغوية . وأنه قد استفاد من تشجيع

---

(١) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٤٦ ـ الضبي : البغية : ص٦٦ ـ ٦٧ ـ ابن فرحون : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢١٩ ـ ٢٢٠ ـ المراكشي : المعجب ص٦٢ ـ ٦٣ ـ ابن خلكان : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٣٧٢ ـ ٣٧٣ ـ السيوطي : بغية الوعاه ، ج١ ، ص ٨٤ ـ ٨٥ ـ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٣ ، ص٩٤ ـ ٩٥ ـ احمد امين : ظهر الإسلام ، ج٢ ، ص٨٩ . وانظر الموسعة العربية الميسره . حرف الزاى . ص٩١٩ .

(٢) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبد الرحمن الحجي ، ص١٣٣ ـ ١٣٤ .

(٣) طبقات النحويين ، ص٩ ـ ١٠ .

واكرام الخليفة الحكم المستنصر في بث علومه وتاليف الكتب النافعه والتي لا يزال بعضها بين ايدينا .

وكان لأحمد بن ابان بن سيد (ت٣٨٢هـ/٩٩٢م) جهود موفقة في ميدان النحو واللغة ، فصنف كتاب « العالم » في مائة مجلد ، مرتبة على الأجناس ، بدأ فيه بالفلك وختم بالذرة (١) .

كما تناول كتاب الأخفش(٢) في النحو وقام بشرحه وأضاف إليه اضافات مهمة ، وكان لهذا الكتاب منزلة رفيعة حتى اثنى عليه ابن حزم ووصفه بالإتقان(٣) .

وبرع العلامة تمام بن غالب المعروف بابى الثياني (ت٤٣٦هـ/١٠٤٤م) في علم اللغة ، وقد انتقل من قرطبه إلى مرسية . حيث انصرف إلى التدريس ونشر علمه ، ثم عكف على التأليف فصنف كتابا في اللغة ، ولما اطلع عليه الأمير مجاهد العامرى حاكم دانيه اعجب به وبعث إلى تمام بألف دينار وكسوة على أن يذكر في مقدمته أنه صنفه باسمه ، ولكن تمام لاخلاصه للعلم رفض ذلك . وقال : كتاب صنفته لله ولطلبة العلم لا أصرفه إلى اسم ملك ، وحلف أن لا يفعل ذلك ، ورد الألف دينار والكسوه ، فعظم في عين مجاهد والناس ، وأثنى عليه العلماء ، ووصفوه بالنزاهة والقدر العلمي الكبير(٤) .

---

(١) الحميدي : الجذوة و ص٤٠٥ ـ الضبي : البغية ، ص٥٣٨ ـ المقرى : النفح ، ج٣ ، ص١٧٢ ـ السيوطي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٩١ ـ البغدادي : هدية العارفين ، ج١ ، ص٦٨ .

(٢) الاخفش : سعيد بن مسعده من كبار نحويي البصره ، وقد اخذ علومه عن سيبويه ، وقرىء عليه كتاب سيبويه بعد موته ، وقد ألف بعض الكتب في النحو منها الأوسط . والاشتقاق ، توفي سنة ٢٢١هـ/٨٣٥م .

(ابن النديم : الفهرست ، ص٧٧ ـ ٧٨) .

(٣) الحميدي : المصدر السابق ، ص٤٠٥ .

(٤) ابن سعيد : المغرب ، ج١ ،ص١٦٦ ـ المقري : النفح ، ج٣ ، ص١٧٢ ـ شكيب ارسلان : الحلل السندسيه ج٣ ، ص٤٥٩ ـ آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الاندلسي ، ص١٨٩ .

وفي أواخر عصر الخلافة لمع اسم اللغوي الكبير أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن سيده الاعمى (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥م) ، وكان بارعا في اللغة ، متضلعا في علومها حتى وصف بانه لا يعلم بالأندلس أشد اعتناء منه باللغة ، ولا أعظم من مصنفاته في ذلك ، وأنه من مفاخر مرسيه (بلده) حتى قال فيه أحد العلماء (وهو عندى فوق أن يوصف بحافظ أو عالم)(١٢) .

وقد أشاد به العلماء وأثنوا على علمه الواسع حتى وصفه القاضي بأنه أعلم أهل الاندلس بالنحو واللغة والأشعار ، واحفظهم لذلك حتى انه كان يحفظ الكثير من المصنفات اللغوية والنحوية عن ظهر قلب(٢) .

ولم تكن منزلته العلمية معروفة لدى الأندلسيين فقط ، بل كانت أيضا معروفة لدى المشارقة فذكروه وأشادوا به وبعلمه ، فقد روى السلفي بقوله : (سمعت أبا عبد الله محمد بن الحسن بن أبي زرارة اللغوي يقول : كان بالمشرق لغوي وبالمغرب لغوي في عصر واحد ولم يكن لهما ثالث وهما ضريران : فالمشرقي أبو العلاء التنوخي المصرى ، والمغربي ابن سيده الاندلسي ، وابن سيده أعلم من المعري)(٣) .

ولو أننا ألقينا نظرة على ما تركه ذلك العلامة من تصانيف علمية قيمة لوقفنا على مقدار فضله ، وسعة علمه ، وعلو منزلته في ذلك . فقد صنف كتاب « المحكم » والمحيط الأعظم » وهو مرتب على حروف المعجم في اللغه ، و « المخصص » في اللغة ايضا وهو مرتب على ابواب ، وكتاب « شرح ابيات الجمل للزجاجي » ، وكتاب « الانيق في شرح الحماسه » ، وكتاب العويص في شرح اصلاح المنطق »(٤) .

---

(١) ابن سعيد : المغرب ، ج٢ ، ص٢٥٩ .

(٢) طبقات الامم : ص١٠٣ .

(٣) اخبار وتراجم اندلسيه . ص٧٠ .

(٤) ابن خير : المصدر السابق ، ص٣٥٦ .

كما أن من بين مؤلفات ابن سيده الأعمى كتاب « شرح مشكل شعر المتنبي » تناول فيه شرح الالفاظ المستعصيهة التي تضمنها شعر المتنبي وابدى في ذلك براعة في معرفة معاني الألفاظ ، وحل غموضها وتوضيح معانيها بطريقة تنم عن سعة علمه(١) ، وكان الاديب إبراهيم بن محمد بن الأفليلي قد شرح شعر المتنبي شرحا وافيا وصف بالجودة والحسن(٢) .

والجدير بالذكر أن تلك الكتب قد احتلت منزلة عالية بين كتب اللغة فتناولها العلماء بالدراسة والإفادة مما حوته من معارف لغوية جمة . وقد ذكر أنه كتاب « المحكم » في ثلاثين مجلدا ، وأنه ليس في كتب اللغة احسن ولا أنفع منه(٣) .

أما كتاب « المخصص » فقد بلغ به منزلة لا تدانى ، والحق أن من يطلع على هذا الكتاب فانه سوف يلمس ما كان عليه ذلك العلامة من علم ومعرفة لم تتأتى لغيره . والكتاب في مضمونه لغوى مرتب حسب المعانى ، وكل موضوع من موضوعات الحياة البشرية من مادى ومعنوى يذكره مفردا . ويضع له بابا خاصا به ثم يذكر جميع ما ورد فيه عن العرب من ألفاظ وجمل(٤) .

وقد وصف هذا الكتاب بأنه موسوعة عظيمة ، ودائرة معارف جليلة ، وأنه يقع في عشرين مجلدا تنم عن جلالة ما حواه وعظم ماضمه من معارف(٥) .

وأخيرا يتضح لنا عظم ما سداه الأندلسيون في هذا الميدان المهم ، وما اضافوه إلى المكتبة الإسلامية من دراسات مهمة اسهمت في رفع شأن النحو

---

(١) قام بتحقيق ذلك الكتاب محمد رضوان الدايه ، وصدر عن دار المأمون للتراث بدمشق .

(٢) المقري : نفح الطيب ، ج٣ ، ص١٧٣ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الاندلس) .

(٣) السلفي : المصدر السابق ، ص٧٠ ـ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج١ ، ص٤٦٨ .

(٤) شكيب ارسلان : المرجع السابق ، ج٣ ، ص٤٦٤ .

(٥) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج٤ ، ص٤٧٧ .

واللغة العربية ، ولا نقول ذلك جزافا فإن الأندلسيين اعتمدوا أولا في دراساتهم اللغوية والنحوية على المشرق ثم لم يلبثوا أن انطلقوا في ميدان البحث والدراسة ليخرجوا لنا في نهاية الأمر بدراسات علمية قيمة وتصانيف نفسية . فما اضافه القالي إلى كتاب الخليل بن أحمد من دراسة مستفيضة وزيادة مهمة لدليل على تفوق الأندلسيين ونبوغهم وعدم اتكالهم على المشرق . وكفاهم فخرا انه ظهر من - بينهم ابن سيده الذى لا يستبعد أن يكون أعظم لغوى في الأندلس والمشرق على حد سواء . وقد تمتعت الأندلس بسمة عظيمة في هذه الدراسات فنبغ فيها في عصر الخلافة وما بعده علماء كبار منهم ابن عصفور وابن مالك الجياني ، وأبو حيان الغرناطي وغيرهم كثير .

وخلاصة القول أن ميدان الحياة الأدبية واللغوية والنحوية شهد في عصر الخلافة نشاطا زاهرا ، أثبت فيه الأندلسيون سعة معارفهم وتألق شخصيتهم العلمية .

ومن الحق أن نشير إلى أن هذه العلوم قد أسهم الأندلسيون في تطورها منذ عصر الاماره ، فالنشاط العلمي آنذاك كان ينصب في أكثره على علوم الدين والأدب وعلوم اللغة ، ولا غرو في ذلك فان الاندلسيين رأوا ضرورة الارتباط بين علوم الدين وبين تلك العلوم وما يؤدى إليه ذلك من ايضاح الكثير من مسائل الدين الواردة في القرآن الكريم والسنه المطهره ، وشرح معانى الفاظها وتسهيل فهمها .

وفي عصر الخلافة كان الأندلسيون قد بلغوا درجة رفيعة في ميدان البحث العلمي في مختلف وجوه العلم ومنها الدراسات الأدبية واللغوية والنحوية ، ولا أدل على ذلك من ظهور الكثير من اعلام الأدب واللغة والنحو

الذين أثروا ذلك الميدان بانتاجهم العلمى الرفيع ، واضافوا بذلك دراسات قيمة إلى المكتبة العربية .

وقد تألقت اسماء الكثير منهم كابن عبد ربه ، وأبو علي القالي الذى يرجع إليه الفضل في ازدهار الدراسات الأدبية واللغوية والنحوية في عصري الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وكذلك الأديب المشرقي صاعد بن الحسن الربعي الذى رغم ما وصف به من ادعاء وانتحال كان أديبا واسع الاطلاع ، جم المعارف ، بالإضافة إلى بروز العلامة ابن القوطية في اللغة والنحو وبما اثرى به تلك العلوم من دراسات مستفيضة ، وإلى جانب هؤلاء تألق اسم محمد بن الحسن الزبيدى الذى كانت له جهوده الموفقة في ذلك ، ويختتم عصر الخلافة بظهور اللغوى الكبير ابن سيده الذى ذاع صيته شرقا وغربا . ويهؤلاء وغيرهم تجلت لنا صور النشاط العلمي في الأدب واللغة والنحو ، ووقفنا على ما قام به الأندلسيون من جهود علمية رائعة في هذه الميادين .

الفصل الثالث

العلوم الإنسانية

- التاريخ .
- الجغرافيا والرحلات الجغرافية .
- الفلسفة .

١ ـ التاريخ

عناية الأندلسيين بالتاريخ ـ نشاط ميدان التراجم واهتمام الأندلسيين به ـ أبرز مؤرخي الأندلس : ابن القوطية وانتاجه العلمي. أسرة الرازي . أحمد بن محمد وابنه عيسى ـ محمد بن الحارث الخشني ـ ابن الفرضي ـ ابن عبدالبر النمري ـ من عوامل ازدهار الدراسات التاريخية ـ اهتمام الخلفاء بذلك وخاصة الخليفة الحكم المستنصر الذي كان يحفز الملكات العلمية على التاليف والبحث ـ دور المنصور في ازدهار التاريخ والتراجم ـ أبرز مؤرخي الأندلس ابن حيان وانتاجه العلمي ـ ابن حزم وانتاجه العلمي في التاريخ ـ ابن شهيد مؤرخا ـ دور أهل الذمة في دراسة التاريخ .

نال علم التاريخ من الأندلسيين كل عناية واهتمام ، فقد رأوا من واجبهم الوطني نحو بلدهم الأندلس أن يسعوا بجد للحفاظ على تاريخه وما يتضمنه من ضروب النشاط السياسي والعسكري والحضاري بوجه عام .

ولما كانت الأندلس في عصر الخلافة قد بلغت شأناً كبيراً في ميدان الحضارة والحقل العلمي خاصة ، فمن الطبيعي أن نرى الأعداد الهائلة من العلماء في مختلف وجوه العلم وفروع المعرفة ، الأمر الذي دفع الأندلسيين نحو تخليد مآثر بلدهم في هذا الميدان بكتابة تراجم علمائه وأعيانه .

والواقع أن الأندلسيين من باب استكمال وجوه الحضارة وإ ثبات مكانتهم العلمية نشطوا في ميدان الدراسات التاريخية ، وكأنهم استهدفوا من وراء ذلك إبراز ما أسهم به بلدهم مع المشرق الإسلامي في بناء الحضارة الإسلامية .

وإذا ما تتبعنا حركة الدراسات التاريخية في الأندلس نلاحظ أن الأندلسيين عنوا أكثر بكتابة التراجم ، فقد نشطت حركة التاليف في هذا

الميدان نشاطا كبيرا ، وإن مجرد إلقاء نظرة على المكتبة التاريخية الأندلسية لكفيل بأن يرينا هذه الحقيقة بوضوح .

وقد أظهر الأندلسيون براعة تامة وقدرة كبيرة في ميدان التراجم ، وكان الكثير منهم في بادئ الأمر يتجهون إلى كتابة سير علماء الأندلس بصورة عامة ثم ما لبثوا أن تناولوا كتابة التراجم بصورة أكثر تخصيصا للعلماء وأهل المعرفة ، فعمد البعض إلى التأليف في تراجم طبقة معينة من العلماء كطبقات الأطباء لابن جلجل ، وطبقات النحويين للزبيدي ، بل إن أفراداً منهم ألفوا في تراجم علماء جهة من الجهات ، ككتاب « أخبار شعراء البيره » ، أو في ترجمة شخصية معينة كالمنصور بن أبي عامر ، فقد ألّف حسين بن عاصم كتابا اسماه « المآثر العامرية » في سير المنصور وغزواته وأوقاتها[1] .

وقد شهد عصر الخلافة نشاطا كبيرا في ميدان التاريخ ، فبرز مؤرخون بارعون كان لهم جهد بارز في إثراء هذا العلم بالكثير من الدراسات المثمرة التي تنم عما أمتازوا به من القدر العلمي الكبير .

وفي مقدمة مؤرخي عصر الخلافة يأتي المؤرخ محمد بن عمر بن عبدالعزيز المعروف « بابن القوطية » (ت ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) ، وقد أشرنا إليه سابقا عند الحديث عن النحو وعلوم اللغة باعتباره أحد العلماء البارزين فيها ، وبالإضافة إلى ما تقدم . كان ابن القوطية بارعاً في التاريخ (حافظا لأخبار الأندلس ، ملماً برواية سير أمرائها وأحوال فقهائها وشعرائها ، يملي ذلك عن ظهر قلب)[2] .

ولابن القوطية في ميدان التأليف التاريخي مصنف اسمه « تاريخ افتتاح الأندلس » ، ويبدو أن انتماء ابن القوطية إلى القوط من جهة أمه كان له أثر في

---

(١) الحميدي : الجذوة ، ص ١٩٣ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

نظرته إلى الوقائع التاريخية التي حدثت بين القوط والمسلمين ، فكان يميل في بعض الأحيان إلى تمجيد العنصر القوطي ، والانسياق نحو عواطفه القومية مما يخرج به عن محيط الموضوعية في كتاباته التاريخية ، فهو حينما يتحدث عن الزعيم القوطي ارطباس وأخباره مع الزعيم العربي الصميل بن حاتم نجده يصور الزعيم القوطي في خلق نبيل وأنه صاحب دهاء وحكمة في حين يصور الزعيم العربي في صورة أقل من ذلك ، كما أنه يتوسع في أخبار الثائرين من أصول اسبانية كمروان الجليقي ، وعمر بن حفصون ، وفضلا عن ذلك فهو باعتباره من موالي بني أمية فهو لا يخفى ميله نحوهم والإشادة بهم في كتابه[1] .

ورغم ما تقدم فإن للكتاب قيمته التاريخية المهمة بين كتب التاريخ الأندلسي إذ يأتي في طليعة الكتب التي أرخت لأحداث الأندلس منذ افتتاحها إلى عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر كما يتميز بالإسهاب والتفصيل في شرح بعض الأحداث والوقائع التي لم يكن يعرفها العرب[2] .

ومن حق ميدان التاريخ أن يزهو بأسرة آل الرازي التي كان لها فضل كبير في ازدهار علم التاريخ .

يأتي في مقدمة مؤرخي تلك الأسرة المؤرخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي الكتاني (٢٧٤ ـ ٣٤٤هـ / ٨٨٧ ـ ٩٥٥م) ، وكان والده محمد قد وفد إلى الأندلس من المشرق حيث نزل مكرماً على الأمير محمد بن عبدالرحمن ، وقد أشرنا إلى براعته في ميدان الجغرافيا أثناء الحديث عن ذلك في عصر

(١) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ١٩١ ـ ١٩٢ ـ أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

(٢) أحمد أمين : المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ ـ السيد عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ـ لطفي عبد البديع : الإسلام في اسبانيا ، ص ٦٩ ـ ٧٠ .

الإمارة ، أما ابنه أحمد فقد ورث عن أبيه البراعة في التاريخ ، ووصف بسعة العلم وحفظ وقائع التاريخ الأندلسي ، والمعرفة التامة بسير ملوك الأندلس وأعيانها(١) .

والحق أن ما أسداه ذلك المؤرخ لحقل الدراسات التاريخية الأندلسية تأليفاً وترجمة لهو شئ يثير الاعجاب ، فقد صنف كتاباً في « أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وركبانهم وغزواتهم » ويقع في حجم كبير ، كما ألّف كتاباً في « صفة قرطبة ، وخططها ومنازل العظماء بها » ، وقد نهج في تأليف كتابه الأخير طريقة المؤرخ المشرقي أحمد بن طاهر في كتابه أخبار بغداد وذكره لمنازل صحابة المنصور بها ، كما أشار ابن حزم إلى تأليفه كتاب في « أنساب مشاهير أهل الأندلس » وأنه يقع في خمس مجلدات ، ووصفه بالقيمة العلمية الكبيره(٢) .

وبالإضافة إلى جهود أحمد الرازي في ميدان التاريخ ، فقد كان له أيضا إسهام وافر في ازدهار الدراسات الجغرافية وسوف نأتي على ذكر ذلك عند الحديث عن الجغرافيا .

وقد أنجب أحمد الرازي ابنا اسمه عيسى ، ورث عن أبيه المهارة في دراسة التاريخ إلى جانب تمكنه في الأدب ، وكان لما اتصف به عيسى أثر في تقريب الخليفة الحكم له وإدناء منزلته ، وكان يشجعه على البحث والتأليف ، فألف له عيسى كتاباً قيماً في التاريخ ، ولم يزل عيسى محفوظ الجاه كريم

(١) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٢ .

(٢) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ١٠٤ ــ الضبي : البغية ، ص ١٥١ ــ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨١ ، ص ١٣١ ــ ياقوت : معجم الادباء ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦ لطفي عبدالبديع : المرجع السابق ، ص ٦٨ ــ ٦٩ أحمد هيكل : المرجع السابق ، ص ١٩١ ــ عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، ص ٥٨٧ .

المقام حتى تولى الحاجب المنصور زمام الأمور بعد وفاة الخليفة الحكم ، وقد ألف عيسى للمنصور كتاباً في « الوزارة والوزراء » ، كما ألف له كتاباً في « الحجاب »[1] .

وإذا كان لبعض العلماء الواردين على الأندلس دور بارز في ازدهار حركة الدراسات التاريخية في الأندلس فانه يأتي في طليعتهم المؤرخ محمد بن حارث بن أسد الخشني القيرواني (ت ٣٧١هـ / ٩٨١م) الذي تلقى علومه الأولى في القيروان ، وقد انصرف إلى التاريخ والتراجم فكان له في ذلك جهود قيمة ، وانتاج علمي نفيس، ونظراً لما كانت عليه الأندلس من حضارة وما ضمته من أرباب العلم والمعرفة فقد كان ذلك دافعاً للخشني إلى قصدها فدخلها سنة (٣١٢هـ / ٩٢٤م) ليأخذ العلم عن علماء قرطبة أمثال قاسم بن أصبغ وأحمد بن عبادة وغيرهم من العلماء ، وكان لسعة علمه وفضله أثر في تقريب الخليفة الحكم له فأدنى منزلته ورفع مكانته بين العلماء[2] .

وقد أسهم الخشني بجهد وافر في رقي الدراسات التاريخية بما صنفه من المؤلفات القيمة ، فقد صنف كتابا في « قضاة قرطبة » ، وصدّر المؤلف كتابه بالثناء على الأمير الحكم المستنصر ـ الذي كان آنذاك وليا للعهد ـ وأنه كان وراء تصنيفه للكتاب بما كان يبديه له من ضروب التشجيع المادي والمعنوي ورغبة منه في حفظ سير أهل العلم ، ثم يعرض الخشني في مقدمة كتابه إلى منهجه في جمع المادة العلمية للكتاب فيقول : (لما أمر الأمير ـ أبقاه الله ـ بتأليف كتاب القضاة مقصوراً على من قضى للخلفاء رضي الله عنهم بأرض

(١) المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الثاني ، ص ٤٩١ .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١١٣ ـ الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج ٣ ، ص ١٠٠٢ ـ الصفدي : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٣١٥ ـ آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨ .

المغرب في الحاضرة العظمى قرطبة ، ذات الفخر الأعظم ولعمالهم بها من قبل هززت رواة الأخبار في أخبارهم ، وكاشفت أهل الحفظ عن أفعالهم ، وسألت أهل العلم عما تقدم من سيرهم قولا وفعلا)[1] .

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب لقي عناية فائقة من دارسي التاريخ الأندلسي وخاصة من يهمهم دراسة الحياة الاجتماعية في ذلك العصر ، وقد ترجم فيه مؤلفه لمن تولى القضاء منذ الفتح حتى سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م ، وهي السنة التي تولي فيها القضاء القاضي محمد بن إسحاق بن السليم وبه ختم الكتاب .

والكتاب يفيض بالمعلومات القيمة عن سير القضاة وما يتخللها من مواقف طريفة مع الناس ، حتى وصف هذا الكتاب بأنه يضعنا في قلب قرطبة من خلال ما يمدنا به من معلومات عن الحياة الاجتماعية ، كما أن اخباره مصوغة في قالب من الواقعية التي لا يرقى إلى مستواها أي من كتب التاريخ والأدب[2] .

وبالإضافة إلى ما سبق صنف الخشني الكثير من الكتب ، فقد ذكر ابن الفرضي أنه صنف للخليفة الحكم المستنصر مائة ديوان[3] . ولاشك أن فيه دلالة على ما اتصف به الخشني من سعة العلم والدراية العميقة باكثر من علم ، وفيه دليل أيضا على ما كان يوليه الخليفة الحكم من عناية بالبحث والتأليف .

ومما ينسب للخشني من كتب التاريخ « تاريخ الأندلس » و « تاريخ الافريقيين » و « كتاب النسب »[4] .

(١) قضاة قرطبه ، ص ١ ـ ٢ .

(٢) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ١٩٣ .

(٣) تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

(٤) الذهبي : المصدر السابق ، ج ٣، ص ١٠٠٢ – ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٣، ص ٣٩ .

والجدير بالذكر أنه عُثر لهذا العلامة على مخطوط يسمى (تاريخ علماء الأندلس) وهو عبارة عن معجم تراجم لأعلام الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ويحوي ذلك المخطوط ١٨٢ ورقة مكتوبة بخط أندلسي عتيق جدا ، وقد أشار ابن الفرضي إلى اعتماده في تأليفه لكتابه تاريخ علماء الأندلس على كتاب للخشني في تراجم رجال الأندلس فلعله ذلك المخطوط المشار إليه[1] .

وفي مجال التراجم يبرز العلامة المؤرخ عبدالله بن محمد الأزدي المعروف بابن الفرضي (ت ٤٠٣هـ / ١٠١٢م) الذي سبقت الإشارة إليه في ميدان الحديث .

كان هذا العلامة جّم النشاط كثير الاشتغال بالعلم . فقد صنف العديد من كتب العلم ، ففيما يتعلق بالتاريخ ما صنفه في ميدان التراجم ، وهو كتابه « تاريخ علماء الأندلس » ، والذي يعد من أهم المصادر التاريخية لدراسة الحياة العلمية في الأندلس حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . كما أن هذا الكتاب يعد أقدم كتب التراجم العامة التي بين أيدينا ، فعلى الرغم من أن كتاب الخشني « تاريخ علماء الأندلس » ـ الذي لا يزال مخطوطاً حتى اليوم ـ يعتبر أقدم من كتاب الفرضي المذكور إلا أن الأخير بما أتيح له من أسباب الانتشار ، كان في مقدمة كتب التراجم الأندلسية المهمة ذيوعا بين المشتغلين بدراسة التاريخ الأندلسي .

وفي مقدمة الكتاب يشير المؤلف إلى عنايته بالتراجم فيقول : (ولم أزل مهتما بهذا الفن ، معتنيا به مولعا بجمعه والبحث عنه ، ومسائلة الشيوخ عما

---

(١) يوجد هذا المخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم « ٦٩١٦» وقد اخذنا منه في بعض جوانب البحث .

لم أعلم منه حتى اجتمع لي من ذلك بحمد الله وعونه ماأملته وتقيد في كتابي هذا ـ من التسمية ـ ما لم أعلمه يقيد في كتاب ألف في معناه في الاندلس قبله)(١) .

وقد اعتمد ابن الفرضي في تأليفه لكتابه المذكور على من سبقه من العلماء أمثال أحمد بن محمد بن عبدالبر ، وخالد بن سعد ، ومحمد بن الحارث الخشني الآنف الذكر ـ والمؤرخ أحمد الرازي، والمؤرخ ابن يونس بن عبدالأعلى المصري في كتابه تاريخ مصر والمغرب ، وغيرهم من المؤرخين بالإضافة إلى ما تلقاه من أفواه العلماء مشافهة وما قيده عليهم(٢) .

والحق أن كتاب ابن الفرضي على الرغم من سلوكه سبيل الاختصار فيما أورده من تراجم فله قيمته العلمية التي لا تنكر في توضيح ما كان عليه المجتمع الأندلسي من اهتمام بالعلوم والمعارف وما تمتع به الأندلسيون من علم واسع وخاصة في حقل العلوم الدينية إذ غلبت على الكتاب تراجم علماء الحديث والفقه وبعض أهل الأدب ، ولا نكاد نلمس فيه ما له صلة بالميادين العلمية الأخرى كالطب والفلك والرياضيات والكيمياء .

وقد نال كتاب ابن الفرضي تقدير وثناء العلماء ، فذيل عليه أحدهم وهو أبو القاسم خلف بن عبدالملك المعروف بابن بشكوال (٤٩٤ ـ ٥٧٨ هـ / ١١٠٠ ـ ١١٨٢م) بكتابه القيم « الصلة » .

وأسهم العلامة يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري في ازدهار الدراسات التاريخية بما بذله من جهد وافر تمثل فيما صنفه من كتب التاريخ والتراجم وفي مقدمتها « الاستيعاب » في أسماء المذكورين في الروايات

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ج ١ ، ص ٢ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢ ـ ٣ .

والسير والمصنفات من الصحابة رضي الله عنهم والتعريف بهم وتلخيص أحوالهم ومنازلهم وعيون أخبارهم على حروف المعجم ويقع في اثنى عشر جزءاً، وكتاب « الدرر في اختصار المغازي والسير » في ثلاثة أجزاء ، وكتاب « أخبار أئمة الأمصار » في سبعة أجزاء[1] .

ويعد الكتاب الأول وهو « الاستيعاب » من أهم كتب التراجم التي تناولت حياة الصحابة رضي الله عنم ، والتي يعتمد عليها في معرفة سيرهم وأخبارهم ، فهو بذلك كتاب جليل غزير الفائدة ، وبه اكتسب ابن عبدالبر منزلة رفيعة بين العلماء ، كما ألف ابن عبدالبر النمري كتاب « الانباه على قبائل الرواة عن النبي ﷺ بما انضاف إلى ذلك من أنساب العرب » ويعدّ الكتاب بمثابة مدخل لكتاب الاستيعاب[2] .

ويذكر المقري أن ابن عبدالبر صنف كتابا في التاريخ أسماه « القصد والأمم في معرفة أخبار العرب والعجم »[3] وقد أشار كراتشكوفسكي إلى هذا الكتاب ووصفه بأنه عبارة عن رسالة صغيرة تقع في عشرين صفحة تقريباً ، وأنها لا تتضمن شيئا عن العرب بل تدور حول أصول الشعوب الأخرى التي ورد ذكرها في الحديث ، كما يشير إلى أن العلامة شيفير SCHEFER كان مصيبا في نشره لقطعة من الرسالة مقرونة بترجمة فرنسية . وهى القطعة الخاصة بأهل الصين ، وأكد أنه توجد بها إشارة دقيقة إلى عبادة الأسلاف بالإضافة إلى تضمنها فكرة عن وجود قبائل الاينو AINO في شمال الصين ، وأن أحد العلماء وهو فيران FERRAND رغم تشككه بصدد النقطة الأخيرة إلا

---

(١) الحميدي : الجذوة ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ ، الضبي : البغية : ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠ ، ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٧٧ ـ ٦٧٨ ـ ٦٧٩ .

(٢) ابن خير : فهرست مارواه عن شيوخه ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٣) نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .

أن ذلك لم يمنعه من الاستشهاد بما أورده ابن عبدالبر حول مسألة علاقة الصين بسكان الملايو[1] .

وبناء عليه ندرك ما كان يتمتع به ابن عبدالبر النمري من علم واسع بالتاريخ والتراجم ، جتى قيل أنه : (كان مع تقدمه في علم الاثر ، وبصره بالفقه ومعاني الحديث له بسطة كبيره في علم النسب والخبر)[2] .

وفي عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر أهدى الإمبراطور رومانوس إليه كتابين أحدهما في الطب وهو كتاب ديسقوريدس ، والآخر في التاريخ وهو كتاب هروشيش[3] ، ويهمنا الآن الكتاب الأخير لعلاقته بالتاريخ ، فقد ترجمه الأندلسيون من اللاتينية إلى العربية بواسطة قاضي النصارى الوليد بن خيزران ، والعلامة قاسم بن أصبغ[4] .

ويظهر أن هذا الكتاب لم يكن له من التأثير في كتابات مؤرخي الأندلس بقدر ما كان تأثرهم به في مجال الجغرافيا كما سيأتي بيانه عند الحديث عن الجغرافيا .

ولعل من أهم أسباب ازدهار الدراسات التاريخية ما كان يتصف به الخلفاء من عناية بالعلم وتشجيع العلماء على البحث والتصنيف ، فقد كان للخليفة الحكم المستنصر دور بارز في النشاط العلمي المتصل بهذا الميدان وغيره من ميادين المعرفة ، ولا أدل على ذلك مما تزودنا به كتب التاريخ من أسماء الكتب العلمية التي صنفت باسم الحكم المستنصر وبناء على رغبته، كالذي صنفه الخشني ، وعيسى بن أحمد الرازي وقد مر ذكرهما .

(١) الأدب الجغرافي العربي ، القسم الأول ، ص ٢٧٣ .
(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٧٩ .
(٣) ألفه Boulus Orosius وهو عن تاريخ العالم من ولد آدم وألفه في سنتين ونصف .
(٤) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، ص ٦٧ (نقلا عن ابن خلدون) .
ـ سبقت الإشارة إلى التعريف بهذا الإمبراطور ، انظر الفصل الخاص بعناية الخلفاء بالحركة العلمية ما يتعلق بالخليفة عبد الرحمن الناصر .

ومن هؤلاء المؤرخين الذين حظوا برعاية الخليفة الحكم محمد بن يوسف الوراق ، وقد نشأ في القيروان ، ولكنه ما لبث أن شدّ رحاله إلى الأندلس حيث قرّبه ، وأدنى منزلته ، وأغدق عليه الصلات الجزيلة ، وأتاح له من الأسباب ما جعله ينصرف إلى البحث والتأليف فصنف له كتبا عديدة في التاريخ والجغرافيا ، ففيما يتصل بالتاريخ ألف كتبا في أخبار ملوك أفريقية وحروبهم والغالبين عليهم ، كما ألف في أخبار مدن افريقية كتيهرت ، ووهران ، وتنس ، وغيرها[1] .

كما أن العلامة إسحاق بن مسلمة بن وليد القيني كان متضلعا في تاريخ الأندلس عارفا بأخبارها وسير ملوكها ، وقد ألف في ذلك كتابا بناء على رغبة الحكم المستنصر[2] .

وبالإضافة إلى ما تقدم من التصانيف المؤلفة للحكم المستنصر ، ولا نستبعد أن يكون المؤرخ الطبيب عريب بن سعد قد ألف كتابه في التاريخ « صلة تاريخ الطبري » بناء على رغبة الخليفة الحكم المستنصر ونزولا على

---

(١) الحميدي : الجذوة ، ص ٩٧ ـ ابن الابار : التكملة ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

ـ تيـهرت : تنطق تاهَرْت بفتح الهاء وسكون الراء ، مدينة جزائرية تقع في إقليم وهران ينسب تأسيسها إلى عبدالرحمن بن رستم الأباضي ١٤٤هـ / ٧٦١ م. (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧ ـ أحمد عطية الله : القاموس الإسلامي ، ج ١ ، ص ٤٣٣) .

ـ وهـــران : مدينة بالجزائر بينها وبين تنس ثماني مراحل. بناها قديما محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين ٢٩٠ هـ وتعرضت في تاريخها للتخريب غير مرة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦) .

ـ تنس : مدينة ساحلية جزائرية تقع في منتصف الطريق بين وهران والجزائر وعلى مسيرة ١٢٥ميلا من هذه الأخيرة وهي بلدة قديمة جددها بعض مهاجري الأندلس إبان القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي (أحمد عطية الله: القاموس الإسلامي، ج ١، ص ٥٠١) .

(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٣ ـ الحميدي : الجذوة ، ص ١٦٩ ـ الضبي : البغية ، ص ٢٣٦ ـ الصفدي : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٤١٢ .

أمره[1] . وخاصة إذا علمنا أن عريب المذكور قد ألف كتابه في الطب باسم الخليفة الحكم المستنصر[2] .

ولم يكن الخليفة الحكم المستنصر بالذي يقصر باعا عن هؤلاء المؤرخين ، فقد كان على علم واسع ومعرفة عميقة بالتاريخ والأنساب ثقة فيما ينقله[3] .

وقد دفعه اهتمامه بعلم الأنساب إلى تقييد الكثير من أنساب أهل بلده ، وإلى تكليف أهل الأقاليم بأن يلحقوا كل عربي اخمل ذكره قبل ولايته ، وأن يصحح أنسابهم ذوو المعرفة بذلك ، وقد نسب إليه تآليف في الأنساب[4] .

ويشير البغدادي إلى مؤلَّف له في الأنساب اسمه « أنساب الطالبين والعلويين القادمين إلى المغرب »[5] .

ومما يؤكد اهتمامه البالغ بهذا الجانب من التاريخ سؤاله واستفساره عن أنساب الأمم وتواريخهم ، فيذكر أنه في سنة ٣٥٢ هـ وفد عليه رسول من أمير براغوطه[6] وكان المترجم عن ذلك الرسول الأديب عيسى بن داوود المسطاسي ، فسأله الحكم المستنصر عن نسب براغوطة ومذهبهم فأفاده بذلك[7] .

ولم يألو الخليفة الحكم جهدا في تشجيع العلماء على البحث ولم يدخر وسعا في ذلك ، بل إن مما يزيدنا إعجابا به وبما أسداه للحركة العلمية ـ ومنها ميدان التاريخ ـ ما يذكر عنه أنه كان يعين العلماء على التأليف بما يوفره لهم

(١) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ١٩٢ ـ أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٧٥ .

(٢) انظر فيما بعد الحديث عن الطب .

(٣) ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

(٤) ابن الابار : الحلة السيراء ، ج ١ ، ص ٢٠٣ ـ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ص ٤١ .

(٥) هدية العارفين ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ .

(٦) انظر نسب هذه القبيلة البربرية وأخبارها ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

(٧) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

من كتب العلم ومصادر البحث ليس في الأندلس فقط بل وخارجها أيضا ، فقد أشار ابن الفرضي في مقدمة كتابه « تاريخ علماء الأندلس » إلى اعتماده على كتاب أبي سعيد عبدالرحمن بن يونس المصري في تاريخ مصر والمغرب والذي اعتمد في تأليفه على كتاب في التاريخ أنفذه إليه الحكم المستنصر ليعينه على تأليف كتابه المذكور .

ويتضح لنا من خلال ما قدمه الخليفة الحكم المستنصر من جهود كثيرة في كتابة التاريخ مدى ما له من فضل في هذا الميدان ، وهو ما يتجلى في صفحات الكثير من كتب التاريخ والتراجم والأنساب والتي تؤكد مدى إسهامه العظيم في ازدهار الحركة العلمية بحفزه الملكات على التأليف والبحث العلمي .

ولم يكن المنصور بن أبي عامر خالي الوفاض من تشجيع الحركة العلمية والعناية بميدان البحث والتأليف وقد سبقت الإشارة إلى ما صنفه عيسى بن أحمد الرازي من كتب للمنصور في « الوزارة والوزراء » و « الحجاب » . بالإضافة إلى تأليف حسين ابن عاصم ــ وهو القائم على مكتبة المنصور والمشرف عليها كتابا في التاريخ اسماه « المآثر العامرية » في سيرة المنصور ابن أبي عامر وغزواته وأوقاتها[1] .

ولا ريب أن عصر الحاجب المنصور ثم ابنه عبدالملك من بعده كان من أعظم العصور قوة وعزة للمسلمين في الأندلس ، وكان لما اتصف به عصر العامريين بوجه عام من قوة ورخاء أثر في انصراف بعض العلماء إلى تأريخ حكمهم وسيرهم وما قاموا به من أعمال ، فصنف المؤرخ عبدالرحمن بن محمد ابن معمر (ت ٤٢٣ هـ) كتابا في « تاريخ الدولة العامرية »[2] .

---

(١) الحميدي : الجذوة ، ص ١٩٣ ــ الضبي : البغية ، ص ٢٦٧ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ ــ البغدادي : هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥١٦ .

ولم يقف الحال في مسيرة البحث التاريخي على التأليف في دولة ما أو عصر ما ، بل نجد بين كتب التاريخ الأندلسية ما صنف في بعض الأسرات الأندلسية التي ارتبط ذكرها بأحداث ووقائع مشهورة فقد اشار ابن حزم إلى بعض الكتب في هذا ـ المجال ومنها ما هو في أخبار عمر بن حفصون القائم بريه ووقائعه وسيره وحروبه ، وكتاب آخر في أخبار عبدالرحمن بن مروان الجليقي الذي كان قاطنا بالجوف ، وكتاب في أخبار قس والتجيبين وبني الطويل بالثغر(١) .

وفي الفترة التي حكم فيها المنصور بن أبي عامر ولد أشهر مؤرخ في الأندلس وهو حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي ويكنى أبو مروان (٣٧٧ ـ ٤٦٩هـ / ٩٨٧ ـ ١٠٧٦م)، وقد نشأ هذا العلامة نشأة علمية حيث تلقى علوم اللغة والأدب على الأديب أبي عمر بن أبي الحباب النحوي صاحب أبي علي القالي ، كما درس على الأديب صاعد بن الحسن الربعي وأخذ الحديث عن العلامة عمر بن حسين بن نابل وغيره(٢) .

ونظرا لمكانته العلمية ومعرفته الواسعة بالتاريخ والأدب . فقد تولى بعض المناصب الإدارية والأدبية الهامة ، كمنصب صاحب الشرطة أو صاحب المدينة في قرطبة ، كما ضُمَّ إلى ديوان الإنشاء(٣) .

وتتضح لنا مكانة ابن حيان التاريخية مما خلفه من كتابات ودراسات تاريخية قيمة يأتي في مقدمتها كتابه « المقتبس » ويقع في عشرة أجزاء و « المتين » في تاريخ الأندلس ويقع في ستين مجلدا(٤) .

---

(١) المقري : النفح ، ج ٣ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ـ ابن خلكان : الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ـ آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢٠٨ ـ محمد عبدالله عنان : تراجم إسلامية ، ص ٢٧٢ .

(٣) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥ ـ آنخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٢٠٨ .

(١) الصفدي : الوافي ، ج ١ ، ص ٤٩ ـ المقري : النفح ، ج ٣ ، ص ٤٩ ـ المقري : النفح ، ج ٣ ص ١٨١ ـ بطرس البستاني : المرجع السابق ، ج ٧ ، ص ٣٠٣ .

والكتابان المذكوران أهم ما ألفه في تاريخ الأندلس ، وله كتب أخرى في التاريخ ككتاب « البطشة الكبرى في تاريخ الدولة العامرية » ، وكتاب « انتخاب من أخبار القضاة »[1] .

ومما يؤسف له أنه لم يصلنا أي من كتبه كاملا ما عدا قطع من كتابه الأول وهو المقتبس فالقطعة الأولى عثر عليها بروفنسال في خزانة القرويين بفاس ، وتحتوي على تاريخ الأندلس من سنة (١٨٨ ـ ٢٣٢ هـ /٨٠٣ ـ ٨٤٦ م) وتقع في ستين لوحة لم تنشر ولم يعثر عليها بعد وفاة بروفنسال . أما القطعة الثانية فهي محفوظة بخزانة جامع القرويين ، وتقع في خمس وتسعين لوحه ، وتحتوي على تاريخ الأندلس من سنة (٢٣٢ ـ ٢٦٧ هـ / ٨٤٦ ـ ٨٨٠م) . وقام على نشرها وتحقيقها محمود علي مكي .

القطعة الثالثة : وتضم مائة وسبع لوحات وتتناول تاريخ الأندلس من سنة (٢٧٦ ـ ٣٠٠ هـ / ٨٨٠ ـ ٩١٢م) . وقام على نشرها ملشيور انطونيا .

القطعة الرابعة : وتحتوي على تاريخ أربعة أعوام من حكم الخليفة المستنصر من سنة (٣٦٢ ـ ٣٦٥ هـ / ٩٧٢ ـ ٩٧٥م) ، وقام على تحقيقها عبدالرحمن الحجي[2] .

وأما القطعة الخامسة : وتعد من أهم القطع بل أهمها جميعا ـ فقد عثر عليها بين محتويات الخزانة الملكية بالرباط ، وتتعلق جميعها بعصر عبدالرحمن الناصر ، وتبدأ من سنة ٣٠٠ هـ وتنتهي بسنة ٣٣٠ هـ (٩١٢ ـ ٩٤١م) ، وقد نشرت هذه القطعة بعناية بعض الأساتذة وهم . ب . ثالميتا و . ف . كورثيطي . و . م . صبح بالمعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد ١٩٧٩م .

---

(١) ابن حيان : المقتبس ، تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ١٤ .

(٢) محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

وفي بداية هذه القطعة يتحدث ابن حيان عن الخليفة عبدالرحمن الناصر وأبنائه وتربيتهم وما كان عليه الخليفة من قوة الدين وسعيه في عزته ، وما سلكه في سبيل القضاء على حركة ابن مسره ، ثم يتحدث عن شعراء الناصر في بلاطه وأبرزهم في الشعر .

ويعتمد ابن حيان في كتاباته التاريخية على من سبقه من المؤرخين كالمؤرخ أحمد الرازي وابنه عيسى ، كما ينقل عن ابن الفرضي في كتابه « تاريخ علماء الأندلس » وعن يوسف بن عبدالله الوراق الذي يصفه بأنه حافظ المغرب ، وعن ابن القوطيه ، ومحمد بن حارث الخشني ، ومعاوية بن هشام ، وابن عبدالبر النمري ، ويزداد اعتماده أكثر علي آل الرازي وهو ما يتضح لكل مطلع على ما تبقى من كتابه « المقتبس » .

وبالإضافة إلى ما تقدم . فقد كان ابن حيان يعني عناية شديدة بإيراد الوثائق الرسمية المهمة ، فيورد منها ما لا نجده في أي مصدر من مصادر التاريخ الأندلسي ، ككتاب الحكم بن هشام عن ثورة الربض ، وكتاب الخليفة الناصر الموجه ضد ابن مسره وتعاليمه وغير ذلك(١) .

وتتجلى في كتابات ابن حيان ماكان عليه من فصاحة وبلاغة ، وأنه كان ينهج في ذلك منهج الالتزام بالصدق والصراحة فيما يقول من غير تحامل أو هوى(٢) .

وأسلوب ابن حيان في كتاباته التاريخية أسلوب رفيع بليغ حتى وصفه دوزي بأنه (يسوق التاريخ مساق من يبدي رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء) ... ويمتاز

---

(١) محمد عبدالله عنان : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ص ٢١١ .

ابـن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصـع لا يـهبط إلى الركاكة التي تثير السخط[1] .

ولا شك أن ابن حيان بهذا الأسلوب قد استحق ثناء العلماء من معاصريه ومن أتى بعدهم فقد حظي بالتقدير والإجلال ، ونال مكانة رفيعة بين مؤرخي الإسلام ، فهو يقف موقف الند مع المؤرخ المشرقي أبي الحسن علي المسعودي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧م) ، والمؤرخ المشرقي الآخر ابن الأثير ، ويجمع في أسلوبه القوى بين البلاغة التي يمتاز بها المسعودي ، وبين روح التحقيق التي يمتاز بها ابن الأثير[2] .

أما عن طريقته في الكتابة التاريخية فهي مزيج بين طريقة الفصول ومنهج الحوليات فيما يخص الغزوات والأحداث العسكرية ، ويتخلل ذلك الحديث عن الشخصيات البارزة في ذلك العصر[3] .

ويأتي في أواخر عصر الخلافة من المؤرخين العلامة ابن حزم الذي اتصف بتفننه في العلوم والمعارف ومشاركته الواسعة في ميدان البحث والتأليف العلمي ، ففيما يتعلق بالتاريخ فقد أسهم فيه بنصيب وافر من الجهد العلمي الجاد ، فمن ذلك تأليفه كتاب « جمهرة أنساب العرب » الذي وصف بأنه أوسع كتب النسب وأحفلها وأدقها مع الإيجاز ، وقد كان لثقافته التاريخية وإطلاعه الواسع أثر في وقوفه علي أقوم المعلومات عن الأنساب فجمعها ونسقها في كتابه المذكور مع الإشارة إلى أهم الأحداث التاريخية والأدبية وأيام العرب في أسلوب جذاب سهل كما تتضح براعته في دراسة مواطن وأماكن

(١) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢١١ .
(٢) محمد عبدالله عنان : تراجم إسلامية ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .
(٣) محمد عبدالله عنان : المرجع السابق ، ص ٢٨١ .

القبائل العربية في الأندلس ، إلى جانب ما أبداه من غزارة العلم وسعة المعرفة بأنساب بني إسرائيل وتواريخهم[1] .

ولاشك أنه كان لما تمتع به ابن حزم من ثقافة واطلاع واسع علي الكثير من العلوم كالفقه والحديث والتاريخ والأنساب أثر فيما توصل إليه من نتائج علمية قيمة في ميدان التاريخ والأنساب وأنه كان لاهتماماته بدراسة كتب اليهود والنصارى أثر في ترسيخ معلوماته عن تواريخ اليهود والنصاري ومعرفتـه العميقــة بمذاهبهــم وطرائقهــم الدينيـة وهــذا ما آزره عنـد دفاعه عن الاسـلام ضد مزاعـم أهـل الديانـات والفـرق الأخـرى كما يلاحــظ فـي كتابــه « الفصل » بالإضافة إلى تسهيل مهمته عند دراسته لأنساب بنـي إسرائيل وتاريخهم في كتابه عن الأنساب .

ولابن حزم كتاب آخر في التاريخ اسمه « نقط العروس » وقد نشر هذا الكتاب مرات عديدة ويضم معلومات مقتضبه عن خلفاء المشرق والأندلس مرتبة فصولا بحسب جوامـع مختلفة تربط بينهم مثل أكثر الخلفاء عمرا ، أو من ولي صبيا منهم[2] .

وبالإضافة إلى ذلك فقد ألف رسالة صغيرة في فضل الأندلس ، ولحسن الحظ فقد حفظت من الضياع وهـي على صغر حجمها ذات قيمة علمية كبيرة ، فهي توضح لنا مـا كان عليه الأندلسيون من علم وأدب ومعارف شتى وما قدموه في حقول المعرفة من تصانيف علمية نفيسة تنم عما بلغته الأندلس آنذاك من ازدهار في ميدان العلوم والآداب[3] .

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، مقدمة المحقق ، ص ١٣ ـ ١٤ .

(٢) آنخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٢٢٠ .

(٣) نظرا لأهمية هذه الرسالة في التعريف بجهود الأندلسيين العلمية وما بذلوه من جهود في ميدان التأليف العلمي في مختلف وجوه المعرفة ، فقد رأينا أن نثبتها في آخر الرسالة كملحق .

وتآليف ابن حزم لتلك الرسالة فيه انعكاس لشخصيته العلمية وما تميز به من علم واسع بجهود علماء بلده ووقوفه على كتبهم ، فهو يشير في أكثر من جانب إلى أنه اطلع على الكثير من تآليفهم كقوله ـ بعد أن أورد عدداً من كتب التاريخ والسير ـ (فقد رأيت من ذلك كتبا مصنفة في غاية الحسن) وكقوله فيما يتصل بالشعر (ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله رأيت منها « أخبار شعراء البيرة »)[1] .

ونظرا لما كان لابن حزم من جهد وافر في ميدان الدراسات التاريخية ، فقد ألف عبدالحليم عويس كتابا في نشاطه العلمي في ميدان التاريخ واسمه : « ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري » ، وهو بلا شك يكشف الكثير عن الجهود العلمية التي بذلها ذلك العلامة البارع في حقل الدراسات التاريخية وما كان له من أثر بارز في ازدهارها .

وكان لصديق ابن حزم عبدالملك بن شهيد إنتاج علمي في التاريخ فقد ألف كتابا فيه ، يبدو أنه كان كبير الحجم غزير الفائدة إذ وصف بأنه يقع في أكثر من مائة سفر في « الأخبار على توالي السنين بدأ به من عام الجامعة سنة أربعين وانتهى إلى أخبار زمانه المنتظمة بوفاته »[2] .

وشارك أهل الذمة في نشاط الحركة العلمية ففي التاريخ ألف الأسقف جودمار الجيروني كتابا بالعربية عن تاريخ الفرنجة[3] .

كما أن حسداي بن إسحاق شبروط الذي تبوأ مكانة سامية في بلاط الخليفة الحكم المستنصر ، كان له دور كبير في ازدهار الحركة العلمية في الطب كما سيأتي ذكره ـ وإلى جانب الطب اتجه إلى دراسة التاريخ فكان له

---

(١) انظر ، المقري : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٣ ـ ١٧٤ ـ ١٧٥ .

(٢) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ .

(٣) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٥٠١ .

في ذلك جهد يارز بما سلكه في بحث الدراسات التلمودية . فينسب إليه أنه أول من فتح لأهل الأندلس من اليهود باب علمهم في الفقه والتاريخ وكانوا قبل ذلك يستندون في معرفة فقه دينهم وسني تاريخهم على إخوانهم من يهود بغداد ، ولكن حسداي كفاهم مؤنة ذلك فاستجلب ما أراد من تواليف اليهود بالمشرق ويسر لهم بذلك معرفة فقههم وتاريخهم[1] .

وأخيراً فإن ميدان التاريخ والتراجم قد حظى من الأندلسيين بكل اهتمام وعناية بالغين فظهر فيهم مؤرخون لامعون استطاعوا أن يمدوا حركة الدراسات التاريخية بالكثير من الجهود العلمية فأثروا بذلك حقل التاريخ والتراجم والأنساب ، وكان للخليفة الحكم المستنصر دور مهم في ازدهار تلك الدراسات بما كان يبذله من جهود في سبيل ازدهارها من حفز للملكات على التأليف والبحث العلمي ، وما يقدمه من عون في سبيل ذلك ، ولا أدل على ازدهار الدراسات التاريخية وتطورها في عصر الخلافة من هذا العرض السابق للمكتبة التاريخية الأندلسية .

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١١٦ ـ إحسان عباس : المرجع السابق ، ص ٦٨



ب ـ الجغرافيـــا

بداية الدراسات الجغرافية وارتباطها بالتاريخ ـ تأثر جغرافيي الأندلس بكتابات هروشيش الجغرافية ـ أبرز الجغرافيين آنذاك .

أحمد بن محمد الرازي وكتاباته الجغرافية ـ محمد بن يوسف الوراق وإنتاجه العلمي ـ أحمد بن عمر العذري وآرائه الصائبة في الجغرافيا ـ أحمد بن سعيد الغياض ـ ابن النظام ـ كتابات ابن سيده الجغرافية ـ ما أورده المجريطي في كتابه غاية الحكيم من معلومات جغرافية .

شهد ميدان الجغرافيا في عصر الخلافة نشاطا كبيرا يتمثل في الجهود الجغرافية التي تنم عن المستوى العلمي الطيب الذي بلغه جغرافيو الأندلس آنذاك .

وإذا كان الجغرافي اللامع عبدالله بن عبدالعزيز البكري الذي ظهر في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي يعتبر عمدة الجغرافيين في الأندلس ، فإن من الحق أن نشير إلى أنه يدين بالكثير من معارفه الجغرافيه لمن سبقه من علماء عصر الخلافة وهو ما سوف يتبين لنا من خلال هذا العرض الذي نقدمه عن النشاط الجغرافي في هذه الفترة موضوع دراستنا .

وكان علم الجغرافيا يرتبط في الكثير من الأحيان بعلم التاريخ ، فقد ظهر في عصر الخلافة فئة كبيرة من المؤرخين البارزين الذين عنوا بالجغرافيا إلى جانب عنايتهم بالتاريخ ، فالكثير من المؤرخين الذين تحدثنا عنهم من قبل كان لهم إسهام جيد في تنشيط الدراسات الجغرافية كالمؤرخ أحمد الرازي ومعاصره محمد بن يوسف الوراق .

والجدير بالذكر أن بعض جغرافيي الأندلس قد تأثروا بما ورد في كتاب هروشيش التاريخي وما تطرق إليه من معلومات جغرافية عن الأندلس كان لها أثر في الدراسات الجغرافية عند الأندلسيين فلم يقتصر الجغرافيون الأندلسيون على المعلومات الجغرافية التي أخذوها عن هروشيش ، بل أضافوا إليها ما اكتسبوه من معلومات توفرت لديهم عن طريق التجربة العلمية من رحلات ومشاهدات للمعالم والظواهر الجغرافية[1] .

ويبدو أن الجغرافيين الأندلسيين حينما تناولوا ما ورد في كتاب هروشيش من آراء عن صفة الجزيرة الايبيرية لم يحاولوا تصحيحها لأنهم كانوا يعتبرونها كمقدمة ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنهم عندما وصفوا جغرافية بلادهم

(١) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس : مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الثالث ، ج ٧ ، ٨ ص ٢١٨ .

سلكوا في ذلك مذهب البلدانيين والمسالكيين ، فقسموا البلاد إلى أقاليم وتحدثوا عن المسالك وأطوالها وذلك بما كان لهم من معرفة ببلادهم وبأقاليمها وبمسالكها[1] .

وعلى الرغم من ظهور طائفة من الجغرافيين البارزين في ذلك العصر ، إلا أن مما يؤسف له أن آثارهم العلمية لم يصلنا منها إلا قطعا متناثرة ونصوصا مبثوثة في بعض المصادر الجغرافية والتاريخية . والتي اعتمد مؤلفوها في بعض جوانب دراساتهم العلمية على آثار أولئك الجغرافيين .

ويأتي في مقدمة جغرافيي عصر الخلافة العلامة أحمد بن محمد الرازي (٢٧٤هـ ـ ٣٤٤ هـ / ٨٨٧ م ـ ٩٥٥ م) الذي كان له دور كبير في رقي الدراسات الجغرافية في الأندلس ، فقد ألف في ذلك كتبا عديدة أبرزها ما ألفه في مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها والأجناد العربية الستة التي نزلها بعد الفتح[2] ، وكان دقيقا في أوصافه الجغرافية فذكر خواص كل بلد منها وما يتميز به عن البلدان الأخرى وضمن ذلك معلومات لا توجد في مصنفات غيره من الجغرافيين[3] .

كما أن كتابه في صفة قرطبة لا يخلو من معلومات جغرافية تتعلق بالصورة الجغرافية للمدينة وتقسيماتها المختلفة مما يلحق الآن بميدان جغرافية المدن .

---

(١) حسين مؤنس : نفس المقال ، ص ٢١٩ .

(٢) يذكر المقرى أنه إبان حكم الوالي أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي كثر أهل الشام الواردين على الأندلس بقيادة بلج بن بشر القشيري وأن قرطبة قد ضاقت بأعدادهم الكبيرة ففرقهم أبو الخطار فأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق ، وأنزل أهل حمص أشبيلية وسماها حمص وأهل قنسرين جيان وسماها قنسرين ، وأهل الأردن ريه ومالقه وسماهما الأردن . وأهل فلسطين شذونه وسماها فلسطين ، وأهل مصر تدمير وسماها مصر (نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢٣٧) .

(٣) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ١٠٤ ـ الضبي : بغية الملتمس ، ص ١٥١ ـ الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ ٧ ، ص ٤٠٢ ـ ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، جـ ٢ ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ـ عبدالرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب ، ص ٢٤٧ .

وقد جانب عبدالرحمن حميدة الصواب في كتابه عن الجغرافيين العرب عندما أشار إلى أن لأحمد بن محمد الرازي كتابا في وصف افريقية والمغرب[1] .

الحق أن ذلك الكتاب من تأليف محمد بن يوسف الوراق كما سيأتي توضيحه فيما بعد ، ولم يعرف للرازي مصنف بذلك الاسم وقد يكون الأمر قد التبس على الأستاذ المذكور . نظرا للاضطراب الواضح في ترجمته لكل منهما فهو يذكر أن أحمد الرازي شرقي المولد ، وهذا مجانب للصواب ، فأبوه محمد هو المشرقي المولد وليس ابنه أحمد كما يذكر الكاتب . وبالإضافة إلى ذلك فهو يشير إلى أن وفاته كانت سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م وهي السنة التي توفي فيها الوراق[2] وأما أحمد بن محمد الرازي فقد كانت وفاته سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م .

وقد تناول أحمد بن محمد الرازي الجغرافيا على أنها علم متمم للتاريخ وما تبقى من نصوص عن معارفه الجغرافيه التي بين أيدينا هي في الغالب مقدمة لكتابة في التاريخ « أخبار ملوك الأندلس » وذلك لأن النصوص الجغرافية الباقية والمترجمة إلى البرتغالية والأسبانية تستطرد إلى الحديث عن ملك الأندلس ومن قطنها من الأمم مثل دخول المسلمين إليها[3] .

ومن المصادر التاريخية التي حفظت لنا نصوصا جغرافية للرازي كتاب المقري نفح الطيب ، حيث أورد المقرى نصاً من أهم ما خلفه الرازي في هذا الميدان عن جغرافية الأندلس ، ففي بداية هذا النص يشير الرازي إلى موقع

---

(١) ص ٢٤٧ .

(٢) انظر أعلام الجغرافيين العرب ، ص ٢٤٧ .

(٣) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الثالث ، ج ٧ ، ٨ ، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦ ، وانظر ما ذكره ج . س . كولان عما قام به كايانكوس من ترجمة نسخة جغرافية للرازي من البرتغالية إلى الأسبانية (الأندلس ، ص ٧١) .

الأندلس ، وأنها في الإقليم الرابع ، وما لها من خواص طبية تتعلق بتربته وخصوبة أرضه وصفاء هوائه ومدى تأثير المناخ في الأثمار والفواكه والنبات ، ثم يتطرق إلى الشكل الجغرافي للأندلس وأنها مثلثة ومعتمدة على ثلاثة أركان . ويصف موقع كل ركن منها ، ثم يصف المناخ وأن الأندلس تنقسم به إلى قسمين في اختلاف الظواهر المناخية من هبوب الرياح ومواقع الأمطار ، وجريان الأنهار ، فهناك أندلسي غربي وأوديته إلى البحر المحيط الغربي ويمطر بالرياح الغربية ، وأندلسي شرقي وتجري أوديته إلى الشرق ويمطر بالرياح الشرقية[١] .

ومن دلائل النبوغ العلمي في الجغرافيا عند الرازي براعته في وصف الظواهر الجغرافية ، حيث أمدنا بفقرتين في غاية الأهمية الأولى عن أنهار الأندلس والثانية عن جباله .

وقد نفى حسين مؤنس أن يكون الرازي ناقلا وصفه للأنهار والجبال عن اليونان أو اللاتين ، لأن ما وصفه هؤلاء عن الأندلس ما هي إلا معلومات متفرقة متناثرة غير منسجمة ، ومن غير المعقول أن يطلع الرازي على كل ما كتبوه من هذه النصوص المتفرقة ثم يجمعه مرتبا منسقا بهذه السهولة . بالإضافة إلى أن أحدا من هؤلاء لم يشر إلى العلاقة بين رياح الأندلس وأمطارها وأنهارها وإلى أهمية هذه الأنهار في الري وأنما تحدثوا فقط عن أهميتها الملاحية توطئة لغزو تلك البلاد فدراستهم بذلك كانت من قبيل الإعداد العسكري لغزو البلاد ، بعكس الرازي الذي يكتب عن بلاده عن علم وخبرة بأحوالها الجغرافية[٢] .

وحظي أحمد الرازي بمنزلة رفيعة بين علماء عصره ومن أتى بعدهم لما اتصف به من علم غزير وعناية بالغة بالتاريخ والجغرافية ، ولما قدم في ذلك من ضروب التآليف القيمة التي تنم عن مكانته العظيمة حتى وصف بأنه أول من

(١) جـ ١ ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ـ ١٣١ . وانظر أيضا . ج . س . كولان ، الأندلس، ص ٧٣ ـ ٧٤ .

(٢) الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الثالث ، جـ ٧ ، ٨ ، ص ٢٥٨ .

أدخل الجغرافيا الإقليمية إلى الأندلس ، وكذلك اشتهر في أوروبا شهرة واسعة حتى عرف هناك باسم Elmore Elrasis(١) .

وقد وصف ابن حزم كتاب الرازي في جغرافية الأندلس الذي تحدث فيه عن مسالك الأندلس ومراسيها بأنه بديع في ميدانه ، وأنه اشتمل على الكثير من المعلومات التي تفرد بها عن غيره من كتب الجغرافيا الأندلسية(٢) .

ومن دلائل تفوق الرازي في ميدان الجغرافيا ، وأهمية ما أورده من معلومات في وصف الأندلس أننا لو أردنا أن نكتب وصفا جغرافيا جامعا للأندلس لما أضفنا شيئا إلى ما ذكره هو . كما أنه لقيمة معلوماته الجغرافية أن اعتمد عليها الأسبان حتى القرن الثالث عشر في حل الكثير من مشكلات التنظيم الإداري التي اعترضتهم فيما استولوا عليه من بلاد المسلمين(٣) .

وهكذا نلمس ما كان عليه أحمد بن محمد الرازي من معرفة واسعة بالجغرافيا ، وأنه بذلك قد أسدى إلى علم الجغرافيا الكثير من النتائج العلمية القيمة التي تضمنتها أبحاثه ودراساته المهمة .

وإذا كان معلوما لدينا أن الرازي أندلسي ولد في الأندلس وعاش بين سهولها وجبالها ومروجها وأنهارها ، فإن من الطبيعي أن يكون منهجه العلمي في ايراد معلوماته منهج المشاهدة والملاحظة وليس المنهج النظري الذي يكتفي العالم فيه بالسماع والرواية عن الغير ، الأمر الذي يوضح مدى ما كانت عليه معلوماته وكتاباته الجغرافية من صحة وصدق .

---

(١) اغناطيوس كراتشكوفسكي : الأدب الجغرافي العربي ، القسم الاول ، ص ٦٩ (والجدير بالذكر أن كراتشكوفسكي لم يوضح تفسيرا للأسم الأول ، ويبدو أنه تحريف لكلمة المؤرخ إذا علمنا أنه كان يطلق عليه صفة « التاريخي » فيقال له أحمد بن محمد الرازي التاريخي) ـ عبدالرحمن حميدة : المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٦٠ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٣) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الثالث ، ج ٧ ، ٨ ، ص ٢٦٧ .

ونظرا لقيمة ماخلفه الرازي من الكتابات الجغرافية في وصف الأندلس ، فقد اعتمد عليها من أتى بعده من الجغرافيين كالبكري الذي اقتبس الكثير عنه فيقول البكري عند تعرضه لبعض الظواهر الجغرافية : (وفي جبل المنتلون الطحلب الذي لا يعدل به ، قال أحمد بن محمد بن موسى الرازي .. وهو المقدم في الافاوة المفضل في أنواع الأشنان لا ينبت في شيء من الأرض إلا بالهند والأندلس ..)[1] .

ولم يكن المؤرخ محمد بن يوسف الوراق بأقل إسهاما في ميدان الجغرافيا من معاصره أحمد الرازي فقد أظهر الوراق مهارة كبيرة في التاريخ والجغرافيا معا ، وكان لما تمتع به من علم واسع أثر كبير في إخراجه الكثير من التصانيف التاريخية والجغرافية الهامة والتي كان لها أعظم الأثر في ازدهار تلك الدراسات ، لا سيما إذا علمنا ما كان يكنه الخليفة الحكم المستنصر للوراق من مودة وتشجيع مكناه من الانصراف إلى البحث والتأليف العلمي ، فمما صنفه الوراق للخليفة الحكم المستنصر من كتب الجغرافية كتاب « مسالك أفريقية وممالكها »[2] ، وكتب أخرى في أخبار مدن أفريقية سبق أن أشرنا إليها عند الحديث عن جهوده في ميدان التاريخ ، وما من شك أن تلك الكتب تضم الكثير من المعلومات الجغرافية المبثوثة بين ثنايا الكتابات التاريخية .

وكان لنشأة الوراق بالقيروان أثر في تعميق معارفه واتساع علمه عن تاريخ وجغرافية افريقية ، فاقامته الطويلة بها ، وحياته بين أجوائها اكسبته

---

(١) المسالك والممالك : تحقيق عبدالرحمن الحجي ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ (وفي الكتاب نصوص أخرى للرازي نقلها عنه البكري) .

(٢) الحميدي : الجذوة ، ص ٩٧ ـ الضبي : البغية ، ص ١٤١ ـ ابن الابار : التكملة ، جـ ٢ ، ص ٦٧١ ـ الصفدي : الوافي ، جـ ٥، ص ٢٥١ ـ ياقوت : معجم الادباء : جـ ٢، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ ـ شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، جـ ٢ ، ص ٧٣ ـ آنخل بالنثيا : المرجع السابق ، ص ٣٠٩ ـ آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ، جـ ٢ ، ص ١٦ .

معرفة بمسالكها وممالكها وما يتصل بذلك من معارف تاريخية وجغرافية ، وهذا أمر لا مبالغة فيه إذا علمنا أن الكثير من جغرافي العرب اعتمدوا على منهج الملاحظة والمشاهدة في ايراد معلوماتهم عن جغرافية البلدان .

ومما يؤسف له أنه بالرغم من غزارة ما كتبه الوراق في التاريخ والجغرافيا إلا أن مؤلفاته لم تسلم من يد الضياع كما ضاعت غيرها من الكتب في مختلف فروع العلم ، ولم يتبق لدينا مما كتبه إلا نصوص متفرقة في بطون الكتب ، ككتاب المسالك والممالك للبكري ، وكتاب البيان المغرب لابن عذاري .

ويعلل حسين مؤنس تقريب الخليفة الحكم المستنصر لمحمد بن يوسف الوراق وتشجيعه على البحث والتأليف في جغرافية أفريقية والكتابة عن مسالكها وممالكها ، بأن الخليفة الحكم المستنصر كان مشغول البال مهتماً بمحاولات الفاطميين بسط نفوذهم على المغرب وأنه وجد في الوراق خير عارف بأحوال المغرب وشئونه فشجعه على البحث والتأليف بغية الاستعانة بما يؤلف في سبيل درء الأطماع عن تلك المنطقة(١) .

والحق أن الخليفة المستنصر وإن كان مهتماً بتحركات الفاطميين السياسية والعسكرية في المغرب إلا أن ذلك لا يعني ـ ونحن نعلم مدى اخلاص الحكم المستنصر للعلم والمعرفة ـ أن تشجيعه للوراق إنما كان لخدمة الأغراض ـ السياسية والعسكرية ، وخاصة إذا علمنا أن عصر الخليفة الحكم كان عهد سلام نسبي ، ولم يكن هناك من الخطر الشديد ما يدعو إلى الارتياع والخوف الذي يدفع الحكم المستنصر إلى تحويل دفة البحث العلمي إلى غير وجهته الصحيحة .

---

(١) انظر مقال : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس : مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الثالث ، ج ٧ ، ٨ ، ص ٢٦٩ .

ويعتبر محمد بن يوسف الوراق أول من صنف في الغرب الإسلامي كتابا بعنوان « المسالك والممالك » ، ومن هذا يتبين لنا أنه كان مسالكيا ، في حين كان أول جغرافي أندلسي وهو أحمد الرازي بلدانيا ، وبالإضافة إلى ذلك يتضح مما اقتبسه البكري عن الوراق أنه هو الذي ابتكر مزج الجغرافية بالتاريخ ، فكان يربط بين جغرافية المكان وما اقترن به من أحداث تاريخية ، وهي طريقة يسير عليها البكري في أجزاء كثيرة من مسالكه[١] .

وظهر في أواخر عصر الخلافة العلامة الجغرافي أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي[٢] من أهل المرية (٣٩٣ هـ ــ ٤٧٨ هـ / ١٠٠٢م ــ ١٠٨٥م) ، وكان له اسهام وافر في أكثر من علم ومن بينها علوم الدين وقد أخذ عنه ابن عبدالبر النمري وابن حزم الظاهري وغيرهما من العلماء[٣] .

وقد أظهر العذري مقدرة فائقة في ميدان الجغرافيا ، فكانت له أبحاثا موفقة ودراسات قيمة ، ولكن الأمر المدهش أن من ترجم له كالحميدي والضبي وابن بشكوال لم يتطرقوا إلى دراساته المتعددة في علم الجغرافيا ، بل اكتفوا بالاشارة إلى تضلعه في علم الحديث وغير ذلك من علوم الدين .

وقد ذكر ابن حزم عددا من علماء الجغرافية في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس ولكنه لم يذكر العذري أو يشير إليه وإلى نشاطه العلمي[٤] .

ولكن المهتمين بالدراسات الجغرافية ذكروه في كتبهم ، فالبكري أشار إليه وإلى كتاب « نظام المرجان في المسالك والممالك » ، وكذلك ذكره العلامة

(١) حسين مؤنس : المقال السابق ، ص ٢٧١ .

(٢) الدلائي نسبة الى دلاية وهي قرية من أعمال المريه . (الحميري : الروض المعطار ، ص ٧٧) .

(٣) ابن بشكوال : الصلة ، ج ١ ، ص ٦٦ ــ ٦٧ .

(٤) انظر رسالة ابن حزم المذكورة في كتاب نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٦٣ ــ ١٧٣ .

الجغرافي المشرقي زكريا بن محمد القزويني (١٢٠٣ م - ١٢٨٣ م) صاحب كتاب « آثار البلاد وأخبار العباد » ونقل عنه الكثير من النصوص الجغرافية المتعلقة بالأندلس .

وقد حفظت لنا قطعة من كتاب العذري قام على تحقيقها عبد العزيز الأهواني وعنوانها نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك .. ، ويشير ضياء الدين الريس إلى أن الأهواني قد أشار في مقدمة دراسته تلك إلى أن الجزء المتبقي يمثل عشر الكتاب ، لأن العذري جعله كتابا كبيرا في المسالك والممالك ، ولكنه في الجزء المنشور لا يسير على طريقة المسالكين ، بل يلاحظ مزجه بين الجغرافيا والتاريخ وأن المادة التاريخية تتخلل كل جزء من أجزاء الكتاب[١] .

وقد حفظ لنا القزويني الكثير من النصوص الجغرافية للعذري ، ويتضح من خلالها ما كان يتمتع به العذري من معارف واسعة وتمكن عميق في الجغرافيا وبراعة فذة في الوصف الجغرافي فهو إذا وصف كورة فعل ذلك في اتقان وشمول وصدق ، وإذا تحدث عن مدينة صورها تصويرا جليا واضحا وضمّن حديثه عنها إشارات مهمة عن أحوال أهلها الاقتصادية والاجتماعية[٢].

ويكفي أن ندرس ما نقله القزويني في كتابه « آثار البلاد وأخبار العباد » عن العذري لنلمس مقدرة العذري الجغرافية وجدارته العلمية بالوقوف في مقدمة جغرافي الأندلس على طول تاريخه[٣] .

---

(١) الكتب نقد وعرض (أحمد بن محمد بن أنس العذري ، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك) تحقيق عبدالعزيز الأهواني مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد سنة ١٩٦٥م .

(٢) ضياء الدين الريس : نفس المقال والصفحة .

(٣) للوقوف على ما أشرنا إليه انظر آثار البلاد ، ص ٥٠٣ - ٥١٢ ، ٥٤٢ - ٥٤٥ .

وظهر في عصر الخلافة جغرافيون آخرون ولكنهم لم يصلوا في مستواهم العلمي وعطائهم إلى من ذكرناهم ، منهم : أحمد بن سعيد بن أبي الفياض (٣٧٥ هـ ـ ٤٥٨ هـ / ٩٨٥م ـ ١٠٦٥م) وكان تلميذا للمقري أبي عمر الطلمنكي ، وقد ألف في حقل الدراسات الجغرافية كتابا يسمى « العبر » نشر ميخائيل الغزيري قطعة منه على أنها للرازي ، كما ألف في الجغرافية أيضاً كتاباً عن « الطرق والأنهار » ولكنه ضاع فيما ضاع من كتب الأندلسيين[1] .

وكان للعلامة عبدالله بن عبدالحكم المعروف بابن النظام نشاط كبير في ميدان الجغرافية وقد اعتمد على ما كتبه في ذلك المؤرخان ابن حيان في المقتبس والمقري في نفح الطيب الذي أورد له الأخير نصاً جغرافياً مهماً حول جغرافية الأندلس وحدودها[2] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ابن سيده الأعمى (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م) ضمن كتابه « المخصص » الكثير من المعارف الجغرافية المتعلقة بالأرض وأوصافها وما يتصل بذلك من خصب وجدب ورمال وانخفاض وارتفاع واستواء وصحة وحرث ، ونبات وكذلك ما يتعلق بالشجر وأوصافها ، والنبات والثمار وغير ذلك من الموضوعات ذات الصلة القوية بعلم الجغرافيا[3] .

ولا شك أن ما ورد في كتاب ابن سيده لدليل واضح على ما تمتع به من علم واسع ليس بميدان اللغة فقط وإنما بمظاهر الحياة وما تحويه البيئة ، وأن ما ورد من معلومات عن النبات في كتابه لهو أكثر ارتباطا بما يدرسه الجغرافيون المحدثون في ميدان الجغرافية الإقليمية .

---

(١) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢١٢ .

(٢) انظر ذلك النص في نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٣) عمر كحالة : العلوم البحتة ، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

وإلى جانب من ذكرنا يقف المطالع لمخطوط « غاية الحكيم » لمؤلفه مسلمة المجريطي على الكثير من المعارف الجغرافية ، كأهمية الوقوف على أسرار الكائنات ، وما تضمه الأرض من الحيوان والنبات والأحجار ، ومعرفة الطول والعرض ، وما تمتاز به بعض بقاع الأرض من أنهار وبحار وتربة وأمطار وثلوج وبراري ، وما يقرب منها من خط الاستواء ، وإلى غير ذلك من المعلومات التي تدخل في حقل الدراسات الجغرافية[1] كما يتحدث في موضع آخر من كتابه عن فصول السنة وهي الربيع والصيف والخريف والشتاء[2] .

وبالإضافة إلى ذلك يضم الكثير من المعلومات عن خواص النبات والمعادن وتأثيرها وما يتداوى به منها[3] كما يحوي إشارات هامه إلى الوسائل الناجحة في عملية التكيف بين الإنسان وبيئته وإزالة ما قد يعيق راحته ويهدد أمنه وسلامته كتواجد الحيوانات السامة والطريقة المثلى للقضاء عليها ، وإزالتها من بيئة الإنسان إلى غير ذلك من المعلومات القيمة المهمة حول البيئة وتأثيرها في الإنسان .

(١) مسلمة المجريطي : غاية الحكيم (مخطوط) ورقة ٢٦٣ أ .
(٢) مسلمة المجريطي : نفس المصدر ، ورقة ٨٨ ب ، ٨٩ أ .
(٣) مسلمة المجريطي : غاية الحكيم (مخطوط) ورقة ٣٠٩ أ .

الرحلات الجغرافية

أبرز من قام بالرحلات الجغرافية ، إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي ـ رحلة الفتيان المغرورين من لشبونة واقتحامهم المحيط الاطلنطي ـ الإشارة إلى رحلة الخشخاش واقتحامه المحيط الإطلنطي مع عدد من رفاقه القرطبيين ـ ممن كان له رحلات جغرافية مطرف بن عيسى الغساني الغرناطي .

نشطـت الرحـلات في القـرون اللاحقـة لعصر الخلافـة حيث برز في ذلك الميدان بعض الرحالة الذين لا تزال شهرتهم تستحوذ على اهتمام الباحثين في ميدان الرحـلات كالرحالة ابن جبير الكناني (٥٣٩ هـ ـ ٦١٤ هـ / ١١٤٤م ـ ١٢١٧م) .

ورغم ذلك فإن عصر الخلافة لم يخل من بعض النشاط في هذا الميدان الحيوي المهم فممن كان له نشاط في ذلك التاجر اليهودي إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي ، وكان عمله الرئيسي جلب الرقيق الأوروبي إلى الأندلس ولعل هذا هو ما فتح له المجال للتجول في أصقاع أوروبا فقام برحلات إلى ألمانيا وبلاد الصقالبة وشمالي أوروبا ، ونظرا لعناية الخليفة الحكم المستنصر بكل ما له صلة بالعلم والمعرفة فقد قرب ذلك التاجر إليه وشجعه على الاستمرار في ارتحاله وكتابة ما يتوصل إليه في ذلك ، ولهذا فقد بعث إبراهيم برسالة إلى الخليفة الحكم المستنصر عن رحلة قام بها إلى ألمانيا أيام الإمبراطور اوتو الكبير على الأغلب ، ومن حسن الحظ أن البكري قد ضمّن كتاباته الجغرافية جزءا كبيرا من رسالة الطرطوشي ، وقد عني بهذا الجزء من رسالة الطرطوشي نفر من المستشرقين ككرنك وروزن وجورج ياكوب فنشروه على حدة وترجموه إلى عدة لغات منها الألمانية والروسية والهولندية[١] .

وفي هذا دلالة علي أهمية ما كتبه الطرطوشي[٢] عن أحوال الشعوب الأوربية وعاداتها إلى غير ذلك من المعلومات الطريفة والمهمة التي توضح لنا ما كانت عليه أوروبا آنذاك .

---

(١) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ـ العدد الثالث ، جـ ٧ ، ٨ ، ص ٢٧٢ .

(٢) الطرطوشي : نسبة إلى طرطوشة ، مدينة أندلسية بشرق الأندلس بينها وبين البحر الأبيض عشرون ميل . (الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٢٤) .

والقطعة التي أوردها البكري من رسالة الطرطوشي تصف رحلته إلى شرق أوروبا وكيف عبر البحر الادرياتي . وأنه وصل إلى بلاد « صقالبة الغرب » وزار براج وشرقي ألمانيا ووصل إلى مجد برج وهي مقر إقامة الإمبراطور أوثو . وكيف التقى مع أعضاء سفارة ملك البلغار ثم سيره بحذاء نهر الألب فبلاد الصقالبة حتى وصل إلى اشغارن على مقربة من البحيرة المسماة بذلك الاسم ، ويجد الباحث صعوبة في تحديد خط سيره بدقة نظرا للتحريف الكبير الذي لحق أسماء المواضع في النص[١] .

والجدير بالذكر أن الطرطوشي في كتاباته الجغرافية قد اتصف بالملاحظة الدقيقة وحب الاستطلاع فكان وصفه رائعا فيما أورده في تلك الرحلة، فهو يقف كثيرا عند وصفه لأعضاء سفارة ملك البلغار فيصف ملابسهم وأخلاقهم وجلالة قدرهم وبأس ملكهم وديانتهم وكيف أن ملكهم حاصر القسطنطينية مما دفع ملكها إلى مداراته وتزويجه ابنته فتنصر من أجل ذلك . وكان اعتماد البكري كبيرا جدا على الطرطوشي فيما يتعلق بوصف أحوال الشعوب الأوروبية والحديث عن بلاد البلغار وعاداتهم[٢] .

وقد حرص الطرطوشي في التثبت مما توصل إليه في رحلته من معلومات جغرافية وأخبار فالبكري يشير إلى ثبوت وجود مدينة النساء نقلا عن الطرطوشي الذي تأكد له ذلك عندما سأل امبراطور الروم أوتو عن ذلك فأخبره بحقيقة وجودها[٣] .

ولأهمية ما خلفه الطرطوشي من كتابات جغرافية قيمة فسنورد نموذجا منها مما نقله البكري عنه في وصف بلاد الجليقيين وعاداتهم المعيشية وأخلاقهم.

---

(١) حسين مؤنس : المقال السابق ، ص ٢٧٣ .

(٢) البكري : المسالك والممالك ، ص ١٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٨ .

(٣) البكرى : نفس المصدر ، ص ١٧٠ .

يقول البكري : (جملة القول في بلاد الجليقيين والإفرنج وغيرهم من قبائل النصارى إلى بلاد الصقالبة وغيرهم على ما أورده إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي ، قال إبراهيم : بلد الجليقيين سهل جميعه والغالب على أرضهم الرمل ، وأكثر قوتهم الدخن والذرة ومعولهم في الأشربة على شراب التفاح (والبشكة) وهو شراب يتخذ من الدقيق ، وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق لا يتنظفون ولا يغتسلون في العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم ، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسادهم وتصح أبدانهم وثيابهم أضيق الثياب ، وهي مفرجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم . ولهم بأس شديد لا يرون الفرار عند اللقاء (في الحرب) ويرون الموت دونه)[١] .

وفي عصر الخلافة الذي تميز برقيه وازدهاره في كل ميدان من ميادين الحضارة وما ترتب على ذلك من اتساع المعارف والرقي الفكري لدى الاندلسيين في ميدان الجغرافيا فقد أدى ذلك إلى رغبة البعض منهم في الوقوف على الحقائق الجغرافية لبعض مظاهر الطبيعة عبر الملاحظة والمعاينة الحسية . فهذه مجموعة من الشبان من مدينة لشبونة وعددهم ثمانية رجال كلهم أبناء عم عزموا على دخول البحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه (فابتنوا مركبا وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر في أول طاروس[٢] الريح الشرقية ، فجروا بها نحوا من إحدى عشر يوما ، فوصلوا إلى بحر غليظ الموج ، كدر الروائح كثير التروش[٣] ، قليل الضوء ،

(١) المسالك والممالك : (جغرافية الأندلس وأوروبا) ، ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٢) طاروس لفظه غير عربية ومعناها هبوب الريح (شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، جـ ١ ، ص ٩٦) .

(٣) التروش قد تكون مأخوذة من فعل ترش أي ساء خلقه فيكون هذا المعنى مناسبا لسياق الكلام (شكيب أرسلان : الحلل السندسية ، جـ ١ ، ص ٩٦) .

فايقنوا بالتلف ، فردوا قلعهم في اليد الأخرى ، وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثنى عشر يوما ، فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وما فيها من الغنم مالا يأخذه عد ولا تحصيل ، وهي سارحة لا ناظر لها ولا راع ، فقصدوا الجزيرة ونزلوها فوجدوا عين ماء جارية ، عليها شجرة تين بري ، فأخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحدهم على أكلها ، فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثنى عشر يوما إلى أن لاحت لهم جزيرة ، فنظروا فيها إلى عمارة وحرث ، فقصدوا إليها ليروا ما فيها ، فما كان إلا غير بعيد حتى أحيط بهم في زوارق، فأخذوا وحملوا إلى مدينة على ضفة البحر، فأنزلوا بها في دار، فرأوا بها رجالاً شقراً زعراً شعورهم سبطة ، وهم طوال القدود ، ولنسائهم جمال عجيب ، فاعتقلوا في بيت ثلاثة أيام ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي ، فسألهم عن حالهم وفيم جاؤوا ، وأين بلادهم ، فأخبروه بكل خبرهم فوعدهم خيراً ، وأعلمهم أنه ترجمان فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم احضروا بين يدي الملك ، فسألهم عما سألهم عنه الترجمان فأخبروه بما أخبروا به الترجمان بالأمس ، وأنهم اقتحموا البحر ليروا ما فيه من العجائب وليقفوا على نهايته ، فلما علم الملك ذلك ضحك وقال للترجمان : اخبر القوم أن أبي أمر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر ، وأنهم جروا في عرضه شهرا إلى أن انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير فائدة تجدى ، ثم وعدهم خيرا وصرفوا إلى موضع حبسهم إلى أن بدأ جري الريح الغربية ، فعمر بهم زورق وعصبت عيونهم وجرى بهم في البحر برهة من الدهر .

قال القوم : قدرنا أنه جرى بنا ثلاثة أيام بلياليها ، حتى جئ بنا إلى البر فأخرجنا وكتفنا إلى خلف ، وتركنا بالساحل إلى أن تضاحى النهار ، وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الكتاف ، حتى سمعنا ضوضاء وأصوات ناس فصحنا بجملتنا فأقبل القوم إلينا فوجدونا بتلك الحال السيئة .

فحلوا وثاقنا وسألونا فأخبرناهم بخبرنا وكانوا برابر . فقال لنا أحدهم : أتعلمون كم بينكم وبين بلدكم ؟ فقلنا : لا . فقال : مسيرة شهرين : فقال زعيم القوم : وآسفي فسمي المكان الى اليوم آسفى ، وهو المرسى الذي في أقصى المغرب)[1] .

ورغم اشتهار هذه الحادثة الجغرافية المهمة عند الكثير من جغرافي المسلمين ابتداءً من الإدريسي ومن أتى بعده من الجغرافيين كالعلامة أبو حامد الغرناطي والعمري والحميري والذين نقلوها أساساً عن الإدريسي وما تتسم به من دلائل الصحة والصدق إلا أن كراتشكوفسكي خلع عليها الكثير من التشكيك والأساطير ، فأشار إلى أن هذه القصة تدخل في حقل الأدب الشعبي للقرون الوسطى ، وأن أحد العلماء وهو دي خويه قد استطاع أثناء تحليله للأساطير الأوربية المبكرة عن رحلة القديس براندان أن يكشف الكثير من نقاط الشبه بين القصتين مما يشير إلى مصدر مشترك[2] .

والحق أن هذه الرحلة التي قام بها الأندلسيون كانت في ميدان الحقيقة أكثر منها في مسرح الأسطورة والإدعاء كما زعم البعض ، بل إن فيما أورده كراتشكوفسكي بصدد هذا الحادث فيه رد عليه وعلى محاولاته في الانتقاص من هذه الخطوة الجريئة للأندلسيين في ميدان الرحلات والمغامرات التي فتحت الباب أمام الكشوفات الجغرافية لقارة امريكا، فيقول كراتشكوفسكي : (ورغما عن هذا فقد اعتقد المتخصصون في جغرافيا العصور الوسطى أن هذه الرحلة ربما ساهمت في الحث على الرحلات المتأخرة التي قام بها الملاحون الاوروبيون

---

(١) الحميرى : الروض المعطار ، ص ١٧ ـ ١٨ .

(٢) الأدب الجغرافي العربي : القسم الأول ، ص ١٣٧ .

في المحـيط الإطلنطي[1]، وفي اعـتـراف هؤلاء رد كـاف على مـزاعم كراتشكوفسكي ودحض لأقواله فإذا كان تأثير هذه الرحلة بهذه الصورة الجلية فمن الأولى أن تنتفي عنها مزاعم الإدعاء والخيال .

ويعلق عمر الدقاق على هذه الحادثه بتسائله عن هؤلاء الأقوام الذين ورد وصفهم في النص بشقرة ألوانهم وشعورهم السبطة وقدودهم الطويلة ـ هل هم السكان الأصليون لقارة أمريكا الذين أطلق عليهم كولومبوس فيما بعد الهنود الحمر ؟ أو ليس من المحتمل أن تكون مسيرة هؤلاء الرحالة عبر البحر هذه المده التي تبلغ ٣٥ يوماً قد قادتهم إلى شواطئ العالم الجديد ؟ وهي مدة كافية للوصول إلى هناك[2] .

وقبل هذه الحادثة كان للأندلسيين مغامرة بحرية ولكنها لم تكن بحجم ماتلاها. فقد أورد المسعودي خبراً عن أحد فتيان قرطبة اسمه الخشخاش وأنه جمع إليه بعض رفاقه من الفتيان المتحمسين وأغراهم باقتحام المحيط الإطلنطي ومعرفة حقيقته وأبعاده فاستعدوا لذلك بتهيئة المراكب والزاد ثم ولجوا المحيط وغابوا مدة طويلة ثم عادوا من رحلتهم بالكثير من الغنائم . وذا ع خبر هذه الرحلة بين الأندلسيين وتناقلوها زمنا طويلا[3] .

ولا نعلم بالتحديد في أي وقت تم هذا الحدث المهم الذي كان فاتحة لمغامرت مشابهة وإن كان كراتشكوفسكي قد أشار إلى احتمال كونها حدثت في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي[4] .

---

(١) نفس المراجع والقسم والصفحة .

ـ في هذا الصدد انظر التعليق المهم الذي كتبه شكيب أرسلان في الحلل السندسية ، ج ١، ص ٩٢ ـ ٩٣ ـ ٩٤ ـ ٩٥ ـ ٩٦ .

(٢) مغامرة العرب عبر بحر الظلمات « الإطلنطي » (مقال نشر بمجلة الفيصل العدد ٤٦ ، ربيع الثاني سنة ١٤٠١ هـ ، ص ٧٠ .

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ١ ، ص ١١٩ ـ عمر الدقاق : المثال السابق ، ص ٦٩ .

(٤) المرجع السابق ، القسم الأول ، ص ١٣٦ .

وفيما تقدم إشارة بيّنة إلى النضوج العلمي والتطلع العميق إلى الحقيقة العلمية لدى أهل الأندلس ، وكيف أن هؤلاء الأشخاص سواء الخشخاش ورفاقه أو من أتى بعدهم كأبناء العمومة السالفي الذكر ، تحملوا أخطار البحر وأعباء الرحلة وأهوالها في ذلك المحيط من أجل الحقيقة العلمية التي سعوا إليها ومعرفة ما يكون عليه بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) وحدود انتهائه .

وهي بلا شك محاولة عظيمة في ميدان الكشف الجغرافي تلاها الكثير من المحاولات الكشفية باقتحام ذلك المحيط والرغبة في معرفة أسراره وما يكون بعده ، وبهذا فالأندلسيون كانوا أول من طرق هذا الميدان ، ولا ريب أن ما توصلوا إليه من معلومات في هذا الميدان قد كشف الستار وأماط اللثام عن الغموض الذي كان يحجب بحر الظلمات ، فاستفاد الأوروبيون من ذلك وبنوا معلوماتهم عن ذلك المحيط على ما وصلهم من العرب في ذلك ، ومن الجحود وغمط الحق أن لا يذكر للمسلمين فضل في اكتشاف القارة الأمريكية وهم أسبق الناس إلى محاولات الكشف الجغرافي لتلك القارة .

ونسب إلى العلامة مطرف بن عيسى الغساني الغرناطي (ت ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م) العديد من الرحلات الجغرافية ، فهو قد قام بالتجوال الطويل في البلدان المختلفة في المشرق وجلب معه إلى الأندلس علما كثيراً ، وكانت له منزلة عالية في بلاط الخليفة الحكم المستنصر ، وألف له كتابا في الجغرافيا اسماه « المعارف ـ في أخبار كورة البيرة وأهلها ، وبوائرها ، وأقاليمها وغير ذلك من منافعها » ووصف هذا الكتاب بالقيمة العلمية الكبيرة وعظم الفائدة(١) .

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ، ج ٢ ، ص ٦٢٢ .

ـ في ط أوروبا « وفوائدها » . وفي ط العطار « وبواديها » نفس المصدر والجزء والصفحة ، ح رقم ١ .

وقد أشار بالنثيا إلى هذا العلامة الجغرافي ووصفه بأنه صاحب رحلات وأسفار[1] ، ولكن للأسف لم تمدنا المصادر التي ترجمت له بمعلومات كافية عن رحلاته وتجوله في البلدان .

وخلاصة القول أن ميدان الجغرافيا والرحلات شهد نشاطا طيبا ، وقد نجم عن ذلك إثراء هذا الميدان بعدد من التصانيف العلمية التي تتضمن ما توصل إليه أولئك الجغرافيون والرحالة من علماء عصر الخلافة من دراسات كانت بمثابة القاعدة لما حدث فيما تلاه من عصور من جهود جغرافية كان لها أعظم الأثر في تطور المعارف الجغرافية وتوسيع آفاق البحث في ميدان الجغرافيا .

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٢٨٦ .

جـ ـ الفلسفة

بداية الاشتغال بالفلسفة وأسباب تأخره ـ أثر الرحلات العلمية بين الأندلس والمشرق في نهضة الدراسات الفلسفية ـ ابن مسرة الفيلسوف وما آل إليه أمره ـ ابن الكتاني ـ ابن البغونش ـ نشاط أهل الذمة في ميدان الفلسفة ـ موقف المنصور من الفلسفة وما نجم عنه ـ ابن حزم ودراساته الفلسفية ودوره في الكشف عن نظرية المعرفة ـ تسخير ابن حزم الفلسفة في دحض آراء الفلاسفة الملحدين .

خلت اسبانيا من الاشتغال بالفلسفة فيما قبل الإسلام ، فلم يعرف عن أهلها الاهتمام بهذا العلم والاشتغال به ، ولم تزل على هذه الحالة عاطلة من الفلسفة حتى فتحها المسلمون ـ ٩٢ هـ / ٧١٠ م ، واستمر الحال على هذه الصورة إلى أن توطد الملك لبني أمية فانصرف الناس إلى العلوم ومن بينها الفلسفة[١] .

ولم تشهد الأندلس قبل عصر الخلافة نشاطا ملحوظا في ميدان الفلسفة إلاّ ما يذكر عن الأمير عبدالرحمن الأوسط من أنه كان مهتما بالعلم وجمع الكتب راغبا فيما يختص منها بالفلسفة وعلوم الأوائل ، وأنه كان يبعث في اقتنائها من خارج الأندلس ، ولهذا ينسب إليه أنه أول من أدخل الفلسفة الأندلس[٢] .

ويمكن أن نرجع السبب في ضعف الاشتغال بالفلسفة في الأندلس فيما قبل عصر الخلافة إلى أمور أهمها : انشغال الأندلسيين آنذاك بالدراسات الدينية كالحديث والفقه والدراسات اللغوية والأدبية ، إذ كانت هذه العلوم جل ما استحوذ على اهتمامهم وعنايتهم ولذلك لم يكن أمامهم متسع لدراسة الفلسفة وعلوم الأوائل .

كما أن الأندلسيين آنذاك كانوا ينظرون للفلسفة نظرة الكراهية وعدم الاستحسان ، بل كانوا ينقمون على من يشتغل بها فهي بهذا : (علم ممقوت بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره فلذلك تخفى تصانيفه)[٣] .

ولا غرابة في ذلك فإن ما عرف به فقهاء المالكية من تشبث بأحكام الشريعة والتزام بها قد دفعهم إلى محاربة كل ما من شأنه الخروج على شرائع

---

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٥٥٦ .

(٣) المقري : النفح ، ج ٣ ، ص ١٨٦ (نقلا عن ابن سعيد في تذليله على رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

الدين وتعاليمه فقد حاربوا علم الكلام بل هاجموا أصحاب المذاهب الأخرى التي تحاول فرض وجودها ، إلى جانب المذهب المالكي في الأندلس وإذا كان الأمر كذلك تبين لنا عمق الكراهية والتبرم الشديد لغير المألوف من المذاهب الدينية والأفكار الفلسفية .

ومن الطبيعي وعلم الفلسفة يتضمن فيما يتضمنه الكثير من الدراسات الفلسفية حول الإنسان والكون والعدم والوجود إلى غير ذلك من المسائل التي تستند في تعريفها وتوضيحها على الاجتهادات العقلية لبعض الفلاسفة ممن لا يعطي جانب الإيمان بالله أي نصيب في ذلك ، وهو أمر يترتب عليه اقحام النفس الإنسانية في ميدان الضلال والانحراف العقائدي ، وبالتالي يتسم العديد من مسائل الفلسفة بسمة الإلحاد والخروج على الدين ، وهذا بلا شك هو الدافع الحقيقي الذي جعل الفلسفة مذمومة ممقوته في نظر الأندلسيين (فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة أطلقت عليه العامة اسم زنديق ... وقيدت عليه أنفاسه فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو أحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت)[1] .

وعليه فإن من كان يشتغل بالفلسفة في الأندلس كان يتهم بالكفر والزندقة وهذا حال بلا شك دون اقبال العلماء في الأندلس على الاشتغال بالفلسفة .

وعلى الرغم من ذلك فقد وجدت الفلسفة في الأندلس أتباعا ودارسين لها، وكان هؤلاء يمارسون الطب ودراسة الفلك والرياضيات وعلم الكلام ، تسترا

---

(١) المقري : النفح ، ج ١ ، ص ٢٢١ ، وانظر في ذلك أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ والسيد عبدالعزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ، ج ٢ ، ص ٢١٦ واحسان عباس : الأدب الأندلسي ، ص ٦٣ ـ وأحمد الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ٣٨٧ .

بتلك العلوم من باب التقية والتخفي تحت ستارها لدرء نقمة العامة والفقهاء عليهم، وهذا ما تلحظه في سير البعض من المشتغلين بالفلسفة كابن مسرة[1] .

وكان للرحلات العلمية إلى المشرق أثر في اقتباس الأندلسيين لما هنالك من تيارات كلامية ، وأفكار فلسفية . وقد سبقت الإشارة إلى ارتحال يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة الى المشرق ولقائه لعلماء الكلام وأخذه كتبهم وتأثره بأفكارهم وأقوالهم ونقله كل ذلك إلى وطنه الأندلس[2] .

كما أن عمرو بن أحمد الكرماني من علماء عصر الخلافة رحل إلى المشرق حيث تلقى علومه في الطب والفلسفة على علماء المشرق ثم عاد إلى الأندلس وهو يحمل رسائل اخوان الصفا ، وقد نسب إليه أنه أول من أدخلها إلى الأندلس[3] .

ومن الحق أن نقول إنَّ عهد الخليفة الحكم المستنصر كان يتسم بالازدهار العام في أبواب المعرفة ومنها الفلسفة ، وكان لعنايته بالكتب واهتمامه بجمعها أن دخلت الأندلس الكثير من الكتب ،من بينها كتب الفلسفة (فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل وتعلم مذاهبهم)[4] .

---

(١) انظر الخشني : تاريخ علماء الأندلس (مخطوط) ورقة ١١٥ ب .

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

(٣) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٧ ـ القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٣ ـ ابن أبي اصيبعه : عيون الأنباء ، ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥ ـ عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، ص ٥٨٩ ـ أحمد الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ٣٨٧ ، آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (على الرغم من أنه يذكر ص ١١ أن مسلمة المجريطي هو الذي نقل رسائل اخوان الصفا إلى الأندلس إلا أنه يعود ، ص ١٧ ، فيذكر أن الكرماني هو الذي أدخلها إلى الأندلس والحق ما أشرنا اليه أعلاه لتضافر المصادر التاريخية على ذلك) .

(٤) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٨٨ .

وهكذا نجد أن الاحتكاك العلمي بين الأندلسيين والمشارقة إلى جانب دخول كتب الأوائل ومن بينها كتب الفلسفة إلى الأندلس قد أثر في انصراف الناس إلى دراسة الفلسفة والاشتغال بها .

وأول من نسب إليه الاشتغال بالفلسفة محمد بن عبدالله بن مسرة القرطبي (٢٦٩ هـ - ٣١٩ هـ /٨٨٢ م - ٩٣١ م) ، وكانت له آراء فلسفية وطريقة انتهجها في بث أفكاره وأقواله بين تلاميذه .

ويشير إليه ابن الفرضي بقوله : (وكان يقول بالاستطاعة ، وانفاذ الوعيد، ويحرف التأويل في كثير من القرآن وكان مع ذلك يدعي التكلم على تصحيح الأعمال ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق في نحو من كلام ذي النون الاخميمي وأبي يعقوب النهرجوري ، وكان له لسان يصل به إلى تاليف الكلام ، وتمويه الألفاظ واخفاء المعاني)[١] .

وكان ابن مسرة قد جلب عليه نقمة العامة وسخط الفقهاء ، فاتهموه بالزندقة والخروج على الدين ، فخرج هاربا من الأندلس إلى المشرق حيث اشتغل بملاقاة أهل الكلام وأصحاب الجدل من المعتزلة وغيرهم ، ثم رجع إلى الأندلس في ثوب الزاهد المتنسك فأقبل عليه الناس ليأخذوا عنه علومه إلا أنه ما لبث أن انكشف مذهبه فانقبض عنه البعض وتمادى البعض الآخر في صحبته والأخذ عنه[٢] .

وقد سبق القول إلى الحديث عن آرائه في علم الكلام وما انتهي إليه أمره وأمر أتباعه[٣] وإذا تعدينا ابن مسرة إلى غيره من المشتغلين بالفلسفة لتبين لنا

(١) تاريخ علماء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ٣٩ .

(٢) ابن الفرضي : نفس المصدر والجزء والصفحة ..

(٣) للوقوف على آراء ابن مسره ومنهجه الفلسفي انظر : الخشني : تاريخ علماء الأندلس (مخطوط) ورقه ١١٥ ب . وصاعد : طبقات الأمم ، ص ٢٨ ، وابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٥٩٢ ، وانخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ ، احسان عباس : الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبه ، ص ٣٤ وما بعدها .

تقيد الكثير منهم بما أملته الشريعة الإسلامية من تعاليم وعدم الخروج عليها ، فمن هؤلاء أبو عبدالله محمد بن الحسن المعروف بابن الكتاني (ت ٤٢٠ هـ - ١٠٢٩ م) الذي كان عارفا بالطب ماهراً في الفلسفة والمنطق ووصف بالذكاء وجودة الفهم في الاشتغال بتلك العلوم[١] .

وكان لهذا الفيلسوف مشاركة جمة في ميدان التأليف فألف العديد من الكتب والرسائل ، وأثنى عليه وعلى تصانيفه في الفلسفة ابن حزم فقال (وأما رسائل أستاذنا أبي عبدالله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة)[٢] .

ولا شك أن ما ذكره ابن حزم حول تداول رسائل الكتاني الفلسفية بين الناس لهو مؤشر هام على ما أصبح للفلسفة من منزلة في الأوساط العلمية الأندلسية .

هذا ويتضح لنا أن الجانب الفلسفي الذي كان يلقى القبول بين الأندلسيين كان فيما يتعلق بالآراء الصائبة في ميدان الأدب والأخلاق ، يدل على ذلك ما أورده ابن حزم عن اسناده المذكور فيقول : (سمعته يقول لي ولغيري : « إن من العجب من يبقى في العالم دون تعاون على مصلحة ، أما يرى الحراث يحرث له ، والبناء يبني له ، والخراز يخرز له ، وسائر الناس كل يتولى فيه شغلا له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة .

أما يستحي أن يبقى عيالا على كل من في العالم ؟ ألاَ يعين هو أيضا بشئ من المصلحة » .

---

(١) المقري : النفح ، ج ٣ ، ص ١٧٥ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٢) المقرى : النفح ، ج ٣ ، ص ١٧٥ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

قال أبو محمد : ولعمري إن كلامه هذا لصحيح ، وقد نبه الله تعالى عليه بقوله : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ فكل ما لمخلوق فيه مصلحة في دينه أو فيما لا غنى به عنه في دنيا فهو بر وتقوى)[1] .

ونلمس من خلال ما تقدم أن ما كان من الفلسفة مختصا بما يوافق الشرع من الحث على محاسن الأخلاق وجميل الآداب فقد قوبل من الأندلسيين بالاستحسان والتقدير . أما ما يتعارض مع العقيدة فكان يلقى المعارضة الشديدة ، والتشهير به وبصاحبه ورميه بالزندقة من الفقهاء والمجتمع الأندلسي .

وكان لأبي عثمان سعيد بن محمد بن البغونش (ت ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢م) آراء في الفلسفة تنم عن براعته فيها وحسن سيرته ، وقد وصفه القاضي صاعد بقوله : (لقيت منه رجلا عاقلا جميل الذكر والمذهب حسن السيرة نظيف الثياب ذا كتب جليلة في أنواع الفلسفة وضروب الحكمة وتبينت منه أنه قد قرأ الهندسة وفهمها والمنطق وضبط كثيرا منه ثم أعرض عن ذلك وتشاغل بكتب جالينوس وجمعها ...)[2] .

ونلمس من خلال سير الكثير من المشتغلين بالفلسفة اتصافهم بحسن السيرة وجميل الأخلاق وهذا بلا شك يعطينا انطباعا عن نوعية الدراسات الفلسفية التي كانوا يدرسونها ومدى تأثيرها في أخلاقهم .

كما وأسهم أهل الذمة في ميدان الفلسفة ، وممن اشتغل بذلك منهم اسحاق قطار (ت ٤٤١ هـ / ١٠٥٦م) وكان ماهرا في المنطق عارفا بالفلسفة ملماً بمسائلها[3] .

(١) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٤٩ .

(٢) طبقات الامم ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٣) صاعد : نفس المصدر ، ص ١١٧ .

وكان يماثله في ذلك الفيلسوف والطبيب اليهودي منجم بن الفوال السرقسطي الذي عاصر أحداث الفتنة التي اجتاحت قرطبة عقب زوال النفوذ العامري ، وكان يتمتع بعلم واسع في الطب والمنطق وسائر علوم الفلسفة ، بالإضافة إلى نشاطه في مجال التأليف فقد ألف في الفلسفة كتابا اسماه « كنز المقال » رتبه على المسألة والجواب وضمنه معارف جمة في قوانين المنطق واصول الطبيعة(١) .

وعندما تولى الحاجب المنصور بن أبي عامر الأمر في عهد الخليفة هشام ابن الحكم (عمد اول تغلبه عليه إلى خزائن أبيه الحكم الجامعة للكتب .. وأبرز ما فيها من ضروب التأليف بمحضر خواص من أهل العلم والدين وأمرهم بإخراج ما في جملتها من كتب العلوم القديمة المؤلفة في علوم المنطق وعلوم النجوم وغير ذلك من علوم الأوائل حاشا كتب الطب والحساب فلما تميزت من سائر الكتب المؤلفة في اللغة والنحو .. أمر بإحراقها وإفسادها ، فأحرق بعضها وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها بالتراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغيير ، وفعل ذلك تحببا إلى علوم الأندلس وتقبيحا لمذهب الخليفة الحكم عندهم(٢) .

ومن الحق أن نقول أن الحاجب المنصور رغم ما استهدفه من عملية إبادة كتب الفلسفة هو اكتساب ثقة الفقهاء توطيدا لمكانته السياسية إلا أن ذلك لا يعني بالضرورة أنه كان مشجعا لتلك الدراسات مؤيدا لأهلها من الفلاسفة يعمل على ذلك ما وصفه به المؤرخ ابن عذاري من أنه كان أشد الناس معاداة لمن علم أن لديه شئ من الفلسفة والجدل في الاعتقاد وممارسة علم التنجيم والاستخفاف بشئ من الشريعة الإسلامية(٣) .

---

(١) البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

(٢) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ـ زكريا هاشم : فضل الحضارة الإسلامية على العالم ، ص ٥٥٦ .

(٣) البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

وكـان من نتـائج مـوقف المنصـور هذا من الفلسـفـة أن ضـعف نشـاط الفـلاسفـة واضـمـحل انتاجـهم العلمي فـآثر الكثير منهم السكون والبعد عن الاشتغال بمسائل الفلسفة كما تستر الكثير منهم بالاشتغال بعلوم أخرى كالطب والرياضيات ولم يعودوا إلى نشاطهم إلا بعد زوال الخلافة الأموية(١) .

وبالإضافة إلى ذلك فقد آثر الكثير من الفلاسفة الهجرة إلى خارج وطنهم الأندلس وفي مقدمتهم الفيلسوف عبدالرحمن بن اسماعيل المعروف بالاقليدي الذي كان ماهرا في علمي الفلسفة والمنطق حاذقا فيهما ، فلما وقف المنصور موقفه المعادي للفلسفة اضطر خوفا على نفسه إلى الرحيل إلى المشرق(٢) .

كما أن الفيلسوف سعيد بن فتحون المعروف بـ « الحمار » السرقسطي كان له نشاط وافر في ميدان الفلسفة والأدب واللغة والموسيقى . وقد ألف في الفلسفة كتابا في المدخل إلى علوم الفلسفة أسماه « شجرة الحكمة » وصنف رسالة في تعديل العلوم ، وقد نال هذا الفيلسوف على يد الحاجب المنصور شيئا من التنكيل حيث سجنه ثم أطلقه بعد ذلك مما كان له أثر علي نفسيته فخرج من الأندلس إلى صقلية(٣) .

والجدير بالذكر أن هذا الفيلسوف كان له مكانة علمية رفيعة وانتاج علمي نفيس استطاع به أن يحتل منزلة سامقة بين علماء عصره حتى قال فيه ابن حزم (وأما الفلسفة فانني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار دالة على تمكنه من هذه الصناعة)(٤) .

---

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ـ زكريا هاشم : فضل الحضارة الإسلامية على العالم، ص ٥٥٦ .

(٢) صاعد : نفس المصدر ، ص ٩١ ـ القفطي : تاريخ الحكماء ، ص ٢٢٥ .

(٣) صاعد : طبقات الامم ، ص ٩٢ .

(٤) المقري : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٥ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

وفي أواخر عصر الخلافة برز العلامة ابن حزم في ميدان الفلسفة كما برز في علوم أخرى وكانت له آراء وأقوال قيمة في الفلسفة ضمنها كتاب (الفصل في الملل والنحل) فعندما طرق ميدان الفلسفة في كتابه المذكور بدأ بتعريفها بقوله : (الفلسفة في الحقيقة إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود بتعلمها ليس هو شيئا غير إصلاح النفس بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد ، وحسن السياسة للمنزل والرعية وهذا نفسه لا غير هو غرض الشريعة)[1] .

والعلم والمعرفة عند ابن حزم اسمان لمعنى واحد ، وهو اعتقاد الشئ على ما هو عليه وتيقنه به وارتفاع الشك عنه ، وسبل المعرفة عنده أربعة :

١ ـ النصوص من القرآن والأحاديث النبوية .

٢ ـ ما أوجبته اللغة من المعاني التي تحملها الكلمات وما اصطلح عليه العرب من الفهم عند سماع هذه الكلمات .

٣ ـ الإكتساب « بالاختيار » ونقل التواتر .

٤ ـ الحس بالبديهة والعقل[2] .

ولا شك أن ابن حزم بما توصل إليه من آراء صائبة في ميدان الفلسفة قد حل أعظم مشكلة في تاريخ نظرية المعرفة ، وهي المشكلة التي تشدق مؤرخو الفلسفة الأوروبية بأنهم قد توصلوا إلى حلها بواسطة فيلسوفهم الألماني كانط Kant (ت ١٨٠٤ م) الذي كانت تشغل باله الإجابة على السؤال الآتي : « كيف تكون الأحكام المبنية على الاختيار الحسي ممكنة البديهة ؟ وقد توصل إلى حل ذلك بتوضيحه أن المعرفة التي نعتقد أننا قد عرفناها بواسطة بديهة العقل Apriori راجعة إلى الحواس في زمن متقدم ثم سمي ذلك

(١) ج ١ ، ص ٩٤ .

(٢) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ، ص ٥٩٦ ـ ٥٩٧ .

Apriori Aposteriori ولم يعلم أن ابن حزم الأندلسي الذي عاش قبله بسبعة قرون قد وقف أمام هذه المشكلة ثم حلها حلا لا يقصر عما توصل إليه اللهم إلا في بسط القول وشكل المنطق اللذين امتاز بهما كانط مع أسبقية ابن حزم في ميدان الكشف العلمي[1] .

والجدير بالذكر أن ابن حزم قد عالج الكثير من القضايا المتعلقة بالكون وما فيه في أسلوب فلسفي مقنع مؤيدا أقواله بالنصوص الكريمة من القرآن والسنة وأقوال العلماء .

ومن الحق أن نقول أن ابن حزم قد أظهر نبوغا مدهشا في كتابه الفصل الذي ضمنه الكثير من آرائه الفلسفية والتي استهدف منها الدفاع عن التعاليم الإسلامية والذود عن حمى الشريعة ، وبذلك كان ابن حزم فيلسوفا إسلاميا لامعا ، بل إنه يعد أفضل الفلاسفة في عصره بما قدمه من جهود رائعة في تسخير هذا العلم كأداة لدحض مزاعم خصوم الإسلام من الفلاسفة الملحدين وغيرهم من أهل الضلال هذا إلى جانب توصله إلى نظرية المعرفة التي تعد من أعظم النظريات الفلسفية .

وبهذا يتبين أن ميدان الفلسفة في عصر الخلافة كان نشاطه مقيدا بما يوافق تعاليم الشريعة الإسلامية ويلائم نصوصها ، ولعل ظاهرة خروج الفيلسوف ابن مسرة على تعاليم الدين وما لاقاه من تنكيل هو وأتباعه كان له أثره في انصراف الكثير من العلماء الفلاسفة عما يتعلق بالعقائد وما لا يوافق الشرع إلى دراسة مظاهر السلوك الإنساني كالأخلاق والآداب ، فكان لبعضهم آراء صائبة وأقوال حكيمة في ذلك .

---

(١) عمر فروخ : المرجع السابق ، ص ٥٩٧ ـ ٥٩٨ ـ قدري طوقان : العلوم عند العرب ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

ـ للاستزادة من التوضيح انظر ابن حزم : الفصل ، ج ١ ، ص ٥ ـ ٧ ، ج ٣ ، ص ١٠٧ ـ ١٠٨ وج ٥ ، ص ١٠٨ ، عمر فروخ : تاريخ الفكر الغربي ، ص ٥٩٧ .
وكتابه الآخر عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ١٤٦ ، وما بعدها .

وبعد هذا العرض للنشاط العلمي للأندلسيين في ميدان العلوم الإنسانية من تاريخ وجغرافيا وفلسفة نخلص إلى القول أن هذه العلوم لقيت نشاطا ملحوظا من علماء الأندلس ، فلم يكونوا في عطائهم هذا لما ذكرناه من علوم بأقل مما منحوه للعلوم الأخرى ، ولا نرمي القول جزافا فإن المكتبة الإسلامية في عصرنا هذا تشهد بعطائهم الخصب في هذه الميادين العلمية .

والحق أن الأندلسيين أظهروا براعة مدهشة في مجال التاريخ بما أثروا به هذا الميدان من دراسات وبحوث علمية قيمة في مقدمتها ما نراه ماثلا أمامنا من ضروب التآليف التاريخية في ميدان التراجم والتاريخ . وأن فيما اعتمدنا عليه في كتابة هذا البحث من مصادر التاريخ الأندلسي لشاهد قوي علي ما ذهبنا إليه ، ويكفي الأندلسيون فخرا أن ظهر فيهم من هو في طبقة ابن الأثير والمسعودي ، وهو المؤرخ البارع ابن حيان الأندلسي الذي يعود الفضل الأول في ظهور قدراته العلمية إلى ما تميزت به البيئة الأندلسية من علم ومعرفة وما توفر فيها من أجواء كفلت لمواهبه العلمية النمو ومنحت شخصيته العلمية البروز ، كما أن فضل من سبقه من المؤرخين لا ينكر كأسرة الرازي التي كانت من أعظم الأسر العلمية عطاء في ميداني التاريخ والجغرافيا .

وفي الجغرافيا أثبت الأندلسيون مقدرة واسعة رغم ضياع الكثير من تآليفهم إلا أن ما بقى بين أيدينا منها فيه دليل علي ازدهار الدراسات الجغرافية آنذاك ، وما ذكرناه من جهودهم في هذا الصدد ليؤكد ما أشرنا إليه، ولعل من عوامل تألق عمدة جغرافي الأندلس أبو عبيدة البكري اعتماده على جغرافي عصر الخلافة كالوراق وأحمد الرازي والطرطوشي وغيرهم .

وفي ميدان الفلسفة فقد أظهر الأندلسيون نبوغا واضحا بالرغم مما اعترض اشتغالهم بهذا العلم من عقبات أشرنا إليها إلا أن الكثير من علماء الفلسفة الأندلسيين التزموا في أبحاثهم الفلسفية البعد عما يخالف الشرع وما قدمه ابن حزم الأندلسي في هذا العلم من ابتكاره نظرية المعرفة فيه دليل على مقدرتهم الواسعة على خوض هذا الميدان والخروج بنتائج علمية لا تزال موضع إعجاب الباحثين ومناط اهتماماتهم العلمية .

الفصل الرابع

العلوم التجريبية

١ ـ الطب .

٢ ـ الرياضيات والفلك .

٣ ـ الكيمياء .



١ ـ الطب

بداية الدراسات الطبية ـ دخول كتب الطب المختلفة إلى الأندلس ـ اشتغال بعض الأطباء بالطب لدى الخلفاء كأصبغ بن يحيى ، ويحيى ابن إسحاق ، وابن الكتاني ، أبرز أطباء عصر الخلافة ـ خلف بن عباس الزهراوي وانتاجه العلمي القيم وخاصة في ميدان الجراحة ـ عريب بن سعيد وكتابه « خلق الجنين » ـ سليمان بن حسان ، وبراعته في الصيدلة ـ ابنا يونس الحرانيى وطب العيون .. وغيرهم .

١ ـ الطب :

يعتبر علم الطب وما يلحق به من علوم أخرى كالصيدلة من أبرز العلوم التي حازت على اهتمام وعناية الأندلسيين . بل لا نغالي إذا قلنا أن الطب يأتي في مقدمة العلوم الطبيعية من حيث النشاط ووفرة الإنتاج العلمي في الأندلس .

وقد سبقت الإشارة إلى بداية اشتغال الأندلسيين بالطب ، وأنهم كانوا قبل عصر الخلافة أقل دراية ومعرفة بميدان الطب ، وكيف أنهم كانوا يعولون في دراستهم لمسائل الطب على كتاب مترجم من كتب النصارى يقال له « الابريشم » أي الجامع(١) .

ويتضح لمتتبع حركة الدراسات الطبية قبل عصر الخلافة أن أكثر المشتغلين بالطب آنذاك كانوا من أهل الذمة ، وهذا بلا شك يأتي تأكيدا لما جبل عليه المسلمون من تسامح كريم في معاملة أهل الذمة وافساح المجال أمامهم للتزود من المعرفة والثقافة ، وممارسة نشاطهم العلمي في أمان ويسر .

وفي عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر أخذت حركة الاشتغال بالطب تأخذ أبعاداً جديدة « فتتابعت الخيرات في أيامه » ودخلت الكتب الطبية من المشرق ، وجميع العلوم ، وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين(٢) .

وقد كان للتيارات الثقافية الواردة على الأندلس أثر في النهوض بالطب والرقي بدراساته المختلفة ، وهو ما أشار إليه ابن جلجل كظاهرة علمية حدثت في عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر .

---

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ٩٢ ـ صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ ـ إحسان عباس : الأدب الأندلسي ، ص ٧٤ .

(٢) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .

من أهم تلك الكتب كتاب « زاد المسافر » الذي نقله العلامة عمر بن بريق . وكان ابن بريق من أمهر الأطباء في الأندلس . وحدث أن خرج إلى أفريقية فدرس الطب على يد الطبيب القيرواني المشهور أبي جعفر بن الجزار ولازمه مدة ستة أشهر ثم عاد إلى الأندلس وهو يحمل كتاب ابن الجزار المذكور[1] .

ومن الكتب الطبية التي دخلت الأندلس وكان لها أثر في دفع عجلة الدراسات الطبية ورقيها كتاب في النباتات الطبية لديسقوريدس[2] .

وكان ذلك الكتاب قد ترجم في المشرق في العصر العباسي على يد الترجمان اصطفن بن يسيل ولكنه لم يتكمن من ترجمة كل الأسماء الواردة في ذلك فأبقاها على حالتها باللغة اليونانية ، ثم دخل الكتاب بصورته تلك إلى الأندلس فانتفع به أطباء الأندلس. وفي سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨م بعث الإمبراطور البيزنطي أرمانوس إلى الخليفة عبدالرحمن الناصر بهدايا نفيسة ومن ضمنها كتابين : الأول وهو كتاب ديسقوريدس مصورة فيه الحشائش تصويرا رائعا ، وكتاب هروشيش باللاتينية في التاريخ ـ وقد سبق الحديث عنه في ميدان التاريخ . ولما لم يكن لدى الناصر من يجيد اللغة اليونانية فقد ظل كتاب ديسقوريدس متداولا بين الناس بترجمة اصطفن .

---

(١) ابن جلجل المصدر السابق ، ص ١٠٧ ـ صاعد : المصدر السابق ، ص ١٠٦ ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٠ ـ ٤٩١ .

(٢) يتألف هذا الكتاب من خمس مقالات :

الأولى : في اذكر أدويه عطريه الرائحة وأدهان وصموغ .

الثانية : في ذكر الحيوان ورطوباته والحبوب والبقول .

الثالثة : أصول النبات والنبات الشوكي وبذور وصموغ وحشائش مزهره .

الرابعة : في ذكر أدوية أكثرها حشائش بارده وحاره ومسهله ومقيئه ومابنفع منها للسموم .

الخامسة : ذكر الكرم وأنواع الأتربة والأدويه المعدنية .

(عمر كحاله : العلوم البحته ، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨) .

أما النسخة المرسلة فقد بقيت في مكتبة الخليفة عبدالرحمن الناصر حتى بعث إلى إمبراطور الروم رسالة يطلب فيها أن يبعث إليه من يجيد اليونانية ليتسنى له الاستفاده من ذلك الكتاب ، فبعث براهب يدعى نقولا سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م فاجتمع مع بعض الأطباء الأندلسيين أمثال حسداي بن شيروط ، ومحمد الشجار ، وعالم آخر يعرف بالبسباسي ، وأبو عثمان الجزار المعروف باليابسة ، ومحمد بن سعيد ، وعبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم ، وأبو عبد الله الصقلي وكان يجيد اليونانية عارفا بخواص الأدوية(١) .

وقد أشار ابن جلجل إلى عملية الترجمة هذه بقوله : « فصح يبحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس تصحيح الوقوف على أشخاصها بمدينة قرطبة خاصة بناحية الأندلس ما أزال الشك فيها عن القلوب وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف إلا القليل منها الذي لا بال له ولا خطر له ، وذلك يكون في مثل عشرة أدوية(٢) .

وبناء على ذلك فقد كان لكتاب ديسقوريدس أثر هام في اتساع افق الدراسات الطبية وما يتعلق بالنباتات وتركيب الأدوية . ولم يكن الأندلسيون ليقفوا موقف الأخذ والتسليم بما يروهم من علوم عن الأمم الأخرى بل كانوا يدرسون إنتاج غيرهم بنظر ثاقب وتمحيص دقيق فيأخذون ما يصح لديهم وينبذون ما عداه ويضيفون الكثير من الايضاحات والشروح إذا لزم الأمر وهو

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٩٤ ـ زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ .

Titus Burckhardt Moorish Culture in Spain P. 69

زكريا هاشم : المرجع السابق ، ص ٤٦٣ ـ ٤٦٤ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٤ .

ما فعلوه بكتاب ديسقوريدس . فقد درس أحد أطباء الأندلس وهو سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل ذلك الكتاب فلاحظ أن ديسقوريدس قد أغفل ذلك ولم يذكره إما لأنه لم يره ولم يشاهده عيانا وإما لأن ذلك كان غير مستعمل في دهره وأبناء جنسه[1] .

وكان الخلفاء يحرصون على أن قصورهم عددا من الأطباء البارعين لحاجتهم إليهم في مجال العلاج الطبي وفيما يحسن تناوله من الأغذية والأشربة ولهذا نلحظ عند دراستنا للطب آنذاك اشتغال الكثير من الأطباء بخدمة الخلفاء والحكام وممارستهم الطب داخل قصورهم .

فمن أولئك الأطباء أصبغ بن يحيى القرطبي الذي خدم بالطب الخليفة ـ عبدالرحمن الناصر[2] .

كما اشتغل بخدمة الخليفة عبدالرحمن الناصر من الأطباء عمر بن بريق الذي كان يعينه في تحضير الأدوية وتركيبها عدد من الأتباع[3] .

ومن بين الأطباء في قصر الخليفة عبدالرحمن الناصر الطبيب سليمان بن باج الذي عرف بالتمكن العميق في الطب وتركيب الأدوية . وحدث أن تعرض الخليفة إلى رمد في عينه فوصف له علاجا ناجحاً عوفي به من مرضه ، وقد وصف سليمان بالتحفظ الشديد على أسرار عمله حتى أن الخليفة عبدالرحمن طلب منه الوصفة العلاجية السابقة فأبى ذلك[4] .

---

(١) ابن ابي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٥ .
(٢) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ١٠٨ ـ ابن الابار : التكملة ج ١ ، ص ٢٠٦ .
(٣) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١٠٧ ـ صاعد : طبقات الامم ص ١٠٦ .
(٤) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٨٩ ويسميه ابن تاج بخلاف ابن جلجل .

وقد نال الطبيب يحيى بن إسحاق مكانة رفيعة لدى الخليفة عبدالرحمن الناصر ، ونظرا لعلمه الواسع وسيرته الحسنة أن قلده الوزارة . وكان يحيى ماهرا في الطب فألف فيه كتابا على نهج الاقدمين سماه (الابريشم)[1] .

ويبدو أنه قد استحدث نظام جديد للأطباء المشتغلين بخدمة الخلفاء وذلك في عصر الخليفة الحكم المستنصر ، فقد أنشئ ديوان يضم أولئك الأطباء وينزلهم درجات متفاوتة حسب قدراتهم وكفاءاتهم ومن هؤلاء الطبيب أحمد بن حكم ابن حفصون الذي اشتغل بخدمة الخليفة الحكم المستنصر . وكان قد قدمه في ديوان الأطباء الحاجب جعفر الصحفي . ونال ابن حفصون مكانة عالية بين أطباء البلاط فلما مات جعفر أسقط ذلك الطبيب من ديوان الأطباء ، مما أثر على منزلته العلمية والاجتماعية فبقي خامل الذكر حتى وفاته[2] .

ولحق بخدمة الخليفة الحكم المستنصر أبو بكر أحمد بن جابر وكان كبير المنزلة عند الخلفاء معظما لديهم ، ومثله أيضا الطبيب أبو عبدالملك الثقفي الذي جمع بين المهارة في الطب والبراعة في الهندسة ، وكان عالي المقام لدى الحكم المستنصر[3] .

وفي عصر الخليفة هشام المؤيد برز بعض الأطباء في بلاطه وفي مقدمتهم الطبيب الذائع الصيت سليمان بن حسان « ابن جلجل » ، وسوف نفصل الحديث عنه فيما بعد .

ونال الطبيب الفيلسوف محمد بن الحسين المعروف « بابن الكتاني » مكانة سامية في بلاط الحاجب المنصور بن أبي عامر وخدمه وابنه عبدالملك

---

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ١٠٤ ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ .

(٢) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١١٠ ـ صاعد : المصدر السابق ص ١٠٦ ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٢ .

(٣) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ١١١ ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٢ .

المظفر بالطب، ولما وقعت الفتنة انتقل إلى سرقسطة حيث توفي بها سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م[١] .

كما أن الطبيب عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم حظي بمنزلة عالية لدى الحاجب المنصور . ووصف ذلك الطبيب بالمعرفة الواسعة بالطب وتركيب الأدوية المسهلة والمقيئة « والاقتصاد والايجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد »[٢] و « الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء » وهذا الكتاب ألفه بناء على رغبة الحاجب المنصور بن أبي عامر[٣] كما ألف أيضا من الكتب كتابا في السموم[٤] .

وهكذا نلمس ما كان يحتله بعض أطباء ذلك العصر من مكانة عالية لدى الخلفاء وأن ارتباطهم العملي بخدمة الخلفاء قد دفعهم إلى مزيد من الدراسات العلمية التي تعلي مكانتهم وترفع شأنهم أكثر في بلاط الخلفاء . ولا أدل على ذلك مما ألفه الطبيب ابن جلجل من تآليف طبية ، وكذلك ابن الهيثم وغيرهما مما ذكرنا من الأطباء المشتغلين بخدمة الخلفاء .

ولعل من دلائل النهوض العلمي في ميدان الطب ونشاط علمائه أن كان الكثير من الأطباء يمارس هذه المهنة في صورة تشابه ما عليه حال أطباء هذا العصر من الاشتغال فيما يسمى بالعيادات الطبية التي يردها المرضى للعلاج ، فقد كان الطبيب ابن ملوكه النصراني يشتغل بمداواة المرضى وعلاجهم

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٩٣ ـ أحمد عيسى : معجم الأطباء ، ص ٢٧٤ .

(٢) ابن الجزار : أحمد بن إبراهيم من ألمع أطباء أفريقية وهو من أهل القيروان ، (ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق، ص ٤٨١) ، وقد مر ذكر ابن الجزار في بداية الحديث عن الطب ، فانظر ذلك .

(٣) جانب البغدادي الصواب في كتابه هدية العارفين عندما ، أشار إلى أن وفاة ابن الهيثم سنة ٣٤٠ هـ . فكيف يصح هذا وهو قد ألف للمنصور أحد كتبه في الطب والمنصور تولى الأمر بعد وفاة الخليفة الحكم سنة ٣٦٦ هـ .

(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٣ ـ آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٦٣ .

وخصص لذلك داراً يستقبل فيها المرضى ووضع على باب تلك الدار ثلاثين كرسيا لجلوس الناس وانتظارهم العلاج[١] .

وهذا بلا شك يعطينا صورة واضحة لما كان عليه أطباء ذلك العصر من مراعاة تامه للناس والتزام عميق بالتنظيم والتنسيق في أداء عملهم وممارسة نشاطهم .

وفي ذلك العصر برز الكثير من الأطباء ممن عنوا بالطب وما يتعلق به من دراسات مختلفة ، كدراسة النباتات الطبية وتركيب الأدوية مما يدخل تحت مسمى « الصيدلة » .

ونظرا للأعداد الكبيرة من الأطباء الذين عاشوا في عصر الخلافة ، فإن حديثنا سيكون مقتصرا على أبرزهم ممن كان لهم دور فعال في ازدهار الطب ورقي دراساته .

ويأتي في مقدمة هؤلاء الأطباء الطبيب اللامع خلف بن عباس الزهراوي[٢]، ويكنى أبو القاسم ويعرف في اللاتينية « بأبو الكاسيس »، Abulcasis[٣] ولا نعلم بالتحديد تاريخ ولادته فلم يشر إلى ذلك أولي التراجم الأندلسية كالحميدي أو الضبي أو ابن بشكوال ، وقد اكتفى أولهم بالإشارة إلى وفاته بعد الأربعمائة[٤] .

ونظرا لعدم وضوح تاريخ مولده ووفاته في كتب التراجم المشار إليها ، فقد ظهر الاختلاف بين الكتاب والمؤرجين المحدثين في ذلك ، حتى إن بعضهم

(١) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ٩٧ ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٦ .

(٢) نسبة إلى مدينة الزهراء بناها الناصر عبدالرحمن وبينها وبين قرطبه خمسة أميال (الحميري : الروض المعطار ، ص ٩٥) .

(٣) Titus Burkhard : OP . CIT , P . 69

سيد حسين نصر : العلوم في الإسلام ، ترجمة مختار الجوهري ، ص ١٤٥ .

(٤) الجذوة : ص ٢٠٩ .

اشتط في الخروج عن حقيقة الأمر بأن أشار إلى وفاته (٥٠٠ هـ / ١١٠٦م) ومنهم غوستاف لوبون ، وحسن إبراهيم حسن و Titus Burckhardt[١] .

ومهما يكن من أمر فمن المؤكد أن الزهراوي كان حيا في القرن الرابع الهجري : العاشر الميلادي[٢] وهو ما يؤكده ابن حزم عند كلامه عن فضل الأندلس وجهود علمائه فيقول مشيدا بكتاب الزهراوي في الطب (وكتاب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي وقد أدركناه وشاهدناه ولئن قلنا أنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لتصدقن)[٣] .

ويتضح من كلام ابن حزم أن الزهراوي عاش في عصر الخلافة ، فقد أدركه وشاهده ، ابن حزم كما هو معروف عاش فترة كبيرة من عمره في عصر الخلافة ، وإن ما ورد في النص السابق بلفظ « ادركناه » لفيه دلالة على أن مشاهدة ابن حزم له تمت والزهراوي في أواخر عمره ، أي أنه قضى أكثر عمره في عصر الخلافة ، وهذا بلا شك دليل قوي على معاصرة الزهراوي لتلك الفترة ، هذا بالإضافة إلى إشارة الحميدي إلى أن وفاته كانت بعد الأربعمائة أي أنه قضى شطرا كبيرا من عمره في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . ومما يدعم هذا الرأي ما ذكره عنه آنخل بالنثيا أنه ولد سنة ٤٢٤ هـ / ٩٣٥ م ، وتوفي سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م[٤].

---

(١) انظر كتبهم بالترتيب ، حضارة العرب ، ص ٤٩٠ ـ تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٥٢١ ـ
Moorish Culture in Spain. P. 70.

(٢) لتاكيد ذلك انظر خالد ناجي : الزهراوي وعمليات الغدة الدرقية ، مجلة المؤرخ العربي ـ العدد السادس عشر ١٩٨١ م ـ ص ١٨٥ .
ـ في بقية المصادر والمراجع يسمى « عباس » .

(٣) المقري : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٥ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٤) تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٦٦ .

ويعد خلف بن عباس الزهراوي من أعظم الأطباء في الإسلام بل لا نبالغ إذا وصفناه بأنه أنبغهم في ميدان الجراحة الطبية على الاطلاق ، فقد كان له باع طويل في ازدهار الجراحة الطبية ووضع الأسس العلمية الصحيحة لذلك المجال الحيوي المهم من الطب .

وكان الزهراوي جم النشاط في اشتغاله بالطب ماهر التصرف في فنون الجراحة متضلعا في معرفة دقائقها ، وقد ألف في ذلك كتابا عظيم الفائدة كبير النفع أسماه « التصريف لمن عجز عن التأليف » وأشار في مقدمة الكتاب إلى سبب تسميته بذلك فقال : (إنما أسميته بذلك لكثرة تصرفه بين يدي الطبيب وكثرة حاجته إليه في كل الأوقات وليجد فيه من جميع الصفات ما يغنيه عن التأليف)[1] .

ويتضح لمن اطلع على ذلك الكتاب ـ الذي لا يزال مخطوطا ـ أن الزهراوي ألفه بعد عمر طويل من التجارب والبحث والدراسة والحياة العملية الجادة في حقل الطب والجراحة . وقد أشار في مقدمة كتابه إلى ذلك لدى حديثه عما تضمن كتابه بقوله (وكل ما جربته وامتحنته من طول عمري منذ خمسين سنة)[2] .

والكتاب المذكور لحسن الحظ لا يزال موجودا وتوجد منه نسخ في بعض المكتبات الإسلامية والأوربية ، ومنها نسخة موجودة في المكتبة الملكية بالرباط ويقع ذلك الكتاب المخطوط في عدة أجزاء ويتضمن ثلاثين مقاله كالتالي :

الأولى : في الأغذية وتركيب الأدوية وهي كالمدخل للكتاب .

الثانية : في تقسيم الأمراض وعلامتها وعلاجها .

الثالثة : في وصف المعاجين .

---

(١) الزهراوي : التصريف لمن عجز عن التأليف (مخطوط) ج ١ ، ص ٢ ، ٣ .

(٢) التصريف لمن عجز عن التأليف (مخطوط) ج ١ ، ص ٤ .

الرابعة : في التريقات[1] والأودية المفردة النافعة من السموم .

الخامسة : وصف الارياجات[2] القديمة والحديثة وادخارها وتخميرها .

السادسة : وصف الأدوية المسهلة من الحبوب لجميع العلل .

السابعة : وصف أدوية القيء والحقن وغيرها .

الثامنة : الأدوية المسهلة اللذيذة الطعم المأمونة .

التاسعة : أدوية القلب والمسك .

العاشرة : وصف الاطريفلات[3] والمنبهات والمسهلات .

الحادي عشرة : وصف الجوارشات[4] والكمونيات .

الثانية عشرة : أدوية الباءه والمسمنة للأبدان المهزولة والمدرة للبول .

الثالثة عشرة : الأشربة والسكنجبيات[5] والربوب .

الرابعة عشرة : المطبوخات والمنقوعات المسهلة وغير المسهلة .

الخامسة عشرة : في المربيات[6] ومنافعها وحكمة ترتيبها وادخارها .

(١) التترياقات جمع ترياق ، مشتق من اليونانية تيريون : وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالأفاعي ونحوها ، ويقال له بالعربية درياق ، (الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٣٩) .

(٢) الارياجات : أشار إليها الخوارزمي على أنها من أصناف الأدوية ولم يوضح ما هي (مفاتيح العلوم ، ص ١٤٠) .

(٣) الاطريفلات أو الاطريفل بالهندية (ترى ابهل) ، أي ثلاث أخلاط وهي اهليلج وبليلج وأملج (الخوارزمي : نفس المصدر السابق ، ص ١٤٠) .

(٤) الجوارشات او الجوارشنات ، ذكرها الخوارزمي ضمن الأدوية ولم يوضح ما هي وقال التهانوي في كشاف اصطلاحات الفنون ، ج ١ ، ص ٣٢٨ بقوله (الجوارش بضم الجيم وكسر الراء المهمله معرب كوارش والجوارن بالنون تصحيف : معناه الهاضم للطعام .. والجوارش لا تكون إلا عذبة طيبة الرائحة) .

(٥) السكنجبين : دواء يتركب من الخل والعسل (الخوارزمي : المصدر السابق ، ص ١٤٠) .

(٦) المربيات : ما يربب بالعسل من الاترج والاهليلج ونحو ذلك (الخوارزمي : المصدر السابق ، ص ١٤٠) .

السادسة عشرة : في الشفوفات[1] المسهلة وغير المسهلة .

السابعة عشرة : في الأقراص المسهلة والممسكات .

الثامنة عشرة : في السعوطات والبخورات والقطورات والذرورات والغراغر .

التاسعة عشرة : في الطيّب والزينة وغيرها .

العشرون : في الأكحال وغيرها .

الحادية والعشرون : أدوية الفم والحلق وما أشبه ذلك .

الثانية والعشرون : في أدوية الصدر والسعال .

الثالثة والعشرون : في الضمادات لجميع العلل .

الرابعة والعشرون : في صناعة المراهم .

الخامسة والعشرون : في الأدهان ومنافعها .

السادسة والعشرون : في أطعمة المرضى وكثير من الأصحاء مركبة حسب الأمراض .

السابعة والعشرون : في طبائع الأدوية والأغذية وما يتعلق بها .

الثامنة والعشرون : في إصلاح الأدوية وحرق الأحجار المعدنية وما يتصرف في الطب من ذلك .

التاسعة والعشرون : في تسمية العقاقير باختلاف اللغات وأعمارها وشرح ما ورد من أسمائها في كتب الطب والأكيال والأوزان .

الثلاثون : في العمل باليد من الشق والبط والجبر والكي والخلع [2] .

---

(١) الشفوفات أو الشيافات من الأدوية التي يحتقن بها في الدبر (الخوارزمي : المصدر السابق ص ١٤٠) .

(٢) الزهراوي : المخطوط السابق ، ج ١ ، ص ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ .

ويتضح من عناوين المقالات السابقة العلم الواسع والبراعة التامة التي تميز بهما الزهراوي . حيث ضمن كتابه المذكور الكثير من صور العلاج الطبي وأوصاف الأدوية المختلفة والأغذية والأشربة المنوعة مما يصح به جسم الإنسان ويقويه أمام مختلف الأمراض .

والجزء الأخير من الكتاب في الجراحة . ويقول في مقدمته : (لما اكملت لكم يابني هذا الكتاب الذي (هو) جزء العلم في الطب بكماله وبلغت الغاية فيه من وضوحه وبيانه فرأيت أن أكمله لكم بهذه المقالة التي هي جزء العمل باليد في بلدنا وفي زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يندر من عمله وينقطع أثره وإنما بقي منه رسوم يسيره في كتب الأوائل قد صحفته الأيد وواقعه الخطأ والتشويش حتى استغلقت معانيه وبعدت فايدته فرأيت أن أجيده(*) وأولف فيه هذه المقالة على طريق الشرح والبيان والاختصار وأن آتي بصور حدايد الكي وسائر آلات العمل إذ هو من زيادة البيان ووكيد ما يحتاج إليه)(١) .

ويتضح من هذه المقدمة مدى عناية الزهراوي بميدان الجراحة واهتمامه البالغ بتوضيح الأساليب العلمية الصحيحة في إجراء العمليات الجراحية وسعيه الجاد في سبيل رفع شأن هذا الحقل المهم من علم الطب بعد أن شوه أدعياء الطب صورته وأدخلوا عليه ما ليس منه . فوضع الزهراوي الأسس السليمة لعلم الجراحة وأضاف إليه الكثير من الابتكارات العلمية الهامة ، وكان لجهوده في ذلك أبعد الأثر في ازدهار علم الجراحة الطبية .

والزهراوي يقدم الكثير من التوجيهات والإرشادات التي يوجهها إلى زملائه من الأطباء والجراحين . فهو ينصح الجراح أن يكون عارفاً بأعضاء الجسد ودقائق تكوينه والذي ينطوي تحت « علم التشريح » لكي يتسنى له

---

(١) الزهراوي : المخطوط السابق ، ج ٧ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(*) هكذا في الأصل ، وربما تكون لفظ « اقيده » .

الوقوف على منافع الأعضاء وهيأتها واتصالها وانفصالها وعددها ومخارجها ، ويقول في ذلك : (من لم يكن عالما بما ذكرنا من التشريح لم يخل أن يقع في خطأ يقتل الناس به كما قد شاهدته كثيرا ممن تسور في هذا العلم وادعا له بغير علم ولا دراية)(١) .

ويضرب الزهراوي الكثير من الأمثلة لأطباء لم يعتنوا بما ذكر فوقعوا في أوخم النتائج وأودوا بحياة مرضاهم . ومن ضمن ذلك ما ذكره بقوله : (إنني رأيت طبيبا جاهلا قد شق على ورم خنزيري(*) في عنق امرأة فابدا بعض شريانات العروق فنزف دم المرأة حتى سقطت ميتة بين يديه)(٢) .

وقسم الزهراوي هذا الجزء على ثلاثة أبواب :

الباب الأول : في الكي بالنار والكي بالدواة ، مرتب من القرن إلى القدم وصور آلات حديد الكي وكلما يحتاج إليه .

الباب الثاني : في الشق والبط والفصد والحجامة والجراحات وإخراج السهام مبوب مرتب ، وصور آلاته في سبعة وتسعين فصلا .

الباب الثالث : في الجبر والخلع وعلاج الكسر مبوب مرتب من القرن إلى القدم وصور آلاته في خمسة وثلاثين فصلا(٣) .

ومما يؤكد علو مكانة الزهراوي في حقل الجراحة الطبية ما زود به كتابه المذكور من صور الآلات الجراحية التي يحتاج إليها الجراح أثناء إجرائه

---

(١) التصريف لمن عجز عن التأليف (مخطوط) ج ٧ ، ص ٣ ـ ٤ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٤ .

(*) الخنزيري أو الخنازير أورام الشباه الغدد في الآباط والأربية (الخوارزمي مفاتيح العلوم ، ص ١٣٠) .

وقال الثعالبي في فقه اللغة ، ص ٨٦ ـ (الخنازير أشباه الغدد في العنق) .

(٣) التصريف (مخطوط) ج ٧ ، ص ٥ .

العمليات الجراحية للمرضى . والكتاب يحوى العشرات من صور تلك الأدوات الجراحية[١].

وقد أطنب المؤرخون والكتاب من قدماء ومحدثين في الثناء على الزهراوي ـ وعلى كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » . فقال فيه ابن حزم الأندلسي (ولئن قلنا أنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن)[٢] .

واعتمد عليه الكثير من الأطباء في عصره وما بعده ونقل عنه المؤرخ النويري عند حديثه عن الغوالي والندود وكيفية عملها[٣] .

وأشاد ابن أبي اصبيعة بذلك الكتاب ووصفه بالأهمية في ميدان الطب والقيمة العلمية العالية[٤] .

ولم يخف الكتاب الغربيون إعجابهم بالزهراوي ومدى ما توصل إليه في ميدان الجراحة الطبية من تفوق باهر . وقد أشار بالنثيا إلى ذلك بقوله : (أما الجزء الثلاثون من كتاب الزهراوي الذي نشر في اللاتينية باسم الجراحة فقد كان أهم وأذيع كتاب في تاريخ الطب كله . وقد ارتفع به الزهراوي في أعين الناس إلى طبقة ابقراط وجالينوس)[٥] .

ولم يكن الإعجاب بالزهراوي ومكانته العلمية مقصورا على من تقدم بل وصف عند بعض الكتاب الغربيين بأبي الطب[٦] .. وإذا كان هذا الثناء على

---

(١) انظر الملحق .

(٢) المقرى : النفح ، ج ٣ ، ص ١٧٥ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٣) انظر نهاية الأرب ج ١٢ ، ص ٥٢ و ص ١٢٤ .

(٤) عيون الأنباء ، ص ٥٠١ .

(٥) تاريخ الفكر الأندلسي . ص ٤٦٦ .

(٦) ستانلي لين بول : العرب في اسبانيا ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

الزهراوي من الأوروبيين ، فإن الأطباء العرب المحدثين لم يكونوا أقل احتفاء وتقديرا له من غيرهم ، فهو في نظرهم أول من نبغ في الجراحة ، بل هو كما يقول نجيب محفوظ « فخر الجراحة العربية » ، وهو ثالث الثلاثة النوابغ من الأطباء المسلمين وفخرهم ، وهم : الرازي وابن سيناء والزهراوي ، هؤلاء العباقرة الذين يرجع إليهم الفضل في نهضة الطب في الشرق والغرب على حد سواء(١) .

هذا قليل من كثير مما قاله العلماء عن الزهراوي وجهوده الموفقه في ميدان الطب . ونظرا لأهمية ما صنفه في ذلك فقد ترجم كتابه « التصريف » إلى اللاتينية جيراد الكريموني وسماه الساهار افاريوس ، وهو تحريف لاسم الزهراوي . وقد طبعت الترجمة اللاتينية له على مراحل . ففي عام ١٥١٩م طبع منه جزء بعنوان « كتاب النظر والعمل » ، وكان قد سبق طبع جزء آخر وكثر استعماله منذ عام ١٤٧١ م وهو كتاب « الخادمين » ، وموضوعه تحضير الأدوية المفردة(٢) .

كما طبع الجزء الخاص بالجراحة سنة ١٤٩٧م، والجزء الخاص بأمراض النساء سنة ١٥٦٦م ونشرت له تراجم عديده إلى اللغات الحديثه(٣) .

وهذا بلا شك فيه دلالة قاطعة على أهمية الكتاب وعظم نفعه للناس ، وادراكهم قيمته . وهذا أيضا ما دفع الأطباء في مدرستي سالرنو ومونبيليه

---

(١) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ، ص ٢٠٥ ـ محمد عوضين : صفحات من تراثنا الطبي : مقال بمجلة البحث العلمي ، العدد الأول ، ص ٢٠٩ ـ علي عبدالله الدفاع : الزهراوي الرائد الأول للجراحة ، مجلة الفيصل ، العدد ٤٢ ، ص ٧٩ .

(٢) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٦٦ ـ سيد حسين نصر : العلوم في الإسلام ، ص ١٥١ .

(٣) عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ، وانظر الموسوعة العربية الميسرة حرف الزاي ، ص ٩٣٠ .

وغيرهما من مدارس الطب في أوروبا الى جعل كتاب الزهراوي مقررا علميا يدرس في تلك المدارس ويعتمد عليه طلاب العلم في حياتهم الدراسية ، وهذا بلا شك قد ساعد على وضع أسس الجراحة في أوروبا[1] .

ومن روائع ابتكارات الزهراوي في ميدان الجراحة أنه اهتدى إلى طريقة علمية رائعة في سحق الحصاة في المثانة ، وقد عدت هذه الطريقة من اختراعات العصر الحاضر على غير حق[2] .

كما أن الزهراوي درس علاج تشويهات الفم والفك باستعماله عقافة « صنانير » في استئصال العينية (البوليب أو الأورام الليفية في الأغشية المخاطية) ، ونجح كذلك في عملية شق القصبة الهوائية وأجرى هذه العملية على خادمه . ووفق في إيقاف النزيف في حالة إجراء العمليات بربط الشرايين الكبيرة ميسرا بذلك دوره كجراح من جهة ومحافظا على سلامة مريضه من جهة أخرى ، وهو بلا شك فتح علمي كبير ادعى تحقيقه لأول مره الجراح الفرنسي الشهير امبرواز باري عام ١٥٥٢م ، ولم يكن يعلم أن الزهراوي كان قد أحرز ذلك السبق قبله بستة قرون[3] .

---

(١) زيغريد هونكه : شمس العرب ، ص ٣٤٧ ـ غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص ٤٩٠ ـ أرنولد وآخرون : تراث الاسلام ، ص ٤٧٤ ـ أحمد الملا : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ـ قدري طوقان : العلوم عند العرب ، ص ١٥٥ ـ أ . سيديو : تاريخ العرب العام ، ص ٣٨٧ ـ الموسوعة العربية الميسرة : حرف الزاي ص ٩٣٠ ـ عبدالعزيز بن عبدالله : الفكر العلمي في المغرب الاقصى (مجلة الدارة . السنه الرابعة . العدد الرابع ص ١٦٤ ـ ي . أ . شاهين : أثر العرب في الطب ، محاضرة القيت بجامعة اسكس ٤ نوفمبر ١٩٧١ م ـ خالد ناجي : الزهراوي وعمليات الغدة الدرقية ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد السادس عشر ، ص ١٩٩ .

(٢) غوستاف لوبون : المرجع السابق ، ص ٤٩٠ ـ أحمد الملا : المرجع السابق ، ص ١٣٧ ـ محمد الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، ص ١٩٦ ـ عز الدين فراج وآخرون : الطب الإسلامي ، ص ٤٦ ـ عبدالعزيز بن عبدالله ، المقال السابق ، ص ١٦٤ .

(٣) زيغريد هونكه : شمس العرب ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ لوتروب استوادرد : حاضرة العالم الإسلامي ، ج ١ ، ص ١٣٥ ـ عز الدين فراج وآخرون : الطب الإسلامي ، ص ٤٦ ـ جون . س . بادو وآخرون : عبقرية الحضارة العربية ، ص ١٨٤ .

وكان لتمرس الزهراوي بالجراحة وعلاقته الطويلة بميدان العمليات الجراحية أثر في ازدياد معارفه وظهوره بالكثير من الأساليب العلمية المهمة التي انتهى إليها تفكيره بعد حياة مديدة من الالتصاق بالجراحة والعمليات الجراحية . فمثلا كان الزهراوي يحرص تمام الحرص أن لا تؤثر العملية الجراحية على شكل الجسم خارجيا ويحاول أن يقلل مقدار الأثر الناجم عن ذلك . وكان يعمد إلى طريقة التدريز (نسبة إلى ثمانية) في جراحات البطن ، ويوضح كيفية تخييط الجرح بأبرتين وخيط واحد مثبت بهما ، وكان يلجأ في الكثير من الأحيان إلى استخدام أمعاء القطط في تخييط بعض الجروح[1] .

ومن المؤلم أن تنسب الكثير من ابتكاراته العلمية في إجراء العمليات الجراحية إلى غيره من الأطباء وخاصة الغربيين الذين كانوا ينهلون من كتابه التصريف ويأخذون عنه معارفهم في الجراحة . فإن طريقته التي اتبعها أثناء إجرائه للعمليات الجراحية في النصف السفلي من الإنسان . والتي اوصى فيها أن يرفع الحوض والأرجل قبل كل شئ قد أخذها الأوروبيون عنه ونسبت بغير حق إلى الجراح الألماني فردريك لنبورغ[2] .

وتبدي زيغريد هونكه اعجابها العظيم بالجراح العربي وتذكر أفضاله على الطب وجهوده الموفقة في ذلك ، فتقول : (ولكن من يذكر أفضال الجراح العربي العظيم ؟ وعنه أخذنا طريقة ترك فتحة في رباط الجبس في الكسور المفتوحة ، وأمد الجراحين وأطباء العيون والأسنان الأوروبين بالآلات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديده التى وضعها)[3] .

---

(١) زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

(٢) زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٩ .

(٣) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٧٩ .

كما اهتم الزهراوي كثيرا بحياة مرضاه ومن يجري لهم عمليات جراحية خطيرة وكان حريصا جدا في عمله لا يسلك طريقا في ذلك إلا بعد دراسة وافية لحالة المريض واستعداده للعملية الجراحية . وقد ابتكر طريقة جديدة لايقاف النزف فكان أول من استعمل الكي بواسطة كاويات مصنوعة من الذهب الخالص وبأنواع وأحجام مختلفة(١) . وكتابه التصريف يحوي الكثير من صور تلك الآلات التي تثبت مهارته الفائقة في هذا الميدان(٢) .

ولا زال الطب الحديث مدينا لأبي القاسم الزهراوي بالشئ الكثير إذ تعتبر طريقة إيقاف النزف بواسطة الكي من أحدث الطرق المتبعة حتى عصرنا الحاضر(٣) .

وأشار الزهراوي في معرض حديثه عن ظاهرة نزف الدم إلى استعداد بعض الأجسام للنزيف (هيموفيليا) ، فقد شاهد عدة حوادث نزيف في عائلة عالجها بالكي(٤) .

---

(١) الزهراوي : التصريف (مخطوط) ج ٧ ، ص ٢٧ .

(٢) انظر الملحق . لتقف على بعض أنواع أدوات الكي التي كان يستعملها الزهراوي .

(٣) خالد ناجي : الزهراوي وعمليات الغدة الدرقية . مقال بمجلة المؤرخ العربي العدد السادس عشر ١٩٨١ م ، ص ١٩٩ .

(٤) زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

وأظهر الزهراوي براعة عميقة في معالجة التهاب المفاصل وإصابة فرزات الظهر بالسل ، ومع الأسف ينسب علاج الأمراض وتحديد أعراضها إلى الإنكليزي برسيفال بوت فيعرف بالدواء البوتي[1] .

بل إن الزهراوي اهتدى من خلال أبحاثه الطبية وتجاربه المثمرة في ميدان الجراحة ومن خلال تمرسه بالعمليات الجراحية وكشفه على مرضاه إلى الإشارة إلى مبدأ انتشار الأورام السرطانية ، وما يتعلق بذلك من سرطان الرحم وكيفية علاجه[2] .

كما اهتم الزهراوي بعلاج الأسنان ووضع الكثير من الأساليب العلمية السليمة لمعالجتها وتنظيفها مما يلحق بها من تسوس ، وصنع لجراحة الأسنان الكثير من الأدوات الجراحية التي تساعد على خلع الأضراس أو الأسنان أو تنظيفها ، وينصح الزهراوي بالعمل على معالجة الضرس الذي يسبب الألم لصاحبه وعدم قلعه بقدر الاستطاعة لأنه لا يمكن تعويض فقده بمثله . كما يرشد إلى الطريقة السليمة في قلع الضرس إذا أصر المريض على ذلك بواسطة مشرط يحل اللثة من كل جهة ثم يحرك الضرس حتى إذا تزعزع من مكانه قلع بالكلبتين[3] .

وفيما يتعلق بالأسنان وجراحة الفم فقد أشار إلى عملية صنع «الكباري» لتثبيت الأسنان الضعيفة، بل إنه اهتدى إلى ما عليه أطباؤنا الآن من استعمال أداة كالملعقة لتخفيض اللسان عند الكشف على اللوزتين[4] .

---

(١) زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

(٢) انظر . التصريف لمن عجز عن التأليف ، ج ٧ ، ص ١٥٨ .

(٣) الزهراوي : التصريف (مخطوط) ، ج ٧ ، ص ١١٥ ــ ١١٦ .

(٤) جلال مظهر : حضارة الإسلام ، ص ٣٣٣ ــ عز الدين فراج وآخرون : المرجع السابق ، ص ٤٧ ــ ي . أ . شاهين : أثر العرب في الطب ، محاضرة وانظر تلك الأداة في الملحق .

وفي أمراض النساء أحدث الزهراوي تطورا جديدا في ميدان الولادة . ففيما يختص بسقوط يدي وركبة الجنين أو وضعه المسمى بوضع الأرجل أي (تقدم الأرجل من باب الرحم على الرأس، أو الوضع الوجهي، فالزهراوي يعتبر أول من عالج هذا الوضع ، وأول من نصح بولادة الحوض[(١)] . وهي الولادة المسماة حديثا بأسم طبيب النساء الشتوتغرتي ، كما ينسب إلى الزهراوي ابتكار مرآة خاصة للمهبل وآلة لتوسيع باب الرحم[(٢)] .

هذه بعض الأمثلة على مدى ما تمتع به الزهراوي من معرفة واسعة بالطب وبراعة تامة في ميدان الجراحة الطبية ومدى ما اسهم به من ابتكارات علمية في هذا المجال .

والحق أننا لو تتبعنا الزهراوي في سيرته العلمية وما قدمه في ميدان الطب وبخاصة الجراحة لاحتجنا إلى وقت أكبر ولخرج الباحث في ذلك بكتاب مستقل عن الزهراوي وجهوده العلمية ، ولكن فيما اشرت إليه ما يكفي للدلالة على عظمة الزهراوي وأثر أبحاثه العلمية في علم الطب فقد تقدمت الدراسات الطبية في عهده وازدهر الطب الجراحي وأصبح علما مستقلا له قواعد وأسس . وحسبك شاهدا على رقي الجراحة العربية كلمات الازدراء التي قالها « لانفرانك » Lanfranc في أواخر القرن الثالث عشر عن الجراحين الفرنسيين، فبعد أن عاد من إيطاليا واطلع فيها على ترجمة تآليف أبي القاسم ورجع إلى باريس قال عن جراحي باريس : إنهم جهلاء ولا يكاد يوجد فيهم جراح واحد عالم بصنعته[(٣)] .

---

(١) انظر : التصريف لمن عجز عن التاليف ، ج ٧ ورقة ص ١٩٩ الى ورقة ص ٢٠٢. وانظر جون . س . بادو : عبقرية الحضارة العربية ص ١٨٤ .

(٢) زيغريد هونكه : المرجع السابق ، ص ٢٧٨ ـ عبد الحليم منتصر : المرجع السابق ، الـ ص ٢٠٥ ـ ي . أ . شاهين : أثر العرب في الطب (محاضرة) الموسوعة العربية الميسرة ، حرف الزاي ، ص ٩٣٠ .

(٣) لوثروب استوادردة حاضر العالم الاسلامي ، ج ١ ، ص ١٣٣ .

وكان الزهراوي إلى جانب تمكنه من الجراحة الطبية ماهرا في تحضير الأدوية وتركيبها ، وقد اعتمد في هذا العلم على من سبقه من العلماء كديسفوريدس وجالينوس وعلى معاصريه من أهل بلده كابن جلجل ، وعلى أهل المشرق كالرازي وابن الجزار القيرواني . وقد جانب علي عبدالله الدفاع الصواب عندما أشار إلى اعتماده على الطبيب النباتي ابن البيطار[1]، فالمعروف أن ابن البيطار كان من رجال القرن السابع الهجري : الثالث عشر الميلادي ، فمن أين للزهراوي إذا أن يعتمد على طبيب ونباتي عاش بعده بثلاثة قرون[2] .

وقد اثنى ابن أبي أصيبعة على جهود الزهراوي في حقل الصيدلة وتركيب الأدوية، فيقول عنه : (كان طبيبا فاضلا خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج)[3] .

وفي ندوة عن تاريخ العلوم عند العرب عقدت ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦م بمعهد التراث العربي بحلب أشاد أحد العلماء المشتركين في هذه الندوة بأن الزهراوي - أول من استعمل الفحم في ترويق شراب العسل البسيط ، وأنه أول من استعمل قوالب خاصة لصنع الأقراص الدوائية[4] .

---

(١) ابن البيطار : ضياء الدين محمد بن عبد الله بن أحمد الأندلسي ، (٥٧٥ هـ - ٦٤٦ هـ / ١١٧٩ م - ١٢٤٨ م) درس علم النبات على علماء الأندلس ووصف بأنه أعظم نباتي العرب تجول في المشرق وترك لنا مصنفا في الأدوية المفردة (محمد الصادق : تطور الفكر العلمي عند المسلمين ، ص ٢٢٢) .

(٢) انظر : الزهراوي الرائد الأول للجراحة (مقال بمجلة الفيصل ، العدد ٤٢ سنة ١٤٠٠ هـ ، ص ٨١) .

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٥٠١ . وانظر جون . س . بادو ، عبقرية الحضارة العربية ص ١٨٤ .

(٤) علي الدفاع : الزهراوي الرائد الأول للجراحة ، مجلة الفيصل . العدد ٤٢ سنة ١٤٠٠ هـ . ص ٨١ .

وقد تتلمذ على الزهراوي تلاميذ كثيرون أخذوا عنه معارفهم في الطب والجراحة ، وتلقوا على يديه الكثير من الخبرات العلمية نظريا وعمليا . وكان لهؤلاء التلاميذ أثر في بث علوم ومعارف أستاذهم الزهراوي فأدت جهودهم في هذا الصدد إلى اتساع رقعة النشاط العلمي في ميدان الطب في ذلك العصر وامتداده إلى كثير من مدن الأندلس الأخرى . ولا أدل على ذلك من شهادة أحد الكتاب الغربيين وهو الأستاذ كاميل في كتابه الطب العربي حيث قال (كانت الجراحة في الأندلس تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو أدنبره وذلك أن ممارسي مهنة الجراحة في سرقسطة كانوا يمنحون طبيب جراح (Medico - Surgeon) ، أما في أوروبا فكان لقبهم حلاق - جراح (Barber - Surgeon) ، وظل هذا التقليد ساريا حتى القرن السادس عشر الميلادي)[١] .

وبرز إلى جانب الزهراوي العديد من الأطباء ولكنهم لم يبلغوا الدرجة التي بلغها الزهراوي الذي كان يعد فريدا في ميدان الجراحة الطبية ولم يكن له نظير في ذلك .

فمن أولئك الأطباء الطبيب عريب بن سعيد القرطبي[٢] وكان من الموالي من بيت يعرف ببني التركي ، وقد اتصف بالمعرفة الواسعة في العديد من العلوم كالطب والتاريخ والأدب . ولكنه لمع في ميدان الطب وأظهر تفوقاً كبيرا في ذلك وكانت له تآليف في الطب منها كتاب في عيون الأدويه وكتاب في خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود . وكان معظما لدى الخلفاء جليل المنزلة عندهم فحظي بمقام كريم لدى الخليفة عبدالرحمن الناصر ثم ابنه الحكم المستنصر ثم الحاجب المنصور بن أبي عامر[٣] .

---

(١) محمد الصادق العفيفي : تطور الفكر العلمي ، ص ١٨١ .

(٢) ورد اسم أبيه في الكثير من الكتب « سعد » ولكنه ورد « سعيداً » في كتابه المخطوط الذي سوف أتحدث عنه . كما أن المراكشي في الذيل أورده سعيد كما هو أعلاه .

(٣) المراكشي : الذيل والتكملة . السفر الخامس . القسم الأول . ص ١٤١ ـ ١٤٢ ـ أحمد هيكل : المرجع السابق . ص ١٩٢ ـ عمر كحالة : العلوم البحتة ، ص ٤٦ ـ محمد عوضين : صفحات من تراثنا الطبي ، مجلة البحث العلمي ، العدد الأول ، ص ٢٠٥ .

ولعل شهرة عريب تعود إلى مصنفه القيم « خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود » الذي حفظ لنا الكثير مما كان يتمتع به عريب من معرفة واسعة بالطب وتضلع في ميدان مهم منه . وهو طب الأطفال .

وقد ألف عريب كتابه هذا في عصر الحكم المستنصر حيث يقول في مقدمة كتابه المذكور « وإن أحق ما طرقت الهمم إليه واستعملت الأفكار فيه بعد حقوق الله عز وجل واستيفاء حدود شكره طلب الزلفى إلى الإمام الأهدى الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين ... ولما رأيت أن أحظى الأعمال المقربة من حسن رأيه ـ أيده الله ـ وأقرب الوسائل إليه وأزكاهم لديه تأليف كتب العلم وجمع منثور الحكم . وتجديد آثار الأوائل الذين سبقوا إلى الفضيلة ، وفازوا بالرفعة ونهجوا سبيل الحكمة ، ومنحوا من بعدهم صنوف المنفعة تكلفنا كتابا يشتمل على أقاويل العلماء في ابتداء خلق الله تعالى الإنسان الذي جعله أشرف المخلوقات وخيار أتم الآلات . وسخر له ما تحت أكتاف السموات وكيف أحكم تدبيره . واتقن تصويره ، وأنشأه وركب أعضاءه ، وجعله في درجة النمو إلى أن بلغ به حد الانتهاء وغاية الكمال ثم حطه إلى نقصان)(١) * .

وفي المقدمة إشارة إلى جهود الخليفة الحكم المستنصر في دفع عجلة الحركة العلمية وتشجيعه العلماء على البحث والتأليف ، وبهذا يتبين لنا مدى ما أسهم به ذلك الخليفة من جهود عظيمة في كل ميدان من ميادين المعرفة ومنها ميدان الطب .

ثم يتطرق عريب إلى الحديث عن الجنين وتدبيره وأسباب الولادة وما يتعلق بذلك من مسائل كأسباب الحمل ومستقر النطف ثم خلق الأجنة في

(١) عريب بن سعيد : خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود (مخطوط) ، ورقة ٨٥ ب و ٨٦ أ .

(*) يلاحظ أن أول ورقة في المخطوط تحمل الرقم ٨٥ ب ، وهذا راجعاً إلى أن المخطوط ضمن مجموعة من المخطوطات ، ولم يكن منفصلا على حده ، بل كانت صفحاته في ترقيمها تبعا لما سبقه من ترقيم للمخطوط الذي قبله .

الأرحام ومواقيت تحريكها ووصف ألوان العلاج لذلك . كما تطرق إلى دلائل كون الجنين ذكرا أو أنثى مُسلماً في ذلك بأن الله عالم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام(١) .

وقد وضع عريب لكتابه المذكور فهرسا يحوي المواضيع الطبية التي تناول ـ فيها خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود وقسمه على أبواب كالآتي :

الباب الأول : في الزرع الذي هو علة الحيوان وأول خلق الإنسان وما يتعلق بذلك .

الباب الثاني : في القضيب وما يتعلق به من قوة أو ضعف وعلاج ذلك .

الباب الثالث : في الأرحام ومواضعها والعلل المانعه للحمل ووصف علاجها .

الباب الرابع : وصف حال النطف وذكر ما يساعد على ذكورة الجنين من العلاجات .

الباب الخامس : في امتزاج زرع الوالدين ودلايل العلوق وخلق الجنين ومايتكون من الأعضاء أولا وغير ذلك .

الباب السادس : في قدر الحمل وحدوده وعدد شهوره وأيامه والمولودين لسبع أشهر أو ثمانية وما فوق ذلك .

الباب السابع : في تدبير الحبالى وحفظ قواهن ووصف العلاج لحفظ صحتهن والحديث عن الإسقاط وأسبابه وعلاجه .

الباب الثامن : في دلايل الوضع وتسهيل الولاده . وتدبير النفساء واستخراج المشيمة .

الباب التاسع : في تكوين اللبن وارضاع المولود واختيار الصبي وحفظ صحته وما يختار من الرضاع .

---

(١) عريب بن سعيد : المخطوط السابق ، ورقة ٨٦ أ .

الباب العاشر : في أعمار المولودين وتنقلهم فيها ومراتبها ودرجاتها .

الباب الحادي عشر : في تدبير الطفل من قرب ولادته وأول حدود سنه وما يعالج به من الأمراض العارضة له .

الباب الثاني عشر : في تدبير الأطفال ووصف علاجهم بعد الأربعين يوما إلى وقت نبات الأضراس .

الباب الثالث عشر : في تدبير الصبي من بعد نبات أضراسه إلى وقت اتغاره وهو الجزء الثالث من سنه وابتداء كلامه ومشيه وفطامه وما يلحق به من الأمراض وعلاجها .

الباب الرابع عشر : في تدبير الصبي من بعد اتغارهم إلى وقت إشعارهم وقرب احتلامهم وعلاج ما يعرض لهم .

الباب الخامس عشر : في احتلام الغلمان وحيض الجواري ومواقيت البلوغ وما يحدث من اختلاف عند ذلك في الحركات والصور وتحديد أهل الطب لسن الإنسان من بدء حياته إلى نهاية عمره[1] .

ويتجلى لنا من عناوين الموضوعات السابقة ما ضمه ذلك الكتاب من معارف وخبرات طبية تنم عن علم واسع بالطب ودراية عميقة بطب النساء والأطفال ، وقد أظهر عريب نبوغا فيما يتعلق بكل ذلك . ومن روائع ما توصل إليه عريب ما ذكره في الباب الثالث من محاولات جيدة في سبيل علاج المرأة العقيمة وما وصفه في سبيل ذلك من طرق العلاج ، وهي بلا شك مسألة طبية صعبة ولا تزال إحدى الأبحاث الطبية المطروحة في وقتنا هذا أمام أطباء النساء .

---

(١) عريب بن سعيد : خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود (مخطوط) ، ورقة ٨٦ ب و ٨٧ أ .

كما يلاحظ أيضا في هذا الفهرس ترتيبه مسمى عمر الإنسان من حمله إلى بلوغ رشده ، فهو أولا جنين ثم مولود ثم طفل فصبي ، ولكل مرحلة من هذه المراحل علاجات ونصائح طبية وإرشادات قيمة ، والكتاب لا يخلو أيضا من نصائح طبية ونفسية يراعى الالتزام بها في تربية الطفل لكي يكفل له أسباب السلامة النفسية والجسدية . وقد وصف هذا الكتاب بأنه أهم ما كتب في طب الأطفال في أية لغة حتى القرن العاشر الميلادي(١) .

وكان يعاصر عريب من الأطباء الطبيب الذائع الصيت سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل ، وقد وصف بالبراعة في تركيب الأدوية وتحضيرها (فكان طبيبا فاضلا خبيرا بالمعالجات ، حسن التصرف في صناعة الطب ، وكان في أيام هشام المؤيد بالله ، وخدمه بالطب ، وله بصيرة واعتناء بقوى الأدوية المفردة)(٢) .

وعرف عن ابن جلجل عنايته بعلم الطب ودراسته منذ صغره حيث درس على أيدي أطباء عصره من أهل قرطبة فبلغ فيه درجة رفيعة أهلته لتدريس الطب وهو ابن أربع وعشرين سنة(٣) .

وكان لاهتمامه بالطب وعكوفه على دراسته أثر في رسوخ قدراته العلمية في ذلك الميدان وخاصة فيما يتعلق بتركيب الأدوية ومعرفة النباتات الطبية حتى قال عن نفسه (وكان لي في معرفة تصحيح هيولي الطب الذي هو أصل الأدويه المركبة حرص شديد وبحث عظيم حتى وهبني الله من ذلك بفضله بقدر ما أطلع عليه من نيتي في إحياء ما خفت يدرس وتذهب منفعته لأبدان الناس فالله قد خلق الشفاء وبثه فيما انبتته الأرض واستقر عليها من الحيوان المشاء والسابح

(١) جون . س . بادو وآخرون : عبقرية الحضارة العربية ، ص ١٦١ .

(٢) ابن أبي أصيبعه : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٩٣ .

(٣) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، مقدمة المحقق فؤاد سيد (نقلا عن ابن الآبار في التكملة) .

في الماء والمنساب وما يكون تحت الأرض في جوفها من المعدنية كل ذلك فيه شفاء ورحمة ورفق)[١] .

وهكذا نلمس في سيرة ابن جلجل ودراسته للطب وبحثه في حقل الصيدلة وتركيب الأدوية مدى إخلاصه العميق لذلك العلم وحرصه البالغ على إحياء ما اندرس منه فكان له بالفعل دراسات علمية قيمه لا يزال بعضها بين أيدينا .

وقد أثنى عليه القفطي ووصفه بالذكاء والنباهة وأنه تفرد بصناعة الطب وأن له ذكر في عصره ومصره[٢] .

ومن تصانيفه العلمية في حقل الصيدلة وتركيب الأدوية كتاب فسر فيه أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ، وقد ألفه في سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م ، بقرطبة في عصر الخليفة هشام المؤيد بالله . كما أنه لم يكتف بذلك بل أضاف شيئا جديدا في علم الأدوية فصنف مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك وإلى سبب إغفال ديسقوريدس لتلك الأدوية عند الحديث عن كتاب ديسقوريدس[٣] .

وكانت لابن جلجل آراء وتوجيهات قيمة في ميدان الطب والعلاج فقد ألف رسالة في ذلك أسماها رسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين ، كما أنه صنف كتابا في تراجم الأطباء والفلاسفة[٤] .

---

(١) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥ .

(٢) تاريخ الحكماء ، ص ١٩٠ .

(٣) انظر ذلك في مقدمة الحديث عن ميدان الطب .

(٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق، ص ٤٩٥ ـ البغدادي : هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٣٩٦ ـ السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ـ عمر كحالة : العلوم البحته ، ص ٣٠١ .

ويذكر فؤاد سيد أن الكتاب الأول ضاع ولم يصل إلينا منه إلا قطعة صغيرة محفوظة في مكتبة مدريد ، أما المقالة التي ذكر فيها ما لم يذكره ديسقوريدس فقد أشار أن في مكتبة البودليان باكسفورد رسالة صغيرة ضمن مجموعة عنوانها (استدراك على كتاب الحشائش لديسقوريدس لابن جلجل) ، ومن الجائز أن تكون هي ، وأما الرسالة التي ألفها في غلط المتطببين فقد ضاعت كما ذكر فؤاد سيد أن له مقالة في أدوية الترياق ومنها نسخة ضمن المجموعة السابقة بالبودليان[١] .

وفيما يتعلق بكتابه طبقات الأطباء فقد حفظ من الضياع وأشار إليه القفطي بقوله : (وله تصنيف صغير في تاريخ الحكماء لم يشف فيه غليلا ، وكيف وقد أورد من الكثير قليلا ومع هذا فقد كان حسن الإيراد)[٢] .

ويتضح من مقدمة الكتاب أن ابن جلجل ألفه لأحد الأمراء من بني أمية حيث أشار إلى ذلك ، فقد وصف هذا الأمير بأنه من نسل الخلفاء وأن تصنيفه لذلك الكتاب يأتي تلبية لرغبته وعلى ما رسمه له[٣] .

وقد نهج ابن جلجل طريق الاقتضاب والاختصار في تراجمه للأطباء والحكماء ، فطبقات الأطباء كتاب مختصر لم يحط فيه بالكثير من أعلام الطب والفلسفة ، وقد أشار إلى ذلك بقوله (واقتصرنا على قليل من كثير لئلا يمله قارئه ، وليسهل على النفس حفظه ، والكلام إذا طال ثقل)[٤] .

وفي ميدان طب العيون برع الأخوان أحمد وعمر ابنا يونس الحراني وكانا يعيشان في عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

---

(١) ابن جلجل : المصدر السابق ، من مقدمة المحقق .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(٣) طبقات الأطباء ، ص ٣ ـ ٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١١٦ .

وفي سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م رحلا إلى المشرق حيث طافا هناك مترددين بين حلقات العلم ومجالس الأطباء ومنهم ثابت بن سنان بن ثابت بن قره حيث درسا على يديه كتب جالينوس ، كما درسا طب العيون على ابن وصيف ثم انصرفا عائدين إلى الأندلس فدخلاها في عصر الخليفة الحكم المستنصر سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م ، حيث أنزلهما منزلا كريما ورفع مقامهما بين علماء بلاطه[1] .

وكان الأخوان أحمد وعمر يجتهدان في رفع مكانتهما العلمية بين علماء عصرهم ، ويسعيان إلى إرضاء ميول الخليفة الحكم المستنصر في ميدان العلم والبحث ولم يزل حالهما على هذه الصورة حتى لحق عمر مرض شديد توفي على أثره . وبقي أخوه أحمد على منزلته العالية لدى الحكم المستنصر حيث أسكنه في قصره بمدينة الزهراء ، ووصف أحمد بالتمكن العميق في الطب والبراعة في طرق العلاج المختلفة فضلا عما عرف به من الورع وحسن السيرة[2] .

وكان لما تمتع به أحمد من صفات العالم الماهر أثره الكبير في إعلاء منزلته لدى الحكم المستنصر ، فقد سمح له الحكم المستنصر أن يقيم خزانة طبية بالقصر رتب فيها أثنى عشر صبيا طباخين للأشربة صانعين للمعجونات، ونظرا لما جبل عليه من حسن الخلق فلم يكن يبخل بشئ من العلاج على المرضى من الفقراء والمساكين الذي كانوا يترددون على هذه الخزانة الطبية حتى كان يستقبلهم ويكشف عليهم ويصف لهم العلاج الناجح . وكان لمهارته في طب العيون أن أشتهر بذلك وذا ع صيته بين الناس[3] .

---

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ـ ابن الآبار : التكملة ج ١ ، ص ١٥ ـ فرات فائق : الكحالة عند العرب ، ص ٣٦ .

(٢) ابن جلجل : نفس المصدر ، ص ١١٣ .

(٣) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١١٣ ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الانباء ، ص ٤٨٧ .

ويتضح لنا من سيرة ذلك الطبيب خاصة الأثر الأخلاقي الحميد الذي كان يصبغ سيرته العلمية وما كان يتمتع به أطباء ذلك العصر عامة من أخلاق حميدة وحسن معاملة لمرضاهم ، مما كان له الأثر البالغ في نفسيات المرضى وفي الإسراع بشفائهم .

ولمع من الأطباء في تلك الفترة محمد بن عبدون الجبلي . وقد رحل ابن عبدون إلى المشرق سنة ٣٤٧ هـ / ٩٥٨م ، وفي البصرة التقى بالكثير من العلماء وأخذ عنهم الكثير من المعارف ، وفي عودته إلى وطنه عرج على مدينة الفسطاط بمصر وتولى إدارة بيمارستانها[١] .

وهذا بلا شك يعطينا دليلا واضحا على ما كان له من معرفة واسعة بالطب ، فإن توليه لذلك المنصب لدليل على منزلته العلمية وعلوها بين أطباء العالم الإسلامي ، كما يثبت تفوق الشخصية الأندلسية .

وبعد عودة ابن عبدون إلى الأندلس سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠م لقي من الخليفة الحكم المستنصر ما يناسب مقامه العلمي وحظي لديه ولدى ابنه هشام بمنزلة رفيعة وخدمهما بالطب . وقد وصف ابن عبدون بالبراعة في الطب وحسن العلاج[٢] .

كما اشتهر الطبيب أبو الحكم عمرو بن عبدالرحمن الكرماني (ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥م) الذي جمع في علمه بين الرياضيات والفلسفة والطب ـ بالمهارة في ميدان الجراحة الطبية ، وكان له (نفوذ مشهور في الكي والقطع والشق والبطر وغير ذلك من أعمال الصناعة الطبية)[٣] .

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص ١١٥ .

(٢) ابن جلجل : نفس المصدر والصفحة ـ ابن أبي اصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ ـ المقري : نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ .

(٣) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٤ ـ ٩٥، ابن أبي اصيبعة : المصدر السابق، ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

وبرز أبو بكر حامد بن سمجون في صناعة الأدوية المفردة وأفعالها ، وقد عرف بالتمكن في معرفتها وتقصى أنواعها ، وله كتاب في ذلك وصف بالجودة والقيمة العلمية العالية[1] . وقد ألف ذلك الكتاب في عصر الحاجب المنصور الذي لم يكن عصره أقل مما سبقه في عصر الخليفة عبدالرحمن الناصر ثم ابنه الحكم المستنصر من ازدهار في المعرفة والعلوم . ولابن سمجون أيضا من كتب الطب كتاب الاقراباذين[2] .

وممن لمع أيضا من أطباء عصر الخلافة سعيد بن عبدالرحمن بن محمد ابن عبد ربه (ت ٣٤٢ هـ) الذي كانت له طرق مختلفة اختص بها في معالجة لبعض الأمراض . ومنها طريقته في مداوة الحميات إذ كان يخلط بالمبردات شيئا من الحوار ، وقد وصفت طريقته تلك بالصواب والاتقان[3] .

ومما يذكر عنه أن أحد أصحابه وهو الفقيه سليمان بن أيوب مرض بالحمى وطال ألمه ، حتى إذا كان في أحد الأيام التقى والده بالطبيب سعيد بن عبدالرحمن فسأله عن علة ابنه ثم بعث إليه بعد ذلك بثماني عشرة حبة من حبوب مدورة وأمره أن يشرب منها كل يوم شيئا معينا ، فما أكملها حتى زال مرضه وذهبت أوجاعه[4] .

ونلمس من خلال هذه القصة ما بلغه الطب آنذاك من ازدهار ومدى ما وصل إليه ميدان العلاج الطبي من تطور . فالعلاج المذكور أشبه ما يكون بما يتناوله المرضى في عصرنا هذا من الحبوب ، فالدواء كان على صورة حبوب في شكل مدور ثم إن تناولها كان على فترات معينة ، وبمقدار محدود ، ولو

(١) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٠٠ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٥٠٠ .

(٣) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ صاعد : المصدر السابق، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

(٤) ابن جلجل : المصدر السابق ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

تصورنا البعد الزمني بيننا وبينهم لأدركنا أنهم فيما يخص الطب كانوا ذوى فضل عظيم في تطور هذا العلم وازدهاره وبلوغه هذا المستوى الذي ننعم به الآن .

ومن الحق أن نقول في الختام أنه برز في عصر الخلافة أعداد كبيرة من الأطباء بذلوا جهودا مثمرة في ميدان الدراسات الطبية ، وقد اكتفينا بأبرزهم وأكثرهم تأثيرا في تطور الطب آنذاك .

وما من شك أن ما ذكرناه من جهود الأندلسيين في هذا الصدد كان شيئا يبعث على الإعجاب، فما قدمه أبو القاسم الزهراوي من دراسات وأبحاث قيمة في تطور الطب والجراحة ، وما قدمه غيره من الأطباء كعريب بن سعيد وابن جلجل، وابنا يونس الحراني وغيرهم كان عملا عظيما لا ينساه العلم لهم ، ولا يزال الكثير من أبحاثهم ودراساتهم العلمية يستحوذ على إعجابنا ويشهد لهم بعلو كعبهم في ـ ميدان الطب والصيدلة ، ويكفي أن نختتم هذا الحديث عن أطباء الأندلس بما ذكره عنهم أحد الكتاب الغربيين ، وهو روبرت بريفالت ، الذي يقول (كان الحكام المسيحيون يفوضون تعليم أولادهم إلى الأساتذة العرب وإذا أصيبوا بتوعك معي ذهبوا بأنفسهم إلى قرطبة لاستشارة أشهر الأطباء فيها)[1] .

(١) أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية ، ص ١٧٧ .



ب ـ الرياضيات والفلك :

تأخر الاشتغال بالرياضيات والفلك وسبب ذلك ـ ازدهار الدراسات الرياضية والفلكية في عصر الخلافة ـ الارتباط الوثيق بين الرياضيات والفلك آنذاك . مدرسة مسلمة المجريطي في الرياضيات والفلك وجهوده العلمية ـ ابن السمح الغرناطي ـ ابن الصفار ـ أبو مسلم بن خلدون ـ الكرماني ـ السري ـ أحمد بن نصر ـ الأسقف بن زيد .

الرياضيات والفلك :

لم يكن لإسبانيا قبل فتح المسلمين لها نشاط يذكر في ميدان العلوم القديمة ومنها الرياضيات والفلك . فقد كانت في قديم الزمان خالية من تلك العلوم ولم يشتهر أحد من أهلها بالاشتغال بأي منها واستمر ذلك الوضع حتى فتحها المسلمون (فتمادت على ذلك أيضا ، لا يعني أهلها بشئ من العلوم إلا بعلوم الشريعة وعلم اللغة إلى أن توطد الملك لبني أمية بعد عهد أهلها بالفتنة فتحرك ذووا الهمم منهم لطلب العلوم وتنبهوا لإشارة الحقائق)[١] .

ولعل من عوامل تأخر الاشتغال بتلك العلوم ما ذكرناه عند الحديث عن الفلسفة من انشغال الأندلسيين بعلوم الدين ، وما كانوا يكنونه لبعض العلوم القديمة من كراهية وامتعاض مما أدى إلى تأخير حركة الاشتغال بها ، وبخاصة الفلسفة والفلك والتنجيم .

وقد جانب آنخل بالنثيا الصواب عندما أشار في معرض حديثه عن الرياضيات إلى أن الفقهاء كانوا يتشددون في الاشتغال بالرياضيات ولم يكونوا يبيحون إلا الحساب في مسائل الميراث[٢] .

وهذا بلا شك مخالف للحقيقة ، فالرياضيات لم تلق من التحريم والكراهية ما لقيته الفلسفة والفلك مثلا ، كما نعلم أن الرياضيات علم هو أبعد ما يكون عن مجال الإنحراف العقائدي والمساس بعقيدة المشتغل بها . والرياضيات تتضمن الحساب والهندسة وهما علمان أشتغل بهما الأندلسيون واحتاجوا إليهما ، فالحساب احتاجوا إليه في ميدان الفرائض والضرائب وغيرهما من الميادين التي تستند في نشاطها إلى الأرقام الحسابية ، والهندسة

---

(١) صاعد : طبقات الم ، ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٢) تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٤٧ .

احتاجوا إليها في ميادين البناء والعمارة والري ، وعندما ازدهرت علوم الرياضيات اعتمد عليها الفلكيون في ممارسة نشاطهم وأبحاثهم الفلكية ، وهو أمر لم يتحقق إلا في بداية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

ويتضح لمن تتبع حركة الدراسات الرياضية والفلكية أن تلك العلوم لم تزدهر وتتطور إلا في عصر الخلافة ، وهو العصر الذي ازدهرت فيه الحركة العلمية بشكل عام ، ومن الطبيعي أن تشمل في ازدهارها علوم الرياضيات والفلك .

وما من شك في أن للتطور الحضاري أثر في اتساع آفاق الدارسين والإقلال من نظرة الكراهية لتلك العلوم ، فمن دلالات الوعي الحضاري وحرية الفكر أننا نجد علماء بارعين في الفلك والرياضيات ، وفي نفس الوقت كانوا مبرزين في علوم الدين حتى تولى بعضهم القضاء . ومن هؤلاء العلامة محمد ابن احمد بن الليث (ت ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م) الذي وصف بالتمكن في الفلك والرياضيات ، وقد تقلد قضاء شربون من أعمال بلنسية . ومثله مختار بن شهر الرعيني (ت ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م) ، الذي تقلد القضاء وجمع إلى علمه في الدين براعته في الهندسة والفلك[١] .

وكان للرحلات العلمية أثرها العظيم في ازدهار تلك العلوم . فكان الأندلسيون العائدون من المشرق يحملون معهم ما اكتسبوه من علوم ومعارف عن إخوانهم المشارقة فيبثونها في بلدهم وبين تلاميذهم . كما كان لوفود العلماء المشارقة إلى الأندلس أثر بارز في نشاط تلك الدراسات وتطورها بما كان يحمله أولئك العلماء من ألوان المعرفة وضروب التآليف العلمية .

وإذا أضفنا إلى ذلك كله موقف الخليفة الحكم المستنصر من العلوم وعنايته الكبرى بذلك الميدان العلمي المهم لا تضح لنا مدى ما وصلت إليه

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٦ ـ ٩٧ .

الدراسات الرياضية من رقي وازدهار ، فقد برع فيها الكثير من العلماء الذين أثروا ذلك الميدان بدراساتهم وأبحاثهم القيمة .

كما ازدهر الفلك في عهد الحكم المستنصر ، فقد أولاه رعايته وأحاطه بتشجيعه ، واستجلب من العراق ومصر أهم الكتب الأساسية فيه قديمها وحديثها وقد أدى ذلك إلى نبوغ الكثير من الفلكيين الذين تخصصوا في مراقبة حركات النجوم واستخدام الات المرصد وأثبتوا نبوغهم وعبقريتهم في ذلك المجال بما قاموا به من تصحيح وتحسين الجداول الفلكية ، وتقويم نتائج من سبقهم(١) .

ونتيجة للارتباط الشديد بين الدراسات الرياضية والفلكية فسوف نلحظ أن العديد من العلماء بل أكثرهم قد جمعوا إلى مهارتهم في الرياضيات براعتهم في الفلك . وهذا راجع بلاشك إلى حاجة الفلكي إلى الحساب والهندسة لمعرفة مواضع الكواكب ، فالزيج وسيلة من الوسائل المهمة في الدراسات الفلكية ، وقد عرّفه ابن خلدون بأنه : صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أدى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها(٢) .

وبناء على ماتقدم فمن الصعوبة أن نفرق بين الفلكي والرياضي فكل منهما يعتمد في علمه على نصيب كبير من علم الآخر .

وبعد أن ازدهرت الدراسات الرياضية والفلكية أصبحت تدرس في الجوامع جنبا إلى جنب مع العلوم الدينية والأدبية واللغوية ، فكانت قرطبة

---

(١) مياس بياكروزا : المؤلفات الأولى عن الاسطرلاب في إسبانيا العربية ، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، العدد الثالث ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

(٢) المقدمة : ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ .

والكثير من مدن الأندلس تعج بالرياضيين والفلكيين الذين انصرفوا إلى تدريس تلك العلوم في جوامعها وبثها بين طلبة العلم ، فقد كان أحمد بن محمد الأنصاري ضليعا في الرياضيات ماهرا في الفلك ، وكان يجلس لتعليم ذلك في جامع قرطبة في عصر الخليفة الحكم المستنصر ، وقد شهد له أستاذة مسلمة المجريطي بالتفوق الكبير في الهندسة والعلوم الرياضية[١] .

والجدير بالذكر أنه قد ظهر في قرطبه مدرسة علمية كبيرة في الرياضيات والفلك كان لها أكبر الأثر في نشاط تلك العلوم وتخريج أفواج كبيرة من الرياضيين والفلكيين ، وهذه المدرسة العلمية هي مدرسة العلامة مسلمة بن أحمد المجريطي (ت ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م) الذي (كان أمام الرياضيين في الأندلس في وقته وأعلم ممن كان قبله بعلم الأفلاك ، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب وشغف بفهم كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي)[٢] .

ويتجلى من خلال هذا النص النشاط العلمي الواسع الذي كان يتمتع به مسلمة ومدى تعمقه في علمي الرياضيات والفلك . وعنايته الكبيرة في رصد الكواكب وما يتصل بذلك من النشاط الفلكي بمناحيه المختلفة .

وقد ألف مسلمه كتابا في الرياضيات وبالذات في علم العدد وهو المعروف لدى أهل الأندلس بالمعاملات[٣] .

---

(١) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩١ ظظ ابن الآبار : التكملة ج ١ ، ص ١٤ .

(٢) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٢ ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ .

ـ يلاحظ ورود اسمه مسلمه المجريطي في أكثر من علم . والسبب في ذلك أن هذا العلامة قد اتصف بالمعرفة الواسعة في أكثر من علم كعلمه في علم الرياضيات والفلك والكيمياء وعلم الحيوان والجغرافيا . وهي صفة اتصف بها الكثير من علماء المسلمين ، وكانت سمة من سمات الحياة العلمية عند المسلمين آنذاك .

(٣) تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات (ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٨٤) .

وقد اثنى ابن خلدون على تفوق الاندلسيين في هذا الميدان حيث قال : (ولأهل الصناعة الحسابية من أهل الأندلس تآليف فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهاوي وابن السمح وأبي مسلم بن خلدون من تلاميذ مسلمة المجريطي)[١] .

وكان لمسلمة جهود موفقة في ميدان الدراسات الفلكية ، وكان لتضلعه في ذلك العلم أثر مهم في نظرته العلمية إلى دراسات من سبقه من العلماء في الفلك فقد ألف كتابا اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البتاني[٢] . كما اهتم بزيج العلامة المشرقي الرياضي محمد بن موسى الخوارزمي وترجم تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي ووضع أوساط الكواكب فيه لأول تاريخ الهجرة ، وأضاف إليه من علمه جداول حسنه ويشير القاضي صاعد إلى وقوع مسلمة رغم علمه الواسع في نفس الأخطاء التي وقع فيها الخوارزمي ، وأنه قد نبه على ذلك في كتاب ألّفه في الفلك[٣] .

ومما يؤكد مكانة مسلمة العلمية وعظم تأثيره في ازدهار الفلك والرياضيات ما حظيت به مجالسه العلمية من الشهرة وبعد الصيت حتى ازدحمت حلقات درسه بأعداد هائلة من طلبة العلم ، فكان له تلاميذ نجباء أخذوا عنه العلم وقاموا بدورهم في بث تلك المعارف ونشرها في الأوساط العلمية في مختلف أرجاء الأندلس وسوف نشير إلى أهم تلاميذه في خاتمة الحديث عنه .

---

(١) المقدمة : ص ٤٨٤ .

(٢) البتاني : هو جعفر بن سنان من أشهر علماء الرياضيات والفلك بين المسلمين كان حيا في القرن الثالث الهجري : التاسع الميلادي . (صاعد : طبقات الأمم ، ص ٧٥) .

(٣) طبقات الأمم : ص ٩٢ ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٢ ـ ٤٨٣ ـ عبدالحليم منتصر : تاريخ العلم ، ص ١٨١ ـ عمر فروخ : المرجع السابق ، ص ٥٨٨ ـ قدري طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ٢٥٧ .

وبالإضافة إلى ما تقدم من جهود مسلمة العلمية تنسب إليه دراسات على تأليف عربي مفقود أصله اليوناني ، وقد ترجمه إلى اللاتينية هرمان الألماني وكذلك يوحنا الإسباني ، وموضوع الكتاب حول استخدام الإسطرلاب[1] المسطح[2] .

ويشير بياكروزا في معرض حديثه عن نشاط الأندلسيين في ميدان الدراسات الفلكية إلى ما قام به مسلمة من دراسات علمية في ذلك بقوله : (وإذا كانت هذه المؤلفات من عمل مسلمة فإنه يكون بذلك أول من ألف عن الإسطرلاب في الأندلس ولكن يحوط الشك بهذه النسبة لسببين : أولهما أن ابن سعيد الطليطلي وهو خير مرجع لهذه الدراسات لم يذكر عن مسلمة أنه قام بعمل تأليف عن الإسطرلاب ، علاوة على عدم وجود إشارة كهذه في الكتب العربية الأخرى . والسبب الثاني : هو عدم وجود أصل عربي له ، إذ أن كل ما نعرفه هو إشارات في الترجمات اللاتينية ويجب ألا يغرب عن البال أن كثيرا من هذه الترجمات اللاتينية تخلط بين المؤلفين الأصليين للكتب[3] .

والحق أن ما أدلى به بياكروزا لايخلو من الصحة إلا أن ما ذكره ليس كافيا في القطع بأنه لم يكن لمسلمة تأليف عن الإسطرلاب . ذلك أن صاعداً في كتابه طبقات الأمم لم يحط بكل ما ألفه الأندلسيون في كل علم من العلوم القديمة، وبذلك لا يكون كتابه حجة في كونه قد استقصى كل ما اؤلف في ذلك . فمثلا كان لمسلمة كتب أخرى لم يذكرها صاعد ككتاب « رتبة الحكيم » و « مفاخر الاحجار » و « غاية الحكيم » ، ولا يدفعنا عدم ذكر صاعد لهذه

(١) الإسطرلاب . معناه مقياس النجوم وهو باليونانية « اصطرلابون » واصطر هو النجم ولابون هو المرآة (الخوارزمي : مفاتيح العلوم ، ص ١٧٧) .

(٢) قدري طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ٢٥٧ .

(٣) المؤلفات الأولى عن الإسطرلاب في أسبانيا العربية . مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الثالث ، ج ١ ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .

الكتب أن نشك في نسبتها إلى مسلمة . كما أن السبب الآخر ليس قاطعا في ذلك المجال ، فإن عدم وجود أصل عربي للكتاب لا يعني أنه مستحيل كونه أصلا مؤلف عربي . فمن الجائز أن أصله العربي ضاع او فقد كما ضاع الكثير من كتب الأندلسيين الذين تعرضوا على مسار تاريخهم للكثير من ضروب الفتن والكوارث إلى جانب ما نعرفه من تعصب النصارى ضد التراث الإسلامي وإحراقهم إياه بعد كل نصر يحرزونه على المسلمين .

ومما يوضح هذا الأمر ما ذكر عن الفلكي الأندلسي ابن الزرقال الذي عاش في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي من أن له كتاباً في الكواكب السيارة وكيف ضاع أصله العربي ولا يوجد منه إلا ترجمة عبرية[(١)] .

هذا بالإضافة إلى أن آنخل بالنثيا أشار إلى أن من بين مؤلفات مسلمة « رسالة في الاسطرلاب »[(٢)] . ولا شك أن شهادة بالنثيا في هذا الميدان لها قيمتها وثقلها في مساندة من يذهب إلى مشاركة مسلمة في التأليف العلمي حول الإسطرلاب .

وكان لمسلمة دور كبير في تعريب بعض الكتب اليونانية في الفلك ، فقد ترجم كتاب « قبة الفلك » Planis Phaerium لبطليموس . وقد نشرت ترجمته اللاتينية في سويسرا سنة ١٥٣٦م بعنوان :

Sphaetas atqua astroum coelestium
ratio, naturaetmotus

« أي سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها »[(٣)] . ومترجمها إلى اللاتينية هو رودولف اوف برجس[(٤)] . Rudolf of Burges

(١) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٥١ ، ج رقم ٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٤٨ .

(٣) آنخل بالنثيا : المرجع السابق ص ٤٤٨ ــ ٤٤٩ .

(٤) قدرى طوقان : تراث العرب العلمي ، ص ٢٥٧ .

وكان لطول ارتباط مسلمة بالدراسات الفلكية واطلاعه على الكثير من أسرار هذا العلم أن دفعه ذلك إلى تأليف كتاب أسماه « غاية الحكيم » الذي ضمنه الكثير من المعلومات الفلكية . ولكنه صبغ ذلك بصبغة تنافي حقائق هذا العلم إذ شاب كتابه المذكور الكثير من النصوص المتعلقة بالطلاسم والتعاويذ . فهو القائل في مقدمة كتابه المذكور (اعلم أن الداعي الذي حركني إلى تأليف هذا الكتاب الذي سميته بـ (غاية الحكيم)[1]. وكان تأليفي لهذا الكتاب سنة ثلاثة وسبعين وثلاثمائة عند فراغي من تنقيح كتابي رتبة الحكيم واتممته في أربع وسبعين وثلاثمائة والمحرك إلى تأليفه ما رأيت أكثر أهل زماننا يبحثون عنه من أمور فنون أنواع السحر وهم لا يعلمون ما يفعلون[2] ولا في أي سبيل يقصدون[3] .

وقد قسم كتابه المذكور إلى أربع مقالات يتضح من خلالها مدى ما كان يعتقده الأوائل في الكواكب وعمق تأثيرها في حياة الناس وارتباط ذلك التأثير بألوان من الشعوذه التي تنافي حقائق العلم وتعاليم الدين .

والكتاب رغم هذا يحوي الكثير من المعارف المهمة في الكيمياء والفلسفة والجغرافيا والطب والنبات وغير ذلك من المعلومات القيمة التي تلقي الضوء على نواحي من العلم والمعرفة تفيدنا في دراسة تلك العلوم وتوضيح نشاط الأندلسيين في ذلك .

---

(١) في الأصل رتبة الحكيم والصحيح ما أثبتناه إذ أن حديثه عت كتاب غاية الحكيم وليس رتبة الحكيم ، وقد يكون ذلك الخلط عائدا إلى الناسخ أو غير ذلك .

(٢) في الأصل توجد كلمة غامضة ، والكلمة التي بين الحاصرتين تتمشى مع مفهوم النص وسياقة الكلام .

(٣) مسلمة المجريطي : غاية الحكيم (مخطوط) ورقة ١ أ .

- ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية بأمر من الملك الفونسو وذلك عام ١٢٥٢ م ، تاريخ وتحت عنوان Picatrix (على الدفاع : أمام علماء المغرب في العلوم التطبيقية المجريطي - المجريطي : مقال نشر بمجلة الفيصل ، العدد ٥٦ . صفر سنة ١٤٠٢ هـ .

ونسب إليه البغدادي في هدية العارفين تأليف كتاب « إخوان الصفا وخلان الوفا » والحق أن هذا الكتاب لم يكن من تأليفه بل كان من تأليف بعض علماء المشرق ، وقد نسب إدخال ذلك الكتاب إلى العلامة الأندلسي الكرماني تلميذ مسلمة . ويذكر عبدالحليم منتصر أنه من الجائز أن مسلمة وضع بحثا في ذلك في قالب مبسط خال من التعقيد(١) .

وكان لمكانة مسلمة العلمية وتفوقه في الفلك أن ذكره ابن حزم بقوله : (سمعت من اثق بعقله ودينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول : أنه لم يؤلف في الأزياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمح وهما من أهل بلدنا)(٢) .

ولم يفارق مسلمة الدنيا حتى خلف من بعده تلاميذ نجباء حملوا الرسالة العلمية من بعده وكانوا مثالا نيرا لغيرهم من العلماء(٣) .

ومن ألمع تلاميذ مسلمة بل كبيرهم أصبغ بن محمد بن السمح المهري القرطبي (ت ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م) ، وكان متضلعا في الرياضيات راسخا في علم الفلك بالإضافة إلى مهارته الفائقة في ميدان الطب(٤) .

وما من شك أن تلقيه العلم على يد مسلمة المجريطي وملازمته إياه قد عاد عليه بفائدة جليله ، ومعارف جمه بدت علاماتها واضحة في سيرته العلمية وفيما قدمه من جهود علميه تتمثل في تآليفه العلمية المتعلقة بالفلك والرياضيات والطب .

---

(١) تاريخ العلم ، ص ١٨١ .

(٢) المقري : النفح ، ج ٣ ، ص ١٧٦ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

(٣) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٤) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٣ ـ ابن الابار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٠٧ ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٣ ـ ٤٨٤ ـ ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج ١ ، ص ٤٢٨ ـ الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٩ ، ص ٢٨٢ ـ المقري : النفح ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ ـ ابن قنفذ : الوفيات، ص ٢٣٤ ـ عمر فروخ : المرجع السابق، ص ٥٨٩ ـ عمر كحالة : العلوم بحتة ، ص ١٨٨ .

وكان للفتنة التي اجتاحت قرطبة بعد زوال النفوذ العامري أثر في تبرمه لما أصاب تلك المدينة من كوارث ، مما أثر على نفسيته فخرج من قرطبة إثر ذلك واستقر بغرناطة حيث نزل ضيفا على أميرها حبوس بن ماكسن الصنهاجي الذي أنزله منزلا كريما ورفع مكانته بين علماء بلاطه(١) .

وفي هذا إشارة إلى ما نجم عن الفتنة من تفرق العلماء في مختلف أقطار الأندلس وانتشارهم في مدنها المختلفة .

وأسهم ابن السمح الذي جمع في علمه بين الرياضيات والفلك والكيمياء في حركة التأليف العلمي ، فألف كتابا في الهندسة « المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب اقليدس »(٢) . كما ألف كتابا اسمه « ثمار العدد » والمعروف بالمعاملات ، وكتاب « طبيعة العدد » . بل كان لاهتمامه بالهندسة أن ألف فيها كتابا كبيرا تقصى فيه أجزاءها من الخط المستقيم والمقوس والمنحنى ، أما فيما يتعلق بالدراسات الفلكية فقد صنف كتابين في آلة الاسطرلاب ، أحدهما في التعريف بكيفية صنعتها على مقالتين . أما الآخر فمؤلف في كيفية العمل بها والتعريف بجوامع ثمارها ، وهو مقسم على مائة وثلاثين . كما أنه صنف زيجا وذلك على طريقة الهند المعروفة بالسند هند(٣) ، وهو كتاب كبير يقع في جزئين أحدهما في الجداول ، والآخر في رسائل الجداول(٤) .

---

(١) ابن الابار : التكملة ، ج ١ ، ص ٢٠٧ .

(٢) هذا الكتاب مصنف في أصول الهندسة ، واقليدس من علماء الرياضة اليونان (الخوارزمي : المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٣) ذكر القاضي صاعد في كيفية انتقال السند هند إلى المسلمين نقلا عن أحد العلماء أنه قدم على الخليفة العباسي المنصور رجل من الهند عالم بالحساب والفلك وكان بحوزته كتاب في الفلك اسمه السند هند في حركات النجوم ومايتعلق بها من مسائل ويحوي اثنا عشر بابا، فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب وألف عليه العلامة محمد بن الفزاري كتابا يسميه الفلكيون « بالسند هند الكبير » ثم اختصره الخوارزمي وأضاف إليه الكثير من المسائل . انظر : طبقات الأمم ، ص ٦٧ ـ عبدالله مبشر : علم الفلك والنجوم عند أهل الهند والسند (مقال بالمجلة العربية ، السنة الرابعة ، العدد ١١ ، ص ٥٨) .

(١) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٣ ـ قدري طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، ص ٣٣٦ .

وقد اثنى ابن حزم الأندلسي على زيج ابن السمح وأنه لم يؤلف مثله هو زيج أستاذه مسلمة كما سبق أن أشرت .

ولم يكن ابن حزم هو الوحيد الذي أثنى على ابن السمح ، فقد وصف ابن الخطيب مؤلفاته بالحسن والجوده وإنها عظيمة الفائدة ، كما أشار إلى أن له مصنفاً كبيرا في التاريخ ، وأنه لمنزلته العلمية وعلو مقامه يعد من مفاخر الأندلس(١) .

وشارك ابن السمح في أزدهار حركة الدراسات الرياضية والفلكية صديقه أحمد بن عبدالله بن عمر القرطبي المعروف بابن الصفار (ت ٤٢٦ هـ / ١٠٣٤م) الذي لم يكن باقل عطاء من ابن السمح ، فقد أسهم في نشر علمه وبث معارفه حتى اتخذ له موضعا في جامع قرطبة يلقى فيه دروسه ويعلم فيه التلاميذ(٢) .

وصنف ابن الصفار العديد من المصنفات من بينها تاليفه لزيج مختصر على مذهب السند هند ، كما ألف كتابا في العمل بالإسطرلاب موجز حسن العباره قريب المأخذ(٣) .

ومما يسر أن كتابه الأخير لا يزال محفوظا وموجودا بين أيدينا ، وهو كتاب صغير الحجم إلا أن ما ضمه من معلومات حول العمل بالإسطرلاب تعد من أهم المعلومات وأعظمها فائدة في هذا الميدان . ويشير مياس بياكروزا الذي

---

(١) الإحاطة ، ج ١ ، ص ٤٢٨ .

(٢) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٣ ـ ٩٤ ـ ابن بشكوال : الصلة ج ١ ، ص ٤٢ ـ ابن أبي أصيبعة : المدر السابق : ص ٤٨٤ .

(٣) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٣ ـ ٩٤ ابن أبى أصيبعة : عمر كحالة : العلوم البحتة ، ص ١٨٩ .

نشر ذلك المخطوط في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد[1]. إلى أن الكتاب ترجمه إلى اللاتينية بلاتو تيبر تينوس في الثلث الأول من القرن الثاني عشر الميلادي ، وأن للكتاب ترجمه أخرى إلى اللغة العبرية[2] .

ولكن بعد اطلاعي على مخطوطة الكتاب ومقارنتها بما نشره بياكروزا لوحظ اختلاف كبير بين ما هو في المخطوط وما نشر ، ففي المخطوط الكثير من المواضيع التي لم ترد في النسخة المنشورة .

والمخطوط يقع في ١٨ لوحه . وبعد البسملة والصلاة على النبي ، ﷺ ، ذكر نسبة الرسالة إلى ابن الصفار ثم يبدأ الحديث عن الإسطرلاب والآته ومهمة كل منها ، ويظهر من أسلوب المؤلف أن الكتاب المذكور موجه لطلبة العلم والمشتغلين بالفلك في صورة توجيهات وإرشادات فهو يصدر كل باب من رسالته بقوله « إذا أردت ـ مثلا ـ كذا وكذا فافعل كذا .. » ، وهو بهذا يرسم الطريقة العلمية الصحيحة للمشتغلين بالفلك ، وكيف يتبعون أحسن السبل في ممارسة نشاطهم العلمي . كما يتضح من دراسة ذلك المخطوط المهاره الفائقة والتطبيق العملي الذي كان يجريه ابن الصفار في محاولة منه للخروج بأينع الثمرات وأهم النتائج .

ويوضح ابن الصفار في رسالته الكيفية العملية السليمة لمعرفة الأوقات وتحديد موضع الشمس من فلك البروج ومعرفة اوقات النهار وما يمر من ساعات وتعيين وقت الظهر والعصر ، بل إنه يعين جزئيات ساعة واحدة من الليل والنهار . ثم يتابع دراسته العملية في توضيح ارتفاع الشمس وكيف يتم ضبط ذلك ، وكيف تتم معرفة درجة الشمس المجهولة من قبل ارتفاع نصف

(١) ابن الصفار : العمل بالإسطرلاب ، العدد الثالث ، ج ١ ، ص ٤٧ ـ ٧٦ .

(٢) مياس بياكروزا : المؤلفات الأولى عن الإسطرلاب في إسبانيا العربية ، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الثالث ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

نهارها . ويستمر في توضيح الكثير من المعلومات المتعلقة بدرجات طلوع الشمس والتعريف بالكواكب الموضوعة في الشبكة إلى معرفة وقت طلوع أول درجة من البروج ، ومع أي درجة يتوسط السماء أي كوكب ، لينتقل إلى موضوع تعيين القبلة في الليل والنهار . ويمضي المؤلف ليعين الطول وكيفية أخذه ويوضح معنى الطول بقوله : (واعلم أن الطول هو ما بين نصف نهار بلدك ونصف نهار بلد آخر من دائرة معدل النهار)[1] .

كما ينبه إلى معرفة كيفية معرفة الظل من قبل ارتفاع الشمس ومعرفة ارتفاع الشمس من قبل الظل . ويسير المؤلف على هذا المنهج حتى يصل إلى كيفية معرفة موضع القمر من البروج ، ومواضع الكواكب السياره فيها ، وفي باب آخر معرفة سعة المشارق . ثم يتطرق إلى باب آخر في معرفة دخول السنين العجمية وشهورها فيقول : (إذا أردت في أي يوم يدخل فيه ينير (يناير) من أي عام أردت من أعوام تاريخ الهجرة فأعرف تلك السنه الداخلة كم هي من تاريخ مولد المسيح عليه السلام)[2] ويختتم المؤلف كتابه بصورة فلكية دائرية موضحا عليها مواضع الشهور والفصول[3] .

ومن العجب أن ابن الصفار يشترك مع ابن السمح في كثير من الحقائق فكلاهما تلميذ لمسلمة الجريطي ، وكلاهما برع في الفلك والرياضيات ، وكلاهما خرج من قرطبة بعد الفتنة فابن السمح خرج إلى غرناطة ، وابن الصفار خرج إلى دانية[4] ، وكلاهما توفي في سنة ٤٢٦هـ / ١٠٣٤م .

---

(١) ابن الصفار : العمل بالإسطرلاب (مخطوط) ورقة ٧ ب .

(٢) ابن الصفار : نفس المصدر . ورقة ١٧ أ .

(٣) هذه خلاصة موجزة وإشارة سريعة لمحتويات ذلك المخطوط .

(٤) دانية مدينة بشرقي الأندلس (الحميري : الروض العطار ، ص ٧٦) .

وكان لابن الصفار تلاميذ بارعين في الفلك والرياضيات . كما كان له أخ يسمى محمد وصف بالمهارة في علم الفلك ، واشتهر بصناعة الإسطرلاب وأنه (لم يكن بالأندلس قبله أجمل صنعا لها منه)[١].

وبرز إلى جانب من تقدم الكثير من الرياضيين والفلكيين ، ومنهم الحسن ابن علي الزهراوي . وكان الزهراوي بارعا في الرياضيات ماهرا في الفلك وله مصنف ممتاز في المعاملات على طريق البرهان ، وهو الكتاب المعروف بكتاب « الأركان » ، والزهراوي هذا من تلاميذ مسلمة المجريطي[٢] .

ومن تلاميذ مسلمة المجريطي أيضا العلامة أبو مسلم بن خلدون الذي سبقت الإشارة إليه في علم الفلسفة ، فبالإضافة إلى مهارته في الفلسفة فقد كان بارعا في الهندسة والفلك ، وكان جم النشاط في بث علومه ومعارفه حتى لازمه الكثير من طلاب العلم ، فكان له تلاميذ كثيرون أخذوا عنه العلم ونشروه عنه[٣] .

وقد جانب عبد الحليم منتصر وقدري طوقان الصواب[٤] عندما أشار إلى أن من تلاميذ مسلمة المجريطي ابن خلدون صاحب المقدمه ، فصاحبنا أبو مسلم بن خلدون كان يعيش في القرن الرابع الهجري : العاشر الميلادي ، وأما ابن خلدون صاحب المقدمة فقد كان يعيش في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي. وتوفي في مصر سنة (٨٠٨ هـ / ١٤٠٢م)، فالفرق الزمني واضح جدا، ولعل الذي أوقعهما في هذا اللبس توافق الاسم لأب كل من العالمين المذكورين فظنا أن ابن خلدون الرياضي هو صاحب المقدمة المشهورة .

---

(١) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٣ ـ ٩٤ ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٤ .

(٢) صاعد : المصدر السابق ، ص ٩٤ ـ ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق ، ص ٤٨٤ .

(٣) المقري : النفح ، ج ٣ ، ص ٣٧٦ .

(٤) الأول في كتابه تاريخ العلم ، ١٨٢ . والثاني في كتابه تراث العرب العلمي ، ص ٢٥٩ .

كما لمع أبو الحكم عمرو بن عبدالرحمن الكرماني في ميدان الفلك والهندسة ، وقد سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن الفلسفة وأنه نُسِبَ إليه إدخال رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس .

وكان الكرماني متضلعا بالأخص في ميدان الهندسة حتى قال عنه صاعد (أخبرني عنه تلميذه الحسين بن أحمد بن الحسين بن يحيى المهندس المنجم أنه ما لقي أحدا يجاريه في علم الهندسة ، ولا يشق غبارة في فك غامضها ، وتبين مشاكلها واستيفاء أجزائها)(١) .

وكان للخليفة الحكم المستنصر أثر في ازدهار تلك الدراسات الرياضية والترغيب في البحث في مواضيعها المختلفة . ويروى عنه ـ في هذا الصدد ـ أنه كان يعظم العلامة عبدالله بن محمد المعروف بالسرى . وكان السرى بارعا في الهندسة والحساب ، وألف في ذلك كتابا مشهورا في البيع . وقد حظي السرى بمنزلة رفيعة لدى الحكم المستنصر الذي كان حريصا على تقريبه إليه للاستفادة من علمه ، غير أن السرى كان يفضل العزلة والزهد لورعه(٢) .

كما برز في عصر الخلافة من علماء الرياضيات أحمد بن نصر الذي ألف كتابا في الهندسة في المساحة المجهولة ، وقد أثنى عليه ابن حزم وعده من مفاخر الأندلس في الرياضيات وأن كتابه المذكور لم يؤلف مثله في معناه(٣) .

---

(١) طبقات الأمم ، ص ١١٢ ـ ١١٣ .

(١) صاعد : نفس المصدر ، ص ٩٠ ـ ٩١ ـ القفطي : أخبار الحكماء ص ٢٤٣ ـ ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥ ـ المقرى : النفح ، ج ٣ ، ص ٣٧٦ ـ أحمدأمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ .

(٢) الحميدي : الجذوه ، ص ١٤٨ (نقلا عن صديقه ابن حزم في رسالته عن فضل الأندلس) ـ المقري : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٦ (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) .

وكان لبعض أهل الذمه نشاط في هذا الميدان العلمي ، وممن برز منهم الاسقف القرطبي ابن زيد الذي نال مكانة رفيعة لدى الخليفة الحكم المستنصر وصنف له كتابا في الفلك اسمه (تفضيل الازمان ومصالح الابدان) ، وفيه ذكر منازل القمر وما يتعلق بذلك مما يستحسن مقصده وتقريبه[1] ، وقد ترجمه الي اللاتينية جيراد الكريموني[2] .

وبناء على ماتقدم يتبين لنا مدى الازدهار الذي نالته تلك العلوم على ايدي الاندلسيين بما اضافوه الى ذلك الميدان من ضروب التأليف والوان التصانيف القيمه التي تشهد بعلو كعبهم في الرياضيات والفلك .

والحق ان هذا التطور العلمي البناء لم يكن ليتم الا في عصر الخلافة الذي شهد نشاطا علميا شاملا بفضل ماتاحه الخلفاء من اجواء علمية مناسبة ترعرعت فيها القدرات العلمية واثمرت ثمرات يانعه وخاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي لم يدخر جهدا في دفع عجلة العلوم وتشجيع العلماء على البحث والتأليف .

---

(٣) المقري : النفح ، ج ٣ ، ص ١٨٦ (نقلا عن تذييل ابن سعيد على رسالة ابن حزم فضل الاندلس) .ـ

Titus Burckhardt : Morrish Culture in Spain, P. 56.

(١) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٥٠١ ـ عبد الكريم التواتي : مأساة انهيار الوجود العربي في الاندلس ، ص ٦٦١ .



« الكيمياء »



جـ ـ الكيميـــاء :

علم الكيـمـيـاء عند المسلمين وتطوره على أيديهم ـ دور الأندلسيين في ذلك وبداية اشتغالهم بالكيمياء قبل عصر الخلافة ـ أبرز علماء الكيمياء في عصر الخلافة ـ مسلمه بن أحمد المجريطي ودراساته الكيميائيه ـ عبد الله بن محمد السرى ـ عبد الله بن محمد الذهبي ـ محمد بن الحارث الخشني ـ أهمية الكيمياء في تحضير الأدوية وعناية الأطباء بها كالطبيب خلف بن عباس الزهراوي وابن جلجل .

قبل أن أتطرق إلى الحديث عن جهود الأندلسيين في هذا العلم يجدر بنا أن نعرف معنى لفظ كيمياء . فالخوارزمي يذكر أن هذا الاسم عريق مشتق (من كمى يكمى إذا ستر وأخفى ، ويقال : كمى الشهادة يكميها إذا كتمها ، والمحققون لهذه الصناعة يسمونها « الحكمة » على الاطلاق وبعضهم يسميها الصنعة)[1] .

وقد ازدهر هذا العلم على أيدي المسلمين ازدهارا واسعا ، وكان من أوائل المشتغلين بهذا العلم من المسلمين خالد بن يزيد بن معاويه (ت ٨٥ هـ / ٧٠٤ م) ، ثم ما لبث الحال أن تطور على أيدي علماء آخرين يأتي في مقدمتهم العلامة البارع جابر بن حيان الذي يعتبر أبو الكيمياء العربيه والحديثه[2] .

ويذكر محمد الصادق عفيفي نصا لأحد العلماء الأوروبيين وهو درابر فحواه : (أن المسلمين هم الذين أنشأوا في العلوم العملية : علم الكيمياء

---

(١) مفاتيح العلوم ، ص ١٩٣ .

(٢) جلال مظهر : حضارة الإسلام ، ص ٢٧٢ .

وكشفوا بعض أجزائها المهمة ومن اختراعاتهم ماء الفضة (حامض النتريك) وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) وماء الذهب (حامض النيتروهيدرو كلوريك ..)[١] .

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن فضل المسلمين على تطور الكيمياء وازدهار دراساتها المختلفة كان كبيرا جدا حتى دفع الغربيين إلى اعتباره علما عربيا[٢].

وما من شك أنه كان للأندلسيين سهم وافر في هذا النشاط العلمي ، فقد شاركوا في هذا تطور هذا العلم بما أضافوه إليه من دراسات وأبحاث علمية موفقة ، فقبيل عصر الخلافة لمع اسم العلامة عباس بن فرناس في الرياضيات والفلك والكيمياء ، وقد أشرت إليه في التمهيد . فيما ينسب إليه من جهود علمية في ميدان الكيمياء اختراعه صنع الزجاج من الرمال والحجارة ، وكان لاكتشافه هذا أثر كبير في تطوير صناعة الزجاج ، ونتيجة لاختراعاته المدهشة في الكيمياء والفلك أن دفع الفقهاء إلى التألب ضده واتهامه بالزندقة ، ولكنه رغم ذلك نجا من تآمرهم ضده[٣] .

وفي عصر الخلافة شهد علم الكيمياء نشاطا طيبا حيث برع فيها العلامة مسلمة بن أحمد المجريطي (ت ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧م) ، وكان لمسلمة شأن كبير في ازدهار علم الكيمياء في الأندلس إذ انصرف إلى دراسة الكثير من الظواهر الكيماوية وأبدى رأيه في نتائج ما أجراه من تجارب .

---

(١) تطور الفكر العلمي عند المسلمين ، ص ١٥٩ .

(٢) قدري طوقان : العلوم عند العرب ، ص ٣٠ .

(٣) محمد عبد الله عنان : تراجم إسلاميه ، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ .

ومن مصنفاته في الكيمياء كتاب « رتبة الحكيم » الذي ضمنه خبراته وتجاربه العلمية ، ففي مقدمة كتابه المذكور يقول : بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (اعلم أيها الحكيم الطالب للعلوم الألهيه والأسرار الطبيعية أن لكل أمر سبب ، والذي دعاني إلى تأليف هذا الكتاب الذي وسمته بمدخل التعليم وسميته برتبة الحكيم أني رأيت أهل زماننا ينتحلون الحكمة ويتعاطون الفلسفة وهم في بيد الحيرة تأهين . وفي غمرة الضلال خائضين ، يقرؤون ما لا يفهمون ، ويطلبون ما لا يعلمون)(١) .

ثم يذكر المجريطي ما عليه حكماء عصره من إدعاء للحكمة ، وهم أبعد ما يكونون عن ذلك ويوضح صفة الحكماء المخلصين بأنهم الذين (ذللوا أنفسهم بالدخول في جملة العوام وشرحوا صدورهم للأنام فهم الذين يسمون بالعقلاء النبلا إذا ظهر عليهم رسم من رسوم الحكمة ستروه بأصغر منه وأقرب لعقول أهل زماننا فهم محمودون ـ عند العامة ، ومفضلون عند الخاصة للزومهم الطريقة الوسطى التي هي خير الأمور)(٢) .

ويتبين مما ذكرت عن المجريطي في مقدمة كتابه المذكور عنايته بتوضيح صفات الحكيم الماهر من غيره من مدعي الحكمة ، والأسس الأخلاقية التي إذا انتفت عن المشتغل بالحكمة يكون قد عرى من صفة الحكيم .

ولكن ما يثير الشك في نسبة ذلك الكتاب لمسلمة المجريطي هو إشارة المؤلف في مقدمته إلى أنه ألفه ما بين سنتي (٤٣٩ ـ ٤٤٤ هـ / ١٠٤٧ ـ ١٠٥٢م) ، إذ يقول (وكتابنا هذا سميناه رتبة الحكيم اقتضيناه من تلك

---

(١) رتبة الحكيم : (مخطوط) ورقة ١ أ .

(٢) رتبة الحكيم : (مخطوط) ورقة ١ ب .

الرسائل الكثيرة وبدءنا بجمعه في أول عام تسعة وثلاثين وأربعمائة لتاريخ العرب وأتممناه في عام ٤٤٤ هـ)(١) . فكيف يصح هذا القول ونحن نعلم علم اليقين أن مسلمة بن أحمد المجريطي توفي سنة ٣٩٨ هـ / ١٠٠٧ م ؟ . إن هذا القول يجعلنا نتحفظ في نسبة ذلك الكتاب إلى المجريطي ، ولكن من جهة أخرى لو تصفحنا كتابه الآخر « غاية الحكيم » لوقفنا على ما يدنينا من حقيقة الأمر في نسبة كتاب رتبة الحكيم للمجريطي فهو يقول في مقدمة كتابه المخطوط « غاية الحكيم » ما نصه (وكان تأليفي لهذا الكتاب سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة عند فراغي من تنقيح كتابي رتبة الحكيم)(٢) .

ولا شك أن هذا النص دليل قوي على أن كتاب رتبة الحكيم من تأليف مسلمة المجريطي وأن تأليفه سابق على تأليف كتابه الثاني « غاية الحكيم » .

وبناء عليه فإن تاريخ تأليف كتاب رتبة الحكيم الذي تضمنته مقدمته لا يستند إلى شئ من الصحة لأنه متأخر على تاريخ وفاة المجريطي بأكثر من أربعين سنة . وإذا سلمنا جدلاً بما أورده في مقدمة كتابه « رتبة الحكيم » عن تاريخ تأليفه له ، أي فيما بين عام ٤٣٩ هـ وعام ٤٤٤ هـ فإن هذا يجعلنا نشك في أن مخطوط كتاب « رتبة الحكيم » الذي ننقل عنه ليس للمجريطي ، ومن المحتمل أن يكون كتابا آخر لمؤلف آخر وإن طابق اسمه اسم كتاب المجريطي . غير أن ذلك الافتراض يبدو صعبا إذ أن مخطوط كتاب « رتبة الحكيم » منسوب إلى المجريطي باسمه الكامل . هذا ومن المحتمل أيضا أن يكون أحد تلاميذ المجريطي هو الذي ألّف هذا الكتاب في الكيمياء وأراد أن يمنحه جلال

---

(١) نفس المصدر : ورقة ٢ أ ٣ ب .

(٢) غاية الحكيم : (مخطوط) ورقة ١ أ .

أستاذه المجريطي ومنزلته العلمية فنسب إليه ذلك الكتاب مع احتفاظه هو بتاريخ تأليفه الحقيقي .

ولكن رغم هذه التساؤلات والافتراضات العديدة فإن الراجح أن ذلك الكتاب من تأليف مسلمة المجريطي ، وهو أمر أقره المؤرخون الثقات كابن خلدون والقلقشندي وحاجي خليفة وغيرهم .

ويذكر ابن خلدون في معرض حديثه عن ذلك الكتاب أن كلام المجريطي وغيره من العلماء في الكيمياء إنما هو (ألغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم في ذلك)(١) .

ويمكن أن نرجع ذلك إلى تعمد الكيماويون التستر علي أبحاثهم العلمية بالتكتم والإخفاء في محاولة للحفاظ على سلامتهم من المعارضين لعلومهم هذه . فكلامهم لا يكاد يفهمه إلا المشتغلون بتلك العلوم والعارفون بمصطلحاتها ، وبذلك كانوا يضمنون عدم الكشف عن حقائق علمهم هذا ، وبخاصة إذا علمنا أنه شاب تلك الدراسات الكيمياوية بعض صور الشعوذة والخرافات كتحويل بعض المعادن الرخيصة إلى ذهب . كما أنه من الجائز أن يكونوا بطريقتهم تلك يستهدفون العلو بمكانتهم العلمية والحفاظ على أسرار صناعتهم . فإن في إفشائهم لأسرار ذلك العلم والكشف عن معارفهم في ذلك مدعاة إلى بروز الكثير من العارفين بذلك ينافسونهم مكانتهم العلمية ويجردونهم من امتيازاتهم العلمية ، وقد أشار المجريطي إلى ذلك بقوله (أن الكلام في ذلك تبيين وكشف لأسرار(*) هذه الصناعة فكان الذي يأخذ بأدنى كتاب من كتبهم فيقرأه فيجد

(١) المقدمه : ص ٥٠٤ .

(*) في الأصل « وكشف الأسرار » والصحيح ما ورد في المتن .

العلم واضحا بينا فلا يكون لذلك فضل لعالم(*) على جاهل فقطعوا القول صيانة منهم وصيانة عن العامة[1] .

وقد أشار القلقشندي إلى كتاب « رتبة الحكيم » في حديثه عن الكيمياء ووصف ذلك الكتاب بأنه من أهم ما كتبه المسلمون في ذلك العلم[2] .

وينصح المجريطي كل مشتغل بالكيمياء أن يدرس العلوم الطبيعية والرياضية وأن يقرأ كتب من تقدم من العلماء كأرسطاطاليس وسقراط وهرمس[3] وغيرهم ثم يعود يديه على العمل والتجربة والنظر العميق حتى تتجلى له حقيقة ذلك العلم مع معرفة ما ذكره العالمان المسلمان جابر بن حيان ومحمد بن زكريا الرازي في هذا الميدان العلمي ، كما يرشد إلى وجوب معرفة المعادن وتركيبها وكيفيتها وأوزانها[4] .

والحق أن كتاب رتبة الحكيم بما حواه من معارف وخبرات علمية ليدل دلالة واضحة على ما تمتع به مسلمة المجريطي من براعة تامة في الكيمياء ومعرفة واسعة بمسائلها ليس في مجال الدراسة والنظر فحسب ، وإنما أيضا في ميدان التجربة العملية .

ومن التجارب العلمية التي أجراها المجريطي ما ذكره في كتابه المذكور من أنه أخذ ربع رطل من الزئبق الرجراج الخالي من الشوائب وجعله في آنية زجاج ثم وضعها داخل إناء آخر ووضع ذلك على نار هادئة لمدة أربعين يوما ثم

(*) في الأصل « فضل العالم على جاهل » والصحيح ما ورد في المتن .

(١) رتبة الحكيم (مخطوط) ورقة ١٢ أ .

(٢) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٤٧٥ .

(٣) للتعريف بهؤلاء الفلاسفة . انظر المبشر بن فاتك : مختار الحكم ومحاسن الكلم ، ص ١٧٨ ومابعدها ، ص ٨٢ ـ ومابعدها ، ص ٧ ومابعدها بالترتيب حسب ورود الأسماء أعلاه .

(٤) رتبة الحكيم (مخطوط) ورقة ١٦ أ و ٦ ب و ١٧ أ و ٧ ب و ٨ أ .

أخرج ذلك الآناء بعد تلك المدة ونظر في الزئبق فوجده قد تحول إلى مسحوق أحمر ، ثم وزنه بعد ذلك فلاحظ احتفاظه بوزنه الأصلي من غير زيادة ولا نقصان[1] .

ولا ريب أن المجريطي قد تنبه إلى ناحية من نواحي العمليات الكيميائية وهي ملاحظة ما يطرأ على أوزان المواد الكيميائية التحليلية . ولو كان المجريطي قد قام بهذه التجربة في حيز محدود من الهواء مع مراعاة التحوط للأمور التي أشير إليها لكان من المؤكد أن يخرج بالنتيجة التي حصل عليها الكيمائي لافوزيه بعده بستة قرون وكانت من أسباب شهرته العلمية[2] .

وهكذا نلحظ ما كان يتمتع به ذلك العلامة الأندلسي من تفوق علمي في إجراء التجارب العلمية . وهو بهذا يعتبر أستاذ عالمي الكيمياء بريستلي ولافوزيه ، وإن تجربته السابقة تعتبر أساسا لما قام به هذان العالمان فيما بعد من دراسات وبحوث علمية في الكيمياء[3] .

ويشتمل كتاب رتبة الحكيم على الكثير من الدراسات العلمية المهمة في ميدان الكيمياء ، كظاهرة تنقية الذهب والفضة بما لا يبعد عن الوسائل الحديثه في ذلك من طرق تنقية هذين الفلزين وبما لا يخرج في جوهره عما هو معروف في عصرنا عن طريقة فصل هذين الفلزين أحدهما عن الآخر في سبائكهما بواسطة الحل بحامض الأزوتيك[4] .

(١) رتبة الحكيم (مخطوط) ورقة ٣٨ أ ، ٣٨ ب .

(٢) عمر كحاله : العلوم البحته ، ص ٢٦٠ .

(٣) محمد الحسيني : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، ص ١٩٥ ـ علي عبدالله الدفاع : أمام علماء المغرب في العلوم التطبيقية المجريطي ، مقال بمجلة الفيصل ، العدد ٥٦٠٠ ، صفر سنة ١٤٠٢ هـ .

(4) عمر كحاله : العلوم البحته ، ص ٢٦٠ .

كما أن المجريطي أشار إلى المياه المعدنيه ومدى تأثرها في ذلك بما تحويه الأرض من المعادن التي تكسو الأحجار والصخور[١] .

ويحدثنا المجريطي عن كيفية تكّون الزئبق ومدى تأثير الشمس في ذلك وكيف أن الماء الراكن في جوف الأرض في أماكن معلومة إذا قابلته الشمس استحر ذلك الموضع وقل الماء لما أصابه من الحرارة وصار بخارا صاعدا حتى إذا انقطعت الحرارة بذهاب الشمس عاد ذلك الماء متقلبا في موضعه وقد تأثر بالحرارة . فإذا عادت الشمس تكررت الحال على تلك الصوره حتى يقلل الماء ويتحول ما بقي منه إلى سائل غليظ . فلا تعود الحرارة تؤثر فيه لغلاظته حتى ييبس ليتحول في نهاية الأمر إلى زئبق[٢] .

وبناء على ما تقدم فإن المجريطي بجهوده المثمرة في علم الكيمياء قد أضاف الكثير من الخبرات والتجارب العلمية التي كان من شأنها أن دفعت عجلة الدراسات الكيمائية إلى الأمام .

ويظهر في مؤلفه « رتبة الحكيم » مدى تقدم علم الكيمياء بعد جابر بن حيان في فترة المائة والخمسين سنة التي تفصل بينهما[٣] .

وفي كتاب المجريطي الآخر « غاية الحكيم » معلومات هامه عن الكيمياء ، كحديثه عن خواص المعادن وتأثيرها وما ينجم عن المزج بينها . فيقول في ذلك (واللازورد إذا جمع مع الذهب ازداد حسنا ... والفضة إذا شيبت برائحة الكبريت أسودت)[٤] ، وإلى غير ذلك من الدراسات العلمية والإشارات المهمة في ميدان الكيمياء .

---

(١) رتبة الحكيم . ورقة ٤٠ ب .

(٢) نفس المصدر السابق ، ورقه ٤٥ أ ، ٤٥ ب .

(٣) محمد الحسيني : المرجع السابق، ص ١٩٥ ـ قدري طوقان: تراث العرب العلمي، ص ٢٥٨.

(٤) ورقة ١٣١٣ أ .

ومن خلال ما تقدم نلمس مدى ما كان للتجربة العملية من أهمية في دراسات وأبحاث المجريطي ، فقد كان يعتمد على التجربة العلمية في استخراج النتائج العلمية الصحيحة والتي كان للكثير منها أهمية بالغة في الكشف عن بعض حقائق هذا العلم(١) .

وبرز الكثير من تلاميذ المجريطي في علم الكيمياء وأضافوا بجهودهم العلمية في هذا المجال مزيدا من العطاء . ويورد ابن خلدون رسالة لأحد تلاميذ المجريطي يتحدث فيها عن علم الكيمياء وقواعده وغاياته ، وتلك الرسالة يذكرها أبو بكر بن بشرون ، ويقول فيها (إن هذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون ، واقتص جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الأحجار والجواهر وطباع البقاع والأماكن فمنعنا اشتهارها من ذكرها ، ولكن ابين لك من هذه الصنعة ما يحتاج إليه فتبدأ بمعرفته فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولا ثلاث خصال أولها هل تكون ، والثانيه من أي تكون ، والثالثة من أي كيف تكون ، فإذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم ، وأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناه بما بعثنا به إليك من الاكسير)(٢) .

ويتضح من خلال هذه الرسالة ما اتصف به أولئك العلماء من علم واضح بهذا العلم ودراية به ، وكيف أنهم كانوا يعتمدون على التجربه العملية والملاحظة للوصول إلى نتائج دراساتهم العلمية ، وتضم الرسالة الكثير من التجارب العلمية في دراسة المواد الكيماوية وتحليلها والوقوف على خواصها .

---

(١) للمجريطي تآليف كثيرة غير ما ذكرناه ، ككتاب مفاخرة الاحجار ، وروضة الحدائق ورياض الخلائق، وكتاب في الطبيعيات وتأثير النشأه والبيئه على الكائنات الحي، والرسالة الجامعه . انظر (علي الدفاع : أمام علماء المغرب في العلوم التطبيقية المجريطي مقال بمقلة الفيصل ، العدد ٥٦ ، صفر سنة ١٤٠٢ هـ) . انظر أيضا الزركلي : الاعلام ، ج ٧ ، ص ٢٢٤ .

(٢) المقدمه : ص ٥٠٥ ـ وانظر بقية هذه الرسالة العلمية فيما يلي ذلك من الصفحات .

ويدلي ابن خلدون بعد تلك الرسالة برأيه في علم الكيمياء فيصفها بأنها ليست صناعة طبيعية أي من اجتهاد البشر أنفسهم بل إنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرفها في عالم الطبيعة أما من نوع الكرامة إن كانت النفوس خيره أو من نوع السحر إن كانت شريرة(١) .

والحق أن صناعة الكيمياء لا تتعلق بشئ مما ذكره ابن خلدون الذي أدلى برأيه السابق تحت تأثير ما كانت تتصف به الكيمياء في بعض وجوهها بصور من الشعوذة والخرافة كتحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة ، فعلم الكيمياء له قواعد وقوانين علمية مقننه تقوم على معرفة خواص السوائل وتحليلها وتأثير بعضها في بعض بالمزج وغيرها من العمليات الكيمائية والتي تقوم على الملاحظة والتجربة العملية بعيدا عن الصورة القديمة التي خلعها بعض الأدعياء على هذا العلم المهم وصبغوه بصبغة تنافي حقيقة أمره .

وإلى جانب من ذكرنا من المشتغلين بالكيمياء برز آخرون تعرفنا عليهم من خلال تراجمهم وليس من خلال مؤلفاتهم وتصانيفهم في علم الكيمياء ، فمن هؤلاء العلامة عبدالله بن محمد المعروف بالسري الذي أشرنا إليه كأحد الرياضيين (وكان ينسب إليه العلم بصناعة الكيمياء ، وكان الحكم المستنصر بالله يعظمه ويؤثره ويدوم الاستكثار منه فيقبضه عنه ورعه ويكفه عن مداخلته زهده)(٢) .

كما أن عبدالله بن محمد الأزدي المعروف بالذهبي (ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣م) كان مشتغلا بالكيمياء ، كثير الاهتمام بدراستها والبحث في ظواهر المواد الكيمائية ، ووصف بالاجتهاد والنشاط التام في ذلك(٣) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥١٣ .

(٢) صاعد : طبقات الأمم ، ص ٩٠ ـ ٩١ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٩٧ .

كما نسب إلى الفقيه المؤرخ محمد بن الحارث بن أسد الخشني (ت ٣٦١ هـ / ٩٧١ م) الاشتغال بالكيمياء ، وقد وصف بأنه كان (يعمل بالأدهان ويتصرف في ضروب من الأعمال اللطيفة)(١) .

ولعل من دواعي الاهتمام بالكيمياء ارتباطها الوثيق بعلم الصيدلة وتحضير الأدوية وما يدخل في ذلك من عمليات التقطير واستخلاص السوائل من الأعشاب والنباتات والمزج بينها . كما أن الصيادله المسلمين عنوا بالكيمياء ورأوا ضرورة معرفتها لما لها من العلاقة الوطيدة بما يقومون به من تجارب علمية ، ولا أدل على ذلك من أن الزهراوي صاحب كتاب « التصريف لمن عجز عن التأليف » قد أفرد مقالة من مقالات كتابه المذكور في إصلاح الأدوية وحرق الأحجار المعدنية . ولا ريب أن اهتمامه بالأحجار المعدنية ودراسته لها ومعرفته خواصها يقوده إلى طرق باب الكيمياء ويؤكد حاجته إلى معرفة قواعدها .

وقد اشار بن جلجل إلى أهمية ما تحويه الأرض من نباتات وحيوانات وما بها من خواص الشفاء والدواء ، كما أشار إلى ما تختزنه الأرض من المعادن التي فيها شفاء ورحمة ، وهذا أمر يؤكد حاجة الصيدلي في عمله إلى معرفة الكيمياء وقوانينها ليتم له استخلاص العناصر الدوائية من المعادن .

وما من شك في أن ارتباط الكيمياء بالصيدله قد أدى إلى ازدهار علم الكيمياء وتطوره ، ولهذا نلحظ بروز بعض الأطباء الذين جمعوا بين مهارتهم في الطب براعتهم في الكيمياء ، كابن الذهبي الأزدي ، وابن السري وقد تقدم ذكرهما .

---

(٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

وبناء على ماتقدم فإن علم الكيمياء قد شهد ازدهارا كبيرا وتطورا ملحوظا في عصر الخلافة ، وما ذاك إلا عائد إلى بروز بعض العلماء ممن أسهموا في تطور ذلك العلم وشاركوا في بناء كيانه .

والحق أن المجريطي بما أسداه من جهود علمية موفقه يعتبر فخر الأندلس في هذا العلم وفارسها الذي لا يبارى في ذلك الميدان ، وأن كتابه رتبة الحكيم لجدير بالدراسة العلمية الدقيقة من قبل علماء الكيمياء في عصرنا ليطلعوا على مدى ما كان لأولئك العلماء في الأندلس من فضل عظيم في ارساء قواعد علم الكيمياء الحديث .

والجدير بالذكر أنه لولا ما أصاب هذا العلم من ضروب التضييق والعنت والسعي في احراق كتبه ـ باعتبار ما دخل عليه من الشعوذه والخرافات لوقفنا على تراث علمي كبير للأندلسيين في هذا الميدان ، ولتبين لنا حقيقة جهودهم العلمية ومدى إسهامهم الواسع في تقدم علم الكيمياء ، ولكن حسبنا أن ما أشرنا إليه فيه ما يقنعنا بعظم ما قدموه في هذا المجال .

وخلاصة القول أن العلوم التجريبية من طب وصيدلة وفلك ورياضيات وكيمياء قد لقيت من الأندلسيين كل اهتمام وعناية .

ففي الطب أسدى علماء الأندلس من الأطباء جهودا واضحه في سبيل تطور هذا العلم وازدهاره . بل إننا لا نبالغ في القول إذا أشرنا إلى أن الأندلسيين يحتفظون بحق تقدمهم على غيرهم في تطوير « الجراحة الطبية » ووضع أسسها وقواعدها ، وهو ما قام به فخر الجراحة الطبية خلف بن عباس الزهراوي .

ولم يكن الزهراوي يقف وحده في هذا الميدان بل وقف معه الكثير من علماء الأندلس الذين اثبتوا قدراتهم العلمية الواسعة وبرهنوا على أنهم أهل للوقوف مع أبرز علماء الطب في تاريخه الطويل ، ومن هؤلاء ابن جلجل ، وعريب بن سعيد وابنا يونس الحراني وغيرهم كثير ، والحق أن ميدان الطب نال من الأندلسيين عناية فائقة حتى لا نغالي إذا قلنا أنه هو العلم الذي منحه الأندلسيون نشاطا أكثر من العلوم التجريبية الأخرى .

وفي ميدان الفلك والرياضيات قدم الأندلسيون روائع من إنتاجهم العلمي وقد أشرنا إلى الرابطة القوية بين علمي الفلك والرياضيات عند علماء الأندلس ، وتتمثل هذه الصفة بوضوح في السيرة العلمية للعلامة مسلمة المجريطي الذي يعتبر بجهوده ونشاطه العلمي مدرسة قائمة بذاتها كان لها أعظم الأثر في تطور تلك الدراسات العلمية . وقد أبدع الأندلسيون في تلك العلوم ، وإن ما بقي من إنتاجهم العلمي في الفلك والرياضيات لشاهد قوي على عمق عطائهم وعظم مشاركتهم في ازدهارها وتطورها .

وفي علم الكيمياء أكد الأندلسيون تفوقهم العلمي وقدرتهم الواسعة على الوصول إلى نتائج علمية مهمة في ذلك ، فكان لهم إسهام وافر في تطور الكيمياء وإن ما قدمه المجريطي في هذا الحقل العلمي المهم لدليل على مشاركة الأندلسين الجادة في تقدم علم الكيمياء ، فجهود جابر بن حيان في المشرق قد قابلتها في الأندلس جهود مسلمة المجريطي الذي أضاف الكثير من الخبرات والمعارف لهذا العلم ، وكان بنشاطه العلمي في الكيمياء جدير بأن يشار إليه بالبنان كأحد من تقوم على تجاربهم العلمية في الكيمياء الكثير من الدراسات العلمية الكيمائية في عصرنا الحالي .





بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد :

فهذه خاتمة البحث ، وقد تضمنت النتائج المنبثقة عن دراستنا لموضوع « الحياة العلمية في عصر الخلافة الأموية في الأندلس » .

ففي بداية البحث والذي كان عن الحياة العلمية في عصر الإمارة نلحظ أن النشاط العلمي في تلك الفترة كان يدور بشكل مكثف حول علوم الدين باعتبارها العلوم المنبثقة عن عقيدة المسلمين الفاتحين . فقد كان المسلمون آنذاك يسعون سعياً حثيثاً نحو الاهتمام بالدراسات الدينية بالإضافة إلى عنايتهم البالغة بتوضيح تعاليم الدين الحنيف لأهل البلاد المفتوحة إنطلاقاً من حرصهم الشديد على نشر الإسلام ، وليتسنى لأهل البلاد الدخول في الإسلام وفهم تعاليمه فهماً صحيحاً ، وقد سبقت الإشارة إلى أن الجيش الفاتح كان يضم أعداداً كبيرة من العلماء وفي مقدمتهم أحد الصحابة الكرام وهو المنيذر الأفريقي وعدداً من التابعين الإجلاء .

ولما كانت لغة الفاتحين هي اللغة العربية بالإضافة إلى أهمية ارتباطها بعلوم الدين فقد لقيت اللغة العربية وآدابها عناية بالغة فاقبل الأندلسيون على دراسة اللغة العربية والبحث فيما تتضمنه من نحو ولغة وآداب ، وأستطاعوا أن يقدموا الكثير من الدراسات المهمة المتعلقة بذلك .

وهكذا فإن ميداني العلوم الدينية واللغة العربية وآدابها يعتبران في مقدمة ما أولاه الأندلسيون اهتمامهم العلمي فكان لهم في تلك العلوم إنتاج

علمي نفيس . ويكفي أن نشير في ميدان العلوم الدينية إلى زياد بن عبدالرحمن اللخمي الذي نسب إليه إدخال موطأ مالك ، وقد نسب ذلك أيضاً إلى معاصره الغازي بن قيس والذي كان له جهد كبير في تطور علم القراءات .

ومن أكبر علماء الدين في ذلك العصر العلامة بقي بن مخلد الذي وصف ابن حزم جهوده العلمية ومؤلفاته بأنها قواعد للإسلام .

وفي ميدان اللغة العربية وآدابها لمع اسم محمد بن يحيى المعروف بـ (القلفاط) المتوفي سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م والذي كان ينشر علومه في النحو واللغة وتلقى العلم على يديه الكثير من طلبة العلم . كما أنه كان للفقيه عبدالملك ابن حبيب جهد عظيم في رقي الدراسات اللغوية . ولا يفوت المطلع على الدراسات الأدبية آنذاك أن يذكر الأديب فرج بن سلام الذي نقل الكثير من كتب الجاحظ إلى الأندلس والتي كان لها أثر عظيم في تعريف الأندلسيين بالإنتاج الأدبي المشرقي ، وبالتالي انطلاقهم في ميدان البحث والدراسات .

أما فيما يتصل بالعلوم الإنسانية والعلوم التجريبية فإن الاشتغال بها بصورة كبيرة لم يتم إلا في العصر التالي لعصر الإمارة وذلك بعد أن اتسعت دائرة البحث العلمي باتساع آفاق الأندلسيين في دراسة العلوم القديمة وتغيرت النظرة التي تميز بها الكثير من الفقهاء قبل عصر الخلافة والتي اتسمت بكراهية البحث في تلك العلوم .

والجدير بالذكر أن الأندلسيين استطاعوا إبان عصر الخلافة أن يطرقوا أبواب المعرفة المختلفة وأن يثبتوا لغيرهم من المسلمين في الأقطار الأخرى أنهم لا يقلون في عطائهم العلمي عنهم . ولا نقل ذلك من غير بينة فإن من يطلع على الإنتاج العلمي لأهل الأندلس سيقف على جلية الأمر وصدق المقال .

ويتضح لمن تتبع سير الحركة العلمية في ذلك العصر أن هناك مظاهر جلية للنشاط العلمي تستحق من الباحث الوقوف عندها ودراستها بصورة وافية .

فمن تلك المظاهر عناية الخلفاء بالحركة العلمية ومدى ما بذلوه في ذلك من جهود في سبيل ازدهار الحياة العلمية ، ولا ريب أن الخليفة عبدالرحمن الناصر بما قام به من إقرار للحالة السياسية للبلاد ، واهتمامه بسيادة الأمن والاطمئنان ربوع الأندلس قد هيأ الجو المناسب والمناخ الملائم لنمو الحركة العلمية وازدهارها فانصرف الناس في عهده الزاهر إلى تحصيل العلوم والآداب وطرق أبواب المعرفة المختلفة ، فكانوا يجوبون مدن الأندلس وينتقلون بين أطرافها المختلفة في أمن ويسر ، وهو أمر بلاشك كان له أكبر الأثر في رقي العلوم والآداب ، بل إن عصر عبدالرحمن الناصر شهد وفود الكثير من طلبة العلم من أوروبا لينهلوا من معين العلم وليأخذوا عن الأندلسيين علومهم وآدابهم ، فكانت قرطبة في عهده درة مضيئة وموردا عذبا لكل متعطش للعلم والمعرفة .

وعندما تولى ابنه الحكم المنتصر الخلافة سعى وهو الخليفة العالم إلى تشجيع العلماء وتيسير سبل التعليم لرعيته وكانت له في ذلك جهود مثمرة ، وأصبحت الأندلس في عهده دارعلم فلا يكاد أن يسمع عنها إلا ما يمت إلى العلم والمعرفة . وتمكنت الأندلس في عصره من الوصول إلى مستوى الإبداع فبرزت شخصيتها العلمية المتألقة القادرة على إثبات ذاتها في ميدان البحث والإنتاج العلمي .

وخلف الحكم المستنصر ابنه هشام المؤيد ولكنه كان بعيداً عن زمام الأمور لهيمنة الحاجب المنصور على شئون الدولة . ورغم أنه المنصور سلك طريقا في الوصول إلى سدة الأمر لا يرضاه التاريخ إلا أنه مع ذلك أستطاع أن يبلغ بالأندلس في عهده قمة القوة والعزة بينما عاش خصوم الأندلس من الممالك الأسبانية النصرانية منتهى الذل والإنكسار ، وكان المنصور إلى جانب تفوقه في ذلك كبير العناية بالعلم والآداب وقد شهد ميدان الأدب في عصره ازدهاراً كبيراً وحفل عصره بأهل الأدب والشعر وازدادت التآليف الأدبية بتشجيع منه .

وفي عصر الخلافة يقف المتتبع لسير الحركة العلمية على أهمية الرحلات العلمية التي كان يقوم بها أهل الأندلس إلى المشرق ، وما نجم عن ذلك من تأثير علمي كبير كان له أعمق الأثر في ازدهار الحركة العلمية في الأندلس وفي تعريف الأندلسيين بمناهج البحث والدراسة التي سبقهم إليها أهل المشرق . ثم ما لبث الأندلسيون بعد ذلك أن نافسوا إخوانهم المشارقة في الميدان العلمي ، ولسنا في حاجة في هذا الموضع أن نسرد ما سبق التعرف به من أمثلة دالة على ما كان يعتمل في نفوس الأندلسيين من محاولةالوقوف موقف الند مع أهل المشرق ، فقد كان للأندلسيين آثار علمية قيمة تبرهن على نضوج الشخصية العلمية الأندلسية في عصر الخلافة .

وكان من دلائل النهضة العلمية آنذاك ظاهرة الاهتمام بالكتب وإنشاء المكتبات في صورة قلما نجد لها نظيراً على وجه التقريب . وقدم الباحث في هذا الميدان من الدلائل والشواهد ما يثبت ذلك وبخاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي كان له جهود موفقة في جمع الكتب ، فقد جمع منها أعداداً

هائلة في مختلف فروع العلم كما كان شديد الحرص على إقتناء نفائس الكتب ونوادر التصانيف حتى وصفه أحد الكتاب الغربيين بأنه « دودة كتب » . ورغم ما لحق مكتبته من مأساة في عهد الفتنة إلا أن تفرق كتبها بين الأندلسيين وتناثرها بالتالي في مختلف أنحاء البلاد كان له أثر إيجابي في توسيع دائرة الاهتمام بالكتب ، وفي رقي الحركة العلمية في أقطار الأندلس المختلفة .

وإلى جانب الخليفة الحكم المستنصر حفظ التاريخ أسماء الكثير من هواة جمع الكتب في الأندلس آنذاك ، وقد أورد الباحث الكثير منهم ، ومن الطبيعي أن يستتبع الاهتمام بالكتب نشاط حرفة الوراقه وما تشمله من تجارة الكتب ونسختها وتجليدها وهي حرفة لقيت من الأندلسيين كل عناية واهتمام .

وقد شهد عصر الخلافة نشاط حقل التعليم ، كما أثبت الأندلسيون آنذاك أنهم شعب قارئ ـ إذا صح التعبير . فكان لاهتمام الخلفاء وفي مقدمتهم الخليفة الحكم المستنصر بالعلم والمعرفة أثر كبير في إقبال الناس على العلم وسعيهم الحثيث إلى اكتساب المعرفة . ولعل من أعظم ما يحفظه التاريخ من جهود مشكورة للخليفة الحكم المستنصر فتحه العديد من المدارس لأبناء الفقراء وتوفير التعليم لهم مجانا ، بل إن التاريخ يحدثنا أنه أوقف حوانيت السراجين على تعليم أطفال المسلمين الفقراء ، وقد أشار الباحث إلى ذلك عند الحديث عن التعليم .

وفيما يتعلق بالنشاط العلمي في العلوم والآداب فإن الأندلسيين بنشاطهم العلمي الكبير قد تمكنوا من إغناء المكتبة الإسلامية بألوان الإنتاج العلمي النفيس والذي يبرهن بوضوح على نبوغهم العلمي وعلى ما كانوا يتمتعون به من قدرات علمية كبيرة . ففي ميدان العلوم الدينية نبغ الكثير منهم ممن لا تزال آثارهم العلمية تحوز على إعجاب المسلمين إلى يومنا هذا ، ففي الفقه يلمع اسم الفقيه محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة الذي صنف كتابا في الفقه على المذهب المالكي أسماه المنتخب ، وقد أثنى عليه ابن حزم وقال عنه ما رأيت

لمالكي كتابا أنبل منه . وبرز إلى جانب ابن لبابه فقهاء كثيرون منهم يحيى بن عبدالله الليثي الذي كان مجلسه العلمي من أشهر المجالس في قرطبه . وبرع في الفقه الفقيه محمد بن عمر المعروف بابن الفخار الذي كان يفخر بأنه أستفتي في مسجد النبي ﷺ ، بالمدينة . ومن أشهر فقهاء الأندلس ابن البر النمري الذي كان يميل إلى مذهب الشافعي وكانت له تآليف على المذهب المالكي، والفقيه المشهور ابن حزم الذي نهج طريق الظاهرية في الفقه وكانت له تآليف عديدة في الفقه والحديث وفي مختلف فروع العلم ، حتى عد من أكثر علماء الإسلام تصنيفا .

وفي ميدان الحديث لمع اسم المحدث محمد بن عبدالملك بن أيمن وصديقه قاسم بن أصبغ اللذان يعتبران من أكبر المحدثين في عصر الخلافة وكان لكل منهما تآليف في الحديث أخذت عنهما ولقيت كل ثناء وتقدير من علماء عصرهم وأثنى عليهما ابن حزم وأشاد بتصانيفهم . وقد كان لأسرة الباجي أثر عظيم في ازدهار الحديث وعلومه ، فقد أنجبت تلك الأسرة العديد من العلماء المحدثين الذين ـ حملوا رسالة العلم وعملوا على نشره بين الناس . كما برز غيرهم العديد من المحدثين في عصر الخلافة وقد أورد الباحث أعدادا كبيرة منهم ولسنا في هذه الخاتمة بصدد إعادة ذكر أسمائهم وجهودهم العلمية .

وفي ميدان التفسير وعلوم القراءات قدم الأندلسيون نتائج علمية مثمرة .

ففي القراءات برز العديد منهم وفي مقدمتهم أحمد بن محمد الطلمنكي الذي صنف في القراءات كتباً كثيرة ذات قيمة كبيرة . وقد عاصره المقرىء المشهور أبو عمر عثمان بن سعيد الدالي الذي لا يغفله أي دارس للنشاط العلمي لعلوم القرآن في الأندلس ، فله من التصانيف في ذلك مقدار كبير ينم عن علم واسع ومعرفة تامة بعلوم القرآن .

ومن علماء القراءات مكي بن أبي طالب ، وقد عرف بالمنزلة الرفيعة في علوم القرآن ، وكان له إنتاج علمي نفيس يشهد له بالتبحر في تلك العلوم والدراية التامة بها .

وفي ميدان التفسير أظهر العديد من علماء الأندلس نبوغاً كبيراً ، ومنهم أحمد بن بقي بن مخلد الذي ورث عن أبيه سعة العلم والبراعة في التفسير . كما أنه كان لمكي الآنف الذكر تآليف في التفسير تدل على سعة علمه . وللعلامة محمد بن عبدالله المري كتاب في تفسير القرآن الكريم، وقد عرف عن المري تضلعه في علوم القرآن .

أما فيما يتعلق بعلم الكلام فإنه لم يجد في الأندلس أرضا خصبة نظرا لموقف الأندلسيين منه وسعيهم إلى تضييق الخناق على المشتغلين به ، ورغم ذلك فقد عرف عن بعض الأندلسيين الاشتغال به وقد أورد الباحث عددا منهم .

وفي ميدان الأدب واللغة كان للأندلسيين إنتاج أدبي رفيع ، ويأتي في مقدمتهم الأديب أحمد بن عبد ربه الذي ترجع شهرته الواسعة إلى كتابه القيم « العقد » .

كما أن إسماعيل بن القاسم المعروف بالقالي كان له جهود كبيرة في ازدهار الأدب واللغة ، ومن أشهر تصانيفه الذائعة الصيت كتاب « الأمالي » .

ويأتي بعد القالي الأديب صاعد بن الحسن الربعي الذي صنف كتابا في الأدب واللغة أسماه « الفصوص » وهو من الكتب المفيدة في ميدانه ، وفي الشعر برز العديد من شعراء الأندلس يأتي في مقدمتهم يوسف بن هارون الرمادي ، وأحمد بن دارج القسطلي الذي قيل أنه بالأندلس كالمتنبي بالمشرق .

وفي ميدان اللغة والنحو يلمع اسم اللغوي ابن القوطية ، ومحمد بن الحسن الزبيدي ، ولكن أشهرهم في ذلك ابن سيده الأعمى الذي لا تزال بعض تآليفه محط اهتمام الباحثين ودارسي اللغة العربية .

وفيما يتعلق بالعلوم الإنسانية أظهر الأندلسيون مهارة فائقة في التاريخ والجغرافيا ، والفلسفة . ففي الدراسات التاريخية نبغت أسرة الرازي وكان أشهرهم أحمد بن محمد الرازي الذي كانت له جهود علمية كبيرة في رقي هذه الدراسات وفي تطورها ، فقد نقل عنه الكثير من العلماء وأشادوا به وبجهوده في ذلك ، ويأتي المؤرخ ابن حيان في مقدمة من أنجبته الأندلس في ميدان التاريخ كما يقف موقف الند مع ابن الأثير المؤرخ المشرقي بما تميز به من أسلوب بديع في الكتابة التاريخية وما تمتع به من قدرة على التحليل التاريخي للأحداث إضافة إلى صدقه وصراحته في إيراد المعلومات التاريخية .

وفي علم الجغرافيا يلمع اسم المؤرخ محمد الرازي الذي صنف كتابا في التاريخ والجغرافيا أسماه الرايات والذي يحوي الكثير من المعلومات الجغرافية المهمة . كما برز محمد بن يوسف الوراق في ميدان الجغرافيا . فكانت له تآليف قيمة في ذلك وقد اعتمد عليها من أتى بعده من الجغرافيين كالبكري . كما برز الجغرافي أحمد بن عمر بن أنس العذري الذي صنف الكثير من الكتب الجغرافية التي للأسف لم يصلنا منها إلا أجزاء يسيرة . ويظهر من أسلوبها العذري في الكتابة الجغرافية مدى ما تمتع به من علم واسع ومعرفة كبيرة بعلم الجغرافيا .

كما أظهر بعض الأندلسيين مقدرة كبيرة في دراسة الفلسفة ، ولكن نظرا لما عرف عن الأندلسيين من كراهية لهذا العلم فإن حركة الإشتغال به كانت بطيئة ومتعثرة . ورغم ذلك فقد أظهر الفقيه ابن حزم الظاهري قدرة مدهشة في بحث ودراسة الفلسفة . وكان له جهد بارز في التعريف بنظرية المعرفة قبل الفيلسوف الألماني « كانط » الذي نسبت إليه هذه النظرية على غير حق .

وفيما يتصل بالعلوم التجريبية استطاع الأندلسيون أن يخوضوا هذا الميدان وأن يخرجوا بأروع النتائج العلمية في كل علم منها . ففيما يتعلق

بالرياضيات والفلك نبغ الكثير من العلماء ويأتي في مقدمتهم العالم الذائع الصيت مسلمة بن أحمد المجريطي الذي وصف بالتمكن في الرياضيات والفلك وأنه إمام الرياضيين في الأندلس إلى جانب تضلعه في الكيمياء وعلم الحيوان والنبات وكان له في كل ذلك تصانيف قيمة وجهود رائعة . وكان المجريطي بمثابة مدرسة تخرج منها الكثير من العلماء وفي مقدمتهم أصبغ بن السمح المهري الذي أثنى عليه ابن حزم وذكر عنه أنه ألف في الازياج زيجا لم يؤلف مثله ، والعلامة أحمد بن عبد الله بن الصفار الذي نبغ في الرياضيات والفلك وكان يلقى دروسه في جامع قرطبة . وفي ذلك دليل واضح على تغير النظرة القديمة نحو تلك العلوم إذ أصبحت تدرس وتبحث مسائلها في الجامع بقرطبة جنبا إلى جنب مع العلوم الأخرى . كما برز علماء آخرون في الرياضيات والفلك منهم أبو مسلم بن خلدون أخذ عنه الكثير من العلماء علمه في تلك العلوم . وفي ميدان الهندسة أظهر عمرو بن عبد الرحمن الكرماني قدرات كبيرة حتى وصف بانه لم يجاريه أحد في مصرفتها .

وفيما يتعلق بالطب فقد أنجبت الأندلس أعداداً كبيرة من الأطباء ويكفيها فخرا أنه خرج منها نابغة الجراحة الطبية وواضع أسسها الصحيحة أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي الذي أثنى عليه الاطباء في عصره وما بعده حتى وصفه أحد الكتاب الغربيين وهو ستانلي لين بول بقوله أنه هو الجدير بلقب « أبي الطب » وأن كتابه « التصريف لمن عجز عن التأليف » والذي لا يزال مخطوطا أعظم شاهد على نبوغه في الطب وبخاصة في ميدان الجراحة وأنه بالتالي أعظم جراح في تاريخ الطب الإسلامي .

وقد ظهر إلى جانب الزهراوي الكثير من الأطباء ومنهم سليمان بن حسان « ابن جلجل » الذي كانت له جهود مشكورة في ازدهار الدراسات الطبية وخاصة فيما يتعلق بتركيب الأدوية ومعرفة النباتات الطبية ولا تزال

بعض تصانيفه محفوظة إلى يومنا في بعض المكتبات الإسلامية . وممن عاش في ذلك العصر الطبيب عريب بن سعد الذي أظهر براعة في ميدان طب الأطفال بما صنفه في ذلك ، فقد ألف كتاب « خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود » وفيه الكثير من الدراسات الطبية القيمة التي تثبت ما كان عليه من دراية واسعة بالطب وتضطلع في علومه وخاصة ما يتصل بالاطفال .

وفيما يتعلق بالكيمياء كانت للأندلسيين جهودهم المثمرة ، وقد أظهر العلامة عباس بن فرناس من علماء عصر الإمارة نبوغا في ذلك وكانت له تجارب مهمة ولكن عصره اتسم بالنظرة المحدودة نحو ذلك العلم فكان لا يمارس نشاطه العلمي في الكيمياء إلا في الخفاء . وفي عصر الخلافة لمع اسم العلامة مسلمة المجريطي الذي صنف كتابا في ذلك اسماه (رتبة الحكيم) ضمنه الكثير من تجاربه العلمية التي تشهد له بطول الباع كما ضمن كتابه المذكور الكثير من الإرشادات والتوجيهات لدراسة الكيمياء . وفي كتابه الآخر غاية الحكيم الكثير من الدراسات المتعلقة بالكيمياء مما يثبت بلاشك ما كانت عليه حال الدراسات الكيميائية في ذلك العصر وأنها نالت الكثير من الجهد ولقيت عناية واهتماما بالغين .

وإلى جانب مسلمة عرف عن العلامة عبدالله بن محمد السري الاشتغال بالكيمياء ، وكان الخليفة الحكم المستنصر يقربه ويدني منزلته . كما وصف عبد الله بن محمد الذهبي بالبراعة في دراسة الكيمياء والبحث في مسائلها .

وما من شك أن المشتغلين بالطب وتركيب الأدوية هم أكثر حاجة إلى معرفة الكيمياء لصلتها الوثيقة بتركيب الأدوية ، وهو ما نلمسه عند تصفحنا لكتاب الزهراوي « التصريف » فقد أفرد مقالة في إصلاح الأدوية وحرق الأحجار المعدنية .

وهكذا يتضح لنا مدى عناية الأندلسيين بالعلوم والآداب وما أولوها من اهتمام حتى تم لهم الوصول إلى درجة كبيرة في تلك العلوم ، فكان لهم فيها إنتاج علمي نفيس لايزال بعضه بين أيدينا رغم ما أصاب الكتب الأندلسية من كوارث الكثير منها كان متعمدا حتى قال أحد الكتاب الغربيين وهو كونديه (Conde) إن الإسبان عندما استولوا على قرطبة احرقوا في يوم واحد نحو سبعين خزانة للكتب فيها ما يزيد عن مليون وخمسين ألف مجلد (أنظر : أنور الرفاعي ، الإنسان العربي والحضارة ، ص ٤١٦) . فضلا عما حدث بعد ذلك عند خروج المسلمين من الأندلس من إحراق مئات الآلاف من الكتب عند باب الرمل بغرناطة بأمر الكردنال تسنيروس الذي لم يكن له من دافع نحو ذلك سوى حقده على الإسلام والمسلمين والتراث الإسلامي .

والجدير بالذكر أن من شواهد النهضة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس مدى التأثير العلمي للأندلسيين في أوروبا آنذاك . وأن من يطلع على كتب الحضارة الأندلسية ليقف بجلاء على عمق التأثير العلمي للأندلسيين في أوروبا ، فأحد الكتاب الغربيين وهو لويس يونغ يشير في كتابه العرب وأوروبا ص ١٢٠ إلى ذلك بقوله (شهد القرن العاشر انتقال العلوم العربية بصورة مبكرة إلى اللورين مما جعلها مركزا ثقافيا هاما لمدة قرنين). وفي ذلك إشارة هامة إلى سرعة التأثير العلمي للأندلس في أوروبا وأن ذلك لم يكن متأخرا بل كان في فترة مبكرة .

وإذا كانت قرطبة قد استقبلت آلاف العلماء وطلاب العلم من المسلمين فإن التاريخ لم يغفل عن حفظ أسماء الكثير من الأوروبيين الذين أدهشتهم حضارة الأندلس وما وصلت إليه من ازدهار علمي فاقبلوا ينهلون من معين علومها وآدابها المختلفة . وكانت الأندلس آنذاك ــ وخاصة عاصمتها قرطبة ــ سوقا

نافقة في العلم فجذبت الأوروبيين نحوها وهو أمر اعترف به الكتاب الغربيون كزيغريد هونكة ، وستانلي لين بول ، ورو لاندو ، ولويس يونغ ، وغوستاف لوبون . ففي كتابه : العرب وأوروبا (ص ١٢٥) يشير يونغ إلى أن العلامة المسيحي جريرت GERBERT الذي أصبح فيما بعد سنة(٣٩٠هـ ـ ٩٩٩ م) البابا سلفستر الثاني ـ قد عاصر النهضة العلمية في الأندلس وأنه سافر بين عامي ٩٦٧ م و ٩٧٠ م إلى هنالك حيث درس العلوم على أيدي علماء الأندلس فبرع في الرياضيات وألف فيها حين عودته كتابا شرح فيه استخدام الأرقام العربية. إلا أن الأوروبيين لم يطمئنوا إلى سيرته لاحتكاكه بالمسلمين ونسجوا حوله الأساطير المختلفة .

ويشير ماهر حمادة في كتابه (المكتبات في الإسلام) ص ٢١٢ إلى أن ـ الإمبراطور أوتو الكبير أرسل بعثة سياسية إلى الخليفة عبدالرحمن الناصر سنة (٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م) وكان على رأسها شخص يسمى جان غورتز اللوريني وحدث أن شد انتباهه الازدهار العلمي الذي كان سائدا في الأندلس آنذاك فمكث في قرطبة ثلاث سنوات تعلم فيها اللغة العربية وفي عودته إلى ألمانيا سنة (٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م) حمل معه كمية كبيرة من الكتب ، ويظهر أن أكثرها كان في العلوم التطبيقية وخاصة الرياضيات ويدل على ذلك الازدهار الكبير في دراسة تلك العلوم في القرن التالي (الحادي عشر) في مدارس مقاطعة اللورين.

وعليه فإن ما ذكرناه من الأمثلة على ظاهرة التأثير العلمي للأندلس في أوروبا إنما هو شيء قليل من كثير . وهو بلاشك برهان ساطع على ما كانت تتمتع به الأندلس من حضارة زاهرة وتقدم فكري عظيم .

وإذا كان عصر ملوك الطوائف يفخر بما حواه من نشاط علمي كبير فإن الكثير من الفضل في ذلك يعود إلى عصر الخلافة . فكما هو معلوم أن قرطبة آنذاك كانت تمثل حاضرة الخلافة وأنها بذلك قد استقطبت العلماء من شتى

بلاد الأندلس بل ومن خارجها فقد كانت مزدانه بنهضتها الحضارية وتألقها العلمي حتى أصبح العلم سمة من سماتها الحضارية ومعلما واضحا من معالمها . وبعد زوال الخلافة الأموية وحدوث الفتنة في قرطبة خرج منها آلاف العلماء إلى غيرها من المدن الأندلسية الأخرى التي تتوفر فيها مظاهر الاستقرار والأمن الذي يكفل لهم الانصراف التام نحو البحث والتحصيل العلمي ، وهو ما وجدوه في رحاب ملوك الطوائف الذين رحبوا بمقدمهم وأخذوا في تشجيعهم واغداق الصلات عليهم مقابل ما يبذلونه من جهود علمية .

هذا بالإضافة إلى ما ترتب على حصول الفتنة في قرطبة من تفرق الكتب العلمية وانتشارها في كافة اقطار الأندلس وخاصة بعد تفرق محتويات مكتبة الحكم المستنصر وما نجم عن ذلك من توسيع دائرة الاهتمام العلمي بالكتب في مختلف أنحاء الأندلس بعد أن كان النشاط العلمي مركزا في قرطبة عاصمة الخلافة .

وبناء عليه فإن عصر الخلافة كان يمثل بحق عصر العلم الذي كان له بلا ريب أثر كبير فيما تلاه من نشاط وازدهار كبير في عصر ملوك الطوائف .

وأخيرا فإن ما قدمه الأندلسيون في عصر الخلافة يعد بصدق صفحة مشرقة من صفحات التاريخ والحضارة الإسلامية تبرز قيمتها فيما أسدوه للإنسانية من ثمرات الفكر العلمي التي لا تزال آثارها واضحة المعالم بينة الآثار في حضارة اليوم وتشهد للمسلمين بعظيم الفضل وروعة العطاء في تقديم الحضارة الإنسانية .

الملاحق



ملحق رقم (١)

رسالة ابن حزم في فضل الأندلس[1]

قلت : وقد رأيت أن أذكر رسالة أبي محمد ابن حزم الحافظ التي ذكر فيها بعض فضائل علماء الأندلس ، لاشتمالها على ما نحن بصدده . وذلك أنه كتب أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب القيرواني ، إلى أبي المغيرة عبدالوهاب بن أحمد بن عبدالرحمن بن حزم يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم ، ما صورته :

كتبت يا سيدي ، واجل عددي . كتب الله تعالى لك السعادة ، وأدام لك العز والسيادة مسائلا مسترشدا ، وباحثا مستخبرا ، وذلك أني فكرت في بلادكم إذ كانت قرارة كل فضل ، ومنهل كل خير ، ومقصد كل طرفه ، ومورد كل تحفة ، وغاية آمال الراغبين ، ونهاية أماني الطالبين ، أن بارت تجارة فإليها تجلب ، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق ، مع كثرة علمائها ووفور أدبائها وجلالة ملوكها ، ومحبتهم في العلم وأهله ، يعظمون من عظمه علمه ، ويرفعون من رفعه أدبه ، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب ، يقدمون من قدمته شجاعته ، وعظمت في الحروب نكايته ، فشجع الجبان ، وأقدم الهيبان ، ونبه الخامل ، وعلم الجاهل ، ونطق العيي ، وشعر البكي ، واستنسر البغاث ، وتتعبن الحفات، فتنافس الناس في العلوم ، وكثر الحذاق في جميع الفنون ، ثم هم مع ذلك على غاية التقصير ونهاية التفريط ، من أجل أن علماء الأمصار دونوا فضائل أمصارهم . وخلدوا في الكتب مآثر بلدانهم ، وأخبار الملوك والأمراء ، والكتاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكرا في الغابرين يتجدد على مر الليالي والأيام ، ولسان صدق في الآخرين يتأكد مع تصرف الأعوام ، وعلماؤكم

---

(١) المقري : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٥٦ - ١٧٩ .

مع استظهارهم على العلوم كل امريء منهم قائم في ظله لا يبرح ، وراتب على كعبه لا يتزحزح، يخاف إن صنف أن يعنف ، وإن ألف أن يخالف ، ولا يؤالف، أو يخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ، لم يتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلده ، ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه ، ولا بل قلما بمناقب كتابه ووزرائه ، ولا سود قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه ، على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه، لوجد للقول مساغا ، ولم تضق عليه المسالك ، ولم تخرج به المذاهب ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد ، ولكن هم أحدهم أن يطلب شأو من تقدمه من العلماء ليجوز السبق ، ويفوز بقدح ابن مقبل ، ويأخذ بكظم دغفل ، ويصير شجا في حلق أبي القميل ، فإذا أدرك بغيته ، واخترمته منيته، ومن معه أدبه وعلمه ، فمات ذكره ، وانقطع خبره ، ومن قدمنا ذكره من علماء الامصار أحتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الاكياس ، فألقوا دواوين بقي لهم بها ذكر مجدد طول الأبد .

فإذا قلت : إنه كان مثل ذلك من علمائنا، وألفوا كتبا لكنها لم تصل إلينا، فهذه دعوى لم يصحبها تحقيق ، لأنه ليس بيننا وبينكم غير روحة راكب ، أو رحلة قارب ، لو نفث من بلدكم مصدور ، لاسمع من ببلدنا في القبور ، فضلا عمن في الدور والقصور ، وتلقوا قوله بالقبول كما تلقوا ديوان أحمد بن عبد ربه الذي سماه بالعقد[1] ، على أنه يلحقه فيه بعض اللوم ، لاسيما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه ، أكثر الحز واخطأ المفصل وأطال الهز لسيف غير مصقل ، وقعد به ما قعد بأصحابه من ترك ما يعنيهم ، واغفال ما يهمهم ، فارشد أخاك أرشدك الله واهده هداك الله إن كانت عندك في ذلك الجلية ، وبيدك فصل القضية، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

---

(١) انظر ميدان الأدب وازدهاره في عصر الخلافة .

فكتب الوزير الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، عند وقوفه على هذه الرسالة ما نصه :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله وعلى أصحابه الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، وذريته الفاضلين الطيبين .

أما بعد يا أخي يا أبا بكر ، سلام عليك سلام أخ مشوق طالت بينه وبينك الأميال والفراسخ ، وكثرت الأيام والليالي ، ثم لقيك في حال سفر ونقله ، ووادك في خلال جوله ورحله ، فلم يقض من مجاورتك ، ولا بلغ في محاورتك مطلبا ، وأني لما أحتللت بك وجالت يدي في مكنون كتبك ، ومضمون دواوينك ، لمحت عيني في تضاعيفها درجا ، فتأملته فإذا فيه خطاب لبعض الكتاب من مصاقبينا في الدار أهل أفريقيه ، ثم ممن ضمته حاضرة قيروانهم ، إلى رجل أندلسي لم يعينه باسمه ، ولا ذكره بنسبه ، ويذكر له فيها أن علماء بلدنا بالأندلس ، وإن كانوا على الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم ، وفي الغاية القصوى من التحكم على وجود المعارف ـ فإن هممهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم ، ومكارم ملوكهم ، ومحاسن فقهائهم ، ومناقب قضاتهم ، ومفاخر كتابهم ، وفضائل علمائهم ، ثم تعدى ذلك إلى أن أخلى أرباب العلوم منا من أن يكون لهم تأليف يحي ذكرهم ، ويبقى علمهم ، بل قطع على أن كل واحد منهم قد مات فدفن علمه معه ، وحقق ظنه في ذلك ، واستدل على صحته عند نفسه بأن شيئا من هذه التآليف لو كان منا موجودا لكان إليهم منقولا ، وعندهم ظاهرا لقرب المزار ، وكثرة السفار ، وترددهم إليهم ، وتكررهم علينا ، ثم لما ضمنا المجلس الحافل بأصناف الآداب ، والمشهد الآهل بأنواع العلوم ، والقصر المعمور بأنواع الفضائل ، والمنزل المحفوف بكل لطيفة وسيعة من دقيق المعاني وجليل المعالي ، قرارة المجد ومحلب السؤدد ، ومحط رحال الخائفين ، وملقى عصار التسيار عند الرئيس الأجل الشريف قديمه وحسبه ، الرفيع

حديثه ومكتسبه ، الذي أجله عن كل خطة يشركه فيها من لا توازي قومته نومته ، ولا ينال حضره هويناه ، وأربأ به عن كل مرتبة يلحقه فيها من لا يسمو إلى المكارم سموه ، ولا يدنو من المعالي دنوه ، ولا يعلو في حميد الخلال علوه ، بل اكتفى من مدحه باسمه المشهور ، واجتزى من الإطالة في تقريظه بمنتاه المذكور ، فحسبي بذينك العلمين دليلا على سعيه المشكور ، وفضله المشهور ، أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن قاسم صاحب البونت أطال الله بقاءه ، وأدام اعتلاءه ، ولا عطل الحامدين من تحليهم بحلاه ، ولا أخلى الأيام من تزينها بعلاه ، فرأيته أعزه الله تعالى حريصا على أن يجاوب هذا المخاطب ، وراغبا في أن يبين له ما لعله قد رآه فنسي أو بعد عنه فخفي ، فتناولت الجواب المذكور بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات رحمنا الله تعالى وإياه ، فلم يكن لقصده بالجواب معنى وقد صارت المقابر له مغنى ، فلسنا بمسمعين من في القبور ، فصرفت عنا الخطاب إليك ، إذ من قبلك صرت إلى الكتاب المجاوب عنه ، ومن لدنك وصلت الى الرسالة المعارضة ، وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حينما وصل كفاية لمن غاب عنه من أخبار تآليف أهل بلدنا مثل ما غاب عن هذا الباحث الأول ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، وإن كنت في إخباري إياك بما أرسمه في كتابي هذا كمهد إلى البركان نار الحباحب ، وبأني صوى في مهيع القصد اللاحب ، فإنك وإن كنت المقصود والمواجه ، فإنما المراد من أهل تلك الناحية من نأى عنه علم ما استجلبه السائل الماضي وما توفيقي إلا بالله سبحانه .

فأما مآثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتبا جمة منها : كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها ، وأمهات مدنها وأجنادها الستة ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه مما ليس في غيره ، وهو

كتاب مريح مليح[1] ، وأنا أقول : لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله ﷺ بشر به ووصف أسلافنا المجاهدين فيه بصفات الملوك على الأسرة في الحديث الذي رويناه من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان زوج أبي الوليد عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين حدثته به عن النبي ﷺ أنه أخبرها بذلك لكفى شرفا بذلك يسر عاجله ، ويغبط آجله ، فإن قال قائل : فلعله صلوات الله تعالى عليه إنما عنى بذلك الحديث أهل صقلية وأقريطش ، وما الدليل على ما أدعيته من أنه ﷺ عنى الأندلس حتما ؟ ومثل هذا من التأويل لا يتساهل فيه ذو ورع دون برهان واضح ، وبيان لائح ، لا يحتمل التوجيه ولا يقبل التجريح ، فالجواب ـ وبالله التوفيق ـ أنه ﷺ قد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب ، وأمر بالبيان لما أوحي إليه ، وقد أخبر في ذلك الحديث المتصل سنده بالعدل ، عن العدول بطائفتين من أمته يركبون ثبج هذا البحر غزاة واحدة بعد واحدة ، فسألته أمُّ حرام أن يدعو ربه تعالى أن يجعلها منهم ، فأخبرها ﷺ وخبره الحق بأنها من الأولين ، وهذا من أعلام نبوته ﷺ ، وهو إخباره بالشيء قبل كونه ، وصح البرهان على رسالته بذلك وكانت من الغزاة إلى قبرص ، وخرت عن بغلتها هناك ، فتوفيت رحمها الله تعالى ، وهي أول ـ غزاة ركب فيها المسلمون البحر ، فثبت يقينا أن الغزاة إلى قبرص هم (الأولون الذين بشر بهم النبي ﷺ ، وكانت أم حرام منهم كما أخبر صلوات الله تعالى وسلامه عليه ولا سبيل أن يظن به وقد أوتي من البلاغة والبيان أنه يذكر طائفتين قد سمى إحداهما أولى والتالية لها ثانية ، فهذا من باب الإضافة وتركيب العدد ، وهذا يقتضي طبيعة صناعة المنطق ، إذ لا تكون الأولى أولى إلا لثانية . ولا الثانية ثانية إلا لأولى، فلا سبيل إلى ذكر ثالث إلا بعد ثان ضرورة ، وهو ، ﷺ ، إنما ذكر طائفتين ، وبشر بفئتين وسمى إحداهما الأولين ،

(١) انظر الحديث عن هذا العالم في ميدان التاريخ والجغرافيا في عصر الخلافة .

فاقتضى ذلك بالقضاء الصدق آخرين ، والآخر من الأول هو الثاني الذي أخبر ﷺ أنه خير القرون بعد قرنه ، وأولى القرون بكل فضل بشهادة رسول الله ﷺ بأنه خير من كل قرن بعده ، ثم ركب البحر بعد ذلك أيام سليمان بن عبدالملك إلى القسطنطينية ، وكان الأمير بها في تلك السفن هبيرة الفزاري ، وأما صقليه فإنها فتحت صدر أيام الأغالبة سنة ٢١٢ ، أيام قاد إليها السفن غازيا أسد بن الفرات القاضي صاحب أبي يوسف رحمه الله تعالى ، وبها مات ، وأما أقريطش فإنها فتحت بعد الثلاث والمائتين ، افتتحها أبو حفص عمر بن شعيب المعروف بابن الغليظ ، من أهل قرية بطروج من عمل فحص البلوط المجاور لقرطبة من بلاد الأندلس ، وكان من فل الربضيين ، وتداولها بنوه بعده إلى أن كان آخرهم عبدالعزيز بن شعيب الذي غنمها في أيامه أرمانوس بن قسطنطين ملك الروم سنة ٣٥٠ ، وكان أكثر المفتتحين لها أهل الأندلس ، وأما في قسم الأقاليم فإن قرطبة مسقط رؤوسنا ، معق تمائمنا ، مع سر من رأى في أقليم واحد ، قلنا من الفهم والذكاء ما أقتضاه إقليمنا ، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلا مغربة عن مطالعها على الجزء المعمور ، وذلك عند المحسنين للأحكام التي تدل عليها الكواكب ناقص من قوى دلائلها ، فلها من ذلك على كل حال حظ يفوق حظ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد النيرين بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة التمكن في العلوم والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدق ذلك الخبر ، وأبانته التجربة ، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات وحفظ كثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم بمكان رحب الفناء واسع العطس متنائي الأقطار فسيح المجال ، والذي نعاه علينا الكاتب المذكور لو كان كما ذكر لكنا فيه شركاء لأكثر أمهات الحواضر وجلائل البلاد ومتسعات الأعمال ، فهذه القيروان بلد المخاطب لنا ، ما اذكر أني رأيت في أخبارها تأليفا غير « المعرب عن أخبار المغرب » وحاشا تواليف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محمد بن يوسف الوراق ، فإنه ألف للمستنصر رحمه الله تعالى في مسالك أفريقية وممالكها ديوانا ضخما وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليهم كتبا جمة ، وكذلك ألف أيضا في أخبار تيهرب ووهران وتنس وسجلماسه ونكور والبصرة وغيرها تواليف حسانا، ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع آباؤه من وادي الحجارة، ومدفنه بقرطبة، وهجرته إليها ، وإن كانت نشأته بالقيروان(١) .

ولا بد من إقامة الدليل على ما اشرت إليه هاهنا إذ مرادنا أن نأتي منه بالمطلب فيما يستأنف إن شاء الله تعالى ، وذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السالفين والباقين دون محاشاة أحد ، بل قد تيقنا اجماعهم على ذلك ، متفقون على أن ينسبوا الرجل إلى مكان هجرته التي استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكانها إلى أن مات . فإن ذكروا الكوفيين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم صدروا بعلي وابن مسعود وحذيفة رضي الله تعالى عنهم ، وإنما سكن علي الكوفة خمسة أعوام وأشهراً ، وقد بقي ٥٨ عاما وأشهراً بمكة والمدينة شرفهما الله تعالى وكذلك أيضا أكثر أعمار من ذكرنا ، وإن ذكروا البصريين بدأوا بعمران بن حصين وأنس بن مالك وهشام بن عامر وأبي بكرة ، وهؤلاء مواليدهم وعامة زمن اكثرهم واكثر مقامهم بالحجاز وتهامة والطائف ، وجمهرة اعمارهم خلت هنالك ، وإن ذكروا الشاميين نوهوا بعبادة بن الصامت وأبي الدرداء وأبي عبيدة بن الجراح ومعاذ ومعاوية ، والأمر في هؤلاء كالأمر فيمن قبلهم ، وكذلك في المصريين عمرو بن العاص وخارجة بن حذافة العدوي ، وفي المكيين عبدالله بن عباس وعبدالله ابن الزبير ، والحكم في هؤلاء كالحكم فيمن قصصنا ، فمن هاجر إلينا من سائر البلاد فنحن أحق به ، وهو منا بحكم جميع أولي الأمر منا الذين اجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترانه ، ومن هاجر منا Nلى غيرنا فلا حظ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره اسعد به ،

(١) انظر الحديث عن ذلك العالم وكتبه في ميدان التاريخ والجغرافيا في عصر الخلافة .

فكما لا ندع اسماعيل بن القاسم[1] فكذلك لا ننازع في محمد بن هانيء[2] سوانا ، والعدل أولى ما حرص عليه ، والنصف أفضل ما دعى إليه ، بعد التفصيل الذي ليس هذا موضعه ، وعلى ما ذكرنا من الأنصاف تراضي الكل .

وهذه بغداد حاضرة الدنيا ومعدن كل فضيلة ، والمحله التي سبق أهلها إلى حمل ألوية المعارف ، والتدقيق في تصريف العلوم ، ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء وجدة الأفكار ونفاذ الخواطر ، وهذه البصرة وهي عين المعمور في كل ما ذكرنا ، وما اعلم في أخبار بغداد تأليفا غير كتاب أحمد بن أبي طاهر ، وأما سائر التواريخ التي ألفها أهلها فلم يخصوا بلدتهم بها دون سائر البلاد ، ولا اعلم في أخبار البصرة غير كتاب عمر بن شبة ، وكتاب لرجل من ولد الربيع ابن زياد المنسوب إلى أبي سفيان في خطط البصرة وقطائعها ، وكتابين لرجلين من أهلها يسمى أحدهما عبدالقاهر كريزي النسب في صفاتها ، وذكر أسواقها ومحالها وشوارعها ، ولا اعلم في أخبار الكوفة غير كتاب عمر بن شبة وأما الجبال وخراسان وطبرستان وجرجان وكرمان وسجستان والري والسند وأرمينية واذربيجان وتلك الممالك الكثيرة الضخمة فلا اعلم في شيء منها تأليفا قصد به أخبار ملوك تلك النواحي ، وعلمائها وشعرائها ، وأطبائها ولقد تاقت النفوس إلى أن يتصل بها تأليف في أخبار فقهاء بغداد ، وما علمناه عُلم ، على أنهم العلية الرؤساء ، والأكابر العظماء ، ولو كان في شيء من ذلك تأليف لكان الحكم في الأغلب أن يبلغنا كما بلغ سائر تأليفهم ، وكما بلغنا كتاب حمزه بن الحسن الأصبهاني في أخبار أصبهان وكتاب الموصلي وغيره في أخبار مصر ، وكما بلغنا سائر تواليفهم في أنحاء العلوم ، وقد بلغنا تأليف القاضي أبي العباس محمد بن عبدون القيرواني في الشروط واعتراضه على الشافعي رحمه الله تعالى ، وكذلك بلغنا رد القاضي أحمد بن طالب التميمي على أبي حنيفة

(١) انظر ترجمة هذا الأديب اللغوي في ميدان الأدب واللغة في عصر الخلافة .

(٢) انظر الحديث عن هذا الشاعر في باب الشعر في عصر الخلافة .

وتشيعه على الشافعي ، وكتب ابن عبدوس ومحمد بن سحنون وغير ذلك من خوامل تآليفهم دون مشهورها .

وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر « أزهد الناس في عالم أهله » وقرأت في الأنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبي حرمته إلا في بلده « وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي ﷺ ، من قريش وهم أوفر الناس أحلاما وأصحهم عقولا وأشدهم تثبتا مع ما خصوا به من سكناهم أفضل البقاع ، وتغذيتهم بأكرم المياه ـ حتى خص الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس ، والله يؤتي فضله من يشاء ، ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلاد ، إن أجاد قالوا : سارق مغير ومنتحل مدع ، وإن توسط قالوا : غث بارد وضعيف ساقط ، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا : متى كان هذا ؟ ومتى تعلم ؟ وفي أي زمان قرأ ؟ ولأمه الهبل . وبعد ذلك إن ولجت به الأقدار أحد طريقين إما شفوفا بائنا يعليه على نظرائه أو سلوكا في غير السبيل التي عهدوها فهنالك حمي الوطيس على البائس وصار غرضا للأقوال وهدفا للمطالب ونصبا للتسبب إليه ونهبا للألسنة وعرضة للتطرق إلى عرضه ، وربما نحل ما لم يقل وطوق ما لم يتقلد والحق به ما لم يفه به ولا أعتقده قلبه . وبالحرى وهو السابق المبرز إن لم يتعلق من السلطان بحظ أن يسلم من المتآلف وينجو من المخالف ، فإن تعرض لتأليف غمز ولمز وتعرض وهمز واشتط عليه وعظم يسير خطبه ، واستشنع هين سقطه وذهبت محاسنه وسترت فضائله وهتف ونودي بما أغفل ، فتنكس لذلك همته وتكل نفسه وتبرد حميته ، وهكذا عندنا نسيب من ابتدأ يحوك شعرا ، أو يعمل رسالة ، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل ، ولا يتخلص من هذه النصب إلا الناهض الفائت والمطفف المستولي على الأمد .

وعلى ذلك فقد جُمِعَ ما ظنه الظان غير مجموع ، وألفت عندنا تآليف في غاية الحسن لنا خطر السبق في بعضها : فمنها كتاب « الهداية » لعيسى بن دينار[1] ، وهي أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم ، وأجمعها للمعاني الفقهية على المذهب، فمنها كتاب الصلاة وكتاب البيوع وكتاب الجدار في الأقضية وكتاب النكاح والطلاق ، ومن الكتب المالكية التي ألفت بالأندلس كتاب القطني مالك بن علي[2] ، وهو رجل قرشي من بني فهر لقي أصحاب مالك وأصحاب أصحابه ، وهو كتاب حسن فيه غرائب ومستحسنات من الرسائل المولدات ، ومنها كتاب أبي إسحاق يحيى بن إبراهيم بن مزين[3] في تفسير الموطأ والكتب المستقصيه لمعاني الموطأ وتوصيل مقطوعاته من تآليف ابن مزين أيضا . وكتابه في رجال الموطأ وما لمالك عن كل واحد منهم من الآثار في موطأه .

وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبدالرحمن بقي بن مخلد[4] فهو الكتاب الذي أقطع قطعا لا استثنى فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله ، ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره . ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبه على أسماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف ، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام فهو مصنف ومسند ، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه واتقانه واحتفاله في الحديث وجودة شيوخه ، فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلا ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائرهم أعلام مشاهير ، ومنها مصنفه في فضل الصحابة والتابعين ومن دونهم الذي أربى فيه على مصنف

(١) انظر الحديث عن هذا الفقيه وكتابه المذكور في باب الفقه في عصر الخلافة .

(٢) انظر الحديث عن هذا الفقيه وكتابه في شرح الموطأ في باب الفقه في عصر الإمارة .

(٣) انظر الحديث عن هذا الفقيه وكتابه في شرح الموطأ في باب الفقه في عصر الإمارة .

(٤) انظر الحديث عن هذا العالم في باب التفسير في عصر الإمارة .

أبي بكر ابن أبي شيبة ومصنف عبدالرزاق بن همام ومصنف سعيد ابن منصور وغيرها وانتظم علما عظيما لم يقع في شيء من هذه فصارت تآليف هذا الإمام الفاضل قواعد للإسلام ، لا نظير لها ، وكان متخيرا لا يقلد أحدا ، وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه[1] .

ومنها في أحكام القرآن كتاب ابن أمية الحجاري ، وكان شافعي المذهب بصيرا بالكلام على اختياره ، وكتاب القاضي أبي الحكم منذر بن سعيد ، وكان داودي المذهب قويا على الانتصار له ، وكلاهما في أحكام القرآن غاية ، وللمنذر مصنفات منها كتاب « الإبانة عن حقائق أصول الديانة »[2] .

ومنها في الحديث مصنف أبي محمد قاسم بن أصبغ بن يوسف بن ناصح ومصنف محمد بن عبدالملك بن أيمن[3] ، وهما مصنفان رفيعان احتويا من صحيح الحديث وغريبه على ما ليس في كثير من المصنفات ولقاسم بن أصبغ هذا تآليف حسان جدا ، منها أحكام القرآن على أبواب كتاب إسماعيل وكلامه ومنها كتاب « المجتبى على أبواب كتاب ابن الجارود المنتقى » وهو خير منه وأنقى حديثا وأعلى سندا وأكثر فائدة ، ومنها كتاب في فضائل قريش وكنانه ، وكتابه في الناسخ والمنسوخ ، وكتاب غرائب حديث مالك بن أنس مما ليس في الموطأ ، ومنها كتاب « التمهيد » لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبدالبر[4] ، وهو الآن بعد في الحياة لم يبلغ سن الشيخوخة ، وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا فكيف أحسن منه ، ومنها كتاب « الاستذكار » وهو اختصار التمهيد المذكور ، ولصاحبنا أبي عمر ابن عبدالبر

---

(١) انظر الحديث عن تآليف هذا العالم في باب علوم الدين وخاصة الحديث والتفسير .

(٢) انظر الاشارة إلى كتابه في احكام القرآن في باب التفسير في عصر الخلافة .

(٣) انظر الحديث عنهما وعن تآليفهما في باب الحديث في عصر الخلافة .

(٤) انظر الحديث عن هذا العلامة وتآليف المختلفة في باب الفقه والحديث والتاريخ في عصر الخلافة .

المذكور كتب لا مثيل لها : منها كتابه المسمى بالكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمس عشر كتابا اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجة إليه وبوبه وقربه فصار مغنيا عن التصنيفات الطوال في معناه ، ومنها كتابه في الصحابة ليس لأحد من المتقدمين مثله على كثرة ما صنفوا في ذلك ، ومنها كتاب « الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمر وابن العلاء ، والحجة لكل واحد منهما » ، ومنها كتاب « بهجة المجالس وأنس المجالس » مما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات ، ومنها كتاب « جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته » ومنها كتاب شيخنا القاضي أبي الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف بن الفرضي في المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال ، ولم يبلغ عبدالغني الحافظ البصري في ذلك إلا كتابين ، وبلغ أبو الوليد رحمه الله تعالى نحو الثلاثين لا أعلم مثله في فنه البتة[1]ومنها تاريخ أحمد بن سعيد[2] ، وما وضع في الرجال أحد مثله إلا ما بلغنا من تاريخ محمد بن موسى العقيلي البغدادي ، ولم أره ، وأحمد بن سعيد هو المتقدم إلى التأليف القائم في ذلك ، ومنها كتب محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرح القاضي[3] ، وهي كثيرة منها أسفار سبعة جمع فيها فقه الحسن البصري وكتب كثيرة جمع فيها فقه الزهري ، ومما يتعلق بذلك شرح الحديث لقاسم بن ثابت السرقسطي[4] ، فما شأه أبو عبيد إلا بتقدم العصر فقط .

ومنها في الفقه « الواضحة »[5] والمالكيون لا تمانع بينهم في فضلها واستحسانهم إياها ومنها « المستخرجة من الأسمعة » وهي المعروفة بـ

(١) انظر الحديث عن هذا العلامة في باب الحديث في عصر الخلافة .

(٢) انظر أيضا عن هذا العلامة وكتابه في باب الحديث في عصر الخلافة .

(٣) انظر ترجمة هذا العالم في باب الحديث في عصر الخلافة .

(٤) انظر الحديث عن هذا العلامة في باب الحديث في عصر الامارة .

(٥) انظر الحديث عن هذا الكتاب في باب الفقه في عصر الامارة .

« العتبية » ، ولها عند أهل أفريقية القدر العالي والطيران الحثيث ، والكتاب الذي جمعه أبو عمر أحمد بن عبدالملك بن هشام الإشبيلي المعروف بابن المكوى، والقرشي أبو مروان المعيطي[1] في جمع أقاويل مالك كلها على نحو الكتاب « الباهر » الذي جمع فيه القاضي أبو بكر محمد بن الحداد البصري أقاويل الشافعي كلها ، ومنها كتاب « المنتخب » الذي ألفه القاضي محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة[2] ، وما رأيت لمالكي قط كتابا أنبل منه في جمع روايات المذهب وشرح مستغلقها وتفريع وجوهها ، وتآليف قاسم بن محمد[3] المعروف بصاحب الوثائق ، وكلها حسن في معناه ، وكان شافعي المذهب نظارا جاريا في ميدان البغداديين .

ومنها في اللغة الكتاب « البارع » الذي ألفه إسماعيل بن القاسم[4] ـ يحتوي على لغة العرب ، وكتابه في « المقصور والممدود والمهموز » لم يؤلف مثله في بابه وكتاب « الأفعال » لمحمد بن عمر بن عبدالعزيز المعروف بابن القوطية[5] ، بزيادات ابن طريف مولى العبديين فلم يوضع في فنه مثله ، وكتاب جمعه أبو غالب تمام بن غالب المعروف بابن التياني[6] في اللغة لم يؤلف مثله اختصارا وإكثارا وثقة نقل ، وهو أظن في الحياة بعد . وههنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها ، وهي أن أبا الوليد عبدالله بن محمد بن عبدالله المعروف بابن الفرضي حدثني أن أبا الجيش مجاهدا صاحب الجزائر ودانية وجه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية ـ وأبو غالب مساكن بها ـ ألف دينار

---

(١) انظر ترجمة هذين العالمين في باب الفقه في عصر الخلافة .

(٢) انظر الحديث عن هذا الفقيه في باب الفقه في عصر الخلافة .

(٣) انظر الاشارة الى هذا الفقيه في باب الفقه في عصر الامارة .

(٤) انظر تآليفه في باب الادب واللغة في عصر الخلافة .

(٥) انظر ترجمة هذا العالم في باب اللغة والتاريخ وعن كتابه المذكور انظر باب اللغة في عصر الخلافة .

(٦) انظر الحديث عن هذا اللغوي في باب اللغة في عصر الخلافة .

أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور « مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد « فرد الدنانير وأبي من ذلك ولم يفتح في هذا بابا البتة . وقال : (والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب ، لأني لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب) ، فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها ، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها .

ومنها كتاب أحمد بن إبان بن سيد[1] في اللغة المعروف بكتاب « العالم » نحو مائة سفر على الأجناس في غاية الإيعاب ، بدأ بالفلك وختم بالذرة ، وكتاب « النوادر » لأبي علي إسماعيل بن القاسم ، وهو مبار لكتاب « الكامل » لأبي العباس المبرد ، ولعمري لئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحوا وخبرا فإن كتاب أبي علي أكثر لغة وشعرا وكتاب « الفصوص » لصاعد بن الحسن الربعي[2] ، وهو جار في مضمار الكتابين المذكورين .

ومن الأنحاء تفسير الجرفي لكتاب الكسائي ، حسن في معناه ، وكتاب ابن سيده في ذلك المنبوز بـ « العالم والمتعلم » وشرح له لكتاب الأخفش[3] .

ومما ألف في الشعر كتاب عبادة بن ماء السماء في « أخبار شعراء الأندلس » كتاب حسن ، وكتاب « الحدائق » لأبي عمر أحمد بن فرج عارض به كتاب الزهرة لأبي محمد بن داود رحمه الله تعالى . إلا إن أبا بكر إنما أدخل مائة باب في كل باب مائة بيت ، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئا ، وأحسن الاختيار ما شاء وأجاد ، فبلغ الغاية ، وأتى الكتاب فردا في معناه[4] ،

(١) انظر ترجمته في باب اللغة في عصر الخلافة .

(٢) انظر الحديث عن هذا الأديب وكتابه المذكور في باب الأدب في عصر الخلافة .

(٣) هذه الكتب لابن سيد أحمد بن إبان وليست لابن سيده انظر الحميدي . الجذوة ، ص ٤٠٥ - والضبي : البغية ، ص ٥٣٨ - والمقري : نفح الطيب ، ج ٣ ، ص ١٧٢ .

(٤) انظر الحديث عن هذا الأديب وكتابه المذكور في باب الشعر في عصر الخلافة .

ومنها كتاب « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس »[1] ، جمعه أبو الحسن علي ابن محمد بن أبي الحسن الكاتب ، وهو حي بعد ، ومما يتعلق بذلك شرح أبي القاسم إبراهيم بن محمد الافليلي[2] لشعر المتنبي ، وهو حسن جدا .

ومن الأخبار[3] تواريخ أحمد بن محمد موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم ، وذلك كثير جدا ، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها ، وتواريخ متفرقة رأيت منها : أخبار عمر بن حفصون القائم بريه ووقائعه وسيره وحروبه وتاريخ آخر في أخبار عبدالرحمن بن مروان الجليقي القائم بالجوف ، وفي أخبار بني قسي والتجيبين وبني الطويل بالثغر، فقد رأيت من ذلك كتبا مصنفه في غاية الحسن ، وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار رية وحصونها وحروبها وفقهائها وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق القيني ، وكتاب محمد ابن الحارث الخشني في « أخبار القضاء بقرطبة وسائرالأندلس » ، وكتاب « في أخبار الفقهاء » بها ، وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في « أنساب مشاهير أهل الأندلس » في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتاب في الأنساب وأوسعها وكتاب قاسم بن أصبغ في « الأنساب » في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز ، وكتابه في « فضائل بني أمية » ، وكان من الثقة والجلالة بحيث أشتهر أمره وانتشر ذكره ، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعاقل والأجناد السته بالأندلس ، ومنها كتب كثيره جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس

---

(١) هناك كتاب بهذا الاسم لأبي عبد الله محمد بن الكتاني ولحسن الحظ أنه وصلنا وقد أشرنا إليه في باب الشعر في عصر الخلافة .

(٢) انظر عن هذا الأديب باب اللغة في عصر الخلافة .

(٣) انظر ما ورد ذكره من كتب التاريخ في بابه في عصر الخلافة .

للمستنصر رحمه الله تعالى ، رأيت منها « أخبار شعزاء بالبيرة » في نحو عشرة أجزاء ومنها كتاب « الطوالع » في أنساب أهل الأندلس ، ومنها كتاب « التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس » تأليف أبي مروان بن حيان نحو عشرة أسفار من أجل كتاب ألف في هذا المعنى . وهو في الحياة بعد لم يتجاوز الاكتهال .

وكتاب « المآثر العامرية » لحسين بن عاصم في سير ابن أبي عامرة وأخباره ، وكتاب الاقشتين محمد بن عاصم النحوي في « طبقات الكتاب بالأندلس »، وكتاب سكن بن سعيد في ذلك، وكتاب أحمد بن فرج في « المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم » وكتاب أخبار أطباء الأندلس لسليمان بن جلجل[1] .

وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن إسحاق[2] وهي كتب رفيعة حسان ، وكتب محمد بن الحسن المذحجي أستاذنا رحمه الله تعالى ، وهو المعروف بابن الكتاني[3] وهي كتب رفيعة حسان وكتاب التصرف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي[4] ، وقد ادركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا أنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن، وكتب ابن الهيثم في الخواص والسموم والعقاقير من أجل الكتب وانفعها .

وأما الفلسفة فإني رأيت فيها رسائل مجموعة وعيونا مؤلفه لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار دالة على تمكنه من هذه الصناعة ، وأما رسائل أستاذنا أبي عبدالله محمد بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة[5] .

---

(١) انظر ترجمة هذا الطبيب في باب الطب في عصر الخلافة .

(٢) انظر ترجمته في باب الطب في عصر الخلافة .

(٣) انظر ترجمته في اب الطب في الخلافة وخاصة في عهد المنصور .

(٤) انظر ترجمته الوافية في باب الطب في عصر الخلافة .

(٥) انظر ذلك في باب الفلسفة في عصر الخلافة .

وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا إلا أني سمعت من أثق بعقله و دينه من أهل العلم ممن اتفق على رسوخه فيه يقول : أنه لم يؤلف في الأزياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمح ، وهما من أهل بلدنا ، وكذلك كتاب المساحه المجهوله لأحمد بن نصر فيما تقدم إلى مثله في معناه(١) .

وإنما ذكرنا التآليف المستحقة للذكر ، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلا في أحدها ، وهي إما شيء لم يسبق إليه يخترعه ، أو شيء ناقص يتمه ، أو شيء مستغلق يشرحه ، أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه أو شيء متفرق يجمعه ، أو شيء مختلط يرتبه ، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه وأما التواليف المقصره عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تآليف أهل بلدنا اكثر من أن نحيط بعلمها .

وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقل لذلك تصرفهم في هذا الباب ، فهي على كل حال غير عريه عنه ، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال ، نظار على أصوله ، ولهم فيه تواليف ، منهم خليل بن إسحاق ، ويحيى بن السمينة(٢) ، والحاجب موسى ابن حدير وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد ، وكان داعية إلى الاعتزال لا يستتر بذلك ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه(٣) من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى ، وهو وإن كان صغير الجرم قليل عدد الورق يزيد على

(١) انظر الحديث عن مسلمة المجريطي وابن السمح في باب الرياضيات والفلك في عصر الخلافة

(٢) انظر الحديث عمن ورد ذكره هنا في باب علم الكلام في الأندلس وموقف الأندلسيين منه .

(٣) انظر الحديث عن مذهب ابن حزم في باب الفقه في عصر الخلافة .

المائتين زيادة يسيرة فعظيم الفائدة لأنا أسقطنا فيه المشاغب كلها ، وأضربنا عن التطويل جملة . واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحس وبديهة العقل لها بالصحة ، ولنا فيما تحققنا به تآليف جمة . منها ما قد تم ، ومنها ما شارف التمام ، ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين الله تعالى على باقيه ، لم نقصد به قصد مباهاه فنذكرها ، ولا أردنا السمعة فنسميها ، والمراد بها ربنا جل وجهه ، وهو ولي العون فيها ، والمليّ بالمجازاة عليها ، وما كان لله تعالى فسيبدو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وبلدنا هذا - على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء - فقد ذكرنا من تآليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك ، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها .

ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جعونه بن الصمة الكلابي في الشعر لم نباه به إلا جريرا والفرزدق ، لكونه في عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائل ، لا على طريقة المحدثين ، وإذا سمينا بقي بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج النيسابوري وسليمان بن الأشعث السجستاني وأحمد بن شعيب النسائي ، وإذا ذكرنا قاسم بن محمد لم نباه به إلا القفال ومحمد بن عقيل الفريابي ، وهو شريكهما في صحبة المزني أبي إبراهيم والتلمذة له ، وإذا نعتنا عبدالله بن قاسم بن هلال ومنذر بن سعيد لم نجار بهما إلا أبا الحسن بن المفلس والخلال والديباجي ورويم بن أحمد ، وقد شاركهم عبدالله في أبي سليمان وصحبته ، وإذا أشرنا إلى محمد بن عمر بن لبابة وعمه محمد بن عيسى وفضل بن مسلمة لم نناطح بهم إلا محمد بن عبدالله بن عبدالحكم ومحمد بن سحنون ومحمد بن

عبدوس ، وإذا صرحنا بذكر محمد بن يحيى الرباحي وأبي عبدالله محمد بن عاصم لم يقصرا عن أكابر أصحاب محمد بن يزيد المبرد .

ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلي[1] لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبي ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبدالملك بن مروان وأغلب بن شعيب، ومحمد بن شخيص، وأحمد بن فرج ، وعبدالملك بن سعيد المرادي ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه ، وحصان ممسوح الغرة .

ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد[2] صديقنا وصاحبنا ، وهو حي بعد لم يبلغ سن الاكتهال ، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل ، ومحمد بن عبدالله ابن مسرة[3] في طريقه التي سلك فيها ، وإن كنا لا نرضى مذهبه ، في جماعة يكثر تعدادهم .

وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه الله تعالى من البيان ، ولم نتزيد فيما فيه إلا ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلقه بجوابه ، والحمد لله الموفق لعلمه ، والهادي إلى الشريعة المزلفة منه والموصلة ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وآله وصحبه وسلم ، وشرف وكرّم . انتهت الرسالة ،،

---

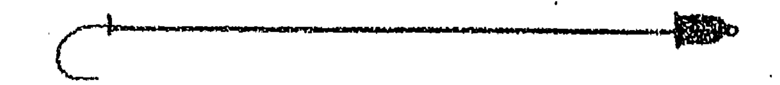
(١) انظر ترجمته في باب الشعر في عصر الخلافة .

(٢) انظر ترجمته في باب الأدب فيما يتعلق بالتأليف الأدبي وكذلك في الشعر في عصر الخلافة .

(٣) انظر الحديث عنه في باب الفلسفة في عصر الخلافة .

ملحق رقم (٢)

صورة لبعض الآت الجراحة التي استعملها الزهراوي في ممارسة العمليات الجراحية نقلا عن كتابه المخطوط (التصريف لمن عجز عن التأليف) جـ ٧ . رسم الباحث ،،



أداة من أدوات الكي يكوي بها الرأس والجبهة[١].

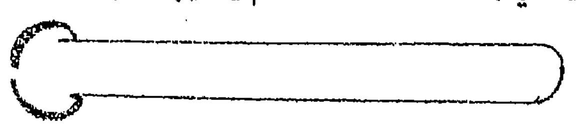
أداة من أدوات الكي تسمى المسمارية يكوي بها الرأس أيضا[٢] .



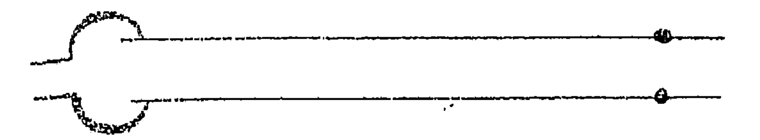
من أدوات الكي تسمى النقطة يكوي بها منطقة الأذن[٣] .



أداة يكوي بها الناصور وهو ورم يصيب الوجه[٤] .



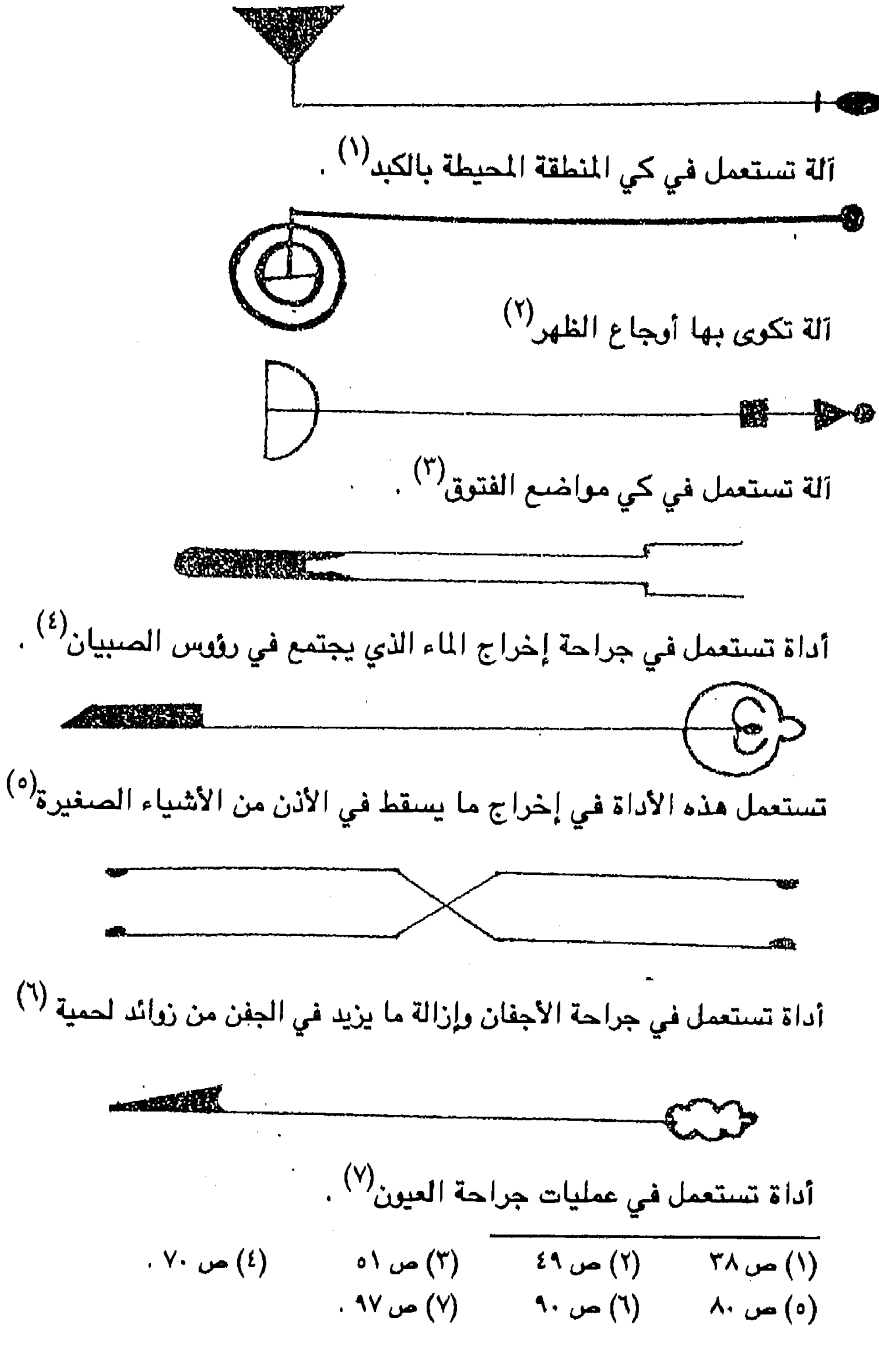
قمع يستعمل في صب الرصاص المذاب على موضع الناصور لازالته[٥] .



أداة الكي الخنازير. وهي مفتوحة الطرفين ليخرج الدخان من الطرف الآخر[٦].

---

(١) ص ١١
(٢) ص ١٥
(٣) ص ١٧
(٤) ص ٢٧
(٥) ص ٢٧
(٦) ص ٣٢



آلة تستعمل في كي المنطقة المحيطة بالكبد(١) .

آلة تكوى بها أوجاع الظهر(٢)

آلة تستعمل في كي مواضع الفتوق(٣) .

أداة تستعمل في جراحة إخراج الماء الذي يجتمع في رؤوس الصبيان(٤) .

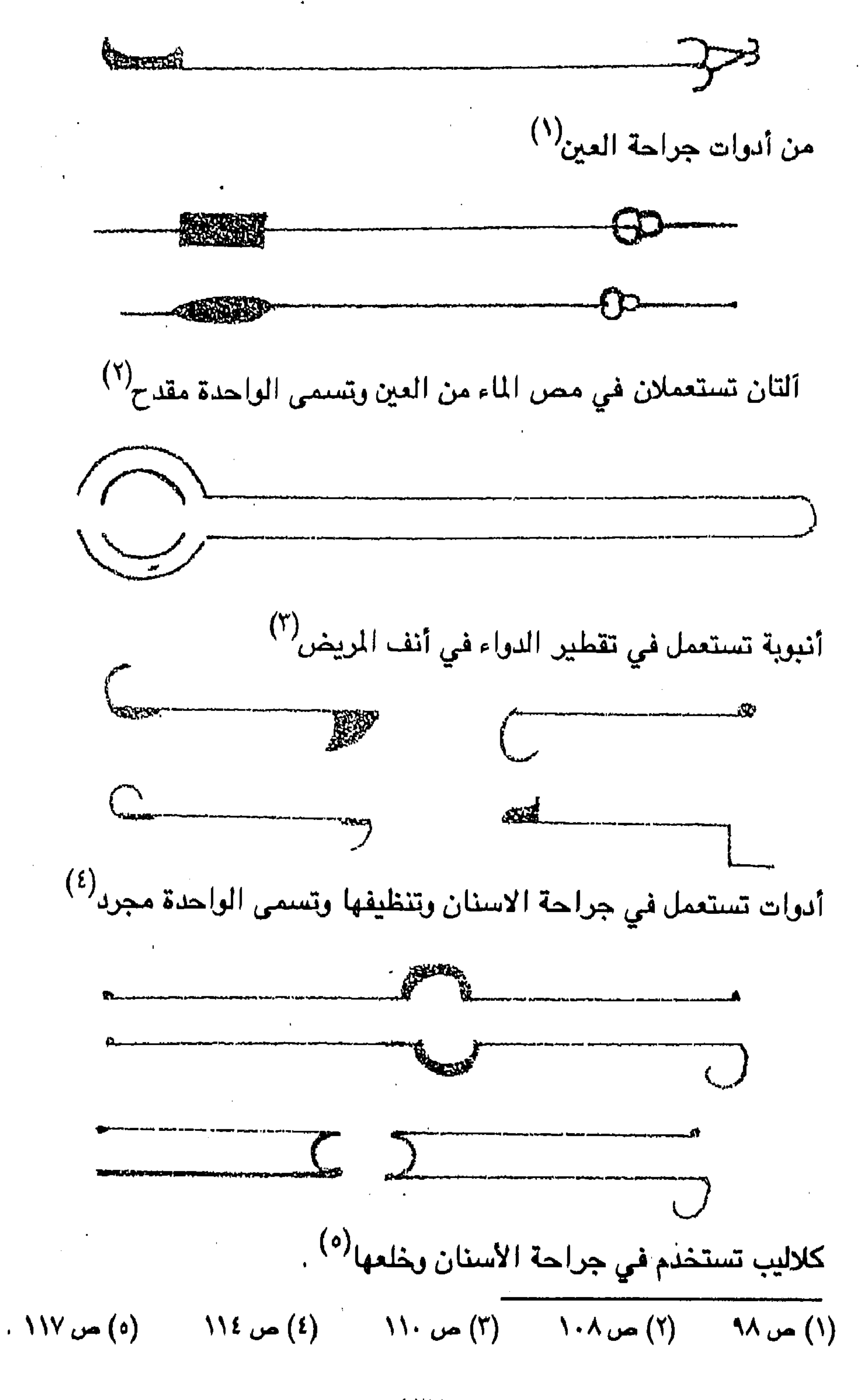
تستعمل هذه الأداة في إخراج ما يسقط في الأذن من الأشياء الصغيرة(٥)

أداة تستعمل في جراحة الأجفان وإزالة ما يزيد في الجفن من زوائد لحمية (٦)

أداة تستعمل في عمليات جراحة العيون(٧) .

---

(١) ص ٣٨ (٢) ص ٤٩ (٣) ص ٥١ (٤) ص ٧٠ .
(٥) ص ٨٠ (٦) ص ٩٠ (٧) ص ٩٧ .



من أدوات جراحة العين(١)

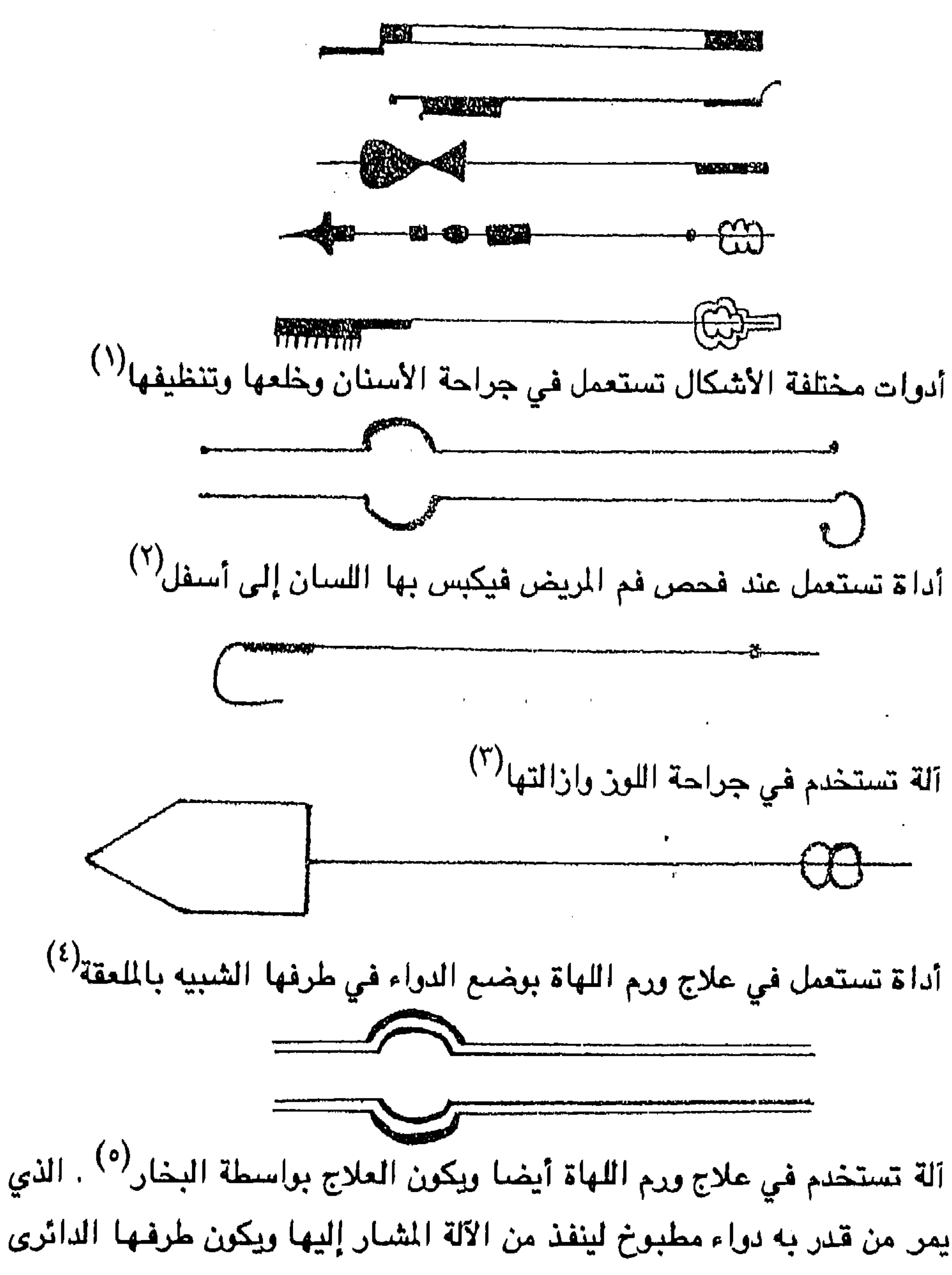
آلتان تستعملان في مص الماء من العين وتسمى الواحدة مقدح(٢)

أنبوبة تستعمل في تقطير الدواء في أنف المريض(٣)

أدوات تستعمل في جراحة الاسنان وتنظيفها وتسمى الواحدة مجرد(٤)

كلاليب تستخدم في جراحة الأسنان وخلعها(٥) .

(١) ص ٩٨ (٢) ص ١٠٨ (٣) ص ١١٠ (٤) ص ١١٤ (٥) ص ١١٧ .



أدوات مختلفة الأشكال تستعمل في جراحة الأسنان وخلعها وتنظيفها(١)

أداة تستعمل عند فحص فم المريض فيكبس بها اللسان إلى أسفل(٢)

آلة تستخدم في جراحة اللوز وازالتها(٣)

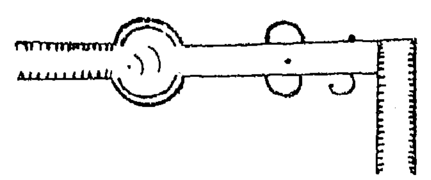
أداة تستعمل في علاج ورم اللهاة بوضع الدواء في طرفها الشبيه بالملعقة(٤)

آلة تستخدم في علاج ورم اللهاة أيضا ويكون العلاج بواسطة البخار(٥) . الذي يمر من قدر به دواء مطبوخ لينفذ من الآلة المشار إليها ويكون طرفها الدائرى في فم المريض حيث يتسرب البخار إلى اللهاة فيعمل على إزالتها .

---

(١) الأولى والثانية ص ١١٨ ، والثالثة ص ١١٩ ، الرابعة والخامسة ص ١٢٠.

(٢) ص ١٢٤ . (٣) ص ١٢٥ . (٤) ص ١٢٨ . (٥) ص ١٢٩



آلة جراحية تستخدم في إخراج ما يكون في الحلق من أشياء تسده ولطرفيها أسنان صغيرة بحيث تعلق بالشيء المراد وتتشبث به(١) .

آلتان تستعملان في جراحة الأورام وشقها(٢) .

هذه الأدوات تستخدم في جراحة الأورام وشقها ويطلق على واحدها صنارة(٣)

صنارتان ذاتا مخاطف متعددة لأغراض الجراحة(٤).

مشرط يستخدم في شق الجلد وسلخه وجراحة الأورام(٥) .

آلة تسمى مخدع وتستعمل في إزالة الأورام وسلخها(٦) .

أداة تسمى مبضع وتستعمل في بَطِّ الأورام(٧) .

---

(١) ص ١٣٢ (٢) ص ١٤٥ (٣) ص ١٤٧ (٤) ص ١٤٨

(٥) ص ١٤٨ (٦) ص ١٤٩ (٧) ص ١٥٠ .

آلتان تستخدمان في قطع نزف الدم ويسمى واحدها محجم[١] .

مقص يستخدم في عملية التطهير[٢] .

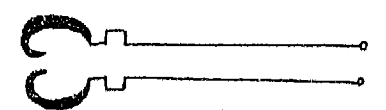
آلة تسمى المحقن ويحقن بها المثانة[٣] .

أداة تسمى مبضع وتستعمل في العمليات الجراحية المتعلقة بإخراج الحصى من المثانة[٤] .

آلة تسمى مشعب وتستعمل أيضا في إخراج الحصى من المثانة[٥] .

أداة تستخدم في تسهيل عملية الولادة وإخراج الجنين[٦] .

آلتان تسمى الواحدة منهما مبضع وتستعمل في علاج الولادة العسيرة[٧]



صورة محقن يستخدم في حقن المقعدة لمن يعتريه أمراض باطنية[٨] كالإسهال وغيره من آلام البطن.

---

(١) ص ١٥٠ ، (٢) ص ١٦٨ ، (٣) ص ١٧١ ، (٤) ص ١٧٤ ، (٥) ص ١٧٦ .
(٦) ص ٢٠٩ ، (٧) ص ٢٢٤ ، (٨) ص ٢٢٤ .

آلتان تستخدمان في قطع العظام وجراحتها(١) .

صورة مجرد تحدُّ به رؤوس المفاصل إذا فسدت(٢) .

صورة آلة تقطع بها العظام وتسمى مقطع(٣)

آلتان تستعملان في جذب السهام لمن أصيب بها(٤)

آلة تسمى المثقب تستخدم في ثقب العظام(٥)

أداة تستعمل في العمليات الجراحية المتعلقة بالولادة العسيرة وتسمى هذه الأداة مشداخ حيث يشدخ بها رأس الجنين(٦)

---

(١) ص ٢١٩ ، (٢) ص ٢٥٠ ، (٣) ص ٢٥١ ، (٤) ص ٢٧٨ ،
(٥) ص ٣٢٥ (٦) ص ٢١٠ .



قائمة
المصادر والمراجع

أ ـ المخطوطات :

ـ الأشبيلي ، محمد بن إبراهيم (من علماء القرن السادس الهجري)

١ ـ ريحانة الألباب وريعان الشباب ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط رقم (١٤٠٦) .

ـ الخشني ، محمد بن الحارث بن أسد (ت ٣٦١) .

٢ ـ تاريخ علماء الأندلس ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط ، رقم ٦٩١٦

ـ الربعي ، صاعد بن الحسن (ت تقريبا ٤١٠ هـ)

٣ ـ الفصوص ، مخطوط بمكتبة الخزانة العامة بالرباط . برقم ١٦٦٨،

الزهراوي ، خلف بن عباس (ت ٤٠٣ هـ)

٤ ـ التصريف لمن عجز عن التأليف ، الجزء الأخير ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط برقم ١٣٤ .

ـ ابن الصفار : أحمد بن عبدالله بن عمر (٤٢٦ هـ)

٥ ـ رسالة الإسطرلاب ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط برقم ٤٢٨٨ .

ـ القرطبي ، عريب بن سعد (من علماء القرن الرابع الهجري)

٦ ـ خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود . مخطوط بمكتبة الاسكوريال برقم (٨٣٣ ـ ٢) في مجموع .

ـ المجريطي ، مسلمة بن أحمد (ت ٣٩٨ هـ)

٧ ـ رتبة الحكيم ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط برقم ١٨٤٢ .

٨ ـ غاية الحكيم ، مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط برقم ٣٩٨ .

ب ـ المصادر المطبوعة :

ـ ابن الأبـــــار (ت ٦٥٨ هـ)

٩ ـ الحلة السيراء ، تحقيق وتعليق حسين مؤنس . الشركة العربية للطباعة والنشر . القاهرة . ط الأولى ، ١٩٦٣ م .

١٠ ـ التكملة لكتاب الصلة ، عنى بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٩٥٥ م .

ـ ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ)

١١ ـ الكامل في التاريخ . دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م .

ـ ابن الأزدي : (ت ٦١٣ هـ)

١٢ ـ بدائع البدائه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ملتزم الطبع والنشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، سبتمبر ١٩٧٠ م .

ـ الأصفهاني : (ت ٥٩٧ هـ)

١٣ ـ خريدة القصر وجريدة العصر . تحقيق عمر دسوقي وعلي عبدالعظيم . دار نهضة مصر للطبع والنشر ، مصر .

ـ ابن أبي أصيبعة : (ت ٦٦٨ هـ)

١٤ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق د . نزار رضا . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت ، ١٩٦٥ م .

ـ ابن الأنباري : (ت ٥٧٧ هـ)

١٥ ـ نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، تحقيق د . إبراهيم السامرائي . ساعدت جامعة بغداد على نشره . الناشر مكتبة بغداد . ط الثانية، ١٩٧٠ م .

- ابن بسام : (ت ٥٤٢ هـ)

١٦ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . القسم الأول المجلد الأول والثاني. القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . المجلد الأول ١٣٥٨ هـ والمجلد الثاني ١٣٦١ هـ . القسم الرابع ـ المجلد الأول . القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٤ هـ .

- ابن بشكوال : (ت ٥٧٨ هـ)

١٧ ـ الصلة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

- البغدادي : (١٣٣٩ هـ)

١٨ ـ هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين . طبع بعناية وكالة المعارف استانبول ١٩٥٥ م . منشورات مكتبة المثنى . بيروت

- البكري : (ت ٤٨٧ هـ)

١٩ ـ جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب « المسالك والممالك » لأبي عبيد البكري ، تحقيق د . عبدالرحمن الحجي . ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره . ط الأولى ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٨ م ، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت .

٢٠ ـ التنبيه على أوهام أبي على القالي في أماليه . راجعه وصححه محمد عبدالجواد الأصمعي ، دار الكتاب العربي . بيروت . مطبعة دار الكتب المصرية .

- ابن تغري بردى : (ت ٨٧٤ هـ)

٢١ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٤ ، ٥ طبعة مصورة عن مطبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر مطابع كوستاتسوماس وشركاه . مصر . القاهرة .

ـ التهانوي : (ت في القرن الثاني عشر الهجري)

٢٢ ـ كشاف اصطلاحات الفنون . تحقيق . د . لطفي عبد البديع ترجم النصوص الفارسية د . عبد النعيم محمد حسنين .

راجعه الأستاذ أمين الخولي . وزارة الثقافة والإرشاد القومي . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٣ م .

ـ الثعالبي : (ت ٤٢٩ هـ)

٢٣ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر . حققه وفصله وضبطه وشرحه . محمد محي الدين عبدالحميد. مطبعة السعادة. القاهرة . ط الثانية . ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م .

٢٤ ـ فقه اللغة . دار مكتبة الحياة . بيروت ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي . ط ١٣١٨ هـ .

ـ ابن الجزري : (ت ٨٣٣ هـ)

٢٥ ـ غاية النهاية في طبقات القراء . عني بنشره ج . برجستراسر . طبع لأول مرة بنفقة الناشر ومكتبة الخانجي بمصر سنة ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ م .

ـ ابن جلجل : (ت القرن الرابع)

٢٦ ـ طبقات الأطباء والحكماء . تحقيق فؤاد سيد أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية . القاهرة . ١٩٥٥ م .

ـ ابن الجوزي : (ت ٥٩٧ هـ)

٢٧ ـ ذم الهوى . تحقيق مصطفى عبد الواحد . مراجعة محمد الغزالي . دار الكتب الحديثة، مطبعة العادة. ط الأولى ١٣٨١ هـ .

ـ حاجي خليفة : (ت ١٠٦٧ هـ)

٢٨ ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . تقديم السيد شهاب الدين النجفي . أعادت طبعه بالاوفست .

ـ ابن حزم : (ت ٤٥٦ هـ)

٢٩ ـ جمهرة أنساب العرب . تحقيق وتعليق عبدالسلام هارون . دار المعارف بمصر . ط الثالثة ١٣٩١ هـ .

٣٠ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ دار المعرفة الخاصة للطباعة والنشر ، بيروت . ط الثانية . ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥م .

٣١ ـ طوق الحمامة في الألفة والألاف . حققه وصوبه وفهرس له . حسن كامل صيرفي . قدم له إبراهيم الابياري . مطبعة الاستقامة بالقاهرة . طبع ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤م .

ـ الحميدي : (ت ٤٨٨ هـ)

٣٢ ـ جذوة المقتبس . الدار المصرية للتأليف والترجمة . مطابع سجل العرب . القاهرة . ١٩٦٦م .

ـ الحميري : (جمعة سنة ٨٦٦ هـ)

٣٣ ـ صفة جزيرة الأندلس . منتخبه من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار . نشر وتصحيح وتعليق حواشيه ١ . ليفي بروفنسال . القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٣٧م .

ـ ابن حوقل : (من أهل القرن الرابع الهجري)

٣٤ ـ صورة الأرض . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت ، ١٩٧٩م .

ـ ابن حيان : (٤٦٩ هـ)

٣٥ ـ المقتبس . تحقيق د . محمود علي مكي . الناشر دار الكتاب العربي . بيروت ١٣٩٣هـ .

ـ المقتبس . تحقيق . د / عبدالرحمن الحجي . نشر وتوزيع دار الثقافة . مطبعة سميا . بيروت ، اغسطس ١٩٦٥ .

ـ المقتبس الجزء الخامس . نشره ب . فالميتا ، ف . كورنيطي ، م . صبح . المعهد الإسباني العربي للثقافة ـ مدريد ـ ١٩٧٩م . كلية الآداب بالرباط . .

ـ الخشـني : (ت ٣٦١ هـ)

٣٦ ـ قضاة قرطبة . الدر المصرية للتأليف والترجمة . مطابع سجل العرب . ١٩٦٦ م .

ـ الخطـيب : (ت ٤٦٣ هـ)

٣٧ ـ الرحلة في طلب الحديث . حققه وعلّق عليه نور الدين عتر ، يطلب من دار الكتب العلمية . بيروت ، ط الاولى ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م .

ـ ابن الخطيب : (ت ٧٧٦ هـ)

٣٨ ـ اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام . تحقيق وتعليق . أ . ليفي بروفنسال . بيروت . دار المكشوف . ط الثانية ١٩٥٦م .

٣٩ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة . حققه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبدالله عنان . ج ١ . ط الثانية ١٣٩٣ ـ ١٩٧٣م ، ج٢ ، ٣ط الأولى ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م . الناشر مكتبة الخانجي . القاهرة . الشركة المصرية للطباعة والنشر . القاهرة .

ـ ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ)

٤٠ ـ المقدمة . المكتبة التجارية الكبرى بمصر روجعت هذه الطبعة وقوبلت على عدة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء .

٤١ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر . دار العلم للملايين . لبنان . بيروت .

ـ ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ)

٤٢ ـ وفيات الأعيان . وأنباء أبناء الزمان حققه د. إحسان عباس . دار صادر . بيـــروت . ج ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م . ج ٥ ١٣٩٧هـ . المجلد السادس والسابع والثامن بدون تاريخ طبع .

ـ الخوارزمي : (ت ٣٨٧ هـ)

٤٣ ـ مفاتيح العلوم . تقديم وإعداد د . عبداللطيف محمد العبد . الناشر دار النهضة العربية . القاهرة . المطبعة الكمالية .

ـ ابن خير : (ت ٥٧٥ هـ)

٤٤ ـ فهرسة ماروه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف . منشورات دار الآفاق الجديدة . بيروت . ط الثانية ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩م .

ـ ابن دراج : (ت ٤٢١ هـ)

٤٥ ـ ديوان ابن دراج القسطلي . حققه وعلق عليه وقدم له د . محمود علي مكي . المكتب الإسلامي . ط الثانية ١٣٨٩ هـ .

ـ الذهبي : (ت ٧٤٨ هـ)

٤٦ ـ تذكرة الحفاظ . صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي تحت إعانة وزارة المعارف الهندية. دار إحياء التراث . (بدون طبعة) .

ـ الزبيدي : (ت ٣٧٩ هـ)

٤٧ ـ طبقات النحويين واللغويين . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر .

ـ ابن زيد : (ت ٨٧٠ هـ)

٤٨ ـ محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي . قدم له وعلق عليه الأمير شكيب أرسلان . منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت . مطبعة فؤاد بيان وشركاه ١٩٩٧م .

ـ السبكي : (ت ٧٧١ هـ)

٤٩ ـ طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق محمود محمد الطناحي ، عبدالفتاح محمد الحلو . ط الأولى ١٣٨٤ هـ . مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

ـ ابن سعيد : (ت ٦٨٥ هـ)

٥٠ ـ المغرب في حلي المغرب . تحقيق وتعليق د . شوقي ضيف . دار المعارف بمصر . ط الثانية ١٩٦٤م .

ـ السلفي : (ت ٥٧٦)

٥١ ـ أخبار تراجم أندلسية . مستخرجة من معجم السفر للسلفي . أعدها وحققها إحسان عباس . دار الثقافة لبنان . ط الثانية ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩م .

ـ ابن سيده : (ت ٤٥٨ هـ)

٥٢ ـ شرح مشكل شعر المتنبي . تحقيق محمد رضوان الدايه . دار المأمون للتراث . دمشق .

ـ السيوطـــي : (ت ٩١١ هـ)

٥٣ ـ تاريخ الخلفاء . تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد . مطبعة الفجالة الجديدة القاهرة . ط الرابعة ، ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م .

٥٤ ـ بغية الوعاة . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ط الأولى ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

ـ الصفـدي : (ت ٤٦٣ هـ)

٥٦ ـ الوافي بالوفيات . الطبعة الثانية باعتناء هلموت ريتر. المجلد الأول. ط ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦٢م . المجلد الثاني والثالث والرابع والخامس . ط الثانية باعتناء س . ريدرينغ . المجلد السادس باعتناء إحسان عباس الثامن باعتناء محمد يوسف نجم . التاسع باعتناء يوسف فان اس . دار النشر فرانزشتاينربفيسبادن .

ـ ابن عبد ربه : (ت ٣٢٨ هـ)

٥٧ ـ العقد الفـريد . المطبعة الأزهـرية المصرية. ط . الأولى ١٣٢١ هـ .

ـ ابن عذاري : (ت القرن السابع الهجري)

٥٨ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . تحقيق ومراجعة ج . س . كولان وليفي بروفنسال . دار الثقافة . بيروت .

ـ ابن العماد : (ت ١٠٨٩ هـ)

٥٩ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، منشورات دار الآفاق الجديدة. بيروت .

ـ الغزالي : (ت ٥٠٥ هـ)

٦٠ ـ إحياء علوم الدين . دار المعرفة للطباعة والنشر . بيروت .

ـ ابن فرحون : (ت ٧٩٩ هـ)

٦١ ـ الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب . تحقيق وتعليق د . محمد الأحمدي . دار التراث للطبع والنشر القاهرة . طبع بمطبعة النصر .

ـ ابن الفرضي : (ت ٤٠٣ هـ)

٦٢ ـ تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة . مطابع سجل العرب ١٩٦٦م . القاهرة .

ـ القالـــي : (ت ٣٥٦ هـ) .

٦٣ ـ الأمالي . دار الكتاب العربي . بيروت لبنان . (بدون طبعة) .

ـ ابن قتيبة : (ت ٧٧٦ هـ) .

٦٤ ـ المعارف . تصحيح وتعليق ومراجعة محمد اسماعيل الصاوي . دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط الثانية ١٣٩٠ هـ .

ـ القزويني : (ت ١٢٨٣م هـ) .

٦٥ ـ آثار البلاد وأخبار العباد . دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

ـ القفطي : (ت ٦٤٦ هـ).

٦٦ ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء . يطلب من مكتبة المثنى بغداد . ليبزج ١٩٠٣ م .

ـ القلقشندي : (ت ٨٢١ هـ) .

٦٧ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء . نسخة مصورة عن المطبعة الأميرية . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . القاهرة .

ـ ابن قنفذ :

٦٨ ـ الوفيات . تحقيق عادل نويهض . منشورات دار الآفاق الجديدة . بيروت . ط الثانية . ١٩٧٨ م .

ـ القيسي : (ت ٤٣٧ هـ) .

٦٩ ـ الإبانة عن معاني القراءات ، حققه وقدم له محيي الدين رمضان . دار المأمون للتراث . دمشق . ط الأولى ـ ١٣٩٩ هـ .

ـ ابن الكتاني : (كان حيا في القرن الرابع الهجري) .

٧٠ ـ كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس . تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة . بيروت . مطبعة سيما .

ـ الكتبي : (ت ٧٦٤ هـ) .

٧١ ـ فوات الوفيات . حققه وضبطه وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبدالحميد . مكتبة النهضة المصرية . مطبعة السعادة بمصر ١٩٥١ م .

ـ ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ) .

٧٢ ـ البداية والنهاية . مكتبة المعارف . بيروت . ط الأولى .

ـ المسعودي : (ت ٣٤٦ هـ)

٧٣ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد . ط الرابعة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م .

ـ المراكشي : (ت ٦٤٧ هـ)

٧٤ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق الأستاذ محمد العريان. مطابع شركة الأعلانات الشرقية . القاهرة ـ ١٣٨٣ هـ

ـ المقدسي : (ت ٣٨٠ هـ)

٧٥ ـ أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . طبع بمدينة ليدن . بمطبعة بريل سنة ١٩٠٩ م .

ـ المقري : أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١ هـ) .

٧٦ ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . تحقيق إحسان عباس . دار صادر . بيروت ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨ م .

ـ مؤلف مجهول :

٧٧ ـ أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم طبع بمدينة مجريط . بمطبعة ربدنير ١٨٦٧ م .

ـ ابن نباته : (ت ٧٦٨ هـ)

٧٨ ـ سرح العيون وشرح رسالة ابن زيدون . ملتزم الطبع والنشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر . ط الأولى ١٣٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م .

ـ النباهي : (كان حيا سنة ٧٩٣هـ)

٧٩ ـ تاريخ قضاة الأندلس . المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت .

ـ النويري : (ت ٧٣٣ هـ)

٨٠ ـ نهاية الأرب في فنون العرب . نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية . مطابع كوستاتسوماس وشركاه . القاهرة .

ـ ابن الوردي : (ت ٧٤٩ هـ)

٨١ ـ تاريخ ابن الوردي . إشراف وتحقيق أحمد رفعت البدراوي توزيع دار الباز للنشر والتوزيع مكة المكرمة . الناشر دار المعرفة . بيروت . ط الأولى ١٣٨٩هـ .

ـ ياقـــــوت : (ت ٦٢٦ هـ)

٨٢ ـ معجم البلدان . دار صادر . بيروت ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م .

٨٣ ـ معجم الأدباء . دار الفكر للطباعة والنشر . ط الثانية ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

جـ ـ المراجـــع الحديثـــة :

ـ إبراهيم الشريقي :

١ ـ التاريخ الإسلامي خلال ١٤ قرنا . مطابع شركة المدينة للطباعة والنشر . ط الأولى ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩م . جدة .

ـ إحسان عباس :

٢ ـ تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة . دار الثقافة . بيروت . ط الخامسة ١٩٧٨م .

ـ أحمد أمين :

٣ ـ ظهر الإسلام . ج ٣ ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة . ط الثالثة . ١٩٦٢م .

ـ أحمد حسن الزيات :

٤ ـ تاريخ الأدب العربي، دار الثقافة . بيروت. ط . السادسة والعشرون .

ـ أحمد عطية الله :

٥ ـ القاموس الإسلامي . مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . صدر في محرم ١٣٨٣هـ .

ـ أحمد علي ملا :

٦ ـ أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية. دار الفكر (بدون طبعه).

ـ أحمد مختار العبادي :

٧ ـ في تاريخ المغرب والأندلس . مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية . (بدون طبعه) .

ـ أحمد هيكل :

٨ ـ الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة . دار المعارف . القاهرة . ط السادسة ١٩٧١م .

ـ ارنولد وآخرون :

٩ ـ تراث الإسلام . عربه وعلق حواشيه جرجيس فتح الله . دار الطليعة. بيروت . ط الثانية ١٩٧٢م .

ـ اعتماد القصيري :

١٠ ـ فن التجليد عند المسلمين . الجمهورية العراقية وزارة الثقافة والإعلام . المؤسسة العامة للآثار والتراث بغداد . ١٩٧٩م .

ـ اغناطيوس كراتشكوفسكي :

١١ ـ تاريخ الأدب الجغرافي العربي . ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم. مراجعة ايفوربلياييف . اختارته الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٩٦٣م . القاهرة .

ـ آنخل جونثالث بالنثيا :

١٢ ـ تاريخ الفكر الأندلسي . ترجمة حسين مؤنس . ملتزم ـ الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية . القاهرة . ١٩٥٥م .

ـ أنور الرفاعـــي :

١٣ ـ الإنسان العربي والحضارة ، دار الفكر .

ـ أنيس القصولـي :

١٤ ـ الدولة الأموية في قرطبة ، طبع بالمطبعة العصرية بغداد ١٩٢٦م .

ـ جون . س . بادو وآخرون :

١٥ ـ عبقرية الحضارة العربية ينبوع النهضة ، ترجمة صلاح جلال وآخرون ، مطبعة معهد ماساتشو سيتي ، كمبردج ، لندن ، ١٩٧٨ م .

ـ جبرائيل جبّور :

١٦ ـ ابن عبدربه وعقده ، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ، ط الثانية ١٩٧٩م .

ـ جلال مظهر :

١٧ ـ حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي . الناشر مكتبة الخانجي . القاهرة ، دار مصر للطباعة .

١٨ ـ علوم المسلمين أساس التقدم العلمي الحديث ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠م .

ـ ج . س . كولان :

١٩ ـ « الأندلس » كتب دائرة المعارف الإسلامية . لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية . إبراهيم خورشيد ، عبدالحميد يونس ، حسن عثمان . دار الكتاب اللبناني ، بيروت . ط الأولى ١٩٨٠م .

ـ حسن إبراهيم حسن :

٢٠ ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي . مكتبة النهضة المصرية . مطبعة السنه المحمدية . القاهرة . ط الأولى ١٩٦٧م .

ـ حنا الفاخوري :

٢١ ـ تاريخ الأدب العربي . المطبعة البولسية . بيروت . لبنان (بدون طبعة).

ـ خالد الصوفي :

٢٢ ـ تاريخ العرب في إسبانيا (جمهورية بني جهور) . دمشق ١٩٥٩م .

ـ خيرالدين الزركلي :

٢٣ ـ الأعلام . دار العلم للملايين . بيروت . ط الرابعة ١٩٧٩م .

ـ روبرت بريفالت :

٢٤ ـ أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية . ترجمة أبو النصر الحسيني دار الكتب الحديثة ، شارع الجمهورية عابدين .

ـ روم لانـــــدو :

٢٥ ـ الإسلام والعرب، ترجمة منير بعلبكي . دار العلم للملايين . بيروت . ط الأولى .

ـ زكريا هاشم زكريا :

٢٦ ـ فضل الحضارة الإسلامية العربية على العالم . راجع هذا الكتاب وقدم له وأشرف على إخراجه محمد أحمد محمد المهدي دار نهضة مصر للطبع والنشر . القاهرة .

ـ زيغريد هونكه :

٢٧ ـ شمس العرب تسطع على الغرب ، تعريب فاروق بيضون ، وكمال دسوقي . راجعه ووضع حواشيه فاروق عيسى الخوري . منشورات المكتب التجاري . بيروت . الطبعة الثانية ١٩٦٩ م .

ـ سامي مكي العاني :

٢٨ ـ دراسات في الأدب الأندلسي . ساعدت الجامعة المستنصرية على نشره ، ١٩٧٨ م .

ـ ستانلي لين بول :

٢٩ ـ قصة العرب في إسبانيا، ترجمة علي الجارم. دار المعارف بمصر . ط التاسعة .

ـ سعيد عبد الفتاح عاشور :

٣٠ ـ أوروبا العصور الوسطى . ج ١ ، مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة. ط السادسة ١٩٧٥ م .

ـ السيد أحمد الهاشمي :

٣١ ـ جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب . أشرفت على تحقيقه وتصحيحه لجنة من الجامعيين منشورات مؤسسة المعارف. بيروت.

ـ سيد أمير علي :

٣٢ ـ مختصر تاريخ العرب . ترجمة عفيف البعلبكي ، دار العلم للملايين. بيروت . ط الثالثة ١٩٧٧ م .

ـ سيد حسين نصر :

٣٣ ـ العلوم في الإسلام . ترجمة مختار الجوهري . الدار العربية للكتاب. ليبيا . تونس ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .

ـ السيد عبدالعزيز سالم :

٣٤ ـ قرطبة حاضرة الخلافة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر . بيروت ، ١٩٧٢ م .

ـ شكيب ارسلان :

٣٥ ـ الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت .

ـ شوقي ضيف :

٣٦ ـ المدارس النحوية . دار المعارف . ط الثالثة . القاهرة .

ـ عباس العقاد :

٣٧ ـ أثر العرب في الحضارة الاوروبية . دار المعارف . ط الثانية . ١٩٦٣ م .

ـ عبدالحليم منتصر :

٣٨ ـ تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه . دار المعارف بمصر . مطبعة معهد دون بوسكو . الإسكندرية . ط الرابعة ١٩٧١ م

ـ عبدالرحمن بدوي :

٣٩ ـ دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . ط الثانية ١٩٦٧ م .

ـ عبدالرحمن الحجي :

٤٠ ـ التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة . ساعدت جامعة بغداد علي نشره . دار العلم . دمشق . بيروت . دار القلم ، الرياض الكويت . ط الأولى ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م .

- عبد الرحمن حميدة :

٤١ - ألأم الجغرافيين العرب. دار الفكر، ط الثانية ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م.

- عبدالكريم التواتي :

٤٢ - مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس . مكتبة الرشاد . الدار البيضاء . ط الاولى ١٩٦٧ م .

- عبداللطيف شرارة :

٤٣ - ابن حزم رائد الفكر العلمي . منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت .

- عز الدين فراج :

٤٤ - الطب الإسلامي . دار الفكر العربي . القاهرة .

- عمر رضا كحاله :

٤٥ - مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام . مطبعة الحجاز بدمشق ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

٤٦ - العلوم البحتة في العصور الإسلامية . مطبعة الترقي دمشق ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

- عمر فروخ :

٤٧ - تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين . بيروت ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

٤٨ - عبقرية العرب في العلم والفلسفة . ط الثالثة . بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

- علي أدهم :

٤٩ - منصور الأندلس . سلسلة أعلام الإسلام . مطابع الهيئة العامة للكتاب . القاهرة . ١٩٧٤ م .

ـ غرسيه غومس :

٥٠ ـ الشعر الأندلسي . ترجمة حسين مؤنس . مكتبة النهضة المصرية . ط . الثالثة ١٩٦٩ م . القاهرة .

ـ غوستاف لوبون :

٥١ ـ حضارة العرب . ترجمة عادل زعيتر . طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

ـ فرات فائق خطاب :

٥٢ ـ الكحالة عند العرب ، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة المكتبة الفلكلورية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٧٥ م .

ـ قدري طوقان :

٥٣ ـ تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، دار الشروق . بيروت . القاهرة .

٥٤ ـ الخالدون العرب ، دار القدس للطباعة والنشر والتوزيع . بيروت .

٥٥ ـ العلوم عند العرب ، دار مصر للطباعة . مطبوعات مكتبة مصر

ـ كارل بروكلمان :

٥٦ ـ تاريخ الأدب العربي . الأجزاء الثلاثة الأول والسادس ترجمة عبدالحليم النجار . والرابع والخامس ترجمة السيد يعقوب ورمضان عبدالتواب . دار المعارف ، ج ١ ط الرابعة ، ج ٢ ط الثالثة ج ٣ ط الرابعة ج ٤ ، ٥ ط الثانية ج ٦ طبعة ١٩٧٧ م .

ـ كرد علي :

٥٧ ـ الإسلام والحضارة العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٦٨ م .

ـ كمال اليازجي وانطوان غطاس :

٥٨ ـ أعلام الفلسفة العربية ، دار المكشوف ، مكتبة انطوان ولبنان . بيروت . ط الثالثة ١٩٦٨ م .

ـ لطفي عبد البديع :

٥٩ ـ الإسلام في إسبانيا . مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة . ط الاولى ١٩٥٨ م .

ـ لوثروب استوادرد :

٦٠ ـ حاضر العالم الإسلامي . ترجمة عجاج نويهض ، علق عليه الأمير شكيب ارسلان ، دار الفكر للطباعة والنشر . بيروت . القاهرة ، ط الرابعة ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٣ م .

ـ لويس يونـــغ :

٦١ ـ العرب وأوروبا ، ترجمة ميشيل ازرق. دار الطليعة للطباعة والنشر . بيروت .

ـ ليفي بروفنسال :

٦٢ ـ حضارة العرب في الأندلس ، ترجمة ذوقان قرقوط منشورات دار مكتبة الحياة . بيروت ، مطبعة النجوى . بيروت .

ـ محمد أبو زهرة :

٦٣ ـ ابن حزم . حياته وعصره . آراؤه وفقهه دار الفكر العربي ١٣٧٣ هـ ـ ١٩٥٤ م .

ـ محمد إسماعيل إبراهيم :

٦٤ ـ معجم الألفاظ والأعلام القرآنية . دار الفكر العربي القاهرة ، دار الهنا للطباعة .

ـ محمد الحسيني عبدالعزيز :

٦٥ ـ الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، وكالة المطبوعات . الكويت ١٩٧٣ م .

ـ محمد عبدالله عنان :

٦٦ ـ تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط الثانية ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠م .

٦٧ ـ دولة الإسلام في الأندلس ، عصر الخلافة والدولة العامرية ، مكتبة الخانجي بالقاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترحمة والنشر (ط الرابعة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م) .

ـ محمد الصادق عفيفي :

٦٨ ـ تطور الفكر العلمي عند المسلمين ، مكتبة الخانجي . القاهرة دار نافع للطباعة ١٩٧٦ م .

– محمد كرّو :

٦٩ ـ ابن هانيء الأندلسي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا . تونس . ط الثانية ١٩٧٧م.

ـ محمد ماهره حمادة :

٧٠ – المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ـ ومصائرها ، مؤسسة الرسالة . بيروت . الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م .

ـ محمد بن محمد مخلوف :

٧١ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . طبعة جديدة ـ بالاوفست عن الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ . المطبعة السلفية ومكتبتها على نفقة دار الكتاب العربي . بيروت ، دار الكتاب العربي . بيروت .

ـ نقـــــولا·زيـــــــادة :

٧٢ ـ لمحات من تاريخ العرب ، دار الكتاب اللبناني . بيروت ١٩٦١م .

ـ هـ . ج . ولـز :

٧٣ ـ معالم تاريخ الإنسانية . ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد . ط الثالثة ١٩٧٢م .

74 - Anwar . G . Chejne : Muslim Spain . Its History and Cuture . The University of Minnesota Press, Minnea Polis, 1973 .

75 - Titus Burckhardt : Moorish Culture in Spain . Translated by Alisa jaffa London, 1972 .

76 - Thomas Ballantine Irving : Falcon of Spain, Lahore, Pakistan, 1962 .

77 - Henri Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes : Espagne Et Afrique, Paris, ImprimerieNationale, 1896 .

د ـ الدوريـــات :

ـ بطرس البستاني :

١ ـ دائرة المعارف ، طبعة بيروت ١٨٧٦م .

ـ حسين مؤنس :

٢ ـ الجغرافية والجغرافيون في الاندلس . مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد . العدد الثالث ، ج ٧ ـ ٨ . ١٩٥٥م .

ـ خالد ناجي :

٣ ـ الزهراوي وعمليات الغدة الدرقية . مجلة المؤرخ العربي العدد السادس عشر ١٩٨١م . بغداد .

ـ خوليان ريميرا :

٤ ـ المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الاسلامية ، ترجمة جمال محمد محرز ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، المجلد الخامس الجزء الاول ذو القعدة ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩م .

ـ السيد عبدالعزيز سالم :

٥ ـ قرطبه في العصر الاسلامي ، مجلة المؤرخ العربي العدد الثالث عشر . بغداد .

ـ ضياء الدين الريس :

٦ ـ الكتب نقد وعرض (أحمد بن عمر بن انس العذري ـ نصوص عن الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الاثار والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك الى جميع الممالك . تحقيق عبدالعزيز الاهواني) . مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد . ج ١٣ ، ١٩٦٥م ـ ١٩٦٦م .

ـ عبدالله مبشر الطرازي :

٧ ـ علم الفلك والنجوم عند أهل الهند والسند واستفادة العرب منه ، المجلة العربية . السنه الرابعة . العدد الحادي عشر .

ـ عبدالعزيز بن عبدالله :

٨ ـ الفكر العلمي في المغرب الأقصى وتواكبه مع المسار الحضاري الحديث ، مجلة الدارة ، العدد الرابع . السنه الرابعه محرم ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٨م .

ـ عبدالعزيز بن عبدالله :

٩ ـ الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب . مجلة الدارة . العدد الثالث . السنه الخامسة . ربيع الثاني ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

ـ عبدالجليل الراشد :

١٠ ـ التقدم الفكري عند أهل الأندلس حتى عصر المرابطين المؤرخ العربي . العدد الثالث عشر . تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب . بغداد .

ـ علي عبدالله الدفاع :

١١ ـ إمام علماء المغرب في العلوم التطبيقية المجريطي ، مجلة الفيصل . العدد ٥٦ صفر ١٤٠٢هـ .

١٢ ـ الزهراوي الرائد الأول للجراحة ، مجلة الفيصل . العدد ٤٢ .

ـ عمر الدقاق :

١٣ ـ مغامرة العرب عبر بحر الظلمات . مجلة الفيصل . العدد ٤٦ . ربيع الثاني ١٤٠١هـ .

ـ محمد رضا عوضين :

١٤ صفحات من تراثنا الطبي . مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي . مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة . مكة المكرمة . العدد الأول ١٣٩٨هـ .

ـ محمد عبدالعزيز عثمان :

١٥ ـ المرأة العربية في الأندلس . المؤرخ العربي . العدد الثالث عشر . بغداد .

ـ مياس بياكروزا :

١٦ ـ نشر مخطوط ابن الصفار في كيفية العمل بالإسطرلاب ـ مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، العدد الثالث ، ج ١ ، ١٩٥٥م .

١٧ ـ المؤلفات الأولى عن الإسطرلاب في إسبانيا الإسلامية مجلد معهد الدراسات الإسلامية في مدريد . العدد الثالث ، ج ١ ، ١٩٥٥م .

ـ ي . أ . شاهين :

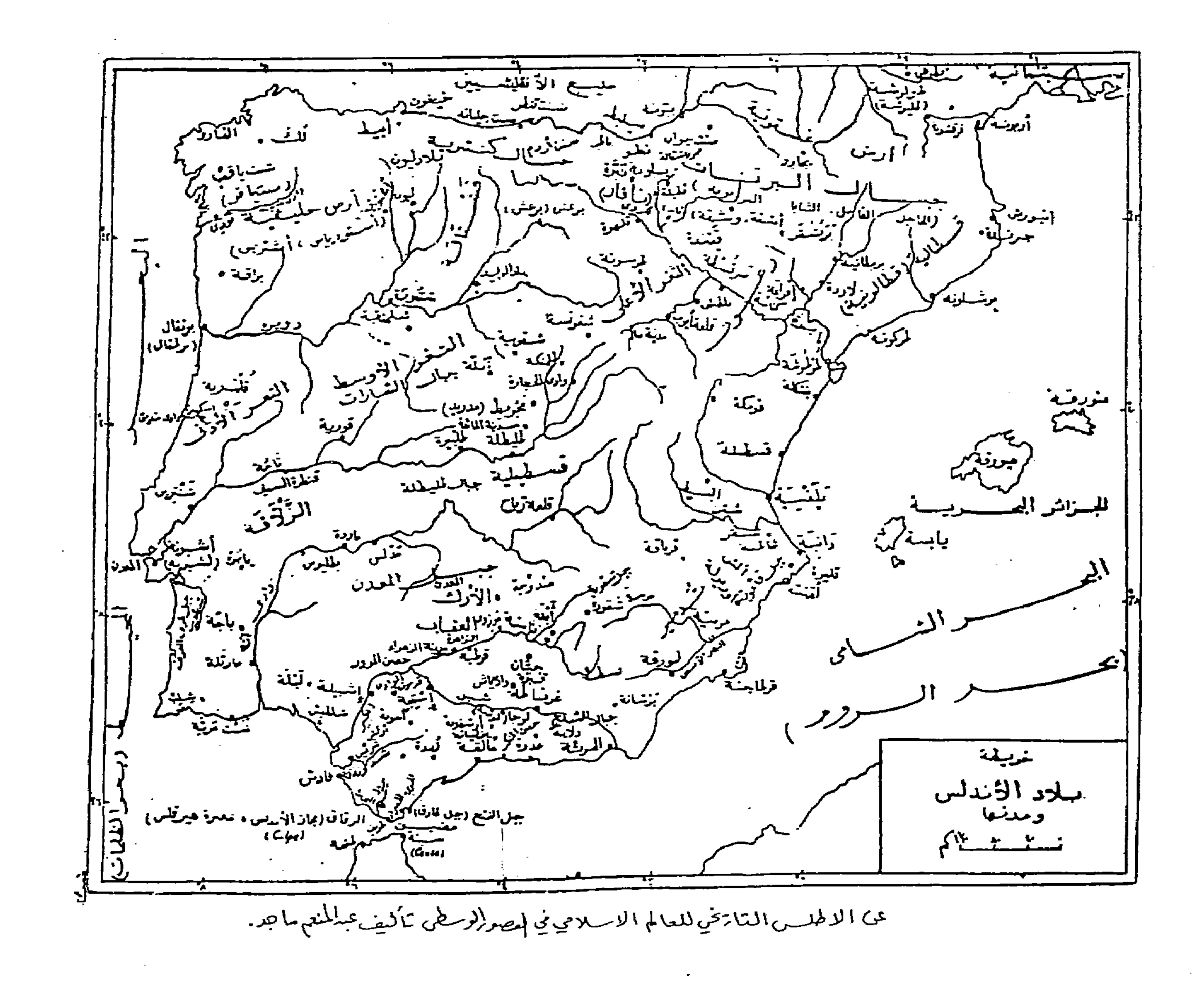
١٨ ـ أثر العرب في الطب . محاضرة القيت بجامعة اسكس ٤ نوفمبر ١٩٧١م .



الفهـــرس

تابع الفهــــرس

تابع الفهـــرس

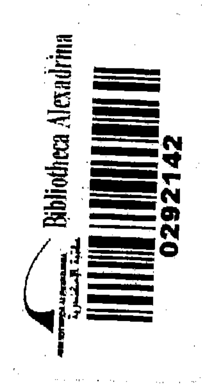


عن الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى تأليف عبدالمنعم ماجد.

مطابع جامعة أم القرى



مطابع جامعة أم القرى



ردمك ٨ ـ ١٤ ٠ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠